

إيسيسكو
ICESCO

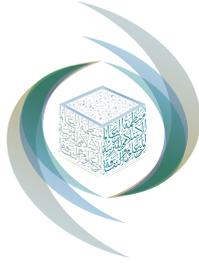
الأمم المتحدة للثقافة والعراقبة والعلم

دورية علمية محكمة تُصدرها

منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة

المجلد الأول - العدد الثاني

جمادى الآخرة 1446 / ديسمبر 2024



ايسيسكو
ICESCO

الأمم المتحدة للبحوث والدراسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

دورية علمية محكمة تُصدرها

منظمة العالم الإسلامي للدراسات والبحوث والثقافة

المجلد الأول - العدد الثاني

جمادى الآخرة 1446 / ديسمبر 2024

منشورات منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة
(إيسيسكو)

شارع الجيش الملكي، حي الرباط، ص. ب. 2275، ر. ب. 10104، الرباط، المملكة المغربية

المجلد الأول - العدد الثاني
جمادى الآخرة 1446 / ديسمبر 2024

© إيسيسكو
جميع حقوق إعادة الإنتاج والترجمة والاقتباس محفوظة

الرقم الدولي الموحد للدوريات الورقية (ISSN): 5726-3007
الرقم الدولي الموحد للدوريات الإلكترونية (E-ISSN): 5734-3007

التصميم والطباعة في الإيسيسكو

+212537566052 | www.icesco.org | contact@icesco.org

هيئة التحرير

المشرف العام

د. سالم بن محمد المالك
المدير العام لمنظمة العالم الإسلامي
للثريّة والعلوم والثقافة (إيسيسكو)

رئيس التحرير

أ.د. مجدي حاج إبراهيم

مدير التحرير

أ.م.د. أدهم محمد علي حموية

المحرر اللغوي

د. مهند عمر رنة

- أ.د. أحمد المتوكل
المملكة المغربية
- أ.د. رمزي البعلبكي
الجمهورية اللبنانية
- أ.د. سعد مصلوح
جمهورية مصر العربية
- أ.د. عبد السلام المسدي
الجمهورية التونسية
- أ.د. عبد العزيز الحري
المملكة العربية السعودية
- أ.د. محمد حسين آل ياسين
جمهورية العراق
- أ.د. محمد عدنان البخيت
المملكة الأردنية الهاشمية
- أ.د. مسعود صحراوي
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
- أ.د. وليد القصاب
الجمهورية العربية السورية
- أ.د. أون يون كيونغ (نبيلة)
جمهورية كوريا
- أ.د. رحمة أحمد الحاج عثمان
ماليزيا
- أ.د. محمد طالب الحوري
الولايات المتحدة الأمريكية
- أ.د. نيكولاس روزر نبوت
مملكة إسبانيا

الهيئة الاستشارية

“مجلة الإيسيسكو للغة العربية” دورية علمية محكمة للبحوث في اللغة العربية وآدابها وعلومها، تُصدرها منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، في شهري يونيو وديسمبر (حزيران وكانون الأول) من كل عام، وبشتمل نطاقها على محورين لبحوث اللغة العربية وآدابها وعلومها:

- المحور النظري، وبضمُّ البحوث اللسانية والأدبية والنقدية.
- المحور التطبيقي، وبضمُّ البحوث التعليمية والترجمية والحوسبية.

لا تمثل آراء الكتاب بالضرورة توجهات منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)

مراسلة المجلة

مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها

منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة

(إيسيسكو)

شارع الجيش الملكي، حي الرياض، ص.ب. 2275، ر.ب. 10104

الرباط، المملكة المغربية

www.ijal.icesco.org || ijal@icesco.org

ضوابط النشر

- أن يتسم البحث بالجدّة والموضوعيّة والرّصانة العلميّة.
- ألا يكون البحث منشورًا أو مقدّمًا للنشر في أيّ وعاءٍ علميٍّ آخر.
- ألا تتجاوز نسبة الاقتباس في البحث 30% (مع استثناء المصادر والمراجع).
- أن يكون عدد كلمات البحث ما بين 5000-7000 كلمة؛ إضافة إلى ملخص للبحث كلمائه ما بين 200-300 كلمة، وترجمته إلى الإنجليزية.
- أن يكون التوثيق بطريقة الحواشي في كل صفحة، وتُدرج أرقامها بعد علامات الترقيم في المتن، والترقيم جديد لكل صفحة.
- أن يكون التوثيق وفق نظام شيكاغو Chicago.
- أن تُضاف قائمة للمصادر والمراجع مكنوبة بالحروف اللاتينية.
- أن تُرسل البحوث من خلال إنشاء حساب في موقع المجلة (ijal.icesco.org).



لإرسال البحوث والاطلاع على كل جديد

بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

إثر صدور العدد الأول من "مجلة الإيسيسكو للغة العربية"، تساءل بعضُ الباحثين عن دواعي التنوع الذي اعتُمد لبحوث المجلة ما بين نظرية وتطبيقية، وما يندرج تحتهما من تخصصات فرعية دقيقة، وأن المجلة لم يختصَّ نطاقها بمجال بحثي واحد، كأن تكون مجلةً للسانيات التطبيقية، أو لتعليم العربية لغةً أجنبيةً.

ولربما يكون الجواب الأقرب أن ذلك كان رعايةً للتنوع التربوي والعلمي والثقافي الذي تعنى به منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، في مشاريعها وبرامجها، ويشمل دَوْلها الأعضاء وغيرها، وهذا من وُكْدِ الحال، ولا مُشاحّة فيه، أما الجواب الأبعد فهو أن ذلك كان رعايةً لهويّة باحثي اللغة العربية الذين تستهدفهم المجلة؛ كتَبَةً وقَرَاءَةً، فإن اللغة العربية التي يبحثون فيها تحفظ لهم وتعزز هويّتهم التي بها تُعرف حقيقتهم؛ لأنها تُنبئ عن أفكارهم ورؤاهم وتاريخهم وفلسفتهم، ولو أردنا تبئُّن مكانة اللغة العربية في ذلك؛ فحسبنا أن نظرنا إلى الإبداع البحثي في اللغة العربية، وما صار إليه من لزوم التكامل بينَ معارف دقيقة تنتمي إلى تخصصات علمية متنوّعة مستقلةً موضوعياً ومنهجياً عن غيرها.

وتأتي العلوم اللسانية في مقدِّمة تلك المعارف، وذلك أن استيعاب العلوم وفهْمها والتمييز فيها لا يتيسَّر إلا باستعمال اللغة أيّاً كانت، مما يشي بأن الحفاظ على حيوية العربية عبرَ اتصالها بتطوّرات العلم وإنجازاته؛ مسألةً علميةً نشأت أساساً من ارتباط اللغة بالتفكير، فالعلم تفكير، واللغة تعبير عنه، وقد كانت اللسانيات المنشط الرئيس في سياق ذلك الارتباط، ولا سيما أنها أحدثت تحوُّلات عميقة في المشهد المعرفي العالمي حين تداخلت مع علومٍ أخرى، وأنتجت تخصصات اللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات الحاسوبية... إلخ.

ثم تأتي العلوم التربوية من حيثُ علاقتها بتعليم اللغة العربية وتعلُّمها، وهي علوم تتداخلُ أيضاً مع علومٍ أخرى إنسانية، من مثل علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد،

لنتيج مركبات إضافية يُمثّل كلٌّ منها علمًا قائمًا بنفسه؛ أي علم النفس التربوي، وعلم الاجتماع التربوي، وعلم الاقتصاد التربوي.

ولا بُدَّ من أن يُيدي باحثو اللغة العربية اهتمامًا بالعلوم الطبية العصبية التي تبحث في الدماغ البشري ومرتبطاته التي لا يُعلم من حقائقها إلا قليل، ولا سيّما أن البحوث الحديثة تُشير إلى أن قدرات الدماغ البشري أكبر بكثير مما نتوقع، وحسبنا دليلاً ما أثبتته هذه البحوث؛ أنّ تعلم اللغات يؤثر تأثيراً ملحوظاً على نشاط الدماغ؛ إذ يرفع من معدّل ذكاء الفرد، ويقي من بعض الأمراض.

وللعلوم الإدارية مكانتها في بحوث اللغة العربية، فالبحث العلمي ميدان من الميادين الإستراتيجية بالنسبة إلى الدول والمؤسسات الكبرى، ولما كانت اللغة قدرةً تُمكن من الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها؛ كان البحث فيها من أبرز أسس بناء المجتمع وتنويره وتنميته، وهذا ما ثبتت للغة العربية من قبل في العصور الإسلامية الذهبية التي عرّفت المجتمعات في أثنائها خطأً هيئات لقيام مجتمع المعرفة آنذاك، ومن ثمّ ليست العربية بعاجزة عن أن تُحقّق اليوم ما حقّقته الأمس ما دامت الموارد نفسها متوفرة، ولكن يُحتاج في تحقيق التنمية الحديثة إلى مزيد تخطيط إداري يشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية من خلال سياسة لغوية مبنية على قراءة مُتأنيّة في تاريخ مجتمعات العالم الإسلامي، واستشراقٍ مُواكبٍ مجتمَع المعرفة في القرن الحادي والعشرين.

وتبقى العلوم التقانية التي تُمثّل رُوحَ هذا العصر، فقد فرّضت نفسها وسيطاً لا بُدَّ منه في ميادين التواصل البشري كلّها، وكذا في الميادين النفعية غير التواصلية، مما يُنبئ بالتغيرات الجذرية التي سيحدثها الاستثمار التقاني، وبخاصة في البحث العلمي، وينبغي للعربية - لأنها لغة عالمية - أن تكون أسبق من غيرها إلى عالم التقانة، وأن تكون مواكبةً التطور الحضاريّ والعلمي، وليس هذا ببعيدٍ ما دامت تملك خصائص تُؤهلها لتلج مجتمَع الصناعة اللغوية العالمية، وتتخذ مكانتها التي تليق بها في مجتمَع المعرفة، وإذ مثّلت الفكر البشري في أزهى صوره في يوم من الأيام، فلن تعجز عن أن تُمثّل أبرز ما أنتجه هذا الفكر اليوم؛ أي الذكاء الاصطناعي.

وهناك علومٌ أُخرٌ من مثلِ الفلسفة والنقد والتاريخ والترجمة، تتكاملُ مع ما سَبَقَ؛ لتؤسِّسَ جميعًا للإبداع البحثي في اللغة العربية، وتصوغ هوية الباحث فيها؛ لأن اللغة هي المؤثر الأول في الإبداع.

وَفَقَّ هذه الرؤية اعتمد لبحوث هذه المجلة أن تكون متنوّعة، فلا يقتصر نطاقها على مجال بحثي واحد، بل يجمع عدّة معارف وتخصّصات تتكامل لتبرز الإبداع البحثي في اللغة العربية، وسيرى قارئنا الكريم هذا في العدد الثاني من "مجلة الإيسيسكو للغة العربيّة"، فإن عشرة بحوثه مُندرجة في ذلك السلك - سلكِ التكامل المعرفي - من حيثيتين؛ المادة التي استمدّها، والموضوعات التي عالجتها.

فقد استهلَّ هذا العدد الثاني بالمشاركة الأثنوية الوحيدة فيه؛ بحثٍ يقَدِّم قراءة معرفية لحضور الأنتى في الفكر النحوي العربي، من أجل الوصول إلى حقيقة نظرة العرب - حاملي اللغة ومُنتجها الأول - إلى المؤنَّث، وبيان أن اللغة العربية - عبرَ قواعدها - أنصفتِ الأنتى، ولم تتجاهلها، فوظفت لها صياغاتٍ تحاطبها بها، مما يدحض كلَّ الادِّعاءات المتعلقة بذكورية اللغة، وذلك من منطلق أن اللغة مرآة الفكر، وأن ما فيها من ظواهر، لا بدَّ لها من أن تكون متّصلة بالملايسات النفسية والاجتماعية الحاضرة آنَ تقعيد اللغة.

وتلك قضيةٌ خاصّةٌ من قضايا المسألة اللغوية ناقشها البحثُ الأول، في حين أشار البحثان الثاني والثالث إلى قضايا عامّةٍ من مثلِ التعدّد اللغوي، والازدواجية اللغوية، واللغة الجامعة، واللغة الأمّ، واللغة الوطنية، واللغة الأجنبية، والأمن الثقافي، والهوية، والوحدة الوطنية، وقد تميّز البحثان بمقاربتهما موضوعَ السياسة والتخطيط اللغوي؛ إذ استمدَّ أحدهما تلك القضايا في تحرّيه المكانة التي ينهض بها ترسيمُ العربية لغةً جامعةً في سبيل تحقيق الأمن الثقافي في البلاد العربية، وذلك أن اللغة أداةٌ توحيدٍ للمجتمع؛ لِمَا تنهض به من مكانة تواصلية وثقافية ومعرفية وتاريخية وحضارية، تضمن تراثه وتماسكه وانسجامه واستمراره، أما البحث الآخر فنقاشَ موضوع العلم في اللغتين الإنجليزية والعربية ومستقبل التعليم والبحث العلمي والثقافة فيهما، مُؤكِّدًا الحاجة المستمرة إلى لغةٍ عالميةٍ من أجل ذلك، وأنه ما اضطلعت به الإنكليزية حتى بات

تأثيرها بالغا في التربية والعلوم والثقافة، ومُنَبِّها إلى أن ذلك التأثير لا يعني التخلّي عن استعمال اللغة العربية مُطلقاً، بل يستدعي عمليتي الترجمة والتعريب، لتتخذ اللغة العربية مكانتها عاملاً أدائياً يسير بالتوازي مع اللغة المشتركة عملياً، أي الإنكليزية.

ثم كان بحثٌ رابعٌ مهمٌّ ناقشَ نَسَقَ النقد المعرفي، مُستعرضاً ما يكتسبه الحديث عن هذا النقد، وآفاقه الاستشراافية، وإشكالاته الفكرية، وإنجازاته المنهجية؛ من مكانة معرفية ودينية وحضارية وسلوكية، وإشكالية تتعلق بقدسية النص وقيّمته وفرادته ومظهره الثقافي والحضاري، لأنه مُرتبط أساساً بإشكالات القراءات الفلسفية للنص، انطلاقاً من أن الرؤية الإسلامية تستدعي نُظماً تشريعية وصيغاً إنسانية ذات فرادة حضارية، ترسم مبادئ فكرية وطرائق عملية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتّجه نحو الإنسان، والمتّمسك في العبودية، والاستخلاف، والتمكين، والتكريم، والتكليف.

والبحت الخامس بحثٌ ماتعٌ في بابِه؛ إذ عني بالكشف عن طُفرة أندلسية في علم إعراب القرآن الكريم وفنّ المثلثات اللغوية، اضطلع بها الإمام أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ، فهو أوّل من ألف مؤلّفاً جامعاً في المثلثات اللغوية القرآنية، مما يشي بنموغ المغاربة في التأليف، وابتكارهم المباحث الطريفة، ومجاورتهم مَنْ قبلهم شكلاً ومضموناً، وبهذا البحث خُتم المحور النظري لبحوث هذا العدد الثاني من المجلّة.

ثمّ صُدِرَ المحور الثاني التطبيقي ببحثين قيّمين يندرجان في باب تحليل الخطاب؛ خطاب ديني في الأول، وخطاب أدبي في الثاني، فالبحث السادس عالج بنية التكرير في أشهر خطبة من حُطَب الرسول الكريم ﷺ؛ خطبة الوداع، مُبيّناً أن عمليات التلقّي في الخطاب الشريف للنبي ﷺ تتميّز من غيرها بالاستمرارية، فهي آنيّة ومتجدّدة في آنٍ معاً؛ آنيّة بحُكم عمليات التلقّي الأول الذي كان من الصحابة بيّن يديه الشريفتين آنذاك، وهي متجدّدة بحُكم أن عمليات التلقّي لم تنصرف إلى الصحابة وحدهم، بل شملت كذلك كلّ مَنْ بلّغته دعوة الإسلام في أيّ زمان ومكان، والبحث السابع عالج شعريّة التناوب الأسلوبي في واحدةٍ من عيون الشعر العربي الحديث، هي "القصيدة الدمشقية" للشاعر نزار قباني، وتبيّن له أنها تقوم على تنوع

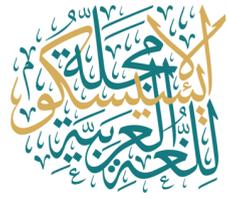
وغنى في معانيها وانفعالاتها وموسيقاها، ورؤية شعرية أساسها تجذُر الانتماء إلى دمشق ومرموزها الحضاري، وتمجيده، والحنينُ إليها.

وتميّز البحث الثامن بسبب العلاقة بين الترجمة وتعليم العربية لغةً أجنبيةً، فناقش جدوى توظيف الترجمة التحريرية من التركية إلى العربية في تحسين الكفاية اللغوية العربية للطلاب الأتراك، واستعرض بعض الأمثلة وفق منهجي التحليل التقابلي وتحليل الأخطاء، تدعم اتخاذ الترجمة إستراتيجية لاكتساب اللغة العربية.

وتابع البحث التاسع في موضوع تعليم اللغات، ولكن من منظور ما أحدثته الذكاء الاصطناعي من ثورة في طريقة التعليم والتعلم عبر الانتقال من تجارب التعلم الشخصية إلى أنظمة التعليم الذكية، فركز هذا البحث على واقع استعمال تطبيقات الذكاء الاصطناعي في التعليم الإلكتروني الحديث بعامة، وقد أجاد البحث في استعراض كيفية الاستفادة من أحد تلك التطبيقات في تعليم اللغات وتعلمها نظرياً وتطبيقياً.

ومسكُ الختام كان البحث العاشر الذي ناقش كذلك إمكانية توظيف إحدى تقنيات الذكاء الاصطناعي، وهي تقنية التعرف الضوئي على النصوص (OCR)؛ توظيفها في التعرف على المخطوط العربي القديم، وسُبل استعمالها في محاكاة مهمة المحقق البشري في نسخ المخطوط، وتحويله إلى الصيغة الرقمية القابلة للتحكم فيها، ومن ثم شجع البحث على اعتماد تلك التقنية في المشروعات القومية لرقمنة تراث العالم الإسلامي الممتد من الوثائق والمخطوطات العربية.

ولعلّ في هذا العرض ما يؤكد أن في الإبداع البحثي في اللغة العربية حفظاً وتعزيزاً لهوية الباحثين جميعاً، وإن "مجلّة الإيسيسكو للغة العربية" لتسعدُ دومًا بإبداعاتكم البحثية، وتدعوكم إلى متابعة موقعها الحاسوبي، والتسجيل فيه، ليصل إليكم كلُّ جديد، ونستقبل منكم كلَّ رصين، وفي الختام؛ الحمدُ لله الذي يسرّ وأعان، والسَّلَام.



	الأثنى في الفكرِ النَّحويِّ العربيِّ: قراءةٌ معرفيَّةٌ
9 مريم بيد الله علي الحجازي، محمد صالح بوبركة
	حصولُ الأَمَنِ الثَّقافيِّ رهينُ اعتمادِ اللُّغةِ الجامعةِ
37 أحمد العلوي العبدلاوي
	العلمُ في اللُّغتينِ الإنكليزيَّةِ والعربيَّةِ ومُستقبلُ التَّعليمِ والبحثِ العلميِّ والثَّقافةِ فيهما
53 شفيق بنات، فؤاد عبد المطلب
	نَسَقُ التَّقديِّ المعرفيِّ: من النَّصيِّةِ إلى التَّأويليَّةِ
93 محمد سالم سعد الله
	أبو جعفر الرُّعيُّنيُّ الغرناطيُّ أَوَّلُ مَنْ أَلَّفَ في المثلثاتِ اللُّغويَّةِ القرآنيَّةِ:
	بحثٌ في معالمِ الصَّنعةِ والتَّفَرُّدِ والجِدَّةِ
115 محمد ابن سفاج
	بنيَّةُ التَّكريرِ في الخطابِ النَّبويِّ: خطبةُ الوداعِ أُنموذجًا
167 مصطفى قنبر
	شعريَّةُ التَّنابُؤِ الأُسُلويِّ في "القصيدَةِ الدِّمشقيَّةِ" لنزار قَبَّاني
197 محمد فلفل
	إشكالاتُ التَّرجمَةِ من التَّركيبةِ إلى العربيَّةِ لدى الطُّلابِ الأتراكِ: دراسةٌ تقابليَّةٌ
217 هاني إسماعيل رمضان
	تطبيقُ الذِّكاءِ الاصطناعيِّ في تعليمِ اللُّغاتِ وتعلُّمِها:
	برنامجُ (QuestionWell.org) أُنموذجًا
237 محمد صبري شهرير
	التَّعرُّفُ الصَّوئيُّ على المخطوطِ العربيِّ واقعهُ وتحدياتُه: تقنيَّةُ (OCR-RDI) أُنموذجًا
259 حسين البسومي، محسن رشوان، ياسر السيد



الأُنثى في الفكرِ النَّحويِّ العربيِّ قراءةٌ معرفيَّةٌ

مريم بيد الله علي الحجازي*، محمد صالح بوبركة**

مُلخَص

يناقش هذا البحث ظواهر لغوية متصلة بالجنس الأنثوي، ومكانتها في إنتاج الدلالة القواعدية للغة، للوصول إلى حقيقة نظرة العرب - حاملي اللغة ومُنتجها الأول - إلى المؤنث، فاللغة في تكوينها الأنثوي مثلت مرآة الفكر العاكسة إياه، وهي ظاهرة نفسية واجتماعية لا تنفصل عن مُنتجها، وقد توصلَ البحث إلى نتائج عدة، منها انعكاس صورة الأنثى في بعض الظواهر النحوية، وأنها تحمل في جذرها معاني الرقة واللين، وتؤدّي معاني الخصب والنماء، وتبيّن عبّر آراء بعض العلماء وتفسيراتهم الظواهر النحوية، أُنهم يقطعون الصلة بين اللغة والحياة، فيفسّرون اللغة من داخلها، من دون أن يُولوا عناية بالظروف الخارجية؛ النفسية والاجتماعية وغيرها، لذا لم تصل إلينا الصورة الكاملة عن الأنثى في الفكر العربي حين صُوغ القواعد وتفسيرها، على أن اللغة العربية عبّر قواعدها، أنصفت الأنثى، ولم تتجاهلها، فوظفت لها صياغات تخاطبها بها، من منطلق أن اللغة مرآة تعكس الفكر، وما فيها من ظواهر، لا بدّ لها من أن تكون متصلة بالملايسات النفسية والاجتماعية الحاضرة آنّ تععيد اللغة.

الكلمات الرئيسية: اللغة، الفكر، الأنثى، الفكر النحوي، اللغة العربية، الظواهر النحوية

* أستاذة مشاركة متخصصة في النحو والدلالة، كلية التربية، جامعة بنغازي، دولة ليبيا، m_alhgeze8@yahoo.com

** محاضر في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة طبرق، دولة ليبيا، mohamad.abraham@tu.edu.ly



The Feminine in Arabic Grammatical Thought An Epistemological Review

Maryaim Beedallah Alhejazi^{*}, Mouhammed Saleh Bubarakh^{**}

Abstract

This study explores certain linguistic phenomena related to the feminine and its role in generating grammatical meaning in Arabic. It seeks to uncover the Arab perception of femininity as the original speakers of the language and its originators. The feminine structure, in language, allows it to become a mirror that lays the thought of its native speakers bare, making of this unintended disclosure a psychological and social phenomenon that's inextricably tied to them. This study reveals that the image of femininity is reflected in some grammatical phenomena, carrying with it entrenched connotations of gentleness, tenderness, fertility, and growth. However, some linguistic scholars, through their interpretations of linguistic phenomena, disconnect language from life, and explain it from a purely intrinsic viewpoint, depriving it of any interaction with external factors, such as psychological and social circumstances. This approach typically results in an incomplete understanding of the feminine in Arabic thought during the codification of grammatical rules. Despite this, Arabic grammar treated the feminine fairly, offering specific structures to address the Her, reaffirming the language's role as a reflection of thought, and that the linguistic phenomena exhibited within it are inextricable from the psychological and social contexts contemporary to the time that language was codified.

Keywords: *Language, thought, feminine, grammatical thought, Arabic language, grammatical phenomena*

^{*} Associate Professor of Syntax and Semantics, Faculty of Education, University Benghazi, Libya, m_alhegaze8@yahoo.com.

^{**} Lecturer at the Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Tobruk University, Libya, mohamad.abraham@tu.edu.ly.

مُقَدِّمَةٌ

اللغة - بوصفها حاملةً الفكر وعاكسةً الضمير الجمعي للأمة - مدخلٌ رئيس للدراسات الاجتماعية والإنسانية، فلا يمكننا دراسة فكر أمةٍ في عصور ماضية إلا بالنظر إلى لغتها؛ إذ تعكس مفاهيم تلك الأمة وتصوراتها عن العالم، وهي محصلة خبرات الشعوب، وإن الأمة العربية نضجت لغتها، ووصلت إلى أعلى مستويات البيان فصاحةً وبلاغةً، مما جعلها تُكْرَم بنزول آخر الكتب السماوية بها، وهو ما أضفى عليها شيئاً من القداسة، فانصرفت إليها عقول العلماء وأقلامهم بالتأليف والتفسير.

ويناقش هذا البحث ظاهرة التأنيث في اللغة العربية، من أجل بيان تعاملها العربية مع الظواهر الفرعية المتعلقة بها، وآراء العلماء فيها، وذلك بالاحتكام إلى العربية نفسها مهما كانت التفسيرات الموروثة عن العلماء، فإنهم متأثرون بموروثاتهم الاجتماعية والنفسية وما يحيط بهم من ظروف، ولا يعني هذا عناية البحث بقضية الجنوسة (Genderism) في اللغة، التي باتت اليوم موضوعاً جذاباً رائعاً، بل يسعى البحث إلى استنطاق الموروث اللغوي الضخم الذي يعكس فكر صاحبه، من أجل استجلاء صورة الأُنثى في اللغة العربية، ومن ثم الإجابة عن أسئلة من قبيل:

- كيف نَظَرَتِ اللغة العربية إلى الأُنثى؟ وما أبرز الظواهر التي عنيت بها اللغة العربية لتعكس منظورها في التصورات والمفاهيم الفكرية لمستعمليها؟
- هل حَدَثَ حقاً استلاب للأُنثى في اللغة العربية، أو كان هذا الاستلاب ممن استعملوا اللغة العربية محاولين صوغها وفق تصوراتهم؟
- كيف فُسِّرَتِ الظواهر اللغوية المتصلة بالأُنثى عند العلماء الأوائل؟
- هل تجاهلت اللغة العربية الأُنثى، أو حاول مُدَوِّنُو اللغة العربية وسدنتها طمسَ التاريخ اللغوي الأُنثوي؟

ومثلُ هذا النقاش يستبطن تاريخاً يلزم فكُّ رموزه، لمعرفة ما كان يفكر به العربي عندما أنتج لغته، وتفسيره إياها فيما بعد، وإن استعمال المناهج ذات البُعد النفسي

الاجتماعي في تفسير تلك المراحل اللغوية؛ يضيء لنا مساحة أخرى تعيد إلى اللغة العربية شخصيتها، أي ينقلها من أنها رموز دالة على مدلولات، إلى أنها وعاء حامل ثقافة أمة عبر العصور، يعكس استعمالات متحدثيها من دون إجحاف.

صورة الأثنى في الموروث الثقافي العربي

عندما نتحدث عن الأثنى في تكوين المخيال العربي، تبرز الأُم قيمةً عليا، فهي مصدر الوجود الأوّل للإنسان في الحياة، ومصدر بقاء النوع الإنساني واستمرار المسيرة البشرية وتطوّرها عبر الأزمان، وهي الملجأ والأمان للطفل، والمتعلّق الأوّل له في أعوامه الأولى.

وقد تموضعت الأثنى في الحياة الاجتماعية تموضعات عدة؛ منها الحسن والقبیح، ومنها المقدّس والمهان، وفُقّ طبيعية المجتمعات البشرية وعقليّتها في التفكير في مكانة المرأة في تطوّر الحياة وصيرورتها، ففي بعض المجتمعات احتقرت المرأة كثيراً، وفي مجتمعات أُخر قُدّست، وفي بعضها تفاقوت النظر إلى المرأة، فقُدّست وأهينت في آنٍ معاً، وهي حال المرأة في المجتمعات العربية، وبخاصة قبل الإسلام، فقد كانت نساء يُحترمن ويُكرمن، وأخريات يُحتقرن ويُهَنَّن، ولنا دليل في ظاهرة وأد الوليدات، مخافة العار والفقرا!¹

ومهما يكن فإن للمرأة مكانة محورية في تشكيل الوعي العربي وحضارته على مرّ العصور، ولا سيما حضورها أمّاً، وإن مفهوم الأمومة يتألف من جانبيين؛ نفسي مُتخيّل، واجتماعي واقعي، فالأمومة النفسية هي المتعلّق الجمعي للشعوب من وجود الأمومة العليا الجامعة لهم؛ إذ تمثّل سلطة عليهم وعلى سلوكهم واعتقاداتهم، يستمدون منها العون والمساعدة والرزق، وغيرها من الاحتياجات المادية والمعنوية، وما الجانب النفسي إلا ذلك الحاجز النفسي القوي الذي يردع أيّ فعلٍ ضدّ كلّ مخالف، وهو ما لمسّته السيدة عائشة رضي الله عنها في مرحلة تاريخية حرجة، فقد جاء في خطبتها يوم معركة الجمل: "أيّها الناس، صه، صه! إنّ لي عليكم حقّ الأمومة، وحقّ الموعدة، لا يتّهمني إلا من عصى ربّه...".²

¹ لمزيد اطلاع انظر: محمد الغزالي، المرأة في الإسلام (القاهرة: أخبار اليوم، 1991).

² أحمد شوقي، أسواق الذهب (القاهرة: مطبعة الهلال، د.ت)، ج 1: ص 105.

أمَّا الأمومة الاجتماعية فتتعلق بالأُم الواقعية التي تمثِّل العنصر الأبرز في تكوين الأسرة بتربية الأطفال، "فالأمومة رسالة المرأة على هذه الأرض، وشأنها الأول في الحياة، وهي حجرُ الأساس في الأسرة، وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفُضُ".¹

والأم كذلك هي التي تمنح بِنيتها - بعد الخالق سبحانه وتعالى - الحياة، فهُم في بطنها أجنَّة يقضون شهوًّا في قرار مكين، يغتدون من دمها، ثم بعدَ الوضع يرتضعون من لبنها، وينعمون برعايتها وحبِّها، وتصوغهم تربيتهما، ثم هم شبانًا وفتياتًا معقد أملها، فهي عماد الأسرة وسندُها، وهي بالأمومة ذات صفتين؛ زوجة لرجلٍ، وأمٌّ لبنين.²

ويقول جورجِي زيدان عن التَّوجُّه الأمومي عند العرب من خلال نظرية الأمومة: "إنَّ العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب، ولا كانت الأنساب تتصل بالآباء... وذلك أنَّ المرأة تتزوَّج برجلين فأكثر، وأولادها لا ينتسبون لأحدهم، وإنما ينتسبون إلى القبيلة، ويسمون بطوتها"³، ولو لم تكن المرأة ذات حظوة ومكانة عالية في المجتمع العربي في الجاهلية لما تُرك لها الزواج برجلين أو أكثر، يكون نسبهم جميعًا إلى كلِّ القبيلة نوعًا من الفخار والعزة لهم، أو تختار من بينهم من تريده ليكون أبًا لولدها، غيرَ أن بعض بنات الأسر الشريفة لم يكنَّ يقبلن بالزواج من أحدٍ إلا بموافقتهم، فحقُّ قبول الزوج أو رفضه يرجع إلى البنت، وقد اشترطت بعضُ النسوة أنهن إن أصبحن عند أزواجهن، كان أمرهنَّ إليهن، إن شئنَّ أقمنَّ معهم، وإن شئنَّ تركنَّهم، أي إن حقَّ الطلاق بأيديهن، وذلك لشرفهنَّ وعلوِّ قدرهنَّ، ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدّاش، وهي أمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وفاطمة بنت الخرشب الأثمالية، وهي أمُّ الكملة من بني عبس، وهم الربيع الكامل، وعمارة الوهاب، وقيس الحفاظ، وأنس الفوارس؛ بنو زياد.⁴

¹ السابق نفسه.

² انظر: أحمد محمد الحوي، المرأة في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الفكر العربي، ط2، د.ت)، ص76.

³ جورجِي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، ج3: ص255.

⁴ انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار الساقى، ط4، د.ت)، ج8: ص227.

وكذلك كانت لنساء عربيات مكانة عظيمة في نفوس العرب، فكثيراً ما كانت الأم تسمي أبنائها وتنسبهم إليها، وكان لعشيرتها هذا الحق، وقد استمرَّ هذا إلى قبيل مجيء الإسلام، ويدلُّ على ذلك أنه لما خطَّب عوف بن محلم الشيباني ابنته أمَّ إياس، فقال: "نعم، أزوّجها على أن أسمى بنيتها وأزوّج بناتها"، فقال عمرو بن حجر: "أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحنَّ أكفأوهنَّ من الملوك"¹.

وقد ذكّرت قبائل عربية انتسبت إلى الأم، وكذا انتسب شعراء كثير إلى أمهاتهم، فقد عدَّ محمد بن حبيب الشعراء الذين نُسبوا إلى أمهاتهم، وهم قرابة تسعة وثلاثين شاعرًا، منهم ستة وثلاثون جاهليًّا.²

ومما يدلُّ أيضًا على مكانة المرأة العظيمة في حياة العرب في الجاهلية وجود الكاهنات، فللكاهنة مكانة كبيرة ومركز مرموق عندَّ العرب قبْلَ الإسلام، منهن عفراء الكاهنة الحميرية، وطريف التي تكهَّنت بسيل العرم وانھیار سدِّ مأرب، ومنهن أيضًا كاهنة الحجاز التي شارَت على عبد المطلب بن هاشم - عندما أراد ذبح ابنه عبد الله - بمضاعفة الدية عشراً عشراً، "حتى يرضى ربُّك"، كما قالت، وحقًّا سلِّمَ عبد الله من الذبح، وغيرهنَّ كاهناتٌ كُثُرٌ.³

ولعلَّ هذا سرُّ انجذابهم إلى الشمس، وهي أظهرُّ ما في حياة الصحراء، خالعين عليها صفة الأمومة، فعُدُّوها الرَبَّةَ، والآلهة الأم، ولعلَّ هذا سرُّ تأنيث الشمس في اللغة العربية على عكس اللغات التي ربَّطتها بإله ذكَّرٍ.⁴

وتمظهرت الآلهة الأنثى عندَّ العرب - كما هي الحال عندَّ غيرهم من الشعوب كاليونان والفرس والهند - في عدة تمظهرات، منها عبادة الشمس والنجوم، ومن النجوم التي

¹ الخوي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص 88.

² انظر: المرجع السابق، ص 90.

³ انظر: علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 12: ص 346.

⁴ انظر: عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات: مقارنة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها (دمشق: اتحاد الكتاب العرب،

(1998)، ص 23.

عُبدت الشعري، "وقد كان من لا يعبد الشعري من العرب، يعظّمها، ويعتقد تأثيرها في العالم"،¹ ودكرت بعض المصادر هذه المعتقدات، كقول التوحيدي: "فإني أظنّ السبب في تأنيث العرب إياها أنهم كانوا يعتقدون في الكواكب الشريفة أنّها بنات الله... وقد سُموا الشمس خاصة باسم الآلهة، فإنّ اللات اسمٌ من أسمائها، فيجوز أن يكونوا أتّوها لهذا الاسم، ولاعتقادهم أنّها بنتٌ من البنات، بل هي أعظمن عندهم".²

وقد أشار القرآن الكريم إلى قوم سبأ من عرب اليمن، الذين كانوا يعبدون الشمس، قال تعالى: ((وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)) [النمل: 24]، فإنهم مع ما أتوا من القوة والملك والسلطان، كانوا يعبدون الشمس.³

والعرب عبدوا الشمس وقدسوها لأنها طوطم مُنتج من ذات الإله - تعالى الله عما يقولون - فالشمس في نظرهم العقدي بنتٌ لله سبحانه، ومن ثم كانت أولى بالتقدمة على غيرها من المعبودات، ومن الطبيعي حين تقديس شيء في أي بيئة - ولا سيما البيئة العربية - أن ينعكس ذلك على أحوال اجتماعية ونفسية كثيرة، ومن هذه الأشياء اللغة التي تجنح إلى ذلك المتغيّر، فهذه المعتقدات التي صيغت وجدائيًا تنعكس على الفكر، ومن ثم تأتي اللغة لتمثّل هذا الفكر، فينعكس في مفرداتها وتراكيبها من غير وعي، لأنّ اللغة مرآة الفكر.

بعد هذا العرض العام لما كانت عليه الأنثى في المجتمع العربي، نقول إنه كغيره من المجتمعات، تسري فيه قوانين التغيّر الاجتماعي والنفسي وغيرها من ظروف البيئة، مما يجعل قيمه غير ثابتة، لذا لم تكن نظرتّه إلى الأنثى تسير على وتيرة واحدة، ولا شكّ في أن صورة المرأة قد استجابت لهذه التغيرات، فهي تمهبط وتعلو تبعًا لما يستجدّ من متغيرات، مرّة آلهة معبودة مقدّسة، ومرّة وليدة موءودة خشية ما يأتي معها من العار!

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964)، ج17: ص119.

² التوحيدي، المواميل والشوامل، تحقيق: سيد كسروي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2001)، ج1: ص81.

³ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13: ص177.

ولا شك في أن العربية اختزنت هذه الثقافة وحملتها، فالتصير اللغوي كالتصير الاجتماعي، يمرُّ بمراحل عدة ومحطات كثيرة، واللغة تنشأ في تصيرها عبر الزمان والمكان، ومن السهولة والليونة من جهة، ومن الشدة والقوة من جهة أخرى، "فاللغة نظام معقد من نوع مخصوص يتميز بخصائص محدّدة محكومة بطبيعة العقل (الدماغ)، وتحدّد هذه اللغة من ثم ظواهر متعدّدة محتملة، فهي تحدّد البنية لتعبيرات لغوية متعدّدة تتجاوز بشكل كبير أية تجربة"¹.

وفي دراستنا للغة وبنياتها وصيغها ومفاهيمها، نُميّز بين صانعي اللغة ومستعمليها، فصانع اللغة الأوّل قد طبعها بفكره وصاغها وفق تصوراته الأشياء آنذاك، ومستعمل اللغة يأتي في مرحلة لاحقة ليفسّر اللغة من خلال معتقداته، وقد تستجيب اللغة لهذا التفسير، وقد تستعصي وتتأبى، وذلك أنّ اللغة تقول شيئاً، ومفسّريها يقولون شيئاً آخر.

ومن انتقال اللغة من طور إلى آخر، نجد تطوّرها في نسق أنثوي لازماً حتمياً، لطبيعة اللغة الاجتماعية، فالتأنيث في اللغة - كما يقول عبد الله الغدامي - حقّ طبيعي وصفة جوهرية، ويجرى استلاب أنوثة اللغة بتذكيرها، وردها إلى أصلٍ مفترَض.²

صوغ صورة الأثنى في الفكر العربي من خلال قواعد اللغة العربية

للغة مكانة بارزة في تشكيل طريقة تفكيرنا وتصوّرننا الواقع، فهي تؤثّر في رؤيتنا للعالم، وكلّ أمة تمتلك رصيماً خاصاً من الأفكار تتحوّل إلى رموز هي لغتها القومية،³ واللغة تُنظّم ثقافة المجتمع، أي كيفية إدراك هذا المجتمع الواقع وتمثله العالم الخارجي، والعقل العربي عقل واع يمتاز بدكاء فطري يربط بين الأشياء وفق علاقات التشابه بينها، ولا تنفصل اللغة عن الفكر كما يرى سابير، فالبشر جميعاً يعيشون تحت رحمة اللغة، لأنّها وسيلة التعبير عن مجتمعهم، بل إنّها تتحكّم في كلّ تفكيرهم.⁴

¹ نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني (الدار البيضاء: دار توبقال، ط1، 1990)، ص62.

² انظر: عبد الله الغدامي، المرأة واللغة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006)، ص16.

³ انظر: محيي الدين محسب، اللغة والفكر والعالم: دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998)، ص11.

⁴ انظر: المرجع السابق، ص19.

وتعكس اللغات الإنسانية طبيعة مستعملها وصوغهم الفكري وتكوينهم الوجداني، ولأن اللغة نتاج طبيعي لنوعي البشر؛ الذكر والأثنى، فمن البداهة أن تكون اللغة محصلة هذا التنوع، فاللغة أشبه بالتاريخ من حيث كان محصلة وقائع وأحداث دُونت من منظور كاتبها، فهي أحداث ملتبسة بمنظور من صاغها، وكذا اللغة، وإن كان فرق بين اللغة منطوقة، أي في إطارها الطبيعي، وبين اللغة المكتوبة المؤولة بفهم حاملي فكر بيتاتهم وموروثاتهم الاجتماعية والنفسية والعقدية.

ولا يعني هذا استحالة دراسة اللغة في إطارها الحرّ، من مثل "كتاب سيبويه"، أوّل منجز وصفي للغة في إطارها الاستعمالي الحرّ من المنظورات المفترضة، بل الفرصة متاحة لنا للعودة إلى نصوص اللغة في ذلك الكتاب، وما تناقله اللغويون من بعده وكيفية تفسيره، والمقارنة بين النصّ وتفسيره لاستجلاء كثير من الحقائق اللغوية التي تعكس فكر العرب في تلك الحقب.

وفق هذا المنظور تعرّض البحث للظواهر اللغوية، وما يمكن أن تحيل عليه من إشارات تكشف جانباً غير مرئي من اللغة المكتوبة في جلال المؤلفات، مع استثناء "كتاب سيبويه" الذي كان واصفاً للغة كما هي عليه قبل ظهور المنهج اللغوي المعياري.

إن محاولة البحث في أصل أيّ ظاهرة، هو أشبه بالغوص في محيط مظلم، ولكنها مقاربات لمعرفة المنطق الذي تُقرّر به اللغة علاقاتها بمستعملها، فالعقل العربي الذي اشتق مصطلحات العلوم التي ازدهرت، وأخذ اللغة وسيلته في التعبير عنها؛ عقل يعتمد الربط بين الأشياء لعلاقات مشابهة، وإن كانت بعيدة الغور، ونلمس هذا في منهج التأليف في اللغة وغيرها من العلوم المرتبطة بها، من مثل كُتُب الأَشْباهِ والنظائر التي تُنظّم فيها جملة من مسائل بينها وشائج وصلات، بطرق التشابه والقياس وردّ الأشياء إلى أصولها، وهو ما يحاول هذا البحث اتّباعه بعد وصف الظاهرة وتحليلها، وربطها بما يتناسب معها من معانٍ قد تكشف لنا حقائق نفسية بها نصوص اللغة، والبحث في هذا المنظومة اللغوية في قمة اكتمالها، لأنّها المرآة العاكسة للمفاهيم والرؤى والصياغات الفكرية لذلك العربي في مفهوم الأثنى.

أولاً: معنى الأُنثى في المعجم

الأُنثى خلافُ الذَّكَرِ من كلِّ شيءٍ، والجمع (الإناث) و(الأُنث)، قال الفرَّاء: "هو جَمْعُ (الوثن)، فضَمَّ الواو وهمزها... ويقال للرجل: أُنْثَتْ تَأْنِيثًا، أي لِنَتْ له، ولم تتشدد، ويُقال: هذه امرأةٌ أُنْثِي، إذا مُدحت بأُما كاملة من النساء، كما يُقال: رجلٌ ذَكَرٌ، إذا وُصِفَ بالكمال، وبلَدٌ أُنْثِي، لِيِنَّ سَهْلًا، حكاه ابن الأعرابي، ومكان أُنْثِي، إذا أُسرع نبأُهُ وَكَثُرَ".¹

ولعلَّ هذه الرمزية - من دلالةٍ على الخصب والنماء - هي ما جَعَلَ للأُنثى في عقول العرب مكانة خاصة، حتى صارت معبودًا عندهم، فقد كانت لمعبوداتهم مسَمَّيات أُنْثوية، من مثلِ (اللات) و(العزَّى) و(مناة)، قال تعالى: ((أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ)) [النجم: 19، 20]، وقال سبحانه: ((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا)) [النساء: 117]، وَزَعَمَ ابن الأعرابي أن المرأة إِنما سُمِّيت (أُنْثَى) من البلد الأُنْثِي، قال: "لأن المرأة أُلِيَتْ من الرجل، وسُمِّيت (أُنْثَى) لِلْيِنَاهَا"²، وقال ابن سيده: "فأصلُ هذا الباب على قوله، إِنما هو الأُنْثِي الذي هو اللَّيْنُ".³

ولو جئنا إلى التقلبيات الصوتية للجذر (أُنْث)، لرأينا (أُنْث) بمعنى (وثن)، والوثن ما يُعبد، وهذا يذكِّرنا بموضوع عبادة العرب الشمسَ وَغَيْرَهَا من أصنام ونجوم تسمَّت بأسماء مؤنَّثة، و"الأُنْثَى مِنْبُتُ الطَّلْحِ، وقيل: هي القطعة من الطَّلْحِ والأَثَلِ، يُقال: هَبَطْنَا أُنْثَى مِنْ طَّلْحٍ وَمِنْ أَثَلٍ، ويُقال للشَّيْءِ الأَصِيلِ: أُنْثِيٌّ".⁴

وأيضاً (ثني)، "ثَنَى الشَّيْءَ ثَنِيًّا، رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَقَدْ ثَنَيْتُ وَانْثَيْتُ، وَثَنَيْتُ الشَّيْءَ ثَنِيًّا، عَطَفْتُهُ، وَثَنَاهُ، أَي كَفَّه".⁵

¹ انظر: ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط3)، مادة (أُنْث).

² السابق نفسه.

³ السابق نفسه.

⁴ المصدر السابق، مادة (أُنْث).

⁵ المصدر السابق، مادة (ثني).

وفي قوله تعالى: ((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانًا)) [النساء: 117]¹، قال الفراء: "وهو جمع (الوثن)، وقد قرأ ابن عباس: ((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْنَا))، فضمَّ الواو، فهَمْزَهَا، كما قال: ((وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتِتَتْ)) [المرسلات: 11]"¹.

في هذا الاستعراض الموجز لمجمل ما قيلَ عن جذرِ كلمة (أُنثى) وتقليباته الهجائية، لم نلمح أيَّ معنى يشير إلى أنَّ مستعملي اللغة الأوائل كانوا ينظرون إلى الأُنثى نظرة دونية، فلغة المعاجم حصيلة جلِّ الاستعمالات اللغوية للألفاظ في سياقات متنوعة، ولم يُذكر فيها جميعها ما يوحي بازدياد الأُنثى، أو الحطِّ من قدرها، بل كان خلاف ذلك تمامًا، فكلُّ المعاني تدور بين اللين والرفقة والتقدير.

وقد اختلفت هذه النظرة إلى الأُنثى في الحقب الآتية، أي بعد صوغ اللغة واكتمالها قبيل الإسلام، فظَهَرَ في مروياتهم ما عكسَ شيئًا من ازدياد الأُنثى، مع أنَّها تسكن وجدانهم كائنًا يستنفر فيهم طاقات الحب، فلم تخلُ معلقة من معلقاتهم من تشييب بالمرأة وإظهار مفاتها، بل إن هذا التشييب أصبح عُرفًا سائدًا بين الشعراء لا يكادون يخرجون عنه في قصائدهم، وفي آنٍ معًا حملت المرأة على عاتقها شرفَ الرجل وقبيلته، فأصبحت مثار قلقٍ وحُوفٍ، هذا الإرث الذي حمَّله إياها دَفَعَتِ المرأةُ ثَمَنَهُ غاليًا، فَبِعُضَّتْ، حتى وُئِدَتْ خشية الفضيحة والعار، قال تعالى: ((وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)) [النحل: 58، 59]، فالقرآن هنا يخاطب عربَ الجاهلية قبيل الإسلام، ويحرم قتل الأُنثى ووأدها، مع أن هذه الحوادث لا ترقى إلى مستوى أن تكون ظاهرة في ذلك العصر، ولكنَّ القرآن شَنَعَ عليها لعِظَمِ الجرم وبشاعته، على أنَّ قتلَ الأطفال لم يكن للإنانث فقط، بل طال الذكور أيضًا، فكانوا يقتلونهم خشية الفقر، فأَنْزَلَ تعالى قوله: ((وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)) [الإسراء: 31].

¹ الفراء، معاني القرآن، تحقيق جمع من المحققين (القاهرة: الدار المصرية، د.ت)، ج: 1، ص: 288.

وبمقارنة ما تقوله اللغة المحايدة المنصفة؛ اللغة الأولى التي صيغت بقواعدها ومفاهيمها، وما طرأ على الفكر العربي بعد تلك الحقبة التي لا نعرف مبدأها ومكتملها، تظهر بحوث تداخل المنظور التاريخي، وهو ما يُعرض عنه هذا البحث، لغموضه واختلافه في المنهج عما يريد، ومن ثم نجد أنفسنا أمام فكرين مختلفين؛ فكرٍ أنتج اللغة وصنَّعها، وفكرٍ استعمل هذه اللغة وفسَّرها، وجاء هذا التفسير ليعكس لنا رؤية مفسري اللغة، ويظهر في تفسيراتهم المنطق الذكوري الذي تتأبَّاه اللغة العربية.

ثانياً: المفاهيم النحوية وعلاقتها بالأثنى

1. ظاهرة التذكير والتأنيث:

عني النحويون بظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة، وألَّفوا فيها مؤلِّفات كثيرة، مما يوحي بانشغالهم بهذا الأمر، وأخذة حيزاً كبيراً من تفكيرهم، وكان جُلُّ آرائهم - ما لم يكن كلُّها - يدور في التأكيد على أصالة التذكير وفرعية التأنيث.

نذكر هنا نصّاً لابن جني، يقول فيه: "وتذكير المؤنَّث واسعٌ جدًّا، لأنه ردُّ فرعٍ إلى أصلٍ، لكنَّ تأنيث المدكَّر أذهب في التناكر والإغراب".¹

هكذا يرى ابن جني وكثير من اللغويين من قبله ومن بعده، فالأصل في العربية التذكير، وكأنَّ الذكورة أصلٌ للجنس البشري! مع أنَّ سيبويه - كما بين - لا يتحرَّج من ردِّ المدكَّر إلى أصلٍ مؤنَّث في بعضِ المواضع، فللُّغة منطقها الخاص الذي لا ينكشف بسهولة، لأنَّ البحث فيها أشبهُ بالبحث عما وراء اللغة، ولحلِّ هذا اللغز ينبغي لنا أن نفكر في اللغة باللغة، ونجعلها الفيصل في تحديد وجهة البحث وتناججه، ولو عدنا إلى المتقدِّمين - ونخصُّ منهم سيبويه صاحب أوَّل مؤلِّف كامل في التراث النحوي - فسنجد اللغة ذاتها بخصائصها وسماتها تفسَّر تفسيراً آخر، فهو يعلِّق على ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة في معرض حديثه عن الممنوع من الصرف، فيقول: "وإنَّما كان المؤنَّث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكَّر، لأنَّ الأشياء كلُّها أصلُّها التذكير، ثمَّ تحتصُّ بعدُ، فكلُّ مؤنَّث شيءٍ، والشيء يُدكَّر، فالتذكير أوَّل، وهو

¹ ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (بيروت: دار الكتاب، 1975)، ج2: ص417.

أشدُّ تمكُّناً، كما أنَّ النكرة هي أشدُّ تمكُّناً من المعرفة، لأنَّ الأشياءَ إنما تكون نكرةً، ثم تعرّف، فالتذكير قبلُ، وهو أشدُّ تمكُّناً عندهم، فالأوّل هو أشدُّ تمكُّناً عندهم، فالنكرة تعرّف بالألف واللام والإضافة، وبأن يكون علمًا، والشيء يختصُّ بالتأنيث، فيخرج من التذكير، كما يخرج المنكور إلى المعرفة".¹

يكشف لنا هذا النصُّ عن أن عدَّ التذكير أصلاً ليس من مبدأ الأفضلية، كما فهم ذلك غيرُ سيبويه، فالنصُّ يقول بخصوصية الأُنثى، لذا تصوغ اللغة لها خطاباً خاصاً، فكما النكرة عامة مطلقة، كذلك التذكير، ثم تخصّص الأُنثى كما تخصّص النكرة بأن تكون معرفة بإحدى طرق التعريف.

وما نلاحظُه أنَّ التذكير يأتي لعموم الجنسين، فالخطاب يوجّه بصيغة المذكر ليشمل الجنسين، والخطاب نفسه يوجّه بصيغة المذكر إن كان المخاطبون ذكوراً، في حين تتغيّر لغة الخطاب إلى صيغة التأنيث إن كانت المخاطبات إناثاً فقط، فكأنَّ اللغة هنا تخصّص للأُنثى وتعني بها عناية خاصة من دوّن الذكور، فكيف فهم من كلام سيبويه أنَّ الذكورة أصلٌ والأنوثة فرعٌ؟! مع أنه شبّه في النصِّ نفسه المذكر بالنكرة لعمومه، والمؤنث بالمعرفة، ولا يخفى أنَّ المعارف أخصُّ من النكرات.

والناظر في "كتاب سيبويه" بعامة، لا يكاد يلمح مبدأ التفضيل بين الجنسين، بقدر ما يلمح شيئاً من التخصيص والعناية للأُنثى، لأنّها رمزُ الشرف على الصعيد الاجتماعي، ورمزُ الحب على الصعيد الوجداني، لذا نجدُ كثيراً من الشواهد النحوية موضوعها ومحورها المرأة، فالمرأة تسكن وجدان العربي أمّاً أو زوجاً أو حبيبةً.

وللمؤنث حضور قوي في "كتاب سيبويه"، يظهر ذلك في تسمية أبوابه وفي ثنايا موضوعاته، ولا نجد عند سيبويه مبدأ أصالة المذكر وفرعية المؤنث بالمفهوم الذكوري للأصالة والفرعية، كما دكّر اللغويون من بعده الذين يعكسون ثقافة بيئاتهم آنذاك، وعلى العكس تماماً من ذلك، يعرض سيبويه في كتابه الظواهر اللغوية كما هي واصفاً إياها، فهو يرى أنَّ

¹ سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1988)، ج:3، ص:241.

اللغة استوعبت هذا التنوع، وأتت تعكس المشاركة بين الجنسين، فاللغة نتاج من يتكلمون بها، وللأنثى حضور قوي، لأنها أحد طرفي منتجي الخطاب اللغوي، والشواهد على كل ما ذكرنا أكثر من أن نسردها جميعاً في هذا البحث، ولكن نمثّل ببعضها.

يذكر سيبويه في غير ما موضع أن المذكر والمؤنث يتبادلان المواقع، كقوله: "قد يكون الشيء المذكر يوصف بالمؤنث، ويكون الشيء المذكر له الاسم المؤنث"¹، فلا تناكر ولا إغراب في أن يكون للمذكر اسم مؤنث كما رأى غيره، بل إن سيبويه يسمي الفعل المسند إلى نون النسوة بفعل جميع النساء، ولا نجد هذا إلا عنده، إذ يقول في باب نون التوكيد الخفيفة المسندة للفعل المتصل بنون النسوة: "وإذا أردت الخفيفة في فعل جميع النساء، قلت في الوقف والوصل: اضربن زيدياً..."².

ويُعدُّ سيبويه باباً كاملاً تحت مسمى "باب المؤنث الذي يقع على المؤنث والمذكر وأصله التأنيث"، يقول فيه: "فإذا جمت بالأسماء التي تبين بها العدة؛ أجريت الباب على التأنيث في التثليث إلى تسع عشرة، وذلك قولك: له ثلاث شياهِ ذكور، وله ثلاث من الشاء، فأجريت ذلك على الأصل، لأنَّ الشاء أصله التأنيث، وإن وَقَعَتْ على المذكر، كما أنك تقول: هذه غنم ذكور، فالغنم مؤنثة وقد تقع على المذكر... وتقول: ثلاث أفراس إذا أردت المذكر، لأنَّ الفرس قد ألزموه التأنيث، وصار في كلامهم للمؤنث أكثر منه للمذكر، حتى صار بمنزلة القدم"³.

ويذكر سيبويه عنواناً لباب سمّاه "باب الأسماء التي توقع على عدة المؤنث والمذكر لتبين ما العدد إذا جاوز الاثنين والثنتين إلى أن تبلغ تسعة عشر وتسع عشرة"، يقول فيه: "اعلم أنَّ ما جاوز الاثنين إلى العشرة مما واحده مذكر، فإنَّ الأسماء التي تبين بها عدته مؤنثة فيها الهاء التي هي علامة التأنيث، وذلك قولك: له ثلاثة بنين، وأربعة أجمال، وخمسة أفراس

¹ المصدر السابق، ج: 2، ص: 212.

² المصدر السابق، ج: 3، ص: 527.

³ المصدر السابق، ج: 3، ص: 563.

إذا كان الواحد مذكراً... وكذلك جميع هذا تثبت فيه الهاء حتى تبلغ العشرة... إن كان الواحد مؤنثاً؛ فإنك تخرج هذه الهاءات من هذه الأسماء، وتكون مؤنثة ليست فيها علامة التأنيث، وذلك قولك: ثلاث بناتٍ، وأربع نسوةٍ، وخمس أبنق¹.

وغيرها كثير من الأبواب التي تتحدث عن التأنيث نجدُها في صدرِ عنوانات كتابه، فهل سببُ تفسير سيبويه المختلف لهذه النصوص بهذه الطريقة عرفه الأعجمي المتحرر من التراكمات الثقافية للبيئة العربية، أو غير ذلك؟

ولعل قضية التأنيث المجازي في اللغة تعكس لنا عن كثيراً من الحقائق عن اللغة ومستعمليها، فالمؤنث المجازي ما خلا من علامة تأنيث، وقد أجاز اللغويون بعد سيبويه التعامل معه على أنه مذكر أيضاً، وسموه "المؤنث المجازي"، تفريقاً بينه وبين ما هو حقيقي التأنيث، بل أجازوا تذكير كل مؤنث مجازي، ربّما من باب التصور اللغوي القائم في عقولهم من أن أصل الأشياء التذكير، فهذه القاعدة المعيارية الصارمة لا تتفق ومنطق اللغة، وذلك أن هذا التنوع في استعمال الخالي من علامة تأنيث المحمول على التأنيث مجازاً، قد يكون من باب التعدد اللهجي، وقد يعكس استعمالات لمراحل لغوية مرّت بها المجتمعات.

ونجد الأنباري يستشعر هذه الظاهرة من دون أن يعيها، فيقول: "العرب تجترئ على تذكير المؤنث إذا لم تكن فيه هاء"²، ونلاحظ من هذا النص وما يحيط به من حدّر شديد في استعمال الفعل (تجترئ)؛ ما يوحي بالحدّر من التعميم، فليس كل اللغويين يقولون بتعميم معاملة المؤنث المجازي معاملة المذكر دائماً، متناسيين التعدد الاستعمالي الذي يحمل في طياته موروثاً فكرياً خاصاً بهذا الاستعمال.

ومما سبق نخلص إلى أن اللغة العربية لم تحمل التعبير عن المؤنث، بل فصلت فيه، فجعلت منه حقيقياً ومجازياً، ولفظياً ومعنوياً، مما جعل جنس المؤنث يمتد في اللغة شاملاً أنواعاً كثيرة من المفردات.

¹ المصدر السابق، ج:3، ص:557.

² الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة (القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية، 1981)، ج:1، ص:362.

2. ظاهرة الإعراب مصطلحاً نحويّاً:

رَبَطَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ بَيْنَ أَشْهُرِ ظَاهِرَةِ تَمَيِّزِ بِهَا اللُّغَةِ وَهِيَ الْإِعْرَابُ، وَبَيَّنَّ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْأُنْثَى؛ إِذْ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ يَذْكَرُ عِدَّةَ مَعَانٍ لِلْجَذْرِ (عَرَب): "أَنْ يَكُونَ سُمِّيَ (إِعْرَابًا)، لِأَنَّ الْمُعْرَبَ لِلْكَلامِ كَأَنَّهُ يَتَحَبَّبُ إِلَى السَّامِعِ بِإِعْرَابِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: امْرَأَةٌ عَرُوبٌ، إِذَا كَانَتْ مَتَحَبِّبَةً إِلَى زَوْجِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ((عُرْبًا أَتْرَابًا)) [الواقعة: 37]¹، أَي مَتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَمَّا كَانَ الْمُعْرَبُ لِلْكَلامِ كَأَنَّهُ يَتَحَبَّبُ إِلَى السَّامِعِ بِإِعْرَابِهِ؛ سُمِّيَ (إِعْرَابًا)"¹، وَهَذَا الْمِصْطَلَحُ مَأْخُودٌ مِنَ الْحَقْلِ الدَّلَالِيِّ الْمُخْتَصِّ بِالْأُنْثَى كَمَا نَرَى.

3. ظاهرة ارتباط الكسرة بالمؤنث:

نَلْحِظُ أَنَّ الْكَسْرَ مَلَازِمَ الْمُؤنَّثِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ اللُّغَوِيَّةِ، فَنَاءَ الْفَاعِلِ لِلْمُؤنَّثِ مَكْسُورَةٌ (خَرَجْتَ)، وَضَمِيرِ الْمُخاطَبِ لِلْمُؤنَّثِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَسْرِ (أَنْتِ)، حَتَّى إِنَّ نَاءَ التَّأْنِيثِ السَّاكِنَةَ حِينَما تُحْرَكُ غَالِبًا ما تُحْرَكُ بِالْكَسْرِ، وَجَمْعِ الْمُؤنَّثِ السَّالِمِ عِلْمًا نَصْبِهِ الْكَسْرَةَ نِيَابَةً عَنِ الْفَتْحَةِ، وَهَذَا التَّلَازِمُ الشَّدِيدُ بَيْنَ الْكَسْرِ وَالْمُؤنَّثِ يَجْعَلُنَا نَتَوَقَّفُ أَمَامَ خِصَائِصِ الْكَسْرِ، وَعِلَاقَةِ هَذِهِ الْخِصَائِصِ بِالْمُؤنَّثِ.

قال ابن منظور: "يُقَالُ لِلْعَجِينِ: انْكَسَرَ، أَي لَانَ وَاحْتَمَرَ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَتَرَ، فَقَدْ انْكَسَرَ، يَرِيدُ أَنَّهُ صَلَحَ لِأَنَّ يُجَبَّرَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «بَسُوطٌ مَكْسُورٌ»، أَي لَيِّنٌ ضَعِيفٌ"².
اللَّيِّنُ وَالرِّقَّةُ وَالضَّعْفُ هُوَ الْقَاسِمُ الْمَشْتَرِكُ بَيْنَ صَوْتِ الْكَسْرِ وَمَا ارْتَبَطَتْ بِهِ، فَكَأَنَّ الْكَسْرَةَ بِصِفَاتِهَا تَعَكِّسُ حَالَةَ الْأُنْثَى وَنَظْرَةَ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْمَرْأَةِ إِبانَ نَشْوءِ اللُّغَةِ، إِضَافَةً إِلَى مَعْنَى آخَرَ لِلْكَسْرِ يَذْكَرُهُ الزَّجَاجِيُّ، قَالَ: "وَالْكَسْرَةُ عِلْمٌ الْإِضَافَةُ"³، مِمَّا يَعْطِينَا مَوْشَرًّا آخَرَ لِلزُّومِهَا الْمُؤنَّثِ فِي أَغْلَبِ حَالَاتِهِ، وَهُوَ أَنَّ لَاسْتِقْلَالِيَّةً وَلَا اسْتِغْنَاءً، فَكَأَنَّ الْأُنْثَى مِنْ لَيْئِنِهَا وَضَعْفِهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَقَلَّةً فِي غَالِبِ أَحْوَالِهَا، وَسَتَظْهَرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ أَكْثَرَ وَضُوحًا فِي الْحَدِيثِ عَنِ ظَاهِرَةِ التَّنْوِينِ.

¹ ابن الأنباري، أسرار العربية، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت: دار الأرقم بن الأرقم، ط1، 1999)، ص45.

² ابن منظور، لسان العرب، مادة (كسر).

³ الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك (القاهرة: دار العروبة، 1954)، ص69-70.

4. ظاهرة التنوين:

التنوين لغة التصويت، نقول: نَوَّنَ الطائر، أي صَوَّتْ،¹ واصطلاحاً نَوَّنُ ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظاً، وتُفَارِقُه خطأً،² ومن المعلوم أنَّ للتنوين في اللغة عند النحاة أنواعاً عدة؛ منه تنوين التمكين، وتنوين التنكير، وتنوين المقابلة، وتنوين العوض... إلخ،³ وتنوين التمكين الذي يلحق الاسم ليبدل على شدة تمكُّنه في باب الاسمية، وهو اللاحق للاسم المعرب، من مثل (زَيْدٌ، رَجُلٌ)، وهو ما نتحدث عنه هنا، لأنه علامة فارقة بين المذكر والمؤنث، فما يلفت الانتباه أنَّ المؤنث - سواء أكان حقيقياً أم لفظياً - لا ينوَّن مطلقاً، نقول: فاطمة، زينب، طلحة، لا ينوَّن، لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، كما يقول النحاة.

ويسمِّي بعض الباحثين التنوين الذي يلحق الاسم المذكر "تنوين التذكير"، لأنَّ الأعلام المؤنثة لا تنوَّن مطلقاً،⁴ فلم حُرِّمِ المؤنث من التنوين من دون شروط؟

لو عُدْنَا إلى التنوين ظاهرةً، لوجدنا السرَّ الذي جعل النحاة يشترطون إزالة التنوين من المضاف عند إرادة الإضافة، فالتنوين يمنع من الإضافة، مما يوحي أن هذا اللفظ مستغن بنفسه مستقل عن غيره، أي إنَّ التنوين يعني أنَّ هذا اللفظ المنوَّن لا يحتاج لفظاً آخر يُنسب إليه، فالإضافة نسبة شيء إلى شيء، وهناك ارتباط بين التنوين وترك الإضافة، يقول سيبويه: "فلما صار التنوين إنما يُكفَّ للإضافة..."⁵، أي إنَّ التنوين لا يُزال إلا بسبب الإضافة، ويُعلِّل ابن الأنباري أن التنوين والإضافة لا يجتمعان، بقوله: "إنَّ الإضافة علامة وصل، والتنوين علامة فصل"⁶، ونستشعر أنَّ التنوين لم يلحق بالمؤنث إشعاراً بقابلته الإضافة،

¹ انظر: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، حاشية الأجرومية (د.م. دن، د.ت)، ص 10.

² انظر: ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000)، ص 8.

³ انظر أنواع التنوين في المصدر السابق نفسه.

⁴ انظر: سمير شريف إستيتية، "رؤية جديدة في تفسير التنوين في العربية"، مجلة جامعة الملك سعود، 5(1)، (1993)، ص 138.

⁵ سيبويه، الكتاب، ج 2: ص 290.

⁶ ابن الأنباري، الإنصاف في حلِّ مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (بيروت: المكتبة العصرية، 2003)، ج 2: ص 102.

والإضافة اتِّكَاء واستناد والتحاق، فكأنهم استشعروا حاجة الأثنى إلى مَنْ تُضاف إليه، فتركوا تنوين المؤنث استشعاراً لهذا المعنى، وقد صيِّغَ هذا التصوُّر عن الأثنى من خلال طَبْعِهَا، وما هي عليه من ضعفٍ يجعلها في حاجة دائمة إلى من يحميها ويقوم بأمرها، وتوحي لنا هذه الظاهرة بفكرة أن لا استقلال للأثنى في ذلك المجتمع مستعمل هذه اللغة.

وظاهرة ترك التنوين مرتبطة بظاهرة الممنوع من الصرف، فكلُّ مؤنث ممنوع من الصرف مطلقاً، بالإضافة إلى أنواع أُخَر من الأسماء والصفات الممنوعة من الصرف، ولكن يمكن ربط الظاهرتين؛ ترك التنوين بالمعنى الذي فسّرناه، ومنع الصرف، مما يوحي بقيود على الأثنى، ربما تطلبت طبيعة الحياة آنذاك، فظَهَرَتْ في لغتهم، وصاغت قواعدها.

ولكن ظاهرة المنع من الصرف ليست حتمية في اللغة، فقد وجدنا صرفاً لبعض الأسماء، مما يجعلنا نتوقف عند تفسير هذه الظاهرة وغيرها مما تتنوع اللغة في استعماله بين المنع والمنح، وكلُّ هذا يشير إلى أن اللغة لا تسير على وتيرة واحدة في كلِّ مراحلها، فهذه التغيرات اللغوية قد تكون استعمالات لبيئات مختلفة، أو تمثِّل مرحلة من مراحل الفكر اللغوي.

5. ظاهرة الترخيم:

الترخيم في اللغة، ترقيق الصوت،¹ يقول الشاعر:

هَآ بَشْرٌ مِثْلَ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَحِيمٌ الحَوَاشِي لا هُرَاءٌ ولا نَزْرُ
أي رقيق الحواشي، وهو في الاصطلاح حذفٌ أواخر الكلم في النداء، نحو: يا سَعَا، والأصل: يا سَعَادُ، يقول ابن مالك:²

وجَوَزْنُهُ مُطْلَقًا في كُلِّ مَا أُثِّتَ بِهَا وَالَّذِي قَدْ رُحِّمًا
إذن الترخيم جائزٌ مطلقاً من غير شروط في كلِّ ما ينتهي بعلامة التأنيث، وهو أمرٌ دلالي يتعلّق بطبيعة التأنيث أكثر مما يتعلّق بطبيعة بنية الاسم، وذلك أن أكثر ما يرِدُ فيه

¹ انظر: ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: دار التراث، ط20، 1980)، ج3: ص287.

² انظر: المصدر السابق، ج3: ص288.

الترخيم خاصٌ بالإناث، لأنهن مظنة التخبُّب والتطريب والدلال، مع أنه قد يعني الذكور أيضاً، ولا سيما الأطفال منهم.¹

فالترخيم تليينٌ في القول تحبُّباً إلى المرخِّم، ويعكس الترخيم حالة نفسية تتسم بالهدوء والترف، ولعلَّ هذا هو السبب في قول بعض السلف عن قراءة من قرأ: ((وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْثُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ)) [الزخرف: 77]، حين قيل لابن عباس إن ابن مسعود قد قرأ: ((وَنَادُوا يَا مَالِكُ))، فقال: "ما أشغل أهلَّ النار عن الترخيم!"² فالمقام مقام عذاب، مما يجعل الخطاب مصطبغاً بالحالة النفسية لهؤلاء القوم المعذِّبين، فنجد للترخيم في هذا المقام معنى آخر وتفسيراً دلاليّاً يتناسب وهذه الحالة النفسية، فقد أوَّل بعض الباحثين دلالة الترخيم في هذا الموضع بأنَّها نوع من التليين في القول تقرباً إلى مالك خازن النار، علَّه يستجيب لندائهم.³

فالترخيم ظاهرة لغوية في كلام العرب مرتبطة بالأنتى بالدرجة الأولى، وكأَنَّها من الظواهر التي تعكس رؤية صانعي اللغة لهذا الكائن الأنتوي، الذي طُوِّعت اللغة للتعبير عنه وتخصيصه بظواهر لا تكون مع غيره إلا بشروط، وهذا يوحى بعمق تجذُّر الأنتى وسيطرتها في وجدان العربي؛ مما أثر على الفكر اللغوي وارتسم فيه.

6. علامات التأنيث:

اعتنت العربية بالمؤنث، فخصَّصت علامات تدلُّ عليه، أوصلها ابن الأنباري إلى خمس عشرة علامة؛ "ثمانٍ في الأسماء، وأربعٍ في الأفعال، وثلاثٍ في الأدوات، فثلاث في الأسماء؛ الهاء والألف الممدودة والمقصورة، والرابعة تاء الجمع في (الهندات)، والخامسة الكسرة في (أنت)، والسادسة النون في (أنتن) و(هنن)، والسابعة التاء في (أخت) و(بنت)، والثامنة الياء في

¹ انظر: يحيى عبابنة، "التركيب الانفعالي بين القواعد التركيبية النحوية والقيود الدلالية: الترخيم أمودجاً"، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، 16(1)، (2018)، ص37.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ)، ج4: ص264.

³ انظر: عبابنة، التركيب الانفعالي بين القواعد النحوية التركيبية والقيود الدلالية، ص43.

(هذي)، والتي في الأفعال التاء الساكنة في (قامت)، والياء في (تفعلين)، والكسرة في (قمت)، والنون في (فعلن)، والتي في الأدوات التاء في (رَبَّتْ) و(تَمَّتْ) و(لَات)، والهاء في (هيهات)، والألف في قولك: إنها قائمة هند".¹

لم تهمل اللغة الأثنى، بل منحتها نصيبها من القواعد، بخلاف كثير من اللغات التي لم تفرّق بين الجنسين في استعمالها وصيغها، فلم تُخصّص للمؤنث في لغاتها علامات وصيغاً كما فعلت اللغة العربية، وكلّ هذا يعطينا مؤشراً على صوغ صورة الأثنى وتجنّدها في وجدان العربي، ومن ثمّ في فكره، لتتمظهر هذه الصورة في صيغ وتراكيب ولواحق صرفية تمثّلها.

7. أسماء الإشارة:

يُشار إلى المفرد المذكّر ب(ذا)، ويشار إلى المؤنثة ب(ذي) و(ذِه) بسكون الهاء، و(تي) و(تا) و(ذِه) بكسر الهاء، باختلاس وبإشباع، و(ته) بسكون الهاء وكسرها، باختلاس وإشباع، و(ذات).²

ونلاحظ تعدّد أسماء الإشارة للمؤنث، في حين اقتصر للمذكّر على اسم إشارة واحد، مع أن بعض النحويين ذكّر أسماء إشارة أحرّ للمذكّر،³ ولكن لم يكتب لها الشبوع.

واسم الإشارة الواحد (هذا) لم يقتصر على التعبير عن المذكّر المفرد فقط؛ إذ نجد اللغة تسجّره للتعبير عن الجمع تارة، كما في قول لبيد:⁴

وَلَقَدْ سَأَمْتُ مِنْ الْحَيَاةِ وَطُوهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَبِيدُ؟
وعن المؤنث تارة أخرى إذا نزل منزلة المذكّر، كقوله تعالى: ((فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَتْ هَذَا رَيْبِي)) [الأنعام: 78]، فأشار إلى الشمس ب(هذا)، وهي مؤنثة.

وقد نقل الألوسي عن أبي حيان قوله: "يمكن أن يُقال إن أكثر لغة العجم لا تفرّق في الضمائر ولا في الإشارة بين المذكّر والمؤنث، ولا علامة عندهم للتأنيث، بل المؤنث

¹ الأنباري، المذكّر والمؤنث، تحقيق: طارق عبد عون الجنابي (بغداد: مطبعة العاني، 1978)، ص166-173.

² انظر: ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، ج:1، ص130.

³ انظر: السابق نفسه.

⁴ انظر: السابق نفسه.

والمذكّر عندهم سواء، فأشير في الآية إلى المؤنث بما يُشار به إلى المذكّر، حين حُكي كلام إبراهيم عليه السلام، وحين أخبر سبحانه عن المؤنث (بازغة)¹.
 وأبو حيان نفسه يقول: "وهذا الفرق بين المذكّر والمؤنث في الإخبار لا يكون في أكثر الألسن، فلا يوجد ذلك في لسان الفرس، ولا لسان الترك، بل المذكّر والمؤنث في ذلك سواء، ويتكلمون على القرائن من غير دلالة لفظية على ذلك، وهذا من أحسن ما يُعتمد به عن التذكير في قوله تعالى: ((فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي))، فأشار بلفظ المذكّر، لأنه حكي قول إبراهيم، ولم يكن في لسانه فرقٌ بين المذكّر والمؤنث، فحكي قوله على لغته، والله أعلم"².

ومهما تكن أسباب هذا الاستعمال فإنه يوحى بالشمول، مما يجعل اللفظ (هذا) من الممكن أن يحيل إلى أكثر من نوع؛ مذكّر مفرد، وجمع، ومؤنث، كما أنّ اسم الإشارة (هذا) قد يخرج من هذا الباب إلى معنى الاسم الموصول (الذي)، كقول الشاعر:³
 عَدَسٌ، مَا لِعِبَادَ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ أَمِنَتْ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيْقُ
 أي الذي تحمليه نطيق.

في حين تحتفظ الإشارات الأنتوية بفرادتها اللغوية، فلا تكاد تخرج من تعبيرها عن الأنتى، وهذا الزخم الإشاري - مقارنةً باسم الإشارة للمذكّر المفرد - يوحى بالاهتمام والعناية من صانعي اللغة، فالعرب عندما يعتنون بشيء يُكثرون له الأسماء والصفات، فتراهم يذكرون الناقة في معلقاتهم وأشعارهم أكثر من ذكرهم الجمل، ويتغنون بالفرس أكثر من الحصان، ويُنتجون لهما الأسماء والصفات لشدة عنايتهم بهما، ولأنهما محور أساس في حياتهم.

¹ الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، ج4: ص190.

² أبو حيان، التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تحقيق: حسن هندواي (دمشق: دار القلم، 1997-2003)، ج6: ص194.

³ انظر: ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت: دار الفكر، 1994)، ج1: ص167.

خاتمة

توصّل هذا البحث في ختامه إلى جملة من النتائج، نرجو أن تكون لبنة لدراسات معمّقة تستعمل المناهج التي تربط اللغة بمتكلمها وما يحيط بهم من مؤثرات تسهم في التصيّر اللغوي، ومن أبرز تلك النتائج ما يأتي:

1. إنّ حضور فكرة تقديس الأثنى عند العرب قديماً، يوحى بما كان لها من مكانة سامية جعلتهم يتخذون من جنسها معبودات، فللتأنيث عند العرب أكثر من معنى، وكلّ المعاني تشير إلى عنايتهم بها، تقديسًا لها أو خوفًا عليها.

2. الأثنى في جذرها اللغوي تشمل معاني اللين والرقّة، وتحمل في دلالتها معاني الخصب والنماء، وليس في معنى الأنوثة معجميًا ما يشير إلى سلبية نظرة اللغة إليها، بل هو العكس؛ إذ تدور كلّ معانيها على اللطف واللين، بل التقلبات الصرفية للجذر اللغوي توحى بالمعاني نفسها التي تطرّق إليها البحث.

3. صيغُ المذكر في اللغة عامة، فتدخل فيه الأثنى لما فيه من شمول وتعميم، في حين أن صيغَ المؤنث لا يمكن أن يدخل المذكر فيها، وهذا نوعٌ من التخصيص، وقد شبّه سيبويه صيغَ المذكر والمؤنث بالنكرة والمعرفة، فكما أنّ النكرة عامة شاملة، ثم تُعرّف بإحدى وسائل التعريف، كذلك خطاب الأثنى يخصّص لها فقط، ولا يخفى ما في هذا التشبيه من عناية بالأثنى.

4. إنّ تعدّد الاستعمالات اللغوية للظاهرة الواحدة، كمعاملة المؤنث المجازي معاملة المذكر، ومعاملة المذكر معاملة المؤنث أحياناً، يعكس تصوّرات ومفاهيم فكرية لمراحل زمنية في عُمر اللغة.

5. إنّ جمع اللغة العربية الذي لم يكن بعرضِ دراسة اللغة من أجل اللغة، بل في سياق دفاعي عن لغة القرآن، وربما هو ما جعل اللغويين - باستثناء سيبويه الذي كان يصف اللغة في ذاتها - يسعون إلى ضبط قواعد اللغة في صيغٍ معيارية صارمة من دون النظر إلى الظواهر اللغوية كلّ على حدة، والوقوف على أسباب هذا الاستعمال أو ذاك في ظلّ المناهج اللغوية الاجتماعية والنفسية.

6. اللغة العربية عبر قواعدها كانت منصفة مع الأثنى، فلم تتجاهلها، بل وظفت لها صياغات تحاطبها، بعكس خطاب المذكر الذي كان أقرب ما يكون إلى التعميم، فخطاب المذكر يمكن أن تشاركه فيه الأثنى، بخلاف خطاب المؤنث الذي لا يصح أن يشاركها فيه غيرها.

7. تعكس اللغة نظرة خاصة في تعاملها مع الأثنى، فُتخصّص بعض الظواهر النحوية ذات الدلالات الخاصة للمؤنث، وتضع القيود على هذه الظاهرة إذا ما استعملت للمذكر، وكذا الظواهر اللغوية المتعلقة بالأثنى غير متواترة، فنجد التعدد الاستعمالي للظاهرة الواحدة، مما يعكس تنوعاً فكرياً مرّت به تلك المجتمعات.

8. من خلال التراث النحوي للعربية نستطيع دحض كل الادعاءات المتعلقة بذكورية اللغة؛ إذ تعاملت اللغة مع الجنسين بوصفهما شريكين في إنتاجها، فلا يمكن أن تكون اللغة موجّهة بقصد، لأنها ظاهرة اجتماعية تخضع للظروف الاجتماعية والنفسية الاقتصادية والبيئية، وكل ما سبق يُسهم في صوغ فكر هذه الأمة أو تلك، وتأتي اللغة لتمثّل هذا الفكر، فيظهر في تراكيبها وصيغها ومفرداتها ومفاهيمها.

ومن ثم يوصي البحث بإعادة النظر في الظواهر اللغوية، ودراستها دراسة موضوعية، بعيداً من المقدمات الفكرية الآنية، ولعل تفعيل المناهج السياقية (التاريخية والنفسية والاجتماعية) في البحث اللغوي، يوصلنا إلى أسباب كثير من الظواهر اللغوية ذات المحمول الثقافي لتلك البيئات، فاللغة وعاء الفكر، ولا بدّ من دراسة هذه اللغة وفق ما مرّت به من مراحل، للوصول إلى ما حملته من مفاهيم فكرية آنذاك.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأنباري، أسرار العربية، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت: دار الأرقم بن الأرقم، ط1، 1999).

ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (بيروت: المكتبة العصرية، 2003).

ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000).

ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (بيروت: دار الكتاب، 1975).

ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: دار التراث، ط20، 1980).

ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط3، د.ت).

ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت: دار الفكر، 1994).

أبو حيان، التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تحقيق: حسن هندراوي (دمشق: دار القلم، 1997-2003).

أحمد شوقي، أسواق الذهب (القاهرة: مطبعة الهلال، د.ت).

أحمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الفكر العربي، ط2، د.ت).

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).

الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: طارق عبد عون الجنابي (بغداد: مطبعة العاني، 1978).

الأنباري، المذكر والمؤنث، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة (القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية، 1981).

التوحيدى، الهوامل والشوامل، تحقيق: سيد كسروي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2001).

جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار الساقى، ط4، د.ت).
 جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت).
 الزجاجى، الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك (القاهرة: دار العروبة، 1954).
 الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (بيروت: دار
 الكتاب العربى، ط3، 1407هـ).

سمير شريف إستيتية، "رؤية جديدة في تفسير التنوين في العربية"، مجلة جامعة الملك سعود،
 5(1)، (1993).

سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1988).
 عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، حاشية الآجرومية (د.م: د.ن، د.ت).
 عبد الله الغدامي، المرأة واللغة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006).
 عبد الملك مرتاض، السبع المعلقة: مقارنة سيمائية أنثروبولوجية لنصوصها (دمشق:
 اتحاد الكتاب العرب، 1998).

الفراء، معاني القرآن، تحقيق جمع من المحققين (القاهرة: الدار المصرية، د.ت).
 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش (القاهرة: دار
 الكتب المصرية، ط2، 1964).

محمد الغزالي، المرأة في الإسلام (القاهرة: أخبار اليوم، 1991).
 محيي الدين محاسب، اللغة والفكر والعالم: دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق
 (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998).

نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني (الدار البيضاء:
 دار توبقال، ط1، 1990).

يحيى عبابنة، "التركيب الانفعالي بين القواعد التركيبية النحوية والقيود الدلالية: الترخيم
 أنموذجاً"، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، 16(1)، (2018).

References

Al-Qur'ān al-Karīm.

Abdullāh al-Ghathāmī, *al-Mar'ah wal-Lughah* (Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, 3rd Ed., 2006).

Abdulmalik Murtād, *al-Sab' al-Mu'allaqāt: Muqārabah Sīmyā'iyyah 'Anthrūbūlūjiyyah li-Nuṣūṣihā* (Damascus: Ittiḥād al-Kuttāb al-'Arab, 1998).

Abdurrahmān bin Muḥammad bin Qāsim al-'Āsimī, *Hāshiyah al-Ājurrūmiyyah* (Privet publication).

Abū Ḥayyān, *al-Tathīl wal-Takmil fī Sharḥ al-Taḥṣīl*, Ḥasan Hindāwī (Ed.) (Damascus: Dār al-Qalam, 1997-2013).

Aḥmad Muḥammad al-Ḥūfī, *al-Mar'ah fī al-Shi'r al-Jāhilī* (Beirut: Dār al-Fikr al-'Arabī, 2nd Ed.).

Aḥmad Shawqī, *'Aswāq al-Thahab* (Cairo: Maṭba'ah al-Hilāl).

Al-Alūsī, *Rūḥ al-Ma'ānī fī Tafṣīr al-Qur'ān al-'Aẓīm wal-Sab' al-Mathānī*, Alī Abdalbārī Aṭiyyah (Ed.), (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 1415H).

Al-Anbārī, *al-Muthakkar wal-Mu'annath*, Muḥammad 'Abdulkhāliq 'Uḍymah (Ed.) (Cairo: Ministry of al-Awqāf, 1981).

Al-Anbārī, *al-Muthakkar wal-Mu'annath*, Ṭāriq Abd Awn al-Janābī (Ed.) (Baghdad: Maṭba'ah al-'Ānī, 1st Ed., 1978).

Al-Farrā', *Ma'ānī al-Qur'ān*, A Groupe of Editors (Cairo: al-Dār al-Miṣriyyah).

Al-Qurtubī, *al-Jāmi' li-Aḥkām Al-Qur'ān*, Aḥmad al-Bardūnī & Ibrāhīm Aṭfīsh (Eds.) (Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, 2nd Ed., 1964).

Al-Tawḥīdī, *al-Hawāmil wal-Shawāmil*, Sayyid Kasrawī (Ed.) (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 2001).

Al-Zajjājī, *al-'Idāḥ fī 'Ilal al-Naḥw*, Māzin al-Mubārak (Ed.), (Cairo: Dār al-'Urūbah, 1954).

Al-Zamakhsharī, *al-Kashāf 'an Ḥaqā'iq al-Tanzīl wa-'Uyūn al-'Aqāwīl fī Wujuh al-Ta'wīl* (Beirut: Dār al-Kitāb al-'Arabī, 3rd Ed., 1407H).

- Ibn al-Anbārī, *al-'Inṣāf fī Masā'il al-Khilāf byn al-Naḥwiyyīn al-Baṣriyyīn wal-Kūfiyyīn*, Muḥammad Muḥyiddīn 'Abdulḥamīd (Ed.) (Beirut: al-Maktabah al-'Aṣriyyah, 2003).
- Ibn al-Anbārī, *'Asrār al-'Arabiyyah*, Barakāt Yūsuf Habbūd (Ed.) (Beirut: Dār al-'Arqam bin Abī al-'Arqam, 1st Ed., 1999).
- Ibn al-Nāzim, *Sharḥ 'Alfiyyah Ibn Mālik*, Muḥammad Bāsil 'Uyūn al-Sūd (Ed.) (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 2000).
- Ibn Aqīl, *Sharḥ 'Alfiyyah Ibn Mālik*, Muḥammad Muḥyiddīn 'Abdulḥamīd (Cairo: Dār al-Turāth, 20th Ed., 1980).
- Ibn Hishām, *'Audaḥ al-Masālik 'ilā 'Alfiyyah Ibn Mālik*, Barakāt Yūsuf Habbūd (Ed.) (Beirut: Dār al-Fikr, 1994).
- Ibn Jinnī, *al-Khaṣā'is*, Muḥammad 'Alī al-Najjār (Ed.) (Beirut: Dār al-Kitāb, 1975).
- Ibn Manzūr, *Lisān al-'Arab* (Beirut: Dār Ṣādir, 3rd Ed.).
- Jawād Alī, *al-Mufaṣṣal fī Tārīkh al-'Arab qabl al-'Islām* (Beirut: Dār al-Sāqī, 4th Ed.).
- Jūrjī Zydān, *Tārīkh al-Tamaddun al-'Islāmī* (Beirut: Dār Maktabah al-Hayāh).
- Muḥammad al-Ghazālī, *al-Mar'ah fī al-'Islām* (Cairo: 'Akhbār al-Yawm, 1991).
- Muḥyiddīn Muḥassib, *al-Lughah wal-Fikr wal-'Ālam: Dirāsah fī al-Nisbiyyah al-Lughawiyyah byn al-Farādiyyah wal-Taḥaqquq* (Beirut: Maktabah Lubnān Nāshirūn, 1st Ed., 1998).
- Noam Chomsky, *al-Lughah wa-Mushkilāt al-Ma'rifah*, Ḥamzah bin Qabalan al-Muzynī (Casablanca: Dār Tūbqāl, 1st Ed., 1990).
- Samīr Sharīf Sūfiyyah, "Ru'yah Jadīdah fī Tafsīr al-Tanwīn fī al-'Arabiyyah", *Majallah Jāmi'ah al-Malik Sa'ud*, 5(1), (1993).
- Sībawiyh, *al-Kitāb*, Abdussalām Hārūn (Ed.) (Cairo: Maktabah al-Khānjī, 3rd Ed., 1988).
- Yaḥyā Abābnah, "al-Tarkīb al-'Infi'ālī byn al-Qawā'id al-Tarkībiyyah al-Naḥwiyyah wal-Quyūd al-Dalāliyyah: al-Tarkhīm 'Unmūthajan", *Majallah Ittihād al-Jami'āt al-'Arabiyyah lil-'Ādāb*, 16(1), (2018).



حصول الأمن الثقافي رهين اعتماد اللغة الجامعة

أحمد العلوي العبدلاوي*

ملخص

عندما تُعرض المسألة اللغوية في دائرة النقاش، تستتبع بالضرورة عرض مجموعة من القضايا التي لا يمكن مقارنة هذه المسألة من دون الوقوف عليها، ومحاولة تحديد العلاقات التي تربط بينها، من قبيل التعدد اللساني أو اللغوي، والازدواجية اللغوية، واللغة الجامعة، واللغة الأم، واللغة الوطنية، واللغة الأجنبية، وقضية الأمن الثقافي، وقضية الهوية، وقضية الوحدة الوطنية... إلخ، وهي قضايا متداخلة متشابكة، لا يمكن الحديث عن إحداها من دون استحضار القضايا الأخرى، ولما كانت الإحاطة بهذه الموضوعات كلها مما يصعب في مقالة واحدة؛ استقر اختيارنا على موضوع يركز على المكانة التي تنهض بها اللغة الجامعة في تحقيق أمن البلاد العربية الثقافي، مستفيدين مما تمدنا به الموضوعات الأخرى من معطيات في حدود ما يسمح به الموضوع المقترح.

الكلمات الرئيسية: المسألة اللغوية، الأمن الثقافي، اللغة الجامعة، البلاد العربية، السياسة اللغوية

* أستاذ الأدب العربي والنقد الأدبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المملكة المغربية،

.alaoui2a@gmail.com



Achieving Cultural Security is Contingent on the Adoption of the Universal Language

Ahmed Alaoui Abdallaoui*

Abstract

Bringing the lingual question into discussion requires the consideration of a range of associated topics and the elucidation of the relationships binding them together. Such topics include multilingualism, diglossia, the universal language, the mother tongue, the national language, foreign languages, cultural security, identity, and national unity, among others. These issues are inseparably interwoven, and discussing one inevitably requires addressing the others. However, due to the difficulty of covering all these topics in a single article, this study focuses on the importance of the universal language in achieving cultural security in the Arab world, while benefiting from insights provided by related topics to the extent allowed by the proposed theme.

Keywords: *Lingual question, cultural security, universal language, Arab world, language policy*

* Professor of Arabic Literature and Literary Criticism, Faculty of Arts and Humanities, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Morocco, alaoui2a@gmail.com.

مدخل

معلومٌ أنّ اللغةَ مُكوّنٌ أساسٌ من مُكوّناتِ كلِّ مجتمعٍ إنساني، يميّزه من غيره من المجتمعات بما تتيحه له من إمكاناتٍ تواصلية، قد تضيق تارةً، فينحصر الخلاف في بعض المخارج الصوتية أو في طريقة النطق بالعبارة الواحدة، ويتسع تارةً أخرى ليشمل الخلافُ المكونات اللغوية كلّها، صوتيةً كانت أم خطيةً أم بنائيةً، ولا يمكن أن يتمّ التواصل بين أفراد المجتمع الواحد إلا عن طريق اللغة الموحّدة التي يفهمها الجميع، فتصبح من المقومات الأساس لهوية ذلك المجتمع.

واللغة أداة توحيد للمجتمع؛ لما تنهض به من أدوار تواصلية وثقافية ومعرفية وتاريخية وحضارية، تضمن تراثه وتماسكه وانسجامه واستمراره، لذا كانت الإساءة إلى أي لغة بمنزلة الإساءة إلى ذات الناطقين بها وكرامتهم.

وقد أسّيء إلى لغة أهل البلاد العربية بما طالها من الإقصاء والتهميش، بعدما امتدت إليها يدُ الاستعمار الذي عمّل جاهداً على إلغائها وتعويضها بلغته، ولكنه قُوبل برِدِّ فعلٍ قويٍّ من لدن المجاهدين والمناضلين الغيورين على دينهم ووطنهم ولغتهم، ولم تقوَ الآلة الاستعمارية على فرضِ لغتها فرضاً مطلقاً على البلاد العربية التي استعمرتها، وإن نجحت في فرضها داخل الإدارة، ولكن المؤسف أن أغلب هذه البلدان لم تستطع - بعد نزوح المستعمر عنها - التخلُّص من لغته، واعتمادَ لغتها القومية في جلِّ القطاعات الحيوية داخل المجتمع، وظلّت اللغة العربية بعيدة عن أداء مكانتها الحضارية التي استطاعت أن تؤديها بكلِّ جدارة واستحقاق يوم كانت قيادة العالم بأيدي أهلها، ومرجعُ ذلك إلى اقتناع نخبة من أفراد المجتمع العربي - التي أضحت مقاليد الأمور بيدها بعد الاستقلال - بعجزِ اللغة العربية عن مواكبة العصر، وبأنها لا تقوى على ما تنهض به اللغات العالمية الأخرى.

ولكن ما نلاحظه هو تلك الصحوة الهوياتية التي بدأت تنتشر في البلاد العربية، وهي استمرار لدعوات الأحزاب الوطنية إلى اعتماد اللغة القومية في مفاصل الدولة جميعها؛ الإدارية والاقتصادية والتواصلية والتعليمية، لأن بلوغ الأهداف التنموية لا يمكن أن يتحقق إلا باعتماد لغة أهل البلد الأصلية؛ إذ لم يحدثنا التاريخ عن أمة تقدّمت بلغة أمة أخرى، فاللغة وسيلة من وسائل التنمية التي لا تقتصر على الجانب الاقتصادي كما يعتقد بعضهم، بل يلزم النظر إليها في سياقها العام على الصعيدين الوطني والدولي، وما يمكن أن يقوم به الفرد والجماعة من خدمات لصالح بلدهم والبشرية؛ إذ الغاية تنمية قدرات الإنسان على مواجهة كل المستجدات والمشكلات والتحديات والاحتياجات التي قد يطرحها المستقبل، لذا كان من أوجب واجبات الإنسان العربي تحصين الذات من الاختراق والاستلاب والتبعية، والاندماج في المجتمع لتحقيق ذاته، وبناء وحدة حقيقية تقوم على وحدة القيم المشتركة التي "تحققها الثقافة الوطنية القائمة على وحدة العقيدة، ووحدة اللغة، ووحدة المشاعر الوطنية تجاه ثوابت الأمة"¹.

إشكالية وحدة اللغة والتعددية اللسانية

يبقى الإشكال الأكبر في تلك القيم المشتركة في ثقافة البلاد العربية الوطنية هو وحدة اللغة، فإذا كان الانتماء العربي يفرض بالضرورة اعتماد لغة عربية موحّدة في الأقطار العربية كلّها؛ فإن الواقع المعيش يحدثنا عن تعددية لسانية تحرق وحدة هذه المجتمعات اللغوية، وبخاصة عندما يتحدث الصراع بين مكوّنات بعض المجتمعات مختلفة اللغات في ترسيم لغتها، واعتمادها

¹ محمد الكتاني، "اللغة العربية في مشروع التنمية بالمغرب"، الملتقى الوطني الأول للجمعية المغربية لحماية اللغة العربية، فاس، المملكة المغربية، 1 مارس 2010.

في المرافق العمومية جميعها، وتصبح التعددية عاملاً من عوامل التفرقة، بخُلُق فئات متصارعة تعمل على تفتيت الوحدة الوطنية، وهو ما قد يؤدي إلى اعتماد لغةٍ أجنبيةٍ لغةً رسميةً للبلاد، كما هي الحال في عدة دول إفريقية، وآخر مثال لذلك دولة جنوبي السودان التي اعتمدت - بعدَ استقلالها عن منطقة الشمال عام (2011) - الإنجليزية لغةً رسميةً للبلاد، وتخلّت عن لغاتها العديدة جميعها، والمؤثثة فضاءها اللغوي، بما فيها اللغة العربية المؤهّلة أكثر من غيرها للقيام بهذه المهمة، وذلك لأسباب سياسية لا حاجة إلى الوقوف عندها.

وقد يؤدي هذا الصراع إلى اعتماد لغةٍ أجنبيةٍ في مرافق البلاد العمومية من دون النصّ على ترسيمها أو تشريعها دستورياً، كما هي الحال في أكثر البلاد العربية، وذلك بأثرٍ من الصراع المفتعل بين نخبتين مختلفتي التكوين؛ نخبةٍ تعلّمت في مدارس أجنبية، وتكوّنت لها معرفة بلغة الأجنبي وثقافته، في غياب شبه تامّ للمعرفة باللغة والثقافة الوطنيتين، ومكّن لها صاحب تلك اللغة الذي غالباً ما يكون المستعمر، ولو بعد رحيله، ونخبةٍ تلقت تعليمها في المدارس الوطنية بلغتها الوطنية، مع اطلاعها على لغة المستعمر وثقافته، وهو ما مكّنها من الموازنة بين لغتها الوطنية واللغة الأجنبية، واستخلاص ما تتوفّر عليه لغتها من رصيد لغوي كبير تتفوّق به على رصيد لغات أكثر الدول العالمية تقدماً، وقدرةٍ على مواكبة المستجدات كلّها، والتعبير عن الأغراض كلّها بجدارة، ولا أدلّ على ذلك من قدرتها على إبلاغ الرسالة السماوية المحمدية إلى الناس كافة، وما تحمّله هذه الرسالة من دلالاتٍ ومعانٍ وأبعادٍ، لعلمه عزّ وجلّ أنّها الأقدر بين لغات الأرض على القيام بهذه المهمة.

والحقيقة أن التعددية اللسانية - التي تعني تداول أكثر من لغة واحدة في البلد الواحد - ليست خطراً على اللغة الموحّدة التي تضمن الوحدة الوطنية في البلاد؛ إن استثمرت استثماراً إيجابياً؛ إذ يمكن أن تتحوّل هذه التعددية إلى مصدر لتنمية المعرفة،

وتوسيع سبيل التواصل، وإغناء الرصيد الثقافي، فالحفاظ على التعددية اللغوية لا يعني التنازل عن سيادة اللغة الوطنية التي ينبغي لها أن تكون لغة جامعة تعمل على احتضان اللغات الأخرى ومؤازرتها، والاستفادة من مخزونها المعرفي، ومن فرادتها اللغوية والثقافية والحضارية، على أن تكون هذه اللغة الجامعة مؤهلة للقيام بهذه المهمة، ويكون هناك رابط مشترك يربطها بالمتكومات اللغوية والاجتماعية الوطنية كلها التي يتكوّن منها المجتمع في البلاد الواحدة.

وتتلخّص هذه المؤهلات فيما يأتي:

- أن تكون هذه اللغة الأكثر انتشاراً واستعمالاً داخل الوطن.
- أن تكون شديدة الارتباط بوجودان أفراد المجتمع، ومتجذّرة فيه.
- أن تكون لها قواعد بنائية ونظام تركيبى متكامل.
- أن يكون لها معجم لغوي واسع.
- أن تكون ذات رصيد معرفي كبير، ومؤهلة لإنتاج المعرفة وتوطينها.
- أن يكون لها تاريخ حضاري وحمولة ثقافية وفكرية متميزة.
- أن تكون صالحة للاستعمال في مرافق البلاد الحيوية جميعها، من تعليم وإدارة واقتصاد.
- أن تكون الأقوى على التواصل مع أكبر عددٍ ممكن من الشعوب التي تتكلم اللغة نفسها.
- أن تكون الأكثر قدرةً على تحدي اللغات الأجنبية الأخرى، بما تمتلكه من قدرات ذاتية تتفوق بها على غيرها، وتُحصّنها من الاستلاب والخضوع.¹

¹ ذكر عبد العلي الودغيري طائفة من هذه المؤهلات في المحاضرة الافتتاحية للملتقى الوطني الثاني للغة العربية، بعنوان: "أهمية اللغة العربية في تحقيق التنمية الشمولية والأمن الثقافي"، الذي نظّمه فرع فاس للجمعية المغربية لحماية اللغة العربية، في 1 مارس 2011.

مما سبق يتبين أن اللغة الوطنية التي تجتمع فيها هذه المؤهلات كلها في البلاد العربية هي اللغة العربية الفصحى،¹ فهي اللغة الأكثر انتشاراً، والأكثر حمولةً ثقافيةً ومعرفيةً حضاريةً، والأكثر تنظيمًا وتقعيدًا، والأكثر قدرةً على مواكبة مستجدات العصر، إضافة إلى ارتباطها بجميع الجنسيات العالمية بحكم أنها لغة القرآن؛ إذ لا تجد أمة إلا فيها عددٌ من المسلمين الذين لا تتمُّ عبادتهم إلا بحفظهم على الأقل بعض آيات القرآن الكريم باللغة التي نزل بها، وهي بذلك اللغة المؤهلة لأن تكون اللغة الجامعة التي يشترك في توظيفها واستعمالها والاعتزاز بها كلُّ المواطنين في البلاد العربية؛ لما تضمُّه من تماسك اجتماعي وتوحدٍ مرجعي، وليس معنى أن تكون العربية لغةً جامعةً إقصاء اللغات واللهجات الأخرى التي تزخر بها البلاد العربية، وطمسها، من مثل الكردية والأرمنية والآرامية، وغيرها في شرقي البلاد العربية، أو الأمازيغية بلهجاتها المختلفة في غربيها، فلكل لغة أهميتها، ووظيفتها التواصلية، وقيمتها الاجتماعية في المناطق المعتمدة فيها؛ إذ لا تستطيع اللغة العربية أن تحل محلها، وأن تقوم بالمهمة نفسها التي تقوم بها بين المتحدثين بها، فإن لكل لغة منها رصيْدًا ثقافيًا ومعرفيًا وحضاريًا، يختلف قوةً وضعفًا بحسب ما تراكم لديها عبر تاريخها.

ولا يعني ذلك أيضًا الاستغناء مطلقًا عن اللغات الأجنبية المستعملة في هذه البلاد، بوصفها لغةً التواصل مع العالم، ولغةً العلم والمعرفة في نسختها الحديثة، بما يسمح بمواكبة التطور العلمي والمستجدات العصرية، ولكن ينبغي لنا ألا ننخدع بما يذهب إليه كثيرون في مجتمعاتنا، بأنه لا تقدّم إلا باعتماد اللغات التي يصلنا بها ما انتهى إليه العلم الحديث، ولا

¹ أبرز عباس محمود العقاد خصائص اللغة العربية في كتابه اللغة الشاعرة (القاهرة: مطبعة الاستقلال الكبرى، مكتبة غريب، د.ت)، وبخاصة بين الصفحتين 5-9.

شكَّ في أن من أصحاب هذه اللغات من يدفع إلى ترويج هذه الفكرة، ويجنون من ورائها أرباحًا مادية ومعنوية كبيرة، وقد عبَّر عن ذلك الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول في قوله المشهورة: "لقد صنعت لنا اللغة الفرنسية ما لم تصنعه الجيوش"¹، فاللغة من أهمِّ الوسائل التي اعتمدها فرنسا للهيمنة على اقتصاد مستعمراتها السابقة، وإبقاء هذه المستعمرات على اللغة الفرنسية في المجالات الاقتصادية والمؤسسات الإدارية والمناهج التعليمية؛ جعلَ أغلب المعاملات التجارية تتمُّ معها بوساطتها، لسهولة التواصل بلغتها أولاً، ولأنها ثانيًا الحاضن للمنظمة الفرنكوفونية التي تنضوي تحت لوائها الدول التي ذاقت مرارة استعمارها، ويتعيَّن عليها - بحُكم انتمائها إلى هذه المنظمة - أن تكون فرنسا وجهتها الأولى لتضاء حاجياتها، حتى إذا لم تجد ما ترغب فيه عندها؛ حُقَّ لها أن تُؤلي إلى وجهة أخرى، والشيء نفسه يصدق على الدول التابعة لمنظمة الكومنولث.

بين التعددية اللسانية واللغة الجامعة وتحقيق الأمن الثقافي

نحن في حاجة إلى ترشيده لغويٍّ قائم على وضعٍ كلِّ لغةٍ من اللغات المستعملة في البلاد - سواء أكانت وطنية أم دخيلة - في مكانها الطبيعي من منظومة الوطن اللغوية، وذلك بغية الوصول إلى "إقرار العدالة اللغوية التي تحترم الحقوق اللغوية للأفراد والجماعات"²، التي تؤدي إلى استتباب الأمن الثقافي القائم على مجموعة من الأسس المتضافرة لحصول السلم الاجتماعي داخل الوطن الواحد، ومن أهمها:

¹ فؤاد بوعلوي، "اللغة وخطاب السلطة"، موقع هسبريس، نُشر في 29 مارس 2011.

² عبد القادر الفاسي الفهري، "أكاديمية محمد السادس للغة العربية، الآن، لماذا؟ وكيف؟"، جمعية اللسانيات بالمغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 23 يناير 2012.

1. ترسيخ الاعتراد بالمكوّنات الهويّاتية التي تصوغ شخصية كل فئة مجتمعية وكيانها، والحفاظ على مقوماتها الثقافية التي ضمّنتها أفكارها وعواطفها ورؤاها، وعلى رأسها اللغة التي هي أساس كلِّ ثقافة، بما تُوطّن المعرفة، ويُشر الوعي بين أفراد المجتمع الواحد، على ألا يتحوّل هذا الاعتراد إلى عنصريةٍ وتطرّفٍ وإقصاءٍ للغات الوطنية الأخرى، التي تكوّن في مجموعها رصيّدًا ثقافيًا لا يمكن الاستغناء عنه.

2. التوافق بين مكوّنات البلد الواحد ذي التعددية اللسانية على اعتماد لغةٍ واحدةٍ جامعةٍ، تكون أكثر قدرةً من بين اللغات الوطنية على القيام بهذه المهمة، هذه اللغة التي بما يتقوّى التماسك الاجتماعي بين جميع مكوّنات الأمة، وبخاصة إن توفّر لها ما يربطها بهذه المكوّنات من مرجعيّات دينية وثقافية وتاريخية.

وينبغي لهذا التوافق أن يتمّ عن طريق التوعية بالمهمة الذي يمكن أن تقوم به اللغة الجامعة في التنمية الحضارية، والترابط المجتمعي، ووحدة الأمة الوطنية، بغرض توحيد الصف في وجه كلِّ تقسيمٍ أو تفتيتٍ أو إضعافٍ للشعور بالهوية المشتركة، وقد نجحت بعض الدول العالمية التي وحدت لغتها - مع ما تعرفه من تعدّد لساني كبير، واحتياج لغةٍ أجنبيةٍ فضاءها الثقافي - في بناء صرح الأمة الموحّدة التي استطاعت أن تتخلّص من الهيمنة الاستعمارية شكلاً ومضموناً، وفي اكتساح العالم بعد ذلك بإننتاجاتها، وفرض لغتها في المحافل الدولية، وأبرز مثل ذلك دولة الصين التي وحدت لغتها عام (1949) مباشرة بعد نجاح (ماو تسي تونغ) في الوصول إلى الحكم، وذلك باعتماد أكثر اللغات تداولاً وانتشاراً في البلد، وهي اللغة التي كانت متداولة في العاصمة بكين وما جاورها، وكان ذلك أوّل قرار اتخذهُ بعد تولّيه السلطة؛ ليقينه أن التنمية الشاملة لا يمكن أن تتمّ إلا بتوحيد اللغة داخل البلاد، هذه اللغة التي لن تكون إلا واحدة من اللغات الوطنية.

وينبغي أيضاً لهذا التوافق أن يتمَّ بعدَ فتحِ نقاشٍ حقيقي بين جميع الأطراف المؤثِّثة للمشهد الثقافي داخل البلد، توطُّره نخبة من المفكرين والجامعيين يدرسون السياسة اللغوية دراسةً معمقةً موضوعية، ويخرجون بنتيجة ذات أسس منطقية يقتنع بها الجميع، تنبني على قواسم مشتركة ترسم معالم مجتمع موحد متضامن، تربط بين أفراد اللغة الموحَّدة في المقام الأول.

3. التخلُّص من التبعية اللغوية، والتحرُّر من الاستلاب الثقافي؛ إذ تبقى الفئة المستلَّبة تابعة أصحاب اللغة المهيمنة في متطلِّبات حياتها جميعها؛ الاقتصادية والسياسية والفكرية، لأن الفرد يفكر باللغة، ويُعبِّر بها، ويبيِّن - بما تملِّه عليه الثقافة المنحدرة عنها - نمطَ حياته داخل أسرته وخارجها، وهذا ما نلحظُه عند بعض الأُسَر في وطننا العربي، التي تتعامل مع أولادها وجيرانها وفي دائرتها الاجتماعية الضيقة باللغة الأجنبية، ظناً منها أن من تكلم لغة الدول الغربية المتقدِّمة علمياً؛ كان متقدِّماً ومتحصِّراً أكثر ممن اعتدَّ بلغته الوطنية وتعامل بها، ودافع بالانتصار لها عن كرامته وكرامة أهلها، وغاب عن هؤلاء أن الأمم لا تتقدَّم بلغةٍ غيرِها، بل تتقدَّم على قدرِ الجهد الذي يبذله أبناؤها في بناء صرح العلم واقتحام دروب المعرفة.

4. الاحتراز من الدعوة إلى ترسيم الدوارج واللهجات المنبثقة عن اللغة الأم، وإحلالها محلَّها في الإعلام والإعلانات والتعليم، مع الإبقاء على اعتماد اللغة الأجنبية في الإدارة والاقتصاد والبحث العلمي؛ إذ نجدُ بعض الأصوات في بعض البلاد العربية - ومنها المملكة المغربية - تدعو إلى ذلك، بل بدأ تطبيقها حقاً في بعض المنابر الإعلامية السمعية والبصرية والمكتوبة، وفي الإعلانات العمومية، بحجة أنها لغة التخاطب اليومي بين أفراد المجتمع، وأنها اللغة الأقرب إلى فهم العامة، واستعمالها يُقرب المسافة بينهم وبين المنتج المقدم إليهم، وأنها أيضاً الأقدَر على الخروج بالبلاد من التخلف العلمي، وتلك مغالطة كبيرة، يدحضها أن اللهجات ظاهرة عند الأمم جميعها، وفي جميع العصور، وهي تدخلُ في إطار ما يُطلق عليه اليوم

"الازدواجية اللغوية"؛ إذ يقرّر أندريه مارتنيه صاحب نظرية النحو الوظيفي؛ "أن الازدواجية توجد في كلِّ المجتمعات، حتى تلكم التي نعتبرها مجتمعات أحادية اللغة"¹.
والمقصود بالازدواجية اللغوية حضور مستويين للغة الواحدة؛ مستوى رفيع منضبط لقواعد ثابتة، ومستوى وضع غير منضبط للقواعد نفسها التي هي أصلٌ فيه، ويميّز بينَ المستويين في الثقافة العربية باللسان الفصيح أو اللغة العربية الفصحى، في مقابل اللسان العامي أو اللغة الدارجة، ولكلِّ مستوى مجالات ومقامات يُستعمل فيها، فالفصحى تُستعمل في المجالات الأدبية والعلمية والإدارية والخطابات الرسمية، والعامية تُستعمل في البيت والشارع؛ إذ يعمل التداؤل السريع والمتكرّر للغة على تغيير بنيتها أحياناً، أو اختزلها، أو إدراج ألفاظ دخيلة في متنها، أو توظيف الساقط من الكلام في الخطاب بها، مما يجعل منها لغةً وضيعةً سوقيةً مبتدلةً لا يحسن التعامل الرسمي بها.

ومن ثمّ يفهم العامة اللغة الفصحى في مستواها التداولي، ويستسيغون الاستماع إليها، وهو ما تؤكده النسبة العالية لمتابعة الأخبار في القنوات الدولية الناطقة بالعربية، من مثل قناتي الجزيرة العربية وغيرهما، باستثناء ما يتعدّر عليهم فهمه من المصطلحات التقنية المتّصلة بقطاع معيّن، مما لا يفهمه بعض المتقنين الذين لا ينتمون إلى القطاع نفسه.

ودعوى أنّ العامة الأقدُر على الخروج بالبلاد من التخلف، هي من الدعاوى التي تضحك، فهل من أمة في العالم وعبر التاريخ تقدّمت علمياً وحضارياً باستعمال اللغة العامية وتحليلها عن لغتها الأم التي انبثقت عنها؟ والجواب طبعاً بالنفي، وما تقدّم العرب في عصورهم الذهبية إلا بلغتهم الفصحى.

¹ محمد نافع العشري، "الازدواجية اللغوية في المغرب: ملاحظات على مؤتمر جمعية زاكورة للتربية"، موقع هسبريس، نُشر في 19 يناير 2011.

ومن جهة أخرى ليست العامية أو الدارجة أو اللهجة واحدة في البلد الواحد، بل هي مجموعة من الدواج واللهجات المتفرقة وفق المناطق التي تنتمي إليها الوحدات الاجتماعية ذات الأصول الفرعية المنحدرة عن الأصل اللغوي العام، من مثل ما نجد في المملكة المغربية من استيطان اللهجة الجبلية في شمالها، واللهجة الحسانية في جنوبها، واللهجة المدينية في مدن الوسط، واللهجة العروبية في باديتها، مع اختلافات بين لهجات المدن والبوادي فيما بينها، إضافة إلى اللهجات الثلاث المتفرعة عن اللغة الأمازيغية، وهي الريفية في الشمال، والشلحة في الوسط، والسوسية في الجنوب، وهذا ما يجعل ترسيم لهجة واحدة من هذه اللهجات المتعددة من دون غيرها، مما يتعدّر التوافق عليه بين جميع الأطراف، لأن كل طرف سينتصر للهجته، كما أن أيًا من هذه اللهجات ليست لها خصائص تؤهلها لتكون لغةً مشتركةً بين الجميع، ولكن ما يملك تلك الخصائص، وليس ملكًا خاصًا لفئة مجتمعية من دون أخرى، هو اللغة العربية الفصحى، فهي التي يمكن أن يتوافق عليها بين جميع الأطراف، بسبب الروابط الثقافية والتاريخية والوجدانية التي تربطها بالمكونات المجتمعية جميعها، لذا كانت اللغة المؤهلة لأن يكون عليها الإجماع الوطني، وأن يُجمع بها شمل الأمة، وبذلك تستحق أن تسمى "لغةً جامعةً".

5. ضرورة إحداث مؤسسة حكومية تهتم بالشأن اللغوي، مع التركيز على اللغة الوطنية الجامعة في كل بلد عربي، يُختار لها باحثون جامعيون ومؤثرون في قطاعات البلاد الحيوية، ولا تكون مهمتها علمية صرفًا، كما هو شأن الجامعات العلمية التي أنشئت في بعض الدول العربية، من مثل المجمع العلمي العربي بدمشق الذي أنشئ عام (1919)، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة عام (1932)، والمجمع العلمي العراقي عام (1947)، ومجمع اللغة العربية الأردني عام (1977)، ومجمع اللغة العربية بالجزائر عام (1986)، وغيرها، ولا هي من قبيل حماية

اللغة والدفاع عنها، كما هو شأن الجمعية المغربية لخدمة (حماية) اللغة العربية بالمغرب، ومثيلتها بالإمارات العربية المتحدة، وغيرها، بل تشمل مهمتها الجانبين معًا، بالإضافة إلى مهمة توعوية تقوم على توضيح مكانة اللغة في خدمة وحدة الأمة الوطنية.

إذن، مهمة هذه المؤسسة تروم ثلاثة أهداف:

- العمل على تطوير اللغة على مستوى مئنها وأدواتها ومواردها الذاتية والغيرية.
- الكشف عن الأخطار والتحديات التي تواجهها اللغة في وطنها، والعمل على حمايتها من كل ما يهددها، وإيصال صوت أبنائها الغيورين عليها إلى أصحاب القرار، لدفعهم إلى استصدار قوانين تحميها من كل التجاوزات التي تمتد إليها.
- العمل على استتباب الأمن الثقافي في البلاد، بإقرار إستراتيجية وطنية تقوم على سياسة تشاركية، تُستدعى لها جميع المؤسسات المهتمة بالشأن اللغوي، لدراسة الفرادة الثقافية والبنائية للُّغات الوطنية، وتأكيد القيمة الثقافية المضافة التي يكفلها التعدد اللغوي داخل الوطن، مع التركيز على ضرورة اعتماد لغة وطنية جامعة تضمن وحدة الأمة، وتُبعد شَبَح الصراع اللغوي بين أنصار اللغات المختلفة، وذلك بالوقوف على فرادة كل لغة على حدة، وما تمثله بالنسبة إلى الطائفة التي تتكلم بها، وإيضاح الفروق اللغوية التي تميّز هذه اللغات، لتقريب وجهات النظر بين الفرقاء اللغويين، بغرض اختيار لغة واحدة من بين تلك اللغات، تجمع أكثر ما يمكن من الخصائص المشتركة بينها، وتكون ذات مؤهلات ذاتية ووطنية ودولية، ترشّحها لتكون اللغة الوطنية الجامعة التي تجتمع عليها الأمة، وليُفرض بناءً على ذلك ترسيمها، وتعزيز العمل بها، واعتمادها في جميع المرافق العمومية، والقطاعات الإنتاجية، والتعاملات الإدارية، والمناهج التعليمية.

خاتمة

عندما تصل أمة إلى ترسيم لغة وطنية مشتركة جامعة، ويعزز تداؤها في القطاعات الحيوية كلها، يحق لها أن تفخر بأنها أصبحت تمتاز بكيان مستقل، وأنها تخلصت مع جميع مظاهر الاستلاب والتبعية، وأنها انخرطت حقاً في مدارج التنمية الشاملة، وأنها حققت وحدتها الوطنية في أسمى صورها، واستتب لها أمنها الثقافي الذي هو ركيزة أساس من ركائز أمنها القومي.

المصادر والمراجع

عباس محمود العقاد، **اللغة الشاعرة** (القاهرة: مطبعة الاستقلال الكبرى، مكتبة غريب، د.ت).

عبد العلي الودغيري، "أهمية اللغة العربية في تحقيق التنمية الشمولية والأمن الثقافي"، **الملتقى الوطني الثاني للغة العربية**، الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية، فاس، 1 مارس 2011.

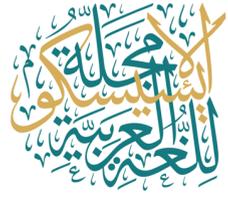
عبد القادر الفاسي الفهري، "أكاديمية محمد السادس للغة العربية، الآن، لماذا؟ وكيف؟"، **جمعية اللسانيات بالمغرب**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 23 يناير 2012.

فؤاد بوعلي، "**اللغة وخطاب السلطة**"، **موقع هسبريس**، نُشر في 29 مارس 2011. محمد الكتاني، "اللغة العربية في مشروع التنمية بالمغرب"، **الملتقى الوطني الأول للغة العربية**، الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية، فاس، 1 مارس 2010.

محمد نافع العشيري، "**الازدواجية اللغوية في المغرب: ملاحظات على مؤتمر جمعية زاكورة للتربية**"، **موقع هسبريس**، نُشر في 19 يناير 2011.

References

- Abbās Maḥmūd al-Aqqād, *al-Lughah al-Shā'irah* (Cairo: Maṭba'ah al-Istiqlāl al-Kubrā, Maktabah Gharīb).
- Abdul'alī al-Wadghīrī, "Ahammiyyah al-Lughah al-'Arabiyyah fī Taḥqīq al-Tanmiyah al-Shumūliyyah wal-Amn al-Thaqāfī", *al-Multaqā al-Waṭanī al-Thānī lil-Lughah al-Arabiyyah*, al-Jam'iyah al-Maghribiyyah li-Ḥimāyah al-Lughah al-'Arabiyyah, Fes, March 1, 2011.
- Abdulqādir al-Fāsī al-Fihri, "Akadimiyyah Mohammed VI lil-Lughah al-'Arabiyyah, al-'Ān, Limāthā, Wa-Kyfa?", *Jam'iyah al-Lisāniyyat bil-Maghrib, Kulliyah al-'Ādāb, Rabat*, January 23, 2012.
- Fu'ād Bū'alī, "[al-Lughah wa-Khitāb al-Sulta](#)", *Hespress*, published March 29, 2011.
- Muḥammad al-Katānī, "al-Lughah al-'Arabiyyah fī Mashrū' al-Tanmiyah bil-Maghrib", *al-Multaqā al-Waṭanī al-'Awwal lil-Lughah al-'Arabiyyah*, al-Jam'iyah al-Maghribiyyah li-Ḥimāyah al-Lughah al-'Arabiyyah, Fes, March 1, 2011.
- Muḥammad Nāfi' al-'Ashīrī, "[al-Izdiwajiyah al-Lughawiyah fil-Maghrib: Mulahazāt 'alā Mu'tamar Jam'iyah Zakūrah lil-Tarbiyah](#)", *Hespress*, published January 19, 2011.



العِلْمُ فِي اللُّغَتَيْنِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَمُسْتَقْبَلُ التَّعْلِيمِ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ وَالثَّقَافَةِ فِيهِمَا

شفيق بنات*، فؤاد عبد المطلب**

مُلخَص

يناقش هذا البحث قضية العلم والحاجة المستمرة إلى لغة عالمية في البحث العلمي، ويقف عند مكانة الإنكليزية لأنها لغة مشتركة في البحث والنشر والتعليم في عالمنا المعاصر، وعند هيمنتها وتأثيراتها في التعليم والبحث والثقافة بعامة، ويحاول تقديم بعض الآراء الساعية إلى صوغ إجابة معينة عن التساؤل المضمن في العنوان، بمناقشة معلومات وأفكار ومقترحات في جواز أن يُفرض علينا استعمال الإنكليزية أو العربية في تلك المجالات، وهذا النقاش يعني الباحثين ومدريسي المواد العلمية واللغة الإنكليزية والمترجمين والمُعَرِّبين والكتّاب والمحررين والناشرين وقراء العربية بعامة، ويثير ذلك كله نقاشاً آخر فيه شروحات وآراء وإجابات تستند إلى تجارب عملية أو نظرية تتسم بالموضوعية والحيوية من المشتغلين بالتعليم والبحث والثقافة، ممن يواجهون تحديات متزايدة يومياً، ويتداخل في ذلك العاملان الشخصي والعلمي، حتى يمكن القول إن إنتاج المعرفة جزء من عملية تنمية اجتماعية واقتصادية وثقافية شاملة.

الكلمات الرئيسية: اللغة العالمية، اللغة الإنكليزية، اللغة العربية، البحث العلمي، الهيمنة اللغوية

* أستاذ المناهج وطرائق تدريس الإنكليزية لغةً أجنبيةً، كلية الآداب، جامعة جرش، المملكة الأردنية الهاشمية،

.dr.shafiq_banat@yahoo.com

** أستاذ الترجمة والأدب المقارن، مدير مركز اللغات، كلية الآداب، جامعة جرش، المملكة الأردنية الهاشمية،

.fuadmuttalib@jpu.edu.jo



Science in the English and Arabic Languages and the Future of Education, Scientific Research and Culture in Them

Shafiq Banat*, Fuad Abdul Muttaleb**

Abstract

This article discusses the issue of science and its constant need for a universal language in scientific research, while addressing the importance of English as a common language in research, publishing and education in our contemporary world. It also addresses the dominance of English and its impact on education, research and culture in general. And it tries to provide some of the views that seeks to form an answer of a certain kind to the broad issue contained in the title by discussing some information, ideas and suggestions on whether we should use English as a prevalent language or Arabic language in those areas of interest to us. This discussion is meaningful for researchers, teachers of scientific subjects, English, translators, commentators, editors, publishers and Arab readers in general. This will raise another debate in which explanations, opinions and answers will be given to practical or theoretical experiences that are objective and vital to those involved in education, research and culture who face increasing challenges daily. This is intertwined by personal and scientific workers, so that knowledge production can be said to be part of a comprehensive social, economic and cultural development.

Keywords: *global language, English, Arabic, research, linguistic hegemony*

* Professor of Curricula and Methods of Teaching English as a Foreign Language, Faculty of Arts, Jerash University, Jordan, dr.shafiq_banat@yahoo.com.

** Professor of Translation and Comparative Literature, Head of Languages Center, Faculty of Arts, Jerash University, Jordan, fuadmuttalib@jpu.edu.jo.

مُقَدِّمَةٌ

يتطرق هذا البحث إلى قضايا عَدَتْ مُهِمَّةً فِي مجالات البحث العلمي والتواصل والتعليم والنشر؛ إذ تتعلق صناعة العلم بضرورة استعمال اللغة الإنكليزية أداةً لتواصل الباحثين، إلى جانب اللغة القومية في تلك المجالات، ويتحرى البحث بعض الأفكار الرئيسة والقضايا الأساس المتصلة بالإنكليزية في ضوء احتياجاتنا إليها؛ قراءً ودارسين ومتخصصين في مجالات التعليم واللغة والترجمة والبحث العلمي، ويناقش البحث أولاً قضية العلم والحاجة المستمرة إلى لغة عالمية في البحث العلمي، ونعني هنا الإنكليزية، ويعرض ثانياً هيمنة الإنكليزية وتأثيراتها في التعليم والبحث والنشر والثقافة، وفي أثناء ذلك يشير إلى لغات العلم العالمية في الماضي، وإلى المكانة العلمية للإنكليزية في عالمنا المعاصر ومستقبلها لغةً مشتركةً، ويحاول تقديم آراء تخدم صوغ إجابة عن التساؤل المضمّن في عنوانه، بمناقشة معلومات وأفكار ومقترحات في أن يُفرض علينا استعمال الإنكليزية - لأنها لغة راجحة - أو العربية في المجالات التي تعيننا، ويكتسب هذا النقاش معنىً بالنسبة إلى الباحثين ومدريسي المواد العلمية واللغة الإنكليزية والمترجمين والمُعَرِّبين والكتاب والمحررين والناشرين والقراء العرب بعامة، لأنه يقع في سياق العلاقة بين المحلي والعالمي.

ومن المؤمل أن يثير ذلك كله نقاشاً آخر فيه شروحات وآراء وإجابات تستند إلى تجارب عملية أو نظرية تتسم بالموضوعية والحيوية، يقدمها المشتغلون بالتعليم والبحث والثقافة، ممن يواجهون مشكلات وتحديات متزايدةً يومياً، ويتداخل في ذلك العاملان الشخصي والعلمي العام، ويمكن القول إن إنتاج المعرفة جزء من عملية تنمية اجتماعية واقتصادية وثقافية لها أثرها في حياتنا المعاصرة؛ إذ تولّد إخفاقات ونجاحات في الواقع العملي، ويدفعنا هذا إلى النظر في هذه العملية وتقويم تكاليفها ومنافعها تقويمًا مقبولاً، فلا ريب في أن هذه القضايا تحتاج إلى إنعام النظر ملياً فيها، وذلك بسبب التعقيدات الناجمة عن هيمنة الإنكليزية في ميادين التعليم والبحث والنشر والتواصل العلمي والثقافة، وعلاقة لغتنا بذلك كله وموقفها منه، فهي مدعوة إلى المنافسة والتدخّل، تلبيةً لدواعٍ علمية ولغوية

وثقافية وقومية، وانطلاقاً من المشكلات الملحّة المعيشة، يُعالج البحث تحدياً جديداً ربما لم يكن سابقاً كما حاله اليوم، ويُحتزل في مناقشته الهدف الأساس لهذا البحث.

ولا بُدُّ لنا أولاً من التطرُّق إلى طبيعة البحث العلمي ووظيفته في عالمنا المعاصر؛ إذ يعرفُ جهاد حمد البحث العلمي بأنه "من أهم الأنشطة الإنسانية التي يقوم بها الباحث في هذا العصر؛ إذ كان على مرّ العصور أساس النهضات وعماد الدول، وركناً رئيساً في تفاهم الثقافات والحضارة الإنسانية والعمران البشري، وهذا الجهد المنظم المتواصل لا يمكن أن يجري في فراغ؛ إذ ينبغي توفير البيئة السليمة للباحث لكي تساعده في إنتاج بحثٍ علميٍّ محكّم، ومن ثمّ يأتي دور المؤسسة الرسمية لتساعد في إخراج نتائج البحوث العلمية من الأروقة النظرية إلى ميادين التطبيق، حيثُ الارتقاء المباشر بالحياة والحضارة والعمران الإنساني".¹

ويحدّد محمد نضال الريس معنى البحث العلمي بأنه "كلُّ دراسة تتّم، أو بحثٍ أو اختبار يُجرى عن موضوع أو مشكلة على أُسسٍ علمية للتوصل إلى نتائج موضوعية".²

ويشهد العالم منذ بداية القرن الحادي والعشرين إنجازاتٍ بحثيةً مؤثّرة؛ إذ أسهم باحثون من بلدان كثيرة في إنجازات هذه الحقبة الجديدة؛ حقبةً انمازت بمشاركة قوميات عدة وتعاون واسع المدى، واضطلعت العمولة والشابكة والتقانة الرقمية في التمكين لهذه الحقبة الجديدة، بيدّ أن ثمة شيئاً آخر أكثر جوهريةً يعتمل ضمنّ هذه الحركة أيضاً، يكمن في تلك الجهود العلمية التي كلّها سعيٌّ قديمٌ لتبادل المعرفة والأفكار تبادلاً يمكن تحقيقه بوسيلة واحدة مشتركة، هي اللغة الإنكليزية.

وقد أثار مرةً سكوت مونتغمري سؤالاً عريضاً في كتابه الموسوم: "هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟ اللغة الإنكليزية ومستقبل البحث العلمي"،³ محاولاً أن يجيب عنه بطريقته

¹ جهاد حمد، "الفساد في البحث العلمي والحياة الأكاديمية: مستقبل التعليم إلى أين؟"، وكالة معا الإخبارية، نُشر في 23 أغسطس 2015، الاطلاع في 23 يونيو 2018.

² فؤاد عبد المطلب، "الترجمة والبحث العلمي"، مجلة التعريب، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب دمشق، العدد (15)، (1998)، ص 37.

³ سكوت ل. مونتغمري، هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية: اللغة الإنكليزية ومستقبل البحث العلمي، ترجمة: فؤاد عبد المطلب (الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014).

الخاصة في تقصّيه ظاهرة الإنكليزية العالمية وعلاقتها بالعلم، وسبيل نشأتها، وأسباب ذلك، والأشكال التي تجلّت فيها، والمنافع والأضرار التي جلبتها، ومستقبلها في العلم، ودرَسَ الآثار الناجمة عن انتشار هذه اللغة العالمية، آخذًا في الحسبان خاصة الأمم الناشئة التي تتطوّر، وما يزال بحثها العلمي في بدائه نسبيًا، ولم يؤسّس فيها للإنكليزية تأسيسًا راسخًا.

ويشتمل كتاب مونغمري على مقدمة كتبها عالمُ اللغة المشهور ديفيد كريستال، وتمهيد من المؤلّف، مع فصول ستة تعالج جوانب مُهمّةً من هذه الظاهرة؛ حقبة جديدة للعلم، والإنكليزية العالمية، والإنكليزية والعلم، وتأثيرات اللغة العالمية، والماضي والمستقبل في لغات العلم، وفضلاً عن سؤال: "هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟"، يستند النقاش في هذا البحث إلى آراء وردت في هذا الكتاب تنير جوانب من القضية تشغل الباحث أو القارئ العربي لإثارة مزيد تساؤلات وإجابات من المؤمل أن تغني النقاش العلمي واللغوي والثقافي العام الدائر في هذه المسألة في مؤسساتنا العلمية.

ويُناقش هذا البحث نخوض الإنكليزية لغةً مشتركةً في العلم والتقانة منذ تسعينات القرن العشرين، ويحاول استكشاف دلالة استعمالها المتنامي بين ملايين البشر الناطقين بغيرها أساسًا، وبنظرة منهجية عامة، يدرُسُ البحث استعمال الإنكليزية في المجالات العلمية والتقانية في ضوء السجل التاريخي للغات السابقة؛ إذ وُصف استعمالها بأنه غير سليم ويشوّش على الفهم، فُيعاد النظر فيها لغاتٍ مشتركةً، بما في ذلك الإغريقية والسريانية والصينية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية والعربية، ويتطرّق البحث إلى نقد ذلك الاستعمال، ويقوّم ما فيه من إيجابيات، ويلحظ أن معظمه يمكن أن يوجّه بسهولة إلى استعمال أيّ لغةٍ أخرى تحلّ محلّ الإنكليزية في ميدان العلم.

ويمكن أن يُنظر إلى هذا البحث بوصفه وثيق الصلة بعنوانه؛ إذ يجذب مضمونه طيفًا واسعًا من القراء المشتغلين بالعلم والتقانة، واللغويين، والعاملين في دوائر البحث والنشر والتعليم العالي، والمعتنين بأوضاع العلوم الاجتماعية والإدارية، والمعلمين ومصمّمي مقررات اللغة الإنكليزية لأغراض تعليمية جامعية، ولعلمهم يجدونه مفيدًا من قراءته يُيسّر، ومن المهم أن يكتب في مستقبل العلم باحث مُطلّع للقراء كافة، من دون أن يستغرق في الاختصاص.

العالم والحاجة المستمرة إلى لغة عالمية: العلاقة بين الإنكليزية والبحث العلمي ومستقبلها

ولّد النهوض البارز للإنكليزية بشيوعها في مجال التواصل العلمي كثيراً من التعليقات في الأعوام الأخيرة، فبدأت افتتاحيات صحفٍ ومقالات تظهر منشورةً في ستينيات القرن الماضي، ولم تلحظ انتشار الإنكليزية في بلدان عدة فحسب، بل راحت تُدافع عنه أيضاً؛ إذ راحت الكتب التي تدرّس هذا الموضوع تبرز في منتصف تسعينيات القرن نفسه، وكان آنذاك كتاب ديفيد كريستال "الإنكليزية لغة عالمية"، من أبرز الكتب التي وصفت حالة الإنكليزية، وجدّدت التوقعات في بداية القرن الجديد وفق هذا: "في العام (1950) كانت أية فكرة عن الإنكليزية بكونها لغة عالمية مجرد إمكانية نظرية غامضة ومبهمة... مرّت خمسون عاماً، والإنكليزية العالمية موجودة على شكل حقيقة سياسية وثقافية... فهل تطوّرت الأمور إلى درجة أن صعود الإنكليزية بكونها لغة عالمية لا يمكن إيقافه؟"، وقد أدرك كريستال بعد ستة أعوام أن موضوع كتابه أصبح حاسماً مُلزماً بالإجابة عن سؤاله الأساس، وذلك حين نشر الطبعة الثانية من الكتاب، وفيه: "أصبح نموّها كبيراً جداً، فلا شيء يمكن أن يوقف انتشارها المستمرّ بعدها لغة تعارف عالمية، على الأقل في المستقبل المنظور"¹، وانتشرت هذه اللغة، وغدت مهارة أساساً في معظم الحقول العلمية، وتوازت سيطرة الإنكليزية في مجالات العلوم مع سيطرتها في مجالات أخرى، من مثل الفنون والآداب.

ويذكر كثيرون من غير الناطقين الأصليين بالإنكليزية أفلاماً وبرامج تلفزيونية كانت بداية معرفتهم تلك اللغة، وقد أصبحت الإنكليزية لغة كونيّة في المؤتمرات العلمية الدولية، وفي المناطق التي لا يُنطق فيها بها، ومن ثم ازدادت باطراد أعداد الدوريات والمقالات المكتوبة بها، وبدت مؤثّرةً في طبيعة العلاقة بين الزمان والمكان، وغيّرت المعلومات المتدفّقة في وسائل النشر الإلكترونيّة معنى الزمان والمكان في التفاعل الاجتماعي والعلمي والثقافي،² لذا غدا معظم التواصل العلمي يجري بالإنكليزية بين متحدّثيها غير الأصليين.

¹ David Crystal, *English as a Global Language* (London: Cambridge University Press, 2nd Ed., 2003), p. 10.

² انظر: نوفل حاج لطيف، "الحدود: إشكالية العلاقة بين العالمي والمحلي"، *حكمة*، نُشر في 22 مايو 2015، الاطلاع في 23 يونيو 2018.

وفي سياق مناقشة تاريخ لغات التواصل العلمي، كان نهوض الإنكليزية سريعاً مقارنةً بها، وهو يشبه بشدة نهوض اللغة العربية في الألفية الأولى، ونورد في عجالة اقتباساً وثيق الصلة له دلالة تاريخية بالنسبة إلينا، نَشَرَهُ ريتشارد سودرن في كتابه "النظرات الغربية إلى الإسلام في العصور الوسطى" (1963)،¹ وقد ظَهَرَ أساساً في عملٍ عنوانه "الإشارة المضئئة"، لرجلٍ يُدعى "بول الفاروس"، كَتَبَهُ بالإسبانية منتصف القرن التاسع الميلادي، ويشير إلى سرعة انتشار العربية بين الإسبان، إثر عقود قليلة من الفتح، جاء فيه: "أحبَّ المسيحيون قراءة أشعار العرب وقصص حَبَّهم، ودرسوا أعمال الفقهاء والفلاسفة العرب، لا ليردُّوا عليهم، بل ليتعلَّموا العربية الفصحى والجميلة، كان العلماء الشبان المسيحيون الموهوبون يقرؤون ويدرسون كُتُب العرب بحماسة، لقد نسوا لغتهم، وإذا كان هناك بعضٌ من يستطيع كتابة رسالة باللاتينية إلى صديق؛ فقد كان هناك آلاف يستطيعون أن يعبروا بفصاحة عن أنفسهم مستعملين اللغة العربية، وأن يكتبوا بهذه اللغة أشعاراً تفوق أشعار العرب أنفسهم".²

وتلك السرعة في الانتشار والاستعمال جعلت العربية مُرشحةً لأن تكون لغةً مشتركةً للعلم مثلما كانت عليه، ومن قبلها اللاتينية والإغريقية؛ إذ جَلَبَتْ هذه اللغات وغيرها منافع عظيمةً في الماضي جعلت العلم عالمياً، وواجهت صعوبات أيضاً، وقد يرى بعضُهم أن الإنكليزية مثل أيِّ لغةٍ وصلت بوضوح إلى مرحلة لغة العلم المشتركة نتيجة تطورات تاريخية معينة، ومؤكِّد أنها لم تصل إلى تحقيق تلك المكانة العالمية بخصائص متأصلة فيها.

وتُظهر مراجعة البيانات والآراء في متحدثي الإنكليزية وبلدانهم، والتعليم العالي الجاري بها، والبحث الذي يتمُّ بوساطتها؛ أن المتحدثين أصلاً بها يتباطؤون في سيرهم خلف سائر العالم الثنائي أو المتعدد اللغات، وذلك يستدعي مناقشة العوامل المؤيدة أو المناوئة للإنكليزية

¹ انظر: ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: رضوان السيد (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2006)، ص58، 59.

² في كتاب سودرن ظهر النص مترجماً إلى الإنكليزية، وهو مترجم إلى العربية أيضاً في بحث جاكلين كي، الموسوم "الإمبريالية الإسلامية وخلق بعض الأفكار عن أوروبا في الآداب الغربية"، ترجمه فؤاد عبد المطلب بعنوان "الفتوحات الإسلامية وخلق بعض الأفكار عن أوروبا في الآداب الغربية"، المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وآدابها، (6)2، (2020)، ص77-98.

العلمية العالمية، وهجرة الأدمغة، ومشكلة استئصال اللغات المحلية أو قمعها، وهيمنة المواد المرئية، ومع ذلك لا ينبغي للهيمنة أن تُحسب واقعاً حقاً، بل ينبغي تشجيع التواصل باللغات المحلية، وألا يجري تفضيل مقصود للنشر بالإنكليزية عالمياً؛ لأنه أمرٌ أساس حاضراً عملياً.

ويمكن الإشارة إلى مخاوف من قمع ثقافي للُّغات المحلية من دون مسوِّغ غالباً، وللتجربة الآلية بخاصة مكانة في هذا السياق، بيد أن هذه الأخيرة لما تصل بعداً إلى دقّة تحوّلها تسهيل النشر العالمي المنصف؛ لأنه يكثر تحوُّله إلى الربح، وقد أصبحت قواعد بيانات المرجعية (WoS، Scopus) تنحاز نحو هذا النوع من النشر للأبحاث المكتوبة بالإنكليزية، واتسعت الرؤية العالمية لأبيّ مجلة مقبولة في تلك القواعد البيانية، والحق أن النشر في هذا النوع من الدوريات لا يشير دائماً إلى التميز، بل إلى عوامل تصنيفية ورجحية، لذا راحت اللغة الأنجلو أمريكية تسود ميدان النشر العلمي، على أيدي محررين ومترجمين وناشرين يرون كثير منهم إلى أهداف ربحية وتسويقية، وتميل هذه الإنكليزية تحديداً إلى قمع النماذج غير القياسية من الإنكليزية الحاضرة دائماً في الأماكن كلّها، ويفرض واقع الحال قبول هذه النماذج أو النسخ الشائعة جداً وتكييفها أو الاعتياد عليها في المستقبل؛ إذ حلّت لغاتٌ جديدة مكان اللغات المشتركة السابقة أو لغات العلم التي كانت سائدة، وهذا يجعلنا نتساءل عن المكانة المستقبلية للإنكليزية في هذا الوضع المثير، ويمكن القول إن اللغة الصينية مرشحة لتؤدي هذه المكانة، ولكن ثمة احتمال يحد من ذلك ينشأ من نشر الصينيين بالإنكليزية نشرًا واسعاً غير مسبوق.

ويتجلى الغرض الرئيس من النقاش هنا في شرح أسباب تطوُّر الإنكليزية إلى لغةٍ مشتركةٍ للعلوم، والسبيل الذي ستسلكه مستقبلاً بوصفها كذلك؛ إذ يتحدث بها اليوم زهاء ملياري نسمة في أكثر من (120) بلداً، وبدرجات متفاوتة من الأهلية، ولكن جميعهم يستطيعون الإفصاح عما يفكرون به، وكذا التوجه نحو إحراز المزيد من الكفاية في استعمال هذه اللغة يزداد بسرعة في بلدان كثيرة، وبخاصة في الصين،¹ ومهما يكن فقد أسهمت عوامل في هذا التطور، من مثل الثورة الصناعية التي انطلقت من إنكلترا، والاستعمار الناجم

¹ انظر: مونتغمري، هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟ ص 11.

عن هذه الثورة، الذي تَرَكَ وراءه الإنكليزية في بلدان مؤثرة دوليًا، من مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا والهند، والعملة التي نشأت عامة بقوة الدفع الأمريكية في العشرين عامًا الماضية، أي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية، وأدَّت إلى نموٍّ واضحٍ في أشكال الاتصال الدولي كلِّها، في العلوم، والشابكة التي يجري التواصل فيها بالإنكليزية غالبًا، وأشكال الثقافة الشعبية التي أصبحت ظاهرةً عالميةً اليوم؛ الأفلام والموسيقا والتلفاز والملابس ونحو ذلك، لذا كانت الإنكليزية إحدى لغات العلم، وقد كانت تأتي بعد الألمانية في النشر العلمي، ولكن منذ بداية خمسينيات القرن العشرين ساعدت المنشورات العلمية بالإنكليزية في كثير من البلدان، وبعدها ازداد استعمال الإنكليزية على نحوٍ ثابت، والعلم الأمريكي هو العامل الرئيس في ذلك، وفي عام (1980) أصبحت الإنكليزية لغة (70٪) من النشر العلمي، وبعده عشرة أعوام فقط وَصَلَتْ نسبة استعمالها إلى (90٪) في معظم مجالات البحث العلمي،¹ لذا كانت هذه المعلومات والحقائق بمنزلة إجابات متوالية غير مباشرة عن السؤال الرئيس المثار، وأتى جوابه الصريح في النهاية؛ الإنكليزية لغةً عالميةً.

وقد يتساءل المرء عن ذلك عن كيفية استمرار الأمور، وعن احتمالات أو بدائل مختلفة، من مثل بروز لغةٍ علميةٍ أُخرى، أو تبديل الإنكليزية في المستقبل في صيغها أو مصادرها الأساس، ويمكن مناقشة هذه المسائل على أنحاء مختلفة، ولكن دائمًا بطريقة موضوعية مُقنعة، ويمكن شرح السبيل الذي امتدَّت به سيطرة الإنكليزية قبل المنشورات العلمية الرسمية، إلى المنظَّمات الدولية، والمراسلات العامة، وإعلانات الوظائف الجامعية، والزمرات العلمية، والمواقع الشبكية، وغيرها من المجالات.

إن اعتماد العلم لغةً واحدةً سَبَبٌ أَقْلُ مكانة من تسهيل لغةٍ مشتركةٍ حدوث حُطًا متقدِّمة رئيسة في المجالات العلمية والتعليمية الأخرى، وحيث تنقصى مكانة الإنكليزية لغةً عالميةً للعلم، ينبغي لنا التركيز بوضوح على العلوم الطبيعية والتقانية، وهي وثيقة الصلة بالعلوم الاجتماعية والإدارية والإنسانية بعامة، ولكن من دون الخوض فيها، وفي توضيح العلاقة

¹ انظر: المرجع السابق، ص42.

بَيْنَها من منظور لغوي، لذا يمكن النظر إلى النقاش هنا بوصفه توضيحًا للطريقة التي نشأت بها الدراسات الجديدة للإنكليزية العالمية، وهي قصة علمية يمكن أن يرويها أيُّ باحثٍ تحسُّمٍ عناء محاولة فهم التفكير اللغوي القائم في الاستعمال العلمي للإنكليزية.

ويمكننا هنا استعمالُ منظور لغوي في مقاربتنا اللغة الإنكليزية تحديداً، التي يستعملها معظم الناس استعمالاً طبيعياً من دون التفكير في أنها لسان عالمي في البحث العلمي، فمن الملحوظ أن الميدان العلمي يتعولم بسرعة، وينبغي لكلٍ من يعمل في علمٍ من العلوم، أو ينوي الدخول إليه؛ أن يضع هذه الفكرة نصب عينيه، وهذا راجعٌ إلى أن الباحثين في الأماكن كلها تقريباً يُقرُّون بأن الإنكليزية أصبحت لغةً مشتركةً، والحقيقة أن هذه ليست المرة الأولى التي تمتاز بها لغةٌ بمفردها بهذا القدر من التأثير، فقد سبقتُها في ذلك لغات عدة كما ذُكر.

إن مراجعة هذه القضايا كلها تهدف إلى إحراز نوعٍ من الرؤيا لما يمكن أن يحدث في العقود القادمة، ومن ثمَّ يمكن تفحص فكرة استدعاء الترجمة كي تحتل مكانتها بديلاً للغة المشتركة، فتجعلها حاجةً غيرَ ضرورية، ولعل بعضهم لا يفضِّل هذه الفكرة، ويناقشها بطريقة واعية مُقنعة، ويقدم عرضاً لمحاولات الارتداد عن اللغة المشتركة، وفي النهاية نخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه المحاولات لا تستطيع إضعاف الحاجة إلى لغةٍ علميةٍ، بسبب المنافع الجمة التي تقدِّمها، وبخاصة فيما يسمَّى "البلدان النامية"، والبلدان العربية في قلبها.

ويظن بعضهم - من مثل جاكلين كي وسكوت مونتغمري¹ - أن لغات العلم المشتركة، من مثل اللاتينية والعربية، قد فُرِضتا غالباً بالقوة العسكرية الغازية، واستمرت طويلاً بعد تلاشي قوة الفاتحين، وظلَّتا قرونًا مستودعًا للنصوص العلمية المختلفة وللمعرفة بعامة، واليوم بعد أن وَصَلتِ الإنكليزية إلى النقطة التي تستطيع أن تنمو بها ذاتياً، لم تعد تستند إلى الوضع الجغرافي السياسي للولايات المتحدة الذي كان له تأثيره الواضح عالمياً، فإن حجم المقالات الصادرة بالإنكليزية ينمو بمعدل زيادة هائلة في كلِّ عام، وثمة آلاف من المقالات

¹ انظر: المرجع السابق، ص 192.

تُنشر في اليوم الواحد، ومن المعروف أنه لا يتوفَّر جهاز للترجمة - بشريًّا كان أم آليًّا - يمكنه أن يترجم هذا الحجم من الأعمال إلى أيِّ لغةٍ كانت في مدَّة محدَّدة، وذلك يستدعي الإشارة إلى ضعفِ الإمكانية العربية في هذا المجال.

العالم واللغة: نماذج الماضي والحاضر والتوقعات المستقبلية

لا يمكن للعلم أن يكون من دون لغةٍ، ولعل هذه من الحقائق التي يُثبتها تاريخ العلم بالإشارة إلى لغاته السائدة قديمًا، ويمكننا هنا توجيه تساؤل رئيس إلى جميع المنشغلين بالعلاقة بين العلم واللغة والزمان والمكان حالًا ومستقبلًا، فقد أصبحت الإنكليزية لسانًا عالميًّا مستعملًا في العمل العلمي، وقد نقبل هذه الحقيقة ونؤيدها، أو نرثي لها، أو نبدي امتعاضنا منها، ولكن لا يمكن لنا أن ننكر حضورها أو نُغفل تأثيرها بتجاهلنا إياها والإشارة فقط إلى وقائع مرغوب فيها، ولا ينبغي التسليم والانبراء تلقائيًّا للاحتفاء بمكانة الإنكليزية في العلم إذ نرغب، كما يظهر في مواجهة الواقع العلمي واستكناه ما يعنيه ذلك بالنسبة إلى حاضر العلم والعلماء ومستقبلهم بعامه، وفي بلداننا أيضًا بخاصة، لذا يمكننا النظر إلى الطريقة التي ظهر بها هذا الوضع، وإلى كيفية حركته، وميزاته ومساوئه، وتأثيراته في اللغات الأخرى، ومن الممكن وصف ذلك التساؤل بأنه تحريضي، أي إن بعضَ الباحثين حين ينظرون في هذه الأطروحة، يجدون أن اللغة العالمية أمرٌ ضروري بالنسبة إلى العلم، أو أمرٌ مُقلق، وربما فيه شيء من التسلط أو الروح العدائية، ولعل النظر إلى الفكرة الرئيسة من هذا المنظور غير صائب، فالمرقب المحايد لا يدافع عن الإنكليزية دفاعًا سطحيًّا، بل يقرُّ بوضعها الحالي من دون الدخول عميقًا في مناقشة تضميناته المتعددة؛ إذ يبدو جليًّا أن دفاعه سيتركز في ضرورة توفير العلم للعلماء كلِّهم، وفي الأماكن كلِّها، ولا سيما البلدان النامية، وكما كان صحيحًا في الماضي؛ حضور لغةٍ قابلةٍ للتداول من أطراف عدة حاسمٌ بالنسبة إلى العلم والعلماء اليوم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخاوف من اللغة العالمية ناجمة عن الظن بأن الإنكليزية أداة ثقافية إمبريالية للهيمنة الأنجلو الأمريكية، وقد عبَّر غيرُ باحثٍ عن مثل هذه المخاوف في دراسات رصينة، من مثل روبرت فيليبسون في كتابه "الإمبريالية اللغوية" (1992)،

وسوريش كانا غاراجاه في كتابه "مقاومة الإمبريالية اللغوية في تعليم الإنكليزية" (1999)، وديفيد كريستال في كتابه "الإنكليزية لغة عالمية" (1997، 2003).

ويظهر عادةً في الكتب التي تعني بكتابة البحوث بالإنكليزية دُكُرُ أهداف العمل وأهميته ونتائجه أولاً أو في الملخص، بيد أننا نستطيع تقديم هدف المناقشة من العناوين، وبإمكان المتابع أن يتلمس إجابةً موجزةً في أثناء المناقشة، ولا يحصل على إجابة صريحة مفصّلة ومسوَّعة إلا في الجزء الأخير؛ أنه ينبغي للعلم أن يمتلك لغةً علميةً هي الإنكليزية، وقد ذكرنا بدءاً أن العلم اتخذ الإنكليزية لغةً له لأول مرة في التاريخ، وبات واضحاً أنها تُستعمل في أكثر من (90٪) من الاتصالات العلمية الكونية، والمقالات والكتب، ومواقع المؤسسات البحثية، وقطاع البحث والتطوير الخاص، وسجلات الإحصاءات والبيانات، وطلبات المنح الدراسية، وإعلانات الوظائف ومقابلاتها، والاجتماعات والندوات، والأساتذة الزائرين، وبرامج التدريس في الدراسات العليا، وإن استعملت اللغات القومية الأخرى في عدة بلدان في ميادين العلم والعمل والمجالات التقانية في بلدانها، فإن العلم الذي يقَدَّم إلى جمهور عالمي عريض، مكتوب أو منطوق بعامية؛ هو بالإنكليزية، علاوة عن تحوُّل كثير من الدوريات البحثية المتميزة في مجالات عدة إلى النشر بالإنكليزية.

وإذا أشرنا إلى الإنصاف والتهميش والانحياز الحاصل لمصلحة الإنكليزية وفقدان المجالات بالنسبة إلى لغاتٍ معروفةٍ أخرى، فإننا نرى أيضاً أن اللغة العالمية تجلب مجموعةً من المنافع؛¹ إذ تهدف المعرفة العلمية إلى الوصول إلى جمهور عالمي، ومن ثم تحقيق قبول عالمي، لذا يرغب كثير من العلماء في اللجوء إلى لغة ذات طابع تشاركي، وقد غدا العلم اليوم عالمياً أكثر من ذي قَبْل، مع تصاعد أعداد الطلبة والباحثين المتحدّثين بالإنكليزية التي تؤدي إلى توسُّع في الزمالات، ونشرٍ فوريٍ لنتائج البحوث، وعوامة المعرفة، وأصبح بإمكان الباحثين في البلدان النامية الذين كانوا يشتغلون في البحث بشقِّ الأنفس في العقد الماضي - ممن تتوفَّر لهم فُرصُ الوصول إلى المعرفة في حقوقهم الاختصاصية - أن يلفتوا انتباه نظرائهم إلى أعمالهم

¹ انظر: المرجع السابق، ص 147-174.

في أرجاء مختلفة من العالم، ومن جهة أخرى تظهر التكاليف بوضوح، فمن يمتلكون ناصية لغةٍ واحدةٍ سائدةٍ يجدون أنفسهم محدودين محاصرين مهمَّلين، لذا تتطلب اللغة العالمية بالضرورة اعتمادًا وتكيفًا وتوطيئًا، ولا يمكن تحقيق شيء من هذا بين ليلةٍ وضحاها، بل هي عملية مركبة تتضمن مصاعب ومظالم وإصابات.

وتبرز مشكلة غياب العدالة والإنصاف في الملحوظة الرئيسة الآتية؛ إذ يظهر بعامّة أن اللغة العالمية تقسم العالم إلى قسمين؛ قسمٍ يستطيع استعمالها نظرًا إلى إمكانات محلية أتاحت له دراستها دراسة مميزة، وقسمٍ آخر لا يستطيع ذلك؛ لقلة فُرص تعلّمها، فيبتون نتيجة ذلك ضعفاء، خارج نطاق العمل العلمي الدولي، طوعًا أو اختيارًا.

ووفق هذه الملحوظة ينبغي للباحثين الناطقين بغير الإنكليزية أن يتعلّموها، إلا في حال أرادوا البقاء محدودي الأفق، ولعل من المفيد أيضًا للناطقين بالإنكليزية تعلّم لغةٍ أخرى، من مثل اليابانية أو الروسية أو الألمانية، وتختلف هذه اللغات كلّ عقدين من الزمن أو أكثر، وهنا يظهر غياب الإنصاف والمساواة في هذه المجالات، ويبدو جليًا أن لا اكتراث به، فإن اللغة العالمية إذا قدّمت فُرصًا جديدةً للباحثين بطُرُقٍ مختلفة، فإنها تسبّب للآخرين عوائق وتحدياتٍ كبيرةً.

ومع تأكيد أن هذا المستوى من الهيمنة للغةٍ بعينها لم يسبق أن حدّث تاريخيًا - يمكننا النظر إلى التاريخ للاطلاع على اللغات المشتركة السابقة - يقول مونتغمري في فكرة استهلاكية: "إن عدم معرفة ما جرى في الأزمنة السابقة يعني أن تظلّ طفلًا دائمًا، إن لم يُستفد من جهود العصور الماضية، فلا بُدّ من أن يظلّ العالم دائمًا في طفولة المعرفة"¹، ومن المعروف أن تطوّر العلم في مصر القديمة، أو اليونان، أو الهند، أو الصين، أو الحضارة الإسلامية لاحقًا، أو في أوروبا العصور الوسطى وعصر النهضة؛ إنما كان يعتمد دائمًا على حضور لغةٍ مشتركةٍ ورثت ثقافتها تراث الحضارات القديمة، وكيفته تكيفًا يتناسب ونسيجها العقلي والفكري؛ لأنها مولودة جميعًا من رحمٍ واحدٍ.

¹ المرجع السابق، ص 177.

ويذكر عبد الحليم منتصر أن "الباحث المنصف لا يمكن أن يُغفل أمرَ المدنيات القديمة التي سَبَقَتِ العصرَ الإغريقي، وتقدّمت عليه في التاريخ؛ إذ لا يمكن أن تكون المدينة الإغريقية قد نشأت فجأةً بمعزل عن المدنيات الأخرى من بابلية وآشورية ومصرية فرعونية، وكانت بين الإغريق والمصريين القدماء صلاتٌ وتجارُبٌ وحروبٌ، وترَكَ المصريون من الآثار والبرديات ما يدلُّ على تقدُّمهم في كثير من العلوم والفنون من هندسة وتخطيط وتعدين وفلكٍ... وأنصف هيروdotس - الملقب بأبي التاريخ - هذه الحضارات لما قال إن معظم فلاسفة الإغريق القدامى أمضوا جانبًا من حياتهم في مصر وبلاد الرافدين"¹، وهذا ما جعلهم يطلعون على أصول هذه الحضارات ومظاهرها الفكرية والمادية، وساعدهم في بناء حضارتهم لاحقًا.

وقد كانت الحقبة بين عامي (1680-1970) - حين كان العلم يُكتَب بلغاتٍ محليةٍ - بمنزلة خروج عن القياس، وهي ربما المدة الوحيدة التي تقدّم فيها العلم من دون لغةٍ مشتركةٍ واحدةٍ حقيقيةٍ، ولكن إن نظرنا هنا إلى التاريخ، متفحصين تاريخ اللغات المشتركة، في محاولة للخروج ببعض الاستنتاجات للمستقبل، فمن الممكن قصرُ النقاش على أربع لغات؛ الإغريقية التقليدية والهيلينية، وخليفتها اللاتينية، ومن ثم العربية، وأخيرًا الصينية.

ومن الممكن أن نذكر لغاتٍ أخرى، من مثل الأكادية قديمًا، والألمانية حديثًا، وهي تستحق الدراسة أيضًا، ولكن تلك اللغات الأربع كانت واسعة الانتشار، وأسهمت بشدة في سائر المجالات العلمية، ومن الصحيح القول إن تاريخ العلم هو تاريخ اللغات أيضًا، لذا كانت ناقصةً أيُّ محاولة لفهم مكانة الإنكليزية في العلم حاليًا ومستقبلًا من دون نظرة مفصلة إلى الماضي؛ إذ تقدّم لغات التواصل القديمة مجموعةً مهمّةً من الدلائل التي تتطلب النظر، فقد تميّزت الحقبات التاريخية التي تقدّمت فيها المعرفة بلغاتٍ تواصل أساس، ويتبادر إلى أذهاننا مباشرةً اللغة اللاتينية، لأنها كانت لغة الأوروبيين المتعلمين بين القرنين السادس والسادس عشر الميلاديين، وكانت من الدوافع العلمية اللغوية الكبيرة التي تقدّم العلم بها إلى الأمام، وكذلك كانت العربية لغةً علميةً، وأيضًا الصينية والسنسكريتية والفارسية واليونانية.

¹ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه (القاهرة: دار المعارف، 1971)، ص2، 3.

وتغيَّرَ هذا النمط التاريخي لمدة قصيرة نسبياً في بداية العصر الحديث؛ إذ سادت خلال ثلاث مئة عام من الإنجاز العلمي الحديث - من الربع الأخير للقرن السابع عشر إلى الربع الأخير من القرن العشرين - لغةٌ تواصلٌ واحدة، ومنذُ نهاية القرن السابع عشر راحت أوروبا - المقسَّمة إلى دول قومية متنافسة - تتخلَّى تدريجياً عن اللاتينية لغةً معرفةً إقليميةً، وتستبدلها بلغات محلية هيمنت بعدئذ، فكَتَبَ جوزيف بريستلي وتشارلز داروين بالإنكليزية، وأنطوان لافوازييه ولويس باستور بالفرنسية، وكارل فريدريش غاوس وألبرت آينشتاين بالألمانية، وموَكَّد أن لغاتٍ مشتركة للعلم كانت مؤقَّتة، فسَدَّت الفرنسية الفراغ الذي تَرَكَته اللاتينية على القارة الأوروبية أكثر القرن الثامن عشر، وأدَّت الألمانية هدفاً ماثلاً لمدة محددة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واستمرَّت اللاتينية في مجالات قليلة، من مثل الطب في مناطق من أوروبا الشمالية والشرقية، ولكن كان مَثَلُ اللاتينية مختلفاً كثيراً عن المدى الواسع الذي هيمنت فيه العربية على مناطقها الإقليمية قرونًا - وكذا الصينية - فقد ظَلَّت اللاتينية تُعَلَّم في المدارس، وتُسْتَعْمَل في الدواوين الرسمية، ولكنها تراجعت لهجَّةً محليةً، وإن حَدَثَ هذا التراجع تدريجياً، فليس بؤسَعِ أحدٍ أن ينكر تاريخ اعتماد أوروبا على اللاتينية من عصر النهضة مروراً بعصر الأنوار، ووصولاً إلى العصر الحديث.

ونستطيع القول إن عصرَ هيمنة اللغة المحلية هذا وَصَلَ إلى نهايته منذُ الربع الأخير للقرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، ولو جلستَ اليوم ماري كوري وألبرت آينشتاين على مكتيبيهما لوجدا من الضروري أن يكتبا بالإنكليزية، فالعلم الوطني لا يحتفي، ولكنه يظلُّ حيويًا بالنسبة إلى من يَمُولون ويديرون البحث العلمي، لارتباطه بأولويات وطنية من مثل الهوية، والأمن، والدفاع، والمنافسة الاقتصادية، والقضاء، والصحة، والغذاء، وغيرها، أما بالنسبة إلى العلماء أنفسهم، فليست القومية العامل الحاسم الذي يُدير البحث، بل النتائج التي يطمحون إليها، ومن الصحيح القول إن الباحثين في كلِّ مكان لا يعتنقون العالمية فحسب، بل العولمة دائمة النمو بالنسبة إلى عملهم ومستقبل أنشطتهم، وهي بارزة في بعض سمات العلم المعاصر، من مثل الكتابة متعددة اللغات في الصحف، وكثرة المؤتمرات

الدولية، وتسخير المواهب التقانية من دول عدة في شركات البحث والتنمية، وتنامي أعداد الطلبة الأجانب من أنحاء العالم في الجامعات، وقابلية تحرك الباحثين عالمياً، والاستعمال اليومي للشابكة للحصول على المعلومات والتواصل ووضع قواعد بيانات علمية، ويعني ذلك كله استعمال لغة مشتركة هي الإنكليزية، فاللغة المشتركة في البحث العلمي تزودنا بأداة نافذة للوصول إلى مزيد من العلم بالتشارك، والإبداع فيه مع أناس من أماكن متنوعة.

إن البحث عن أمثلة المستقبل بدراسة أمثلة الماضي مفيد دائماً، ولكنه يأتي مشروطاً، أي إن إعادة تجميع التاريخ اللغوي يمكن أن تُنتج وهماً، فما حَدَثَ لليونانية أو العربية سيحدث للإنكليزية حتماً، بيد أن ذلك ليس واقعاً؛ لأن قراءة الماضي تقدّم وسيلةً للتخمين المنطقي، لا حقائق مؤكّدة بالنسبة إلى التوقعات المستقبلية، ولدينا اليوم معطيات جديدة تماماً، فما من عصرٍ سابقٍ عَرَفَ مقدرة عولمة الاتصال الرقمي، لذا تطلّبت دراسة الماضي درجةً من الجراءة التخمينية المعززة بالمعرفة، ولكن ينبغي لها ألا تتوقّع الوصول إلى الحقائق المطلقة، وإن جرى ذلك بالنسبة إلى العلماء في البلدان كلّها، فإن حقيقة حضور لغةٍ وحيدة موثوق بها عالمياً تتجمّع فيها - مثل مستودع واسع - أجيالاً من النصوص والكتابات والبيانات التي يسهل الوصول إليها؛ يغلب أن تُعدّ مكسباً لهم ولمن بعدهم وللعلم نفسه، وفي هذا السياق يؤدي النظر في لغات التواصل الأساس الأربع في تاريخ العلم - وفي تأثيراتها وما يمكن جمعه منها - إلى الخروج باحتمالات تتعلق بمستقبل الإنكليزية واستعمالها في العلم.

أما العربية وانتشارها لغةً تواصلٍ جديدةً لها امتدادها الكبير، فيمكن القول إن التفاعل الثقافي والعلمي واللغوي توسّع مع ظهور الإسلام، فبجحاحه في القرن السابع الميلادي وتوسّع أراضيه توسّعاً مذهلاً، أصبحت معظم الأراضي التي غزاها الإسكندر المقدوني - وسكنها المسيحيون النسطوريون لاحقاً - تحت الحكم العربي الإسلامي، وشهد العهدان الأموي والعباسي ازدهاراً في التطلّع الفكري والعلمي، وبلغ ذروته في أيام المنصور والرشيد والمأمون في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وقد كثرت أسباب هذا الازدهار؛ إذ ترجع إلى الحقائق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية للدولة الجديدة في مرحلة

تعزيرها الأساس، وتتعلّق هذه الحقائق أيضاً بالتقاليد الفكرية المتنوعة التي تجمّعت وتفاعلت آنذاك تحت حماية السقف العربي الإسلامي، وبحلول القرن التاسع الميلادي أصبحت العربية اللغة الرسمية في الأراضي التي امتدّت من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي، وقد تفاعلت العربية مع اللغات المحلية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ليحدث تنوع متطور من اللهجات المحلية غير المفهومة فيما بينها تقريباً قبل العصر الحديث بمدة، وذلك كما حدّثت للغات الرومانسية التي تفرّعت من اللغة اللاتينية، ولكن العربية الفصحى المكتوبة استمرّت لغة العلم والتواصل النصّي في المناطق الوسطى والغربية من ديار الإسلام، وقد دخلت كلمات أعجمية في العربية، واكتسبت كلمات عربية قديمة دلالات جديدة، وشاعت بكثرة التداول، وأصبح لكلمات كثيرة مترادفات عاش بعضها زمناً، ثم تراجع واندثر، واستمرّ بعضها مستعملاً مع مرادفه الأصلي¹.

ومع صعودها حلّت العربية الفصحى مكان لغات عدّة، ومع أن بعض هذه اللغات أثّرت فيها تأثيراً واضحاً، غدت المكتوبة منها وسيلة للطلبة والمعلمين والعلماء للوصول إلى مجموعة هائلة من الكتابات، والإسهام في إغنائها، ويقول بعض الباحثين إن "قوة اللغة العربية في التواصل بكونها أداة للسان والعلم العربيين نجدها من بين اللغات الحية التي استطاعت - على الرغم من تعدّد صراعتها مع الآخرين تارةً ومع نفسها تارةً أخرى - في المحافظة على صورتها التي انتهت إلينا قبل مبعث الإسلام بقرنين، فلم تُصَبِّها شيخوخة قاهرة تأتي على ذاكرتها أو تشوّه رُوْحَهَا، فازدادت على طول لياليها جدّةً وشباباً مستمرّين"²، ولأنها لغة القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية في النهاية، حلّت بكفاءة وأهلية مكان السريانية واليونانية ولغاتٍ أُخرى، كما فعلت اللاتينية من قبل، ومن صحيح القول أنها تأثّرت بكثير من اللغات تأثراً بالغاً، لأنها لغةٌ محكيّةٌ في العالم الإسلامي بأسره، لتوسّعها

¹ انظر: شفيق بنات، فؤاد عبد المطلب، "الثنائية اللغوية بين اكتساب اللغة الأم (العربية) وتعلم اللغة الأجنبية (الإنكليزية)"، مجلة كلية المأمون الجامعية، بغداد، العدد (26)، (2015)، ص 11-19.

² عيسى المصري، "صراع اللغات"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، دولة الكويت، العدد (696)، نوفمبر (2016)، ص 28.

المتسامح، يُبَدَّ أَنْ ذَلِكَ جَعَلَهَا لُغَةً هَائِلَةً لِلْمَعْرِفَةِ الْمُدَوَّنَةِ فِي مَنَاطِقِ شَاسِعَةٍ، فَمَلَأَتْ أَعْمَالَ مَوْلِيهَا وَأَدْبَائِهَا وَمَتْرَجِيهَا الْمَكْتَبَاتِ الْكَبِيرَةِ مِنْ بَغْدَادِ إِلَى طَلِيلِطْلَةٍ، وَهِيَ أَمَاكِنُ تَفْصَلُ بَيْنَهَا آلَافُ الْأَمْيَالِ وَكَثِيرٌ مِنَ الثَّقَافَاتِ السَّابِقَةِ، لِذَا يَحْتَاجُ اسْتِقْصَاءَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ اللُّغَاتِ وَالثَّقَافَاتِ الَّتِي احْتَكَّتْ بِهَا الْعَرَبِيَّةُ وَثِقَافَتِهَا عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ، إِلَى دَرَسَاتٍ مُسْتَقَلَّةٍ مُسْتَفِيضَةٍ.

وَيَجْبُرُنَا التَّفَاعُلُ بَيْنَ لُغَاتِ التَّوَاصُلِ الْقَدِيمَةِ كَثِيرًا عَنِ التَّطَوُّرِ اللُّغَوِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الْوَالْحَقِيقِيِّ؛ إِذْ يُضْطَرُّنَا الْجَهْلُ بِمَا يَجْرِي فِي الْأَزْمِنَةِ السَّابِقَةِ إِلَى الْبَقَاءِ فِي عَزَلَةٍ، وَالبَدءِ مِنْ جَدِيدٍ دَائِمًا، وَمَا لَمْ يُسْتَفَدَ مِنْ عَمَلِيَّاتِ التَّأَثُّرِ وَالتَّأَثِيرِ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ نَعِيشَ فِي أَحَادِيَةِ الْمَعْرِفَةِ أَوْ طَفُولَتِهَا، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمَفِيدِ إِيرَادُ مَلْحُوظَةِ الْمَفْكَرِ وَالْمُسْتَشْرِقِ الْبَرْتِغَالِيِّ أَرْنُولْدِ شَوِبَرْتِ: "أَجْدُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمْ تَتَّقَهْقِرْ قَطُّ فِيْمَا مَضَى أَمَامَ أَيِّ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الَّتِي احْتَكَّتْ بِهَا، وَأَنْهَا سَتَحَافِظُ عَلَى كِيَانِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا فَعَلَتْ فِي الْمَاضِي، لِأَنَّ لَهَا مَرُونَةً تَمَكَّنَهَا مِنَ التَّكْيُفِ وَفَقًّا لِمَقْتَضِيَّاتِ الْعَصْرِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللُّغَاتِ الْأُورُوبِيَّةَ فَشَبَلَتْ خِلَالَ قَرْنٍ كَامِلٍ أَوْ يَزِيدٍ، فِي أَنْ تُسَيِّطِرَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ أَوْ تُضَعِفَ مَكَانَتَهَا"¹، وَيُؤَكِّدُ أَيْضًا الْأَسْتَاذُ الْأَمْرِيكِيُّ رِيْتَشَارْدُ كُوْتَهْمِيلُ مَكَانَةَ التَّارِيخِ الطَّوِيلِ لِلْعَرَبِيَّةِ وَغِنَاهُ، وَيُضَيِّفُ عَنِ مُسْتَقْبَلِهَا أَنَّهَا "بِفَضْلِ الْأَقْوَامِ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا، وَبِدَاعِيِ انْتِشَارِهَا فِي أَقَالِيمٍ كَثِيرَةٍ، وَاحْتِكَاكَهَا بِمَدَنِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، نَمَتْ إِلَى أَنْ أَصْبَحَتْ لُغَةً مَدَنِيَّةً بِأَسْرَافِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ لُغَةً قَبِيلِيَّةً وَاحِدَةً، وَإِنْ اخْتَلَفَ اللِّسَانُ الْمَغْرِبِيُّ عَنِ الْمَغْرِبِيِّ بِقَدْرِ مَا يَخْتَلِفُ اللِّسَانُ الْمَغْرِبِيُّ عَنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَالْحَضْرَمِيُّ عَنِ الْبَغْدَادِيِّ، فَاللُّغَةُ وَاحِدَةٌ، وَالْحَطُّ وَاحِدٌ، فَالْعَرَبِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَشْبَهُ بِالْإِنْكَلِيزِيَّةِ الَّتِي اجْتَازَتْ الْبَحَارَ، وَقَطَعَتْ الْقَارَاتِ، وَغَدَّتْ أَسَاسًا لِمَدَنِيَّةِ جَامِعَةٍ"².

وَلَكِنْ إِنْ فَقَّدَ الْعِلْمُ تِلْكَ اللُّغَاتِ الْمَشْتَرَكَةَ، لِأَسْبَابٍ جُغْرَافِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَفَلَيْسَتْ الْإِنْكَلِيزِيَّةُ مَعْرُضَةً لِذَلِكَ أَيْضًا؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ ذَلِكَ - بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَإِلَى مُسْتَعْمَلِيهَا - لَا يَبْدُو

¹ المرجع السابق، ص35.

² مجموعة مؤلفين، فتاوى كبار الكتاب والأدباء: مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية، تقديم: سعيد بنكراد (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2013)، ص29.

مرجّح الحدوث، لأن ما طرأ في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين كان مثل ظاهرة كونية غير مسبوقة، ويمكن للمتابع أن يتحدث حديثًا واضحًا سليماً عن حقبة جديدة كما هو وارد في البدء، فولادة لغة عالمية ثانية سيكون على حساب إبطال لغات أخرى؛ إذ ليس من سببٍ مقنع يدعو لغةً قائمةً تتقدّم تقدّمًا مطّردًا، إلى أن تتخلى عن مكانتها للغةٍ أُخرى تخليًا طبيعيًا ودّيًا سلميًا.

ومن المفهوم أن التحسّن الذي يتحقّق في مجال الذكاء الاصطناعي سيخوّل البشر للاحتفاظ بلغاتهم التقليدية، وترجمة جزءٍ من ذلك آليًا مباشرًا إلى الإنكليزية، ولكن برامج الترجمة اليوم لا تستطيع القيام بذلك بكفاءة، وقد يتغير هذا الوضع في المستقبل، فقد أصبحت مثلًا بعضُ البرامج والهواتف النقالة الذكية تمتلك مثل هذه المقدرة، ويُتمثل أن يحدث مثل هذا الارتداد لتغيّر الإنكليزية نفسها بسبب توسّعها على نطاق عالمي، ولكنه سيكون تغيّرًا محدودًا، لأن الإنكليزية تحمل بطبيعتها مقدرةً كبيرةً على التكيف والتغيّر، ولكن لا شكّ في تغيّر المهارات اللغوية للمتحدثين بها الناطقين بغيرها؛ إذ ما يزال بعضنا يتدكّر جيدًا النقاشات التي جرت منذ حوالي ثلاثين عامًا مع أوّل هندي أو ياباني أو صيني أو عربي وصلوا توًّا إلى بريطانيا أو أمريكا، لإجراء بحثٍ ما بعد الدكتوراة، وبسبب اللكنة القوية والكفاية المحدودة في لغة أولئك الباحثين الزائرين كان التواصل معهم مهّدًا بالانحياز في أيّ لحظة، أما اليوم فقد تغيّر هذا كلّهُ، فما تزال اللكنة القوية في لغة الباحثين الزائرين، ولكن التواصل العالمي ممكّنٌ من غيرِ عوائق، وقد أسهمت برامج التبادل المدرسي والطلّابي والبحثي عالميًا في تقوية التواصل، وكما نرى جميعًا، سيّسع ويتحسّن اكتساب الإنكليزية لغة العلم العالمية الوحيدة اليوم، كمثّل مهارة سياقة السيارة أو استعمال الحاسوب، فهي تنفرد في امتلاك هذه الميزة من سائر اللغات، والعامل القومي الذي كان سابقًا - من مثل مقاطعة اللغة الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى، أو إصرار الدولة الفرنسية على استعمال الفرنسية في الأدب العلمي والنقاشات - قد ولى اليوم إلى غير رجعة، ومع ذلك يتعيّن أن نوكّد لاحقًا إنتاج العلم بتلك اللغات لتحقيق المشاركة، وينبغي لذلك أن يتمّ - بالنسبة إلينا -

بالإنكليزية واللغات الأخرى، ويلزم طبعاً أن تحتفظ اللغات القومية بمكانتها، فمن المعقول تماماً أن يجري الحفاظ عليها والعناية بها، ومن المحتمل أن يكون المستقبل ثنائي اللغة، وإحدى اللغتين الشائعتين الإنكليزية العالمية.

وثمة نقاط مهمّة لها علاقة بموضوعنا، أغفلنا الخوض فيها عن قصدٍ، وربما كان لهذا مسوّغاته، لأن التطرق إليها يستدعي نقاشاً إضافياً يتّصف بشيءٍ من الفرادة، فلا بُدّ من إنعام النظر في تضمينات حيّزة الإنكليزية موقعها العالمي وهيمنتها على مجالات البحث العلمي، حالاً ومستقبلاً، وبيان مدى إفادتنا من ذلك جميعاً؛ إذ بإمكان المرء أن يتفق مع الرأي القائل إن الإنكليزية ستقدّم منافع جمةً لأنها لغةٌ مشتركةٌ في العلم والتقانة، وإن استعمل مصطلح "العلم" في النقاش استعمالاً عاماً، لأنه يحدّد العلم أو البحث العلمي في الحقول التي ندكرها أكثر من غيرها، من مثل علوم الحياة والطب والصيدلة والفيزياء والرياضيات والهندسة والطاقة، وما يتعلق بها من فروع العلوم التطبيقية أو العملية أو التقانية، وينبغي لنا ألا تغيب عنا مكانة العلوم الاجتماعية أو التاريخية أو الإدارية أو الفنية، أو الإنسانية من آداب وفنون، أي العلوم النظرية أو الحقول الإبداعية أو الثقافية، وما يتعلق بها من نشاطات وأنواع كثيرة لا مجال لحصرها هنا؛ إذ كثيراً ما يحدث في أدب البحث العلمي أن يسوّي باحثون حقولاً معرفيةً معينةً من اختصاصاتهم، فيجعلونها في قلب العملية البحثية، ويُقْصُونَ اختصاصات أخرى، بقصدٍ أو غيره، ولا يعرفون كثيراً عن طبيعتها ووظائفها، أو يحاولون أحياناً وُضْعَ تحديدات تُدخِلُ معارفهم في الدائرة، وتستبعد نشاطات أو عمليات أو حقولاً معرفيةً أخرى.¹

ومناقشة هذا في سياق الموضوع الذي نعرضه، تدفعنا إلى النظر أيضاً في وضع الإنكليزية لغةً عالميةً في علاقتها بالعلوم الإنسانية وآدابها، وإذا أنعمنا النظر فيما سيحلُّ بالآداب الراقية المكتوبة بلغاتها القومية في معظم بلدان العالم - أي ما يُطلق عليه "الأدب العالمي" - فقد لا تكون الرؤية واعدةً كثيراً؛ إذ تعني هيمنة الإنكليزية على النشر العالمي

¹ انظر: عبد المطلب، الترجمة والبحث العلمي، ص37.

وازدادها في قادمات الأيام؛ أن حجْمَ الترجمات في سائر اللغات سيتناقص بعامة أمام الترجمات من الإنكليزية وإليها، أي إن من يكتبون بها ستسرح لهم الفرصة للوصول إلى جمهور عالمي، وستحظى أعمالهم بمزية الأعمال التقليدية أكثر من غيرهم، ويبدو جلياً أن النشر أصبح صناعةً ثقافيةً قويةً تتحرك تحركاً دائماً وسريعاً.

والنتيجة المستخلصة هنا أن الراغبين في الوصول إلى جمهور عالمي عليهم أن يكتبوا بالإنكليزية، كالباحثين في العلوم التطبيقية، وبذا يغدو الأدب العالمي بالإنكليزية أو مترجماً إليها، أو الأدب بها، أو الأدب الجديد - كما يلحُ بعض المشتغلين في كتابات الحدائث أو دراسات ما بعد الاستعمار - تَحْنُباً لتسميته "الأدب الإنكليزي" أو "الأدب الأمريكي"، والنتيجة لا تعدو أن تكون واحدةً في الحالات معظمها، وكثيراً ما رُفِضَتْ أعمال أدبية ممتازة مكتوبة بغير الإنكليزية في أوساط ثقافية أو علمية، بحجة أنه يتعين نشرها بالإنكليزية، والقيام بذلك لن يغني أدب الإنكليزية، بل يُفقرها، ويشبه هذا كثيراً عزفاً على وترٍ واحد، أو سماع موسيقا من نوع بعينه في الأوقات كلّها؛ إذ يشير الأدب العالمي إلى أعمال إبداعية أو تخيلية يغلب أنها كُتبت سابقاً أو مؤخرًا، وتراكت، ثم أحرزت مكانتها لأنها "عالمية" أو "تقليدية" بفضل الاصطفاء الزمني، وقد يؤدي التوجه المتسارع للقوى المتنافسة في سوق النشر العالمي نحو تفضيل ترجمة أعمال نثرية أو شعرية إلى لغاتٍ أخرى للقراءة أو السماع أو المشاهدة، بعد تحويلها إلى أفلام؛ قد يؤدي إلى إحداث خللٍ ملحوظ في كتابة الأدب العالمي وإنتاجه، ويغلب أن يكون شديد الفرادة، وحينئذ لن تكون الحال أفضل، فالجديد بالنسبة إلى العلم، قد يكون غير ذلك في الأدب أو الفن.

ولعل اللغة في الأدب أكثر أهميةً منها في العلم، فهي ليست ناقلاً للمعلومات أو التجارب فحسب، بل مصدرٌ أساسٌ للمتعة، لذا لا طائل من المحاجة في أن شيئاً ما سيتغير لو كتبت الأدباء كلهم بلغة واحدة، كقولنا: لن نفقد شيئاً لو أنشأ المؤلفون موسيقا واحدة في إسهاماتهم كلّها، وتستطيع الترجمات التقريب بين الإيقاعات والأصوات والصور والتلميحات والعواطف والذكريات والأفكار، وتحتاج إلى مبدعين، فهذه مزايا مهمة في الأدب.

وينبغي لنا أن نأخذ في الحسبان أن الكُتَّاب الكبار يغلب ألا يصنّفوا إلا بلغةٍ واحدةٍ، والكُتَّاب الذين أسهموا في الأدب العالمي بأكثر من لغةٍ قليلون، ولعل جبران خليل جبران، وصامويل بيكيت، وفلاديمير نابوكوف؛ أمثلة بارزة، وأحياناً يُذكر خطأ في هذا المضمار جوزيف كونراد، لأنه لم يكتب أدباً بالبولندية، وثمة كُتَّاب استمروا بالكتابة في المنفى بلغتّهم، نثرًا وشعرًا، من مثل توماس مان، وأدباء عَرَبٌ في المهجر، غادروا إلى الولايات المتحدة، وكتبوا بالعربية، ونجحت أعمالهم جميعًا بالأصل وبعد الترجمة؛ لأنهم يمثّلون حالات نادرة، والملحوظ أن الأعمال المكتوبة بالإنكليزية أكثر حظًا في الترجمة إلى لغاتٍ أُخرى، وربما ظفّرتُ بذلك أيضًا لأسباب اقتصادية وثقافية، لأن الأعمال الأكثر مبيعًا بلغتّها الأصل مرغوبة للترجمة، والحاصل أن الترجمات من اللغات الأصلية تنحصر في لغاتٍ رئيسية، ولما سادت الإنكليزية في صناعة النشر، وتكاثرت الترجمات فيها بازدياد نسبة التعامل بها؛ حظّي الكتّبة بها بفرصٍ أفضل ممن كتّبت بلغاتٍ أُخرى، وبناءً على ذلك يمكننا تفسير الرأي القائل: إذا أردنا الوصول إلى جمهور عالمي انبغى لنا أن نكتب أعمالنا بالإنكليزية، أو أن نعمل جاهدين لترجمتها إليها.

وفي الأدب - كما في العلم - تكون فرصة من يكتب بلغةٍ محليةٍ في النشر أكبر من فرصة من يكتب بلغةٍ رئيسيةٍ، ولكن فُرصته في الترجمة والحصول على اعتراف دولي ستكون حتمًا أقلّ بكثير، وكذلك في العلم، ويُفضي ذلك إلى قول إن من يسعون جاهدين لتزكّ أثرهم في حقولهم المعرفية ينبغي لهم أن ينشروا بالإنكليزية، وسيصبح من يتمسكون بلغتّهم المحلية من دون استعمالهم لغاتٍ أجنبيةً في مقدّماتها الإنكليزية، ضمنَ النظرة العالمية لذوي طموحات وأعمال أقلّ مكانةً، وهناك ضغطٌ مماثل من أجل النشر بالإنكليزية عند المشتغلين بالكتابات الإبداعية، ويرغبون في الوصول إلى جمهور عالمي.

ومن المحتمل أن تؤدي هيمنة الإنكليزية وانتشارها إلى نُضوب الإبداع في المحيط العالمي، وعلى أيّ حال، تُظهِر بيانات في مجال الكتابة الأدبية أن الكُتَّاب بعامة - حتى المهويين منهم بلغاتهم الوطنية - لا يستطيعون التحوّل إلى الإنكليزية لتوفّر الرغبة أو الإرادة

فحسب؛ إذ من المعروف أن الإبداع يجري أساسًا باللغة الأم، لذا كان من شأن سيطرة الإنكليزية أن تُوهن دوافعهم ومحاولاتهم في ذلك الاتجاه، وتؤثّر في حصر أهدافهم لإحراز التميز، ولا يخفى اليوم أن ظروف النشر السهلة نسبيًا والمتوفرة في بلدانهم تتجه نحو النتيجة نفسها أيضًا، وهذا ما قد يُفضي إلى تقليص الإبداع في مجالات عالمية مختلفة، ومن جهة ثانية، قد يغدو الأدب مجالًا فيه أفضل الأعمال بالإنكليزية فقط، وهذا من المخاطر التي تليها هيمنتها على النتاج الأدبي بعامه، وفي هذه الحال، قد يحيل هذا إنتاج الأعمال الإبداعية - بأشكالها كلّها في اللغات الأخرى - على مرتبة الأعمال المحلية بعد أن تحوز هذه الكتابات نجاحًا في بعض المجالات الأدبية أو الثقافية، وإذا كانت المشكلة الناجمة - وهي خلافية طبعًا، وقد تكون فيها آراء متباينة تؤثّر في التواصل تقريبًا كما في العلم - فإن التوقعات المشابهة قد لا تبشّر في حالة الأدب.

وبالنظر إلى التطورات الحاصلة في الأجهزة الإلكترونية والوسائط التخاطبية في الثلاثين سنة المنصرمة، نلاحظ بوضوح هيمنة الإنكليزية على مجالات التسلية والتلقي الثقافي السمعي والبصري، وقد فاق انتشارها ميدان القراءة الاعتيادية في عالم الكتب والمجلات، ولا سيما مسلسلات الأطفال وألعابهم، وقد تُفصح الحاجة في انتشار الترجمات الأدبية وتحويلها إلى أفلام، وتفسر أيضًا هذا التصاعد الكبير للإنكليزية، وستكون النتيجة نافعة في التلفاز، وضارة في السينما، فكثيرًا ما تُصدّر المسلسلات التلفزيونية الأمريكية خارج البلاد إذا تلقّاهما الجمهور في الداخل، وأحرزت نجاحًا، وأحيانًا تنتقل الأفلام التلفزيونية إلى جمهور ناطق بلغة أجنبية قبل أن تنجح في الأسواق المحلية الأمريكية، فقد أحرزت هوليوود مثل هذا الإنجاز السينمائي سابقًا في زمن الأفلام الصامتة.

قد أصبحت الإنكليزية - شئنا أم أبينا - لغة الأدب العالمي والفن والترجمة والتعليم والسياحة والعلاقات الدولية، وسائر وجوه التواصل العالمي، وهي أسرع اللغات نموًا في العالم، مع أناس يتحدثونها أكثر من ذي قبل؛ إذ هناك متحدثون غير أصليين في العالم أكثر من الناطقين بها أساسًا، والاتصالات أو التعاملات الجارية بها بين خمسة أشخاص، تكون لأربعة

منهم من الناطقين بغيرها أساساً، فأطفال المدارس في الهند والصين مثلاً يتعلمون الإنكليزية تعلُّماً مذهباً في سنٍّ مبكرة، مع تأكيد بلدانهم على مكانتها مفتاحاً للولوج إلى عالم التجارة والاقتصاد والأعمال، وبناء على ذلك، يشهر تساؤل عن جدوى الاستمرار في ربط هذا التدويل اللغوي المتنامي بجزيرة صغيرة نَفَّعَ في طَرْفِ أوروبا، كانت يوماً تسيطر على معظم أراضي المعمورة، وأن الوقت حان للتخلي عن اسم "إنكليزية"، فإنها لما تقدمت في إحراز مكانتها العالمية، أُطلقت عليها أسماء مختلفة في الأعوام الأخيرة، من مثل "اللغة العالمية"، أو "اللغة الدولية"، أو "اللغة المشتركة"، أو "اللغة التواصل الدولي"، و"لغة الكون" أو "لغة الكوكب"، و"اللغة المعيارية" أو "اللغة القياسية"، و"اللغة الشاملة" أو "اللغة الشائعة"، و"لغة العلم" أو "لغة التعليم"، و"لغة التخاطب" أو "لغة الاتصال"، ويمكن العثور على غيرها من التسميات في الأدب الصادر بها في الدوريات والكتب والمصادر الأخرى، والحقيقة أنها لم تُعَدَّ بهذا المعنى أن تكون لغةً قوميةً للبريطانيين والأمريكيين ودولٍ أُخرى، بل أصبحت عالميةً تحتاز مكانة اللغة الأساس الثانية في كثير من البلدان، ولغة العلم الأولى في العالم كِله.

ولا يمكننا - نحن العرب أو القرّاء بالعربية - أن ندير ظهورنا إلى قضية العلم الحديث واستعمال الإنكليزية لغةً عالميةً، ولا بُدَّ من العناية بها تعليمياً لأنها اللغة الأجنبية الأولى، كي نتمكّن من الحضور والمشاركة في البيئة العلمية العالمية، من دون نسيان اللغات الأخرى، كالفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والتركية وغيرها، وأن نأخذ في الحسبان حقائق الترجمة والتعريب من العربية وإليها في هذه الحقبة، واعتماد العربية أساساً أداةً حاسمةً في البحث العلمي في مراحل التعليم كِلهما، ولا سيما التعليم الجامعي.

ويحضرنا هنا الادعاء القائل إن تحقيق التقدم العلمي يقتضي التخلي عن اللغة الفصحى وتعقيدها، ومثلُ هذا الرأي يستحق الرثاء، وتاريخ اللغتين اليابانية والصينية يدحض ذلك؛ إذ يكتب أحد الدارسين موضعاً: "ولنا في ذلك عبرة في الدول التي استطاعت النهوض من الفقر والدمار، فهل اضطرَّ الياباني إلى التخلي عن نظام كتابته المعقّد جداً، فُيُضطرَّ الطلبة إلى حفظ بضعة آلاف من الرموز المرسومة، كي ينشئ إمبراطوريةً تقارع

الولايات المتحدة، ولم يتخلَّوا عنها حينَ سَعَوْا إلى النهوض التقايني والاقتصادي، إثرَّ خسارة الحرب، وقد وَصَفَها معظم الدارسين بالمعجزة... وكذلك حالُ تعقيد اللغة / اللغات في الصين التي لم تخرج إلى التخلي عنها كي تبني اقتصادًا وجيشًا تحسب له الدنيا أَلْفَ حساب، فإذا كنا نعاني من التخلف؛ فلنكن صادقين في بيان أسبابه المادية والاجتماعية، بدلًا من أن نرميه على لغةٍ ذات خصوصية، كمثَّلِ مراهق يحسب الناس يكرهونه بسببِ لونِ قميصه، والواقع أنه مكره لسوءِ خُلُقِهِ".¹

إن أبعاد القضية مهمة كلُّها، ولا بُدَّ من إحداث توازنٍ بينَ أطرافها؛ العلم واستعمال الإنكليزية لغةً مشتركةً، والوجه التشاركي في البحث والإسهام به، والترجمة العلمية وتعريب المعرفة، والعربية لغة للتعليم والبحث، واللغة والثقافة تمثيلًا لكيان الأمة الحضاري، مؤملين - نحن العرب - أن نولي هذه القضية ما تستحقُّه من وقتٍ وجهدٍ ودعْمٍ، كي تضطلع بمكانتها في التطور الحضاري العام، وتقع المسؤولية في ذلك كِلِّه على الجهات الرسمية صاحبة القرار، والمؤسسات العلمية والثقافية المعنية، وكلِّ من يعي أن اللغة والبحث العلمي والثقافة أبواب خصبة للحوار والتشارك والعمل لتحقيق التقدم المنشود.

نظرات في هيمنة الإنكليزية وتأثيراتها في التعليم والبحث والثقافة

جَلَبَ منافع وأضرارًا استعمالُ الإنكليزية لغةً مقبولةً لتواصل العلماء في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وبلدان أخرى ناطقة بها، ونستطيع أن نطلق - نحن الباحثين والمدرسين المتخصصين بأيِّ علمٍ وباللغة وبالترجمة العلمية - محاولةً للإشارة إلى بعضَ المشكلات الرئيسية التي يواجهها العلماء الناطقون بالإنكليزية أصلًا، فوفقَ هذا الرأي، من الممكن أن يفرز الشعور بأسبقية ملكية مستوى عالٍ من الأداء بالإنكليزية شعورًا مزيفًا بالتفوق، والباحثون الذين يحتاجون إلى تعلُّم لغةٍ أجنبيةٍ لنشرِ أعمالهم، يحصلون على وقتٍ إضافي، وفي

¹ الطيب الحصري، "هل يجب أن تموت العربية الفصحى؟"، رصيف 22، نُشر في 10 نوفمبر 2021، الاطلاع في 22

المقابل يفقدون القدرة على قراءة مقالات بلغاتٍ أُخرى، والمتخصصون من بلدان أُخرى يمكنهم في النهاية أن يكتبوا ويقرؤوا بالإنكليزية، ويحتفظوا بإمكانية الوصول إلى المعلومات كذلك بلُغاتهم الخاصة، ويتنافس جامعيون في مثل اليابان والصين وألمانيا مع الباحثين في العالم الأنجلو أمريكي في ميدان النشر في مجالات بحثية مرموقة، ففي فرنسا مثلاً - التي تُشتهر بحرصها على الثقافة واللغة وحمايتهما - تُحرز الإنكليزية مكانةً جديدةً في الجامعات الفرنسية ومقتنيات مكباتها، وتزداد نسبة الأساتذة الجامعيين الذين يستعملون الإنكليزية في محاضراتهم وبحوثهم، لذا كان على اللغات والمعارف المحلية أن تدفع ثمن استعمال الإنكليزية في تدويل البحث العلمي والتعليم العالي، ويعلق مونغمري على هذا قائلاً: "إن الناطق الأصلي بالإنكليزية الذي يستطيع أن يقرأ مادةً علميةً بلغةٍ أُخرى رئيسة، مثل الصينية أو الإسبانية أو الروسية أو البرتغالية أو الألمانية أو الفرنسية أو اليابانية، هو في موقعٍ متفوقٍ كثيرًا على موقعِ الناطقِ بلغةٍ واحدةٍ"¹.

يفيدنا هذا الرأي في أن الباحث الذي يعرف لغاتٍ مختلفةً منها الإنكليزية، يستطيع المشاركة في مشاريع شاملة تتخطى الحدود القومية ولها أبعاد عالمية، فالوصول إلى العمل والفكر العلميين بلغةٍ واحدةٍ لا يكفي من الناحية العملية؛ إذ سائر العالم قادرٌ على استعمال لغتين أو ثلاثٍ أو أكثر، لتحقيق هذا الهدف، فالباحثون الذين يملكون القدرة على استعمال لغتين أو ثلاثٍ غالبًا ما يكونون وسطاء حاسمين في المشروعات العلمية متعددة القوميات، لأنهم أكثر قدرةً على تقديم تعاوانات أو تسهيل تحقيقها، وأن يكونوا رؤادًا في بحوث لها علاقة ببحوثهم، ويتعاملوا مع التحديات التي لا تنجم عن صعوبة التواصل فحسب، بل عن سوء تفاهات ثقافية وتوقعات مختلفة أيضًا، وليس بإمكان اللسان العالمي إزالة الخلافات كلها الناجمة عن طرائق ثقافية مختلفة في التعبير والتفسير والنقد والتواصل، فغالبًا ما يكون الباحثون - الذين يألفون ثقافتين أو أكثر - قادرين على تجاوز الخلافات الناتجة عن الثقافة، والإسهام في المضي قدمًا بالعمل التشاركي مضيًا أكثر سلاسةً.

¹ مونغمري، هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية؟ ص 238.

ويجلب انتشارُ الإنكليزية اهتمامات ومشكلات، منها مسائل انحسار لغاتٍ محليةٍ، والهيمنة الثقافية، والنقد ما بعد الاستعماري، وإذا سَهَّلَ تجاوزُ نقدٍ كهذا بالمحاكاة أن الإنكليزية ضرورية اليوم من أجل الحركة الاجتماعية والازدهار الاقتصادي والتطوير التعليمي، فستبقى هناك أسئلة مهمَّة غيرُ مُجابٍ عنها تحُصُّ التأثيرات الاجتماعية والثقافية للإنكليزية لغةً عالميةً، ونصرِّح أن مأساةً حقيقيةً تحدث في مشكلة خسران التنوع اللغوي في العالم نتيجة سيادة الإنكليزية، وذلك حين تتعرَّض لغاتٌ محليةٌ لخطرٍ الانقراض، ويمكننا الاعتراف بهذه المشكلة في البحث، وثمة جهودٌ تُبذلُّ للحفاظ على لغات معينة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وأستراليا، وأماكن أخرى من العالم، وهذا لا يكفي، لأن توسُّع الإنكليزية المتزايد يجعلها معيارًا دوليًا يُهدِّد أشياء كثيرةً تتجاوزُ اللغات أيضًا، لذا قد ينشأ شعورٌ بالأسى من توارِدِ خواطر لدى الناطقين بالإنكليزية، بأنهم قد يكونون الجيل الأخير الذي يمكنه التطلُّع للسفر إلى بلدٍ أجنبي لا يتحدث فيه أحدٌ الإنكليزية، بغية الاطلاع والاستكشاف، والحديث، وتناول الطعام، والسؤال عن الاتجاهات للوصول إلى مكانٍ بعينه، فقد أدَّى انتشار الإنكليزية إلى تنامي التهديد اللغوي إلى المستوى العالمي اليوم، ولأنها لغة العولمة أُمَّتتْ بالإمبريالية اللغوية؛ إذ وَصَلَتْ قُوَّتُهَا المتعاضمة إلى إبادة اللغات المحلية جماعيًا لا إلى إضعافها فحسب.¹

ويطرح كتاب ديفيد كريستال "موت اللغة" (2000)، بعضَ أهمِّ القضايا المتعلقة بموت اللغات، ويقدم معلومات نفيسةً تُعيِّنُ في تقليص الأخطار المحدقة باللغات في مناطق مختلفة من العالم، ويورد نقاشًا مفصلاً عن سُبلِ الحفاظ على اللغات المهتدة بالانقراض، وينبِّه إلى ضرورة تطبيق معايير على اللغات كلِّها، لمعرفة حاجتها إلى الجهود السياسية والاجتماعية والثقافية التي تساعد في البقاء، ويبين مكانة اللسانيات - ولا سيما اللسانيات الاجتماعية - في اعتماد المعايير التي تساعد اللغات المهتدة في النهوض والاستمرار بتعرُّف التغيرات التي تمرُّ بها اللغة قبل مؤتمها.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 87.

والواقع أن تنوعًا حاصرًا للُّغات البشرية لدى مجموعات صغيرة من الشعوب المحلية المبعثرة بين أمم تسود فيها لغاتٌ قويةٌ اقتصاديًا واجتماعيًا وأكثر تحدُّثًا من غيرها، وبناءً عليه تُعدُّ هذه اللغات المحلية - التي تزيد عن ستة آلاف لغةٍ - ضعيفةً جدًّا في العالم النصي، وستُ مئة لغةٍ منها فقط تعيش في مأمن من التهديد بالانقراض.¹

ومن المعروف أن الحياة والحركة في العلم أسهلُّ بالنسبة إلى المتحدِّث الأصلي للإنكليزية، وسيبدو الأمر جليًّا حين يعمل مع باحثين ناطقين بغيرها أساسًا، ولكن المعوقات الإضافية تظهر من العمل والبحث عن سبيل ينبغي له أن يتَّبعه للتغلُّب عليها، وبعدها يشعر فجأةً أنه محظوظ جدًّا لأنه ناطق أصلي بالإنكليزية، وذلك يُجَبِّه المشكلات التي يقع فيها الباحثون المشتغلون بلغةٍ أجنبية؛ إذ إن تعلُّم القراءة والكتابة العلمية بالنسبة إليه ليس سهلًا ما دام لا يعرف إلا لُغَتَهُ الإنكليزية، فكيف سيكون الأمر لو كان عليه أن يُتقن أو يشتغل بعلمٍ ما مستعملًا لغةً أخرى؟ ومن جهة ثانية، نجدُ أن متحدِّثي الإنكليزية أحاديُّو اللغة - ولا سيما من لم يدرسوا لغةً ثانيةً دراسةً كافيةً - عاجزون عن فهم بعض الحقائق الناجمة عن مواقف فردية ثقافية، لذا يتجاهلوها، وهم أقلُّ تسامحًا مع الصيغ الإنكليزية غير القياسية أو على فهم متحدِّثين ذوي لکناتٍ قوية، ويمكن ألا يتقبَّلوا أوضاعهم وهم أقلية في المجال العلمي العالمي لمتحدِّثي الإنكليزية وللتنوعات المتعدِّد تجاهاؤها في لُغَتِهِم الخاصة التي يُعدُّ وجودها طبيعيًّا مشروعًا، ويمكن أن تولِّد هذه المشكلات مظاهر غير المبالاة، أو الغرور، أو العدا، وبخاصة لدى الباحثين من البلدان التي عانت استعمارها.

إن اللغات هي المظاهر الجوهرية التي تمثِّل حياة الناس في أيِّ مجتمع، والوظائف المتحركة فيه، لذا كان من أهداف برامج التخطيط اللغوي الاهتمام الخاص بحقوق الأفراد ومؤسسات المجتمع المدني والتفاهات البينية الثقافية، ووصول الجميع إلى تعليم نوعي، وقد استحوذ متعلِّمو اللغات أو مستعملوها على مكانة مهمَّة في سياسات التخطيط اللغوي،

¹ See: David Crystal, *Language Death* (London: Cambridge University Press, 1st Ed., 2000), pp. 19-26.

مهما كان وضع تلك اللغات، سواء أكانت رئيسةً تُستعمل في المدارس، أم أجنبيةً، أم تستعملها أقليات أو أسرٌ أو أقاليم محددة، أم لغاتٍ لاجئين في مجتمعات مختلفة، ومن ثم أنت مشروعية الاعتراف بالتعددية اللغوية والتنوع الثقافي، والتركيز على أوضاعها وتطويرها لتنفيذها عملياً، ونورد هنا الحجة القوية التي يعرضها مجلس أوروبا في "الدليل إلى سياسات تعليم اللغة" الذي يوضح أن تنمية التعددية اللغوية ليست ضرورةً وظيفيةً فحسب، بل هي مقوم أساس من مقومات السلوك الديمقراطي، فالاعتراف بالتنوع في الذخائر المتعددة لغويًا للمتحدثين ينبغي له أن يقبل الاختلافات اللغوية، ويحترم الحقوق اللغوية للأفراد والجماعات، وحرية التعبير، وتنوع اللغات للتواصل الإقليمي والدولي، فسياسات تعليم اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتعليم من أجل قيم مواطنة ديمقراطية، لأن أهدافها يُكمل بعضها بعضاً، فتعليم اللغة - لأنه الوضع المثالي للاتصال القائم بين الثقافات - قطاعٌ يمكن فيه تضمين التعليم من أجل حياة ديمقراطية في أبعادها البنينة الثقافية في أنظمة التعليم.¹

ويمكن التفكير ملياً في هذه النتيجة بأن ذلك كله يساعد في أنحاء مختلفة في بناء مواطن علمي أفضل في جمهورية البحث العلمي العالمية؛ إذ ليس من بديل للمهارات البنينة الثقافية، ومن الصحيح القول إن العلم يحتاج إلى لغة مشتركة، ولديه هذه اللغة حقاً، بيد أن لغةً كهذه لا يمكنها تسطيح العالم وجعله واحداً على الصعيد العلمي، وإن الأحادية اللغوية نفسها شكّل من العزلة والتقوقع، ما دام العلم الوطني جزءاً حيويًا من المشروع العام. والحقيقة أن جوانب غير بادية للعيان من السيطرة العالمية للإنكليزية، تؤثر في المعرفة والإبداع بعامة، والعلم بخاصة، والتخطيط اللغوي والفكر الإنساني، إن اقتحام الإنكليزية الواسع لسائر العالم، واحتمال رؤيته إمبرياليةً لغويةً تمارس على نطاق عالمي؛ يُعدُّ شكلاً من الهيمنة الثقافية والمعرفية، وقد يُفرز ذلك تناقضات على الصعيدين العالمي والمحلي ليس من السهل قبولها أو التعامل معها، ويمكن إيجاز تلك الجوانب فيما يأتي:

¹ See: Language Policy Division of the Council of Europe, *From Linguistic Diversity to Plurilingual Education: Guide for the Development of Language Education Policies in Europe* (Strasbourg: Council of Europe, 2007), p.36.

1. يمكن لسيطرة الإنكليزية أن تُفاقم الوضع، وتجلب نوعاً من المظالم بين الأفراد والمؤسسات والمنظمات، فهناك مشكلات بين من يملكون استعمال خبرات ناطقة بالإنكليزية، ومترجمين ومحربين وطواقم وظيفية، وعاملين مختلفين ومبتعثين للتدرب في الخارج، وبين غيرهم ممن لا يملكون ذلك، ويؤدي هذا في الميدان العلمي إلى انحيازٍ أو تحاملٍ في النشر بفضل الأعمال المنبثقة من تلك المؤسسات المتميزة القادرة مالياً على نشر تلك الواردة من غيرها.

2. أصبح الواقع يفرض على العلماء والجامعيين أن ينخرطوا في قضية النشر في الدوريات العلمية الصادرة بالإنكليزية، والمفهرسة في قواعد البيانات الدولية، للعثور على وظيفة بطابع علمي مميز، أو الاستمرار فيها، ولشقّ طريقهم صعوداً في سلم الرواتب، وإثبات مقدرتهم العلمية أمام الممولين والمؤسسات ذات الشأن، والنتيجة أنه قد لا تحظى أفضلُ البحوث المنجزة بلغة محلية بفرصة للنشر والتنافس، ولو مع بحثٍ عادي كُتِبَ بالإنكليزية، وهذا يفضي إلى صعوبة في معرفة ما يُكْتَبُ باللغات المحلية، وفي النفاذ إلى الخطط الوطنية أو التشارك معها، وأن على العلماء في البلدان الناطقة بغير الإنكليزية الذين تُشتهر أعمالهم محلياً، أن يسعوا جاهدين بشقّ الأنفس إلى تقديم أعمالهم لجعلها معروفةً.

3. يتنامى تقديم مؤسسات التعليم العالي في البلدان الناطقة بغير الإنكليزية، مقررات عامة وتخصّصية بالإنكليزية قبلَ التخرج، وفي الدراسات العليا، ويحدث ذلك بكثرة نتيجة الاقتصاد العولمي للتعليم العالي، فقد راحت الجامعات تعمل على رفع مستوى وارداتها المالية بجلب طلبة محليين أو أجنبي لتعلم الإنكليزية، أو لتلقي معارف بها، أي إن الأساتذة سيصمّمون مقررات ويدرسونها بلغة غير لغتهم أساساً، وسيتلقاها طلبة ناطقون بغير الإنكليزية أصلاً، ويعني هذا أيضاً أن ثمة تضمينات تتعلق بنوعية التدريس والمنهاج ومستوى التحصيل والتعلم، تحتاج إلى مسوّغات يجب الخوض في مناقشتها مفصّلة.

4. إن اللغة والثقافة في أيّ مجتمع مرتبّتان ارتباطاً وثيقاً، ومن ثم قد يكون لهيمنة الإنكليزية نتائج مؤثرة لغويًا وثقافيًا، تتسرّب إلى الممارسات الاجتماعية والتربوية الأوسع، ومعنى هيمنتها بإيجاز أن القيم الثقافية للناس الناطقين بغيرها ستنزح تدريجيًا لمصلحة الناطقين بها أساساً، ويمثّل الروائي والكاتب المشهور ماريو فارغاس يوسا واقع الحال حين يكتب: "توسّعت فكرة

الثقافة إلى قدرٍ لم يجرؤ أحدٌ على قوله بصراحةٍ، اختفت معه، وأصبحت شبحاً عصياً على الفهم، ومتعدداً بغزارةٍ، ومجازياً¹، وهذه العبارة تُظهر شعوراً شديداً كاشفاً بوضوح الوضع المحزن الذي آلت إليه الثقافة العالمية تحت تأثير العولمة التي حوّلت الفكر والأدب والفن الإنساني إلى قِيمٍ استهلاكية سريعة الذوبان، وينجم عن هذا الأمر في الحقيقة "نزعُ أحياء الثقافة باعتبارها مجموعةً من التقاليد والممارسات والطقوس الجيلية الراسخة في سياقات محلية ومحددة"².

5. ثمة قلقٌ من احتمال الهيمنة المعرفية الناشئة من فرضِ الإنكليزية في تعليم المراحل المبكرة بخاصة، فمن المعروف أن الطفل يتعلم في بلده لُغته الأم بعدَ توفُّرِ الملكة اللغوية أو الاستعداد النظري أو اكتسابها، ويشمل ذلك التكوين البدني المتمثل في جهاز النطق وسلامته، والاستعداد العقلي الذي يتمكّن به الدماغ من تأدية وظيفته، ويظلُّ هذا الطفل قادراً على تعلُّم لغات أخرى قليلاً أو كثيراً، وتُبدى بعضُ الأسرِ رغبتَها في أولوية تعليم أولادها لغةً أجنبيةً، ولا سيما الإنكليزية، بدعوى تأمين مستقبل أفضل لهم، ولما كانت اللغة الأم تمتلك التأثير الأكبر في تلقِّي المعارف في المراحل الأولى من التعليم، فإن إقحام الإنكليزية - أو أيّ لغةٍ أجنبية - في مراحل التعليم الأولى إقحاماً شاملاً؛ سيجعل اللغة الأم تتأثر بطرائق تفكير جديدة، وستُفرض ثنائية لغوية تنعكس في السلوك وطرائق التعبير، ولأنها عملية معرفية، تؤثر اللغة الأجنبية في طريقة ربط الأفكار في ذهن الشخص، وفي عملية البناء العلمية وإنتاج المعرفة، فهذا الجانب قد لا يجعل الإنكليزية لغةً أجنبيةً أمراً مفضلاً، وأن تكون وحيدةً في التعليم والعلم، وقد يفرض ذلك تقييدات كبيرة على قدرات البشر غير المحدودة، ومن المحتمل أن ينظر أناس إلى ذلك بوصفه خطوةً إلى الوراء، أي غيرِ فرضِ الإنكليزية ممارسات علمية وعملية وتربوية، ومعرفة القراءة والكتابة وممارستها، وتعريف الثقافة، وأوضاع المعلمين والمتعلمين، وباختصار، يضمن كسبُ لغةٍ ثانيةٍ الخسارة أيضاً، لذا ينبغي لنا التفكير ملياً في التأثيرات العميقة التي تحدثها اللغة المهيمنة في فكرِ المجتمع وثقافته، حين تُكتسب لغةٌ تواصلٌ جديدةً بالفرض والهيمنة.

¹ باتريك دينين، لم فشلت الليبرالية؟ (الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2020)، ص 83، 84.

² المرجع السابق، ص 83.

6. بإمكان الناطق الأصلي بالإنكليزية أن يشعر بالرضا والارتياح من هيمنة لُغَتِهِ، بيد أن ذلك لا يلغي شعوره بأن لُغَتَهُ لم تُعَدَّ سوى أداة نفعية لأداء وظيفة الاتصال الأساس، أي إنها وسيلة للحصول على المعاني من الآخرين على نطاق واسع لتحقيق التواصل العالمي، ولكن حينئذ ينبغي له أن يستكين، وألا يشعر بالقلق من حاجته بنفسه إلى تعلُّم لغةٍ أُخرى.

7. قد تتوفَّر مسوِّغات حينَ يشعر الناطق الأصلي بالخوف من ذلك الخليط العالمي الحاصل بهذه اللغة، فالنعمة التي يشعر بها من المقارنة مع الناطقين بغير الإنكليزية قد تؤدي به إلى الشعور بأن هذه اللغة ستُحَرِّف وتُلَوِّى بقوة، ثم تنحني تحت وطأة محاولات من يرومون تعلُّمها واستعمالها، ويمكن إيراد قِصَصٍ تحتوي على شيء من هذا الشعور، والتحدث عن تطوُّر الإنكليزية إلى إنكليزيات، أي إن هناك لغات إنكليزية لا لغةً واحدةً فحسب؛ إذ يمكن الحديث تمامًا عن الأستراليين الذين لا يتحدثون أو يكتبون الإنكليزية التي نجدها في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة أو الهند أو الصين، إنهم يستعملون ما يمكن تسميته "الإنكليزية الأسترالية القياسية" التي تختلف عن الإنكليزية السائدة، وكذلك تتوفَّر تمازجات وتداخلات ولهجات ورطانات بين الإنكليزيات، من مثل المتحدثين من نزلاء بعض الولايات في أمريكا - من الفرنسيين أو الإسبان الأوائل - الذين راحوا يتحدثون الإنكليزية فيما بعد، واحتفظوا بشيء من لغتهم وثقافتهم الأصلية، وأيضًا الزوج الذين تكلموا بلهجة فرنسية أو إسبانية، ثم تحدّثوا الإنكليزية، وفي الوقت الذي تصبح فيه الإنكليزية لغة التدويل، تزدهر الإنكليزيات في أجزاء متعدّدة من العالم وتتوطَّن فيها.

إن نظرةً إلى هذه القضية من زاوية ثقافية واجتماعية، ينبغي لها أن تأخذ في الحسبان تأثيرات اللهجات المحلية، والمعايير والأعراف الوطنية، والألفاظ العامية، والتهجئة المختلفة، واستعمال آليات الاتصال المختلفة، من مثل الهواتف النقالة، وإرسال رسائل نصية بها، والمراسلات في وسائل الاتصال الحاسوبية، والاختصارات والمصطلحات والمتواردات اللفظية أو الأسماء المركبة، واستعمال الإنكليزية في أي مكان يعتمد على السياقات والجمهور المتلقي والأهداف التي تُستعمل من أجلها اللغة، ومن المعروف أن الإنكليزية المنطوقة تختلف عن

المكتوبة؛ إذ إن هناك طرقًا مختلفةً في استعمالها منطوقاً ومكتوباً، فنعتمد الإنكليزية في الكتابة على تشكيلات قواعدية كتابية، وتتغير أساليب التهجئة الكتابية والقواعد والألفاظ وُفق الكاتب والقارئ والمستوى والهدف، وتُعَدُّ الإنكليزية مصدرًا مفتوحًا للغة، تظهر فيه أشكال من التهجين في أرجاء مختلفة من العالم بقدر ما يقوم أناس مختلفو اللغات والثقافات بمزج إنكليزيتهم بلُغاتهم وثقافتهم.

8. مع تحوُّل المجتمعات إلى الاقتصاد القائم على المعرفة، تزداد قيمة الأصول المعرفية غير المادية ومكانتها، ويبقى التقدُّم التقني غير كافٍ في اقتصاد المعرفة،¹ فالنمو الاقتصادي يرتبط بالمستوى العلمي والتقني لمجموع العاملين في هذا القطاع، ورفُّع هذا المستوى من حلول النمو الاقتصادي العربي، لأن القوى العاملة العربية في حاجة إلى الاطلاع على مزيد من قضايا العلم والتقانة باللغة العربية؛ إذ لا يمكن لهذه المعرفة العلمية أن تنتشر إلا باللغة الوطنية التي يستعملها الأفراد في كلِّ مكان، فكلما زاد عددُ من يعرفون اللغة العلمية وأسرارها؛ زادت الفائدة وعمَّت على الجميع كلُّهم، وكلما انتشر تلقِّي العلم والتقانة باللغة الوطنية، وزادت الترجمة إلى اللغة الوطنية؛ زادت كفاءة العاملين ومعرفتهم وتأثيرهم، وفي المقابل يؤدي تركُّ نشر لغة العلم والتقانة في المجتمع، إلى خسارته كلِّه، فاللغة وعاءُ اكتساب التقانة، والترجمة من أهمِّ وسائلها، وعملية اكتساب التقانة تشتمل على نقلها وتوطينها ثم توليدها، ومن وسائل هذا الاكتساب ترجمة العلوم والتقانة، وتعليمها للأفراد وجميع العاملين بلُغتهم، أي اللغة الوطنية الأم،² وقد بات موضوع نقل التقانة ونشرها يشغل البلدان المتقدمة والنامية، ومنها العربية، ومن الصعب أن يُنكر أحدُ المكانة الحيوية التي يضطلع بها المترجمون المتخصصون في ميادين نقلهم أعمالاً علمية حديثة مهمة كُتبت بلغاتٍ مختلفة، من أجل رفد التنمية التقنية في بلدانهم.³

¹ انظر: محمد مراياتي، اللغة والتنمية المستدامة (الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، 2014)، ص58.

² انظر: ناصر عبد الله الغالي، اللغة العربية في المنظمات الدولية (الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، 2015)، ص55.

³ انظر: عبد المطلب، الترجمة والبحث العلمي، ص48.

9. إن تعلم اللغات الأجنبية بالنسبة إلينا وإلى غيرنا، وفي مقدمتها الإنكليزية، وحسبما هو مناسب لكل جماعة؛ مطلوب بل واجب من أجل اللحاق بالركب العلمي العالمي؛ إذ يمكننا عند ذلك التعلم والاطلاع على أهم الإنجازات العلمية المفيدة، ونقلها لغويًا ومعرفيًا، والتواصل المنفتح على العالم باتزان، لا يمثل أي عائق أمام الباحثين الذين يستعملون لغتهم القومية في عملهم العلمي؛ إذ التواصل ليس لغة مؤثرة بشدة، ونستطيع استعمال الإنكليزية ضمن خطط وطنية واعية من دون أي مخاوف، وذلك لن يعني حينئذ أن الإنكليزية ستؤثر في مكانة اللغة الأم، أو أن العمليات الفكرية ستفرض على الناس وتتعرض لقيمهم الثقافية عبر اللغة، فتعميم مقررات جامعية وفرض تدريسها حصراً بالإنكليزية، وقصر قبول البحوث - واعتمادها بعامة، وفي الترقيات بخاصة - بأن تكون منشورة بالإنكليزية، وفي مجالات علمية مصنفة، وإهمال النشر باللغة القومية، والتقليل من قيمة النشر في الدوريات الجامعية المحكّمة على الصعيد الوطني، وإجبار المدرّسين والباحثين وطلبة الدراسات العليا على تعلم الإنكليزية والكتابة بها، يعني في النهاية وضع تقييمات على الوصول إلى المعرفة بلغة واحدة فحسب؛ إذ إن لتأثير هذا الفرض على المعرفة الواجب اكتسابها نتائج سلبية، لأنه يحد من قدرة المعنيين على التعامل مع المعلومات وتحويلها إلى معرفة، ومن ثم إنتاج معرفة بأفكار جديدة، ومع هذا يؤكد في آن معاً أن تعلم اللغات الأجنبية - وفي مقدمتها الإنكليزية - وتعليمها، والاهتمام بالترجمة والتعريب؛ من المصادر الأساس لتنمية اللغة العربية وفتح بوابات الاتصال مع العالم، وتوفير مهارات لغوية بهدف استعمالها أدوات للتواصل العلمي، والسعي إلى تحقيق الأهداف الشخصية والاجتماعية والقومية في البحث والإنتاج والإبداع والتطوير، سيفضي إلى تحقيق تميز علمي واستقلال ثقافي، وإحراز مكانة حضارية متقدمة،¹ وترسيخ الشعور بضرورة البحث عن المصادر التي تحرك عملية التواصل وتمدّها بأسباب البقاء والنماء، ومن بينها تعلم اللغات الأجنبية، وفي مقدمتها الإنكليزية موضوع نقاشنا في هذا البحث.

¹ انظر: أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغوية: أهميتها ومصادرها ووسائل تنميتها (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996)، ص55-57.

10. إن النظر في قضية تعدد اللغات في العمل العلمي، يدفعنا إلى التفكير في أن مسألة اللغات ربما تحتاج إلى إعادة صياغة، فالمسألة هنا لا تتعلق بتحديد أيّ لغاتٍ أجنبية، أو عدد اللغات التي ينبغي إدخالها في أنظمة التعليم، بل تتعلق بتوجيه أهداف تعليم اللغة نحو اكتساب الكفاية، ويشمل ذلك اللغة الأم، واللغة (اللغات) الوطنية والإقليمية، واللغات الأوروبية وغيرها، ويمثّل ذلك حقاً هدفاً واقعياً، لأن الذخيرة متعددة اللغات التي ستطوّر بالتعليم يمكن أن تكون متنوعة، واللغات التي تمثّل مكونات الكفاية المتعددة اللغات؛ لا يمكن ولا يجب تعليمها جميعاً بالمستوى نفسه، وتعليم اللغات يجري طيلة الحياة، ولا ينحصر في مدة الدراسة ومكانها، بل يمتدُّ إلى ميادين الحياة اليومية والممارسات الثقافية والعلمية المختلفة.

ويمكن القول في النهاية عن مبدأ تعليم اللغات وتعلّمها بعامة؛ إنه مثل هذا المبدأ التنظيمي يتضمّن تصوّر التعليم المتعدد الثقافات من سياق التعليم بين الثقافات، والتعليم من أجل الحياة، أو المواطنة الديمقراطية، ويمكن أن يصبح تطوير الكفايات متعددة اللغات وتحسينها مصفوفةً لغويةً مشتركةً تمنح المنطقة السياسية والثقافية والعلمية - والبلدان الأوروبية أمثلةً واضحةً - شكلاً من الهوية اللغوية المتعددة الراسخة في تنوع مجتمعاتها، والمتوافقة مع قيم الانفتاح على العالم.

خاتمة

يؤكد هذا البحث أهمية البحث العلمي في أيامنا هذه، والحاجة المستمرة إلى لغة عالمية لإتمام تلك العملية، وقد اضطلعت اللغة الإنكليزية بمكانة مهمة في تحديد مسار البحث العلمي ومستقبله في العقود الأخيرة، ويضح ذلك من تأثيرها البالغ في التعليم والبحث والثقافة، ولا يعني استعمالها في تلك المجالات التخلي عن استعمال اللغة العربية مطلقاً، أو عن التعددية اللغوية في التعليم والبحث والثقافة، وما استدعاء عملية الترجمة والتعريب - كي تحتلّ مكانتها عاملاً تقنياً يسير بالتوازي مع اللغة المشتركة عملياً - إلا تلبية لحاجة محلية ضرورية، وليست محاولة ارتداد عن اللغة المشتركة والخروج عليها؛ إذ لا تستطيع هذه المحاولة إضعاف

الحاجة إلى لغةٍ عالميَّةٍ، بسببِ المنافعِ الجَمَّةِ التي تقدِّمها في جامعاتنا ومراكزنا البحثية، ولكن عملية الترجمة وتوطين المعرفة هنا وَجْهان لعملية واحدة تضطلع بمكانة مهمة في إيجاد ذلك التوازن الرفيع والمشروع بين اللغتين المحليَّة والعالميَّة.

وفيما سبق قدمنا أفكارًا وتعليقات عامةً وخاصةً تهدف إلى إضاءة جوانب من القضايا المثارة على صعيد استعمال الإنكليزية وغيرها من اللغات إلى جانب العربية، مع الاهتمام بقضية الترجمة والتعريب في التدريس الجامعي والبحث العلمي والنشر الثقافي، التي تهدف إلى تشجيع الباحث والمدرس والطالب والقارئ المهتم على إبداء الرأي، والإضافة أو التعديل، فقد يجد بعضها مقبولاً وبعضها الآخر مرفوضاً؛ إذ لا يجوز أن نتدخل كثيراً في تنفيذ الأفكار المقترحة أو مساندتها مساندة جارفة، بل حاولنا ما أمكن العرض والتعليق، تحذونا الموضوعية، ظناً منا أنها ستحظى بالمناقشة والتقييم المناسبين بالقراءة المتفحصة، لذا لا ندعي لما عرَّضنا من أفكار وتعليقات الوصول التام إلى الحقائق، ولا نَصِفُ أيًّا منها بالتأبي على النقد والمراجعة، ولكن حاولنا في عرض المناقشة الالتصاق بالموضوع الرئيس ما أمكن، ولم نفضِّل إلا في المواضيع التي تهْمُننا بوصفنا مدرسين وباحثين ومترجمين، وقد سعينا إلى الموضوعية ما أمكن، فقدَّمنا أفكارًا ومعاني وثيقة الصلة بالموضوع، وحافظنا على أسلوب الكتابة العلمية، واضعين نصب أعيننا الوضوح في التعبير عن المعاني والمقترحات بوصفها حلولاً محتملةً.

ومهما يكنُ تبقى الأفكار الأساس في المناقشة من مسؤولية الباحث في النهاية، ولعلنا فيما قدَّمنا من عرضٍ نَصَلُ فيه إلى نفعِ الزملاء الجامعيين والباحثين والمترجمين والطلبة الجامعيين والقراء المهتمين بعامة، فتلك هي الغاية الأساس، وقد كانت هذه القضايا كُلُّها تهدف إلى إحراز نوعٍ من الرؤيا للمسار الحالي، ولما يمكن أن يحدث في العقود القادمة.

المصادر والمراجع

- أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغوية: أهميتها ومصادرها ووسائل تنميتها (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996).
- باتريك دينين، لم فشلت الليبرالية؟ (الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2020).
- جاكلين كي، "الفتوحات الإسلامية وخلق بعض الأفكار عن أوروبا في الآداب الغربية"، ترجمة: فؤاد عبد المطلب، المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وآدابها، 2(6)، (2020).
- جهاد حمد، "الفساد في البحث العلمي والحياة الأكاديمية: مستقبل التعليم إلى أين؟"، وكالة معًا الإخبارية، نُشر في 23 أغسطس 2015، الاطلاع في 23 يونيو 2018.
- ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: رضوان السيد (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2006).
- سكوت ل. مونتغمري، هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية: اللغة الإنكليزية ومستقبل البحث العلمي، ترجمة: فؤاد عبد المطلب (الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014).
- شفيق بنات، فؤاد عبد المطلب، "الثنائية اللغوية بين اكتساب اللغة الأم (العربية) وتعلم اللغة الأجنبية (الإنكليزية)"، مجلة كلية المأمون الجامعية، بغداد، العدد (26)، (2015).
- الطيب الحصني، "هل يجب أن تموت العربية الفصحى؟"، رصيف 22، نُشر في 10 نوفمبر 2021، الاطلاع في 22 ديسمبر 2023.
- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه (القاهرة: دار المعارف، 1971).

عيسى المصري، "صراع اللغات"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، دولة الكويت، العدد (696)، نوفمبر (2016).

فؤاد عبد المطلب، "الترجمة والبحث العلمي"، مجلة التعريب، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب دمشق، العدد (15)، (1998).

مجموعة مؤلفين، فتاوى كبار الكتاب والأدباء: مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية، تقديم: سعيد بنكراد (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2013).

محمد مراياتي، اللغة والتنمية المستدامة (الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، 2014).

ناصر عبد الله الغالي، اللغة العربية في المنظمات الدولية (الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، 2015).

نوفل حاج لطيف، "الحدود: إشكالية العلاقة بين العالمي والمحلي"، حكمة، نُشر في 22 مايو 2015، الاطلاع في 23 يونيو 2018.

David Crystal, *English as a Global Language* (London: Cambridge University Press, 2nd Ed., 2003).

David Crystal, *Language Death* (London: Cambridge University Press, 1st Ed., 2000).

Language Policy Division of the Council of Europe, *From Linguistic Diversity to Plurilingual Education: Guide for the Development of Language Education Policies in Europe* (Strasbourg: Council of Europe, 2007).

References

- Abdulhālīm Muntaṣir, *Tārīkh al-‘Ilm wa-Dawr al-‘Ulamā’ al-‘Arab fi Taqadumih* (Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 1971).
- Aḥmad Muḥammad Ma‘tūq, *al-Ḥaṣīlah al-Lughawīyah: Ahammiyyatuhā wa-Maṣādiruhā wa-Wasā’il Tanmiyatihā* (Kuwait: Manshūrāt al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wal-Funūn wal-‘Ādāb, 1996).
- Al-Ṭayyib al-Ḥiṣnī, “[Hal Yajib an Tamūt al-‘Arabiyyah al-Fushā’?](#)”, *Raseef* 22, published October 10, 2021, retrieved December 22, 2023.
- David Crystal, *English as a Global Language* (London: Cambridge University Press, 2nd Ed., 2003).
- David Crystal, *Language Death* (London: Cambridge University Press, 1st Ed., 2000).
- Fuad Abdul Muttaleb, “al-Tarjamah wal-Baḥth al-‘Ilmī”, *Majallah al-Ta’rīb*, al-Markaz al-‘Arabī lil-Ta’rīb wal-Tarjamah wal-Ta’līf wal-Nashr, Damascus, No. (15), (1998).
- Groupe of Authors, *Fatāwā Kibār al-Kuttāb wal-‘Udabā’*: *Mustaqbal al-Lughah al-‘Arabiyyah wa-Nahḍah al-Sharq al-‘Arabī wa-Mawqifuhū ‘izā’ al-Madaniyyah al-Gharbiyyah* (Doha: Ministry of Culture, Arts and Heritage, 2013).
- Isā al-Miṣrī, “Ṣirā’ al-Lughāt”, *Majallah al-‘Arabī*, Kuwait: Ministry of Information, No. (696), (2016).
- Jacqueline Key, “al-Futūhāt al-Islāmiyyah wa-Khalq Ba‘ḍ al-Afkār ‘an ‘Ūrubbā fil-‘Ādāb al-Gharbiyyah”, Translated by Fuad Abdul Muttaleb, *al-Majallah al-Dawliyyah li-Dirāsāt al-Lughah al-‘Arabiyyah wa-‘Ādābihā*, No. (6), (2020).
- Jihād Ḥamad, “[al-Fasād fil-Baḥth al-‘Ilmī wal-Hayāh al-Akādīmiyyah: Mustaqbal al-Ta’līm ‘ilā Ayn’?](#)”, *Wakālah Ma‘an al-Ikhbariyyah*, published August 23, 2015, retrieved June 23, 2018.
- Language Policy Division of the Council of Europe, *From Linguistic Diversity to Plurilingual Education: Guide for the Development of Language Education Policies in Europe* (Strasbourg: Council of Europe, 2007).

- Muḥammad Marāyātī, *al-Lughah wal-Tanmiyah al-Mustadāmah* (Riyad: Markaz al-Malik Abdullāh bin Abdul‘azīz al-Dawlī, 2014).
- Nāṣir Abdullāh al-Ghālī, *al-Lughah al-‘Arabiyyah fil-Munaẓẓamāt al-Dawliyyah* (Riyad: Markaz al-Malik Abdullāh li-Khidmah al-Lughah al-‘Arabiyyah, 2015).
- Nawfal Hāj Laṭīf, “al-Ḥudūd: Ishkāliyyah al-‘Alāqah byn al-‘Ālamī wal-Maḥālī”, *Hekmah*, published May 22, 2015, retrieved June 23, 2018.
- Patrick Deneen, *Lima Fashilat al-Libirāliyyah?* (Kuwait: Manshūrāt al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wal-Funūn wal-‘Ādāb, 2020).
- Richard Southern, *Ṣūrah al-Islām fī ‘Ūrubbā fil-‘Uṣūr al-Wuṣṭā*, Translated by Riḍwān al-Sayyid (Beirut: Dar al-Madār al-Islāmī, 2006).
- Scott L. Montgomery, *Hal Yaḥtāj al-‘Ilm ‘ilā Lughah ‘Ālamiyyah: al-Lughah al-Inglīziyyah wa-Mustaqbal al-Baḥth al-‘Ilmī* (Kuwait: Manshūrāt al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wal-Funūn wal-‘Ādāb, 2014).
- Shafiq Bannāt and Fuad Abdul Muttaleb, “al-Thunā’iyyah al-Lughawiyyah byn Iktisāb al-Lughah al-‘Um (al-‘Arabiyyah) wa-Ta‘allum al-Lughah al-‘Ajnabiyyah (al-Inglīziyyah)”, *Majallah Kulliyyah al-Ma’mūn al-Jamī‘iyyah*, Baghdad, No. (26), (2015).



نَسَقُ النِّقْدِ المَعْرِفِيِّ مِنَ النَّصِيَّةِ إِلَى التَّأْوِيلِيَّةِ

محمد سالم سعد الله*

مُلخَص

يُقدِّم اشتغال النسق المعرفي معطياتٍ حديثةً في إطار تنمية الفكر الإنساني، ويعدُّ بإمكانات منهجية مهمّة، وكشوفات علمية ثرّة، للاشتغال على إمكانات التحليل عبر تمكين إدراك التصورات العلمية المتعلقة بالنص، ويُسهِّم في عملية تنظيم الأفكار المفوِّدة ونقدها بوصفها تقويمًا أو حُكمًا على نصٍّ أو مجموعة نصوص، إنه إمكانات قرائية وتواصلية وتحليلية لا حدَّ لها من المعرفة الشمولية التي تبغي الدقة في التحليل، وتتوخَّى القصد في تحديد المعنى، والمسؤولية في تقديم المفاهيم، فضلًا عن فحص منظومة صوغ الظواهر المعرفية عبر تحليل مكنوناتها وممكناتها ومكوّناتها، وبيان نسقها الذي يصوغها، ثم تقديمها في إطار الشمول المعرفي الذي يكتسي نُظْمًا حيوية في معالجة الظاهرة في سياق النقد المعرفي الذي يضبط غائيات التوجهات العلمية للنص، وتمثّل منطلقاته محورًا رابطًا بين منتديات أنساقه المتنوعة والمنتمية إلى حقول علمية شتّى، واهتداءً فلسفيًا إلى إمكانية التطبيق والمعالجة الشمولية في منهج معرفي مستقبلي يحاور العلوم والمعارف، ويمارس النقد المعرفي وظيفته المنهجية الشمولية في إضفاء المعطيات على السلوكيات، وفحص منظومة صوغ الظواهر المعرفية، وتقديم الإطار التكاملي المعرفي للأسيقة والأنساق النصّية، وتطبيق مبدأ الشمول المعرفي في تقييم النصوص.

الكلمات الرئيسية: النقد المعرفي، النصّية، التأويلية، الشمول المعرفي، تقييم النصوص

* أستاذ الأدب الحديث ونقده، كلية الآداب، جامعة الموصل، جمهورية العراق، mohammad.salim.s@uomosul.edu.iq.



Cognitive Criticism System From Textualism to Hermeneutical

Mohammad Salim Saadallah*

Abstract

The framework of cognitive criticism introduces modern contributions to the development of human thought, promising significant methodological potential and a wealth of scientific discoveries. It promotes analytical possibilities by enhancing the understanding of scientific constructs related to the text, and contributes to organizing and critiquing transmitted ideas, treating them as evaluations or judgments of a text or collection of texts. This framework provides boundless interpretive, communicative, and analytical capabilities within a comprehensive knowledge approach, aiming for precision in analysis, intentionality in determining meaning, and accountability in concept presentation. Furthermore, it examines cognitive phenomena by analyzing their essence, possibilities, and components, thus uncovering the underlying system that shapes them. This framework then recontextualizes these phenomena within a comprehensive cognitive structure that's equipped with systems that are critical to addressing phenomena through cognitive criticism. It regulates the finalities of scientific approaches to texts and establishes a central link, through its axioms, between its diverse paradigms, which span various scientific fields. Cognitive criticism also offers a philosophical pathway for application and comprehensive treatment within a future-oriented methodology that dialogues with sciences and disciplines. It fulfills its holistic methodological role by integrating insights into behaviors, examining the system that structures cognitive phenomena, and presenting an integrated cognitive framework for textual contexts and patterns. It applies the principle of cognitive comprehensiveness in the assessment of texts.

Keywords: *Cognitive criticism, textualism, interpretivism, comprehensive knowledge, text evaluation*

* Professor of Modern Literature and Criticism, Faculty of Arts, University of Mosul, Iraq, mohammad.salim.s@uomosul.edu.iq.

مُقَدِّمَةٌ

يُقَدِّمُ اشتغال النسق المعرفي معطياتٍ حدثيةً في إطار تنمية الفكر الإنساني، ويَعُدُّ بإمكانات منهجية مهمّة، وكشوفات علمية ثرّة، للاشتغال على إمكانات التحليل عبْرَ تمكين إدراك التصورات العلمية المتعلقة بالنص، ويُسهِمُ في عملية تنظيم الأفكار الموفدة ونقدها بوصفها تقويمًا أو حُكْمًا على نصٍّ أو مجموعة نصوص، إنه إمكانات قرائية وتواصلية وتحليلية لا حدَّ لها من المعرفة الشمولية التي تبغي الدقة في التحليل، وتتوخّى القصد في تحديد المعنى، والمسؤولية في تقديم المفاهيم، فضلاً عن فحْصِ منظومةِ صوغِ الظواهر المعرفية عبْرَ تحليل مكوناتها ومكوناتها ومكوناتها، وبيان نسقها الذي يصوغها، ثم تقديمها في إطار الشمول المعرفي الذي يكتسي نُظْمًا حيوية في معالجة الظاهرة في سياق ما أطلقنا عليه "النقد المعرفي"¹، وأسَّسنا له في كُتُبٍ عدَّة،² وأكدنا أن النقد المعرفي سيضبط غائيات التوجهات العلمية للنص، وستشكّل منطلقاً محورياً رابطاً بين منتديات أنساقه المتنوعة المنتمية إلى حقول علمية شتى، وكذلك الاهتمام إلى التطبيق والمعالجة الشمولية في منهج معرفي مستقبلي يحاور العلوم والمعارف، ويمارس النقد المعرفي وظيفته المنهجية الشمولية في إضفاء المعطيات على السلوكات، وفحص منظومةِ صوغِ الظواهر المعرفية، وتقديم الإطار التكاملي المعرفي

¹ النقد المعرفي مسارات منهجية، وتحديدات قيمة، انطلقت من مقاربات نظرية متعلقة بإمكانات التحليل في كشف حُجُب النص، وتمتلك قيمًا فكرية ومنهجية برؤى شمولية تعددية وحوارية بين العلوم والمعارف.

للاستزادة انظر: محمد سالم سعد الله، مدخل إلى نظرية النقد المعرفي المعاصر (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2013)، ص1-2.

² أسَّسنا لهذا المسار النقدي في سلسلة منهجية أطلقنا عليها "سلسلة النقد المعرفي"، وهي أربعة كتب:

- مملكة النص: التحليل السيميائي للنقد البلاغي، سلسلة النقد المعرفي (1) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- أطراف النص: دراسات في النقد الإسلامي المعاصر، سلسلة النقد المعرفي (2) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- أنسنة النص: مسارات معرفية معاصرة، سلسلة النقد المعرفي (3) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- ما وراء النص: دراسات في النقد المعرفي المعاصر، سلسلة النقد المعرفي (4) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).

للأسبقية والأنساق النصية، ويتعامل النقد المعرفي مع المنتج بوصفه بنية معرفية، وينهض بتحويل النصي إلى معرفي تكاملي، للكشف عن القيم التي بُني عليها النص، ويعيد تقييم المنجز الإنساني في سياق معرفي، ويعتمد إلى تطبيق مبدأ الشمول المعرفي في تقييم النصوص.¹ يكتسب الحديث عن النقد المعرفي وآفاقه الاستشرافية، وإشكالاته الفكرية، وإنجازاته المنهجية، مجموعةً من المسارات المتعلقة بحركة التوجُّهات الإنسانية البينية في استثمار حوارية العلوم والمعارف، التي ترسم بمنظومة من المحمولات والبناءات والتصورات اللغوية أولاً، والفكرية ثانياً، والقصدية ثالثاً.

يَتَّجِه الفحصُ النقدي في هذا البحث إلى مسار معالجة إشكالات النقد المعرفي بين علوم النص من جهة، والعلوم الإنسانية من جهة أخرى، بين معرفة مرجعيات علوم النص وفرداتها، واختبار آليات مناهج نقدِ النص عليها، من حيث مناسبتها تحليلاً وإجراءً وتطبيقاً، ويبيِّن مكاسبها ومزالقها، ضمنَ أطرٍ رؤيوية تُحدِّد التوجهات، وتكشف الاختلافات، وتُوضِّح الدلالات، وتعلن عن أبعادية المقاصد والغايات، وينهض هذا الفحص بمحفِّزات المعطيات المعرفية، ومكانتها في بناء منظومة النص، وبيان توجُّهاته، وتحديد جمالياته، وتوضيح مقاصده.

ويسعى البحث أيضاً إلى بيان المنظومة النقدية وتوجيهها في ميدان النقد المعرفي الذي اقترن به الدرس المعرفي المعاصر، وذلك عبرَ مجموعة من التساؤلات والمعضلات، فضلاً عن الرؤى العلمية والنظرات التأملية في واقع النص وحمولاته العقديّة والفكرية، وتتبعُ الإمكانيات المستقبلية في الصياغة والصناعة والإجراء والإنجاز، وذلك عبرَ الحديث عن إشكالات تعترى مشروعية التكامل المعرفي في محورين اثنين؛ إشكالية النصية، وإشكالية التأويلية، وتعكس الإشكالات المختارة وقفات تأملية لاستيعاب الآليات المنهجية، ووعياً باستعمال الأدوات التحليلية، ورؤية إبداعية لبيان المرجعيات النصية وفرداتها، فضلاً عن

¹ انظر: محمد سالم سعد الله، "الفكر المنهجيُّ للنقد المعرفي"، مجلة الأديب الثقافية، بغداد، العدد (3)، (2021)، ص45-46.

مشروعية معرفية بفحص مقاصدها، وتحيزاتها، وتداخلها مع الفلسفات والعلوم الأخرى، والكشف عن الإشكالات المعرفية المتعلقة باستدعاء الآليات المنهجية والإجرائية والتحليلية، فضلاً عن الاشتغال الاصطلاحي في طرائق اكتساب دلالة النص قبولاً أو رفضاً أو انتقاداً.

إشكالية النصيبية

يكتسب هذا الموضوع مكانة معرفية ودينية وحضارية وسلوكية، وإشكالية تتعلق بقدسية النص وقيمه وفرادته ومظهره الثقافي والحضاري، لأنه مرتبط أساساً بإشكالات القراءات الفلسفية للنص، انطلاقاً من أن الرؤية الإسلامية تستدعي نُظماً تشريعية، وصيغاً إنسانية ذات فريدة حضارية، ترسم مبادئ فكرية، وطرائق عملية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتَّجه نحو الإنسان، والمتمثِّل في العبودية، والاستخلاف، والتمكين، والتكريم، والتكليف.

منحت الرؤية الإسلامية - المرتبطة بقداسة النص الإلهي وتقديسه عبر عصور حَلَّتْ - تصوراتها التي انبنت على معطيات الوحي، وتعاملت مع تطورات اللحظة الفكرية الآنية والمستقبلية، ومارست معرفتها وفق رؤى شمولية تناولت الكون والعالم والحياة والإنسان، وعالجت قضايا عدَّة من النقل إلى العقل، ومن العقل إلى الفعل، ومن الفعل إلى الممارسة، والسلوك، والإنجاز، والإبداع، وصناعة العلوم والمعارف.

وأنَّسَم المسار العلمي للمعالجة الإسلامية للنصوص عبر عصور نهضتها وتنميتها، بأنه كان وفق إضفاء المعطيات على السلوكات، وفحص منظومة صوغ النص الحضاري بتحليل نسقهِ الذي صاغه، ثم تقديمه في إطار من الشمول المعرفي الذي يكتسي نُظماً حيوية في محاوره العقل، ويشتغل هذا التحديد أساساً في فضاء معرفي غايته إعلان العبودية لله تعالى، ووسيلته تكريم الإنسان، وحفظ مكانته في الحياة، وأداته احترام العقل، ومنحه منزلة وفردة في الاشتغال.

إن الحديث عن نسق النقد المعرفي في منظومة علوم النص مع العلوم الإنسانية، يُعدُّ مكوناً معرفياً وفكرياً لمعطيات الإسلام، ورسالة الوحي إلى الإنسانية، وقد قدَّم المسار النسقي

تصوّراته لبناء السُّبُل السليمة للتفكير الإنساني السوي، وصاغ تدرّجاته المعرفية وفق ثلاثية حضارية، هي الوحي، والنص، والعقل؛¹ أَنْتَجَتْ أُسُسًا عقديّة قادرة على تكوين منظومة معرفية مهمّتها تحصيل الذات من الخلل، ومن الوقوع في الزلل، وتُعِينُ في تطبيق مفاهيم الإسلام، وتسعى إلى تمثيل أركان الفعل الإيماني الذي أتى به الوحي، وحُفِظَ في النص، وصدّق به العقل، وعَمِلَ بمقتضاته، وأبدع في نَحْجِه.

وانطلاقاً مما سبق تمثّل معطيات "قدسية النص"² محوراً مركزياً في الفواعل الإسلامية؛ العقدية، والمنهجية، والفكرية، والسلوكية، ولا يمكن البتة تخطّيها أو التخلّي عنها في أيّ تصوّر علميّ، أو تطويريّ، أو حدائثيّ، أو تنمويّ، أو غير ذلك، فضلاً عن أنّ تمثّل الفاعل القدسي عند التعامل مع النص ومواجهته وتحليله، هو تمثّل للمعالجات المعرفية المرتحلة من الوحي إلى العقل عبّر النص الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانت مرتكزات قدسية النص في المكوّن الحضاري الإسلامي قد اكتسبت شرعيّتها من ثلاثية تأسيس المعرفة الإسلامية في الوحي، والنص، والعقل؛ فإن المعرفة الغربية قد تجاوزت واستبعدت صفة القداسة في التعامل مع النصوص جميعها، لأنها ترى أن النص - أيّاً كان - نتاج خاضع للنقد، والتعديل، والتقويم، والرححان، والشكّ، والزيادة، والنقص، لأن مرتكزاتها المنهجية وطرائق التفكير فيها قد تحدّدت بثلاثية العقل، والحس، والحدس، أي التفكير، والتجريب، والتجريد، على التوالي والترتيب، وبمعنى آخر؛ الاعتقاد، والصدق، والتسوية،³ واعتمدت على منطلقين إجرائيين اثنين؛ "فصل الجانب الروحي عن الجانب المادي، والاعتماد على العقل بوصفه المنطلق الأساسي لاكتساب المعرفة".⁴

¹ انظر: راجح عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة (الرياض: مكتبة المؤيد؛ هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1992)، ص701-705.

² نعي بقدسية النص المعرفة المتحصلة من النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو النص الإلهي التعبدي (القرآن الكريم)، ذو القدسية والرفعة والعلو والمكانة في الحضارة الإسلامية، وفي مسار نخصتها وتطویرها وتنميتها.

³ انظر: أحمد الكرساوي، مدخل إلى نظرية المعرفة (جدة: مركز تكوين للدراسات والبحوث، 2018)، ص17.

⁴ محمد سالم سعد الله، "جماليات التلقي في السرد القرآني"، رابطة أدباء الشام، نُشر في 11 أكتوبر 2008، الاطلاع في 8 يوليو 2024.

وتَضِيحُ مكانة المعرفة الإسلامية - المرتبطة أساسًا بقُدسية النص - في البناء الحضاري الإنساني عبْرَ معطياتها التي رَفَعَتْ من شأن الإنسان، ورَسَمَتْ له منزلة التكريم والاستخلاف، وأعطته وظيفة أن يكون عبدًا لله تعالى، وحدَّدَتْ له مسيرته التنظيمية في عيش الدنيا، وإعمار الأرض، والسعي لاكتساب العلم وتعليمه.

إن المعرفة الإسلامية المردانة بمرجعيات قدسية النص، هي منظومة من القيم والوظائف والسلوكات؛ مَهَضَتْ بوظيفة حماية الإنسانية من الانحراف، ورَغَبَتْ في بناء مجتمع قيميّ مثاليّ تسود فيه قِيَمٌ مُثلى وصفاتٌ عُليا من الخير، والحقِّ، والصِّدق، ونبل الأخلاق، فضلاً عن نَبَذِ كُلِّ ما يُجافي تلك المعاني والسلوكات بعامّة، وفي إطار تحليل النص وبيان دلالاته بخاصّة، لذا يغلب ألا تتفق هذه المرجعيات لعلوم النص مع القراءات الفلسفية التي اعتمدها المناهج النقدية الحديثة، ومَهَضَتْ بها في واقع تحليل النص، لأن المناهج النقدية تتَّجه إلى اعتماد مرجعيات فلسفية موعِلة في الجذر المعرفي والفكري، أي إن لكلِّ منهجٍ نقديٍّ أُسُسًا فلسفية تسنده، والمنهج النقدي الذي لا يمتلك فلسفةً لا يمتلك أُسُسَ بقائه.

وجدير ذِكْرُهُ أن هذه المناهج النقدية مرَّت عبْرَ مسيرتها المعرفية بأجيال ثلاثة، هي:¹

- جيلُ المناهج السياقية.
- جيلُ المناهج النصية.
- جيلُ مناهج الاستقبال والتلقي.

وقد ارتبطت هذه الأجيال بمسارات فلسفية متوارثة متوالية، لذا لا يمكن الاشتغال بالمنهج مجردًا عن سَنَدِهِ الفلسفي، لأن ذلك يُعَدُّ جريرةً ونقصًا في البحث العلمي؛ إذ لا يمكن مواجهة ميدان معرفي معيّن من دُونِ معرفة مرجعياته وأبعاده، لأنها كلّها تصوغ المنظومة المنهجية في التحليل وكشْفِ التصورات، وأيُّ غياب للتصورات الفلسفية المصاحبة للمنهج، يُفقد التحليل شطرًا ناجعًا من مكوّناته العلمية والمنهجية والإجرائية التي ينبغي له أن يزدان بها.

¹ انظر: السابق نفسه.

ولا بدَّ عندَ الحديث عن علوم النص ومناهج نقدِ النص، من أن نبيِّن تحيُّزات العلوم الإنسانية في الفكر والمعرفة وتوجُّهاتها،¹ والكشف عن الشكوك والظنون في العلمية والمنهجية في مساراتها، وقراءة الناتج الثقافي والحضاري برؤية باصرة فاحصة كاشفة دقيقة، ومُثِّل هذا السلوك خلاصة الوعي في البحث عن الحقيقة، والاجتهاد في تحصيل فريدة المعلومة، وقد استنمَّ الناتج الفلسفي الإسلامي عبرَ قرون حَلَّتْ مَهْمَةٌ التنقيب عن أُسُس المعارف، وأخذ الرصين منها، والوصول إلى الحقيقة واليقين في معطياتها، فالرؤية العلمية المتعلقة بالشكِّ أساس اليقين - التي طبَّعها الغزاليُّ (ت505هـ)² في منظومة الفكر الإسلامي - تُمثِّل محمِّراً إجرائياً للساعين نحوَ تحصيل العلوم والمعارف، ومقاربتها برؤى علمية ومنهجية رصينة.

وتحوي السلسلة المنهجية لهذه الأجيال النقدية مجموعة من التمثلات المعرفية والثقافية التي تنطلق من أرضية فلسفية واعية قصديّة، ونظراً إلى اتساع رقعة التمثُّلات نقتصر على مَثَلٍ واحد لها، هو مصطلح "مَوْتُ المُوَلِّف"،³ الذي انبثق مع فلسفة البنيوية، واستمرَّ مع الفلسفات المعاصرة بعَدها، وقد وُلِدَ هذا المصطلح مع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) (ت1900م)،⁴ الذي توجَّه إلى رَفْع القيود عن العقل، والدعوة

¹ للاستزادة انظر: محمد سالم سعد الله، "المنهج النقدي وإشكالية التحيز"، في: مجموعة مؤلفين، فقه التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، 2016)، ص 11-32.

² انظر: الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: محمد أبو ليلة، نورشيف عبد الرحيم رفعت (واشنطن: دار جمية البحث في القيم والفلسفة، 2001)، ص 162-163؛ الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص 682-683.

³ مصطلح انبثق مع المنهج البنيوي لاستبعاد الناص، والتركيز على النص تحليلاً وبيانياً وكشفاً. انظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً (بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3، 2002)، ص 241-242.

⁴ فيلسوف ألماني، وناقد ولاهوتيٍّ ثوريٍّ، أثرت فلسفته في مجمل الحركة النقدية والثقافية والفكرية العالمية الحديثة، وكشفت فلسفته سلبات التدين الغربي، وواجهت التقليد والأخلاق، وانتقدت رجال الدين والفلاسفة التقليديين، وقد قدَّم نيتشه نظريته عن موت الإله؛ إذ أصبحت دستوراً لجميع التيارات والمذاهب العالمية المختلفة في شتى الميادين، وإليه تُنسب جذور العلمانية العالمية، ومن أبرز كُتبه "هكذا تكلم زرادشت"، و"ما وراء الخير والشر"، و"العلم المرح"، و"أفول الأصنام"، و"أصل الأخلاق"، و"العصر الإغريقي المأساوي"، و"ولادة المأساة"، و"عدو المسيح".

إلى موت الإله، وتغيير مسار العقلانية الأوروبية عبْرَ فَنَحِ المجال أمام اقتحام الخُطوط الخُمْرِ في كلِّ شيء، فلم يُعَدَّ هناك أيُّ شيءٍ مقدَّسٍ في نَظَرِهِ، وبهذا وَصَعَ نيتشه الغربَ أمام خيارين بقوله: "إما أن تُلْعُوا مقدَّساتكم، وإما أن تُلْعُوا أنفسكم".¹

عَدَّتْ فلسفة نيتشه القيمَ المتوارثة - وكلَّ ما يتعلَّقُ بها من تقديس تعارفَ عليه الناس ومارسوه - تأويلاتٍ فُرِضت على الأشياء، ولا وجود لها، والدلالات تَمَثِّلُ نسبة معرفة تختلف باختلاف المنظور الإنساني، فلا نصَّ مطلقًا أو مثالياً، والكلُّ خاضع للنقْد.² وترتبط فلسفة "مؤتِ الإله" عند نيتشه بفلسفة أخرى مُوغِلة في القِدَم، هي فلسفة القبلانية،³ أو فلسفة "عزَلِ الإله"، وهذه الفلسفة أثّرَ بالغ في تحليل النص؛ إذ فَقَدَ النصُّ المقدَّسُ بها حدوده، وتداخلَ مع النصوص الأخرى، وأصبح نصًّا مفتوحًا، والغرض من ذلك فَرَضُ التأويل الموجَّه، وسوء القراءة (المتعمد)؛ على الثبات الذي يتَّصف به النصُّ المقدَّسُ، وهذا في الواقع عملية تفكيكية بفرض مبدأ الصيرورة والتغيير، وفرض مبدأ الغيرية بوصفه المعنى، إنها عمليةٌ مارَسَهَا بعضُ النقاد لقلْبِ المعاني، والتلاعب بحقيقة النص، في محاولة لتغييره، وإعادة إنتاجه.⁴

وانطلاقًا من ذلك سَعَتْ مناهج نقْدِ النص إلى تعاملٍ جديد مع اللغة، وبناء نظامٍ دلاليٍّ على مبدأ الصراع بين الدوائِل والمدلولات، وبذلك تَهَضَّتِ المناهج النقدية ببناء لغة جديدة في التحليل، يُوصَلُ بها إلى تشييت الذهن، وتفكيك ثقة الإنسان بقدراته على اقتناص الدلالة المناسبة والمستقرّة للنص، وهذا السَّعي في المعرفة الغربية هو نتيجة انفصام العلاقة بين المخلوق والحالق، وغياب الانسجام والترابط بين المحدود وغيره.⁵

¹ جيل دولوز، نيتشه، ترجمة: أسامة الحاج (بيروت: المؤسسة الجامعية، ط1، 1998)؛ عبد الرحمن بدوي، نيتشه (الكويت وكالة المطبوعات، ط5، 1975).

² انظر: محمد سالم سعد الله، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد النبوية: دراسة فلسفية (دمشق: دار الحوار، ط1، 2007)، ص91-92.

³ انظر: المرجع السابق، ص293-240.

⁴ انظر: المرجع السابق، ص240.

⁵ انظر: المرجع السابق، ص241.

وفي هذا السياق يُمكن القول إن المسارات النسقية للنقد المعرفي قد اصطدمت بإشكالية المعالجات النقدية وفلسفاتها ومساراتها التي لا تتعامل مع معيار قدسية النص، ولا تؤمنُ بغيبياته ومثاليته، ومن أبرز الإشكالات أمام النقد المعرفي في هذا الإطار تطبيق مفاهيم نقدية ذات فريدة فلسفية وفكرية في المنشأ والتناول، على نصٍّ لا ينتمي إليها، وتحليل النص المقدَّس - ذي السمة العقدية الدعوية المرتبطة بالخالق - بأدوات نقدية لا تعترف بذلك، وتحليل النص انطلاقاً من مؤت مؤلِّفه، وتفريغ النصِّ المقدَّس من محتواه، والنظر إليه نظاماً نصياً جمالياً مكوَّناً من أبنية لغوية وتركيبية ونسقية فقط، فضلاً عن أن مسارات المناهج النقدية السياقية منها والنصية والتلقي، لا تعنى بمقاصد علوم النص، سواء أكانت في الدرس الشرعي من حيث المقاصد العقدية والتعبدية والإرشادية في الترغيب والترهيب، أم كانت في الدرس الإيماني من حيث مقاصد الدعوة والتوحيد، والبيان والبيان، والغيب والآخرة، أم كانت مقاصد متنوعة؛ تحليلية أو تأويلية أو تفسيرية.

إشكالية التآويلية

إن اختلاف مرجعيات علوم النص عن مسارات نقده، واختلاف مسارات اكتساب المعرفة بين المنظورين الإسلامي والغربي؛ ألقى بمنهجيته على مسارات التآويل وآلياته وطرائق تحصيله، لأن التآويل في الفكر الإسلامي "صرفُ الكلام عن المعنى الظاهر منه، إلى معنى غير ظاهر يحتمله اللفظ مع وجود دليل يؤيِّده"¹، وله شروط منهجية أصولية معلومة متعلّقة باحتمال اللفظ المؤوّل للمعنى المؤوّل إليه، وأن يستند التآويل إلى دليل يؤيِّد المعنى، سواء أكان الدليل شرعياً أم لغوياً، وأن يكون اللفظ المؤوّل مما يحتمل التآويل، فليست كلُّ الألفاظ تقبل التآويل، كالحقائق، وأن ينبثق التآويل من أهل العلم والتخصُّص،² لذا يُردُّ ولا يُعتدُّ به

¹ الغزالي، المستصفي من علم الأصول، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، د.ت)، ج3: ص88.

² انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، محمد عبد الله دراز، عبد السلام عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2004)، ص526.

كلُّ تأويلٍ حَرَجَ عن احتمالات اللفظ، وخالفَ مقاصد الشرعية وعلومها، وخالفَ ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصحابته رضوان الله عليهم، ومن تبعهم، وإجماع الأمة. أما التأويل في الفكر الغربي ومعطياته، فقد تمثَّل في إعادة إنتاج المعنى بكشف المسكوت عنه، وربطه بالحمولات الفكرية للمؤوِّل السابقة على النص،¹ واتَّخذ له مسارين إجرائيين؛ التأويل آلياً، والتأويل منهجيةً.

المسار الأوَّل هو مسار المناهج النصية بدءاً من النبوية، مروراً بالسيمائية، وليس انتهاءً بالتفكيكية وما بعد النبوية، والمسار الثاني هو مسار التأويلية المنبثقة من الظاهرية، وتعتمد على عنصرين اثنين؛ فهم الظاهرة، وإدراكها.²

وللتأويلية منطلقات نقدية من أبرزها أن النص آلة كسولة تتطلَّب من القارئ أن يملأ فضاءات المسكوت عنه، ويُنتج ما يراه مناسباً، وأن إنتاج معنى النص مرهون بتاريخ تلقّيه، ولا نصَّ متعالياً، فالنصوص كلّها خاضعة للنقد وللتحليل وللتعليل، وإعادة إنتاج المعنى وفق رغبات المتلقي.³

وإشكالية تأويل النص متعلِّقة بالقراءات الفكرية للنص، ومن هذه القراءات الفكرية مثلاً القراءة التَّاريخية، وقراءة الأنسنة، والقراءة الأدبية، والقراءة الظاهرية.

وتتحدَّد المعايير الفكرية للقراءة التاريخية للنص المقدَّس بأن تطبيق نظرية الوقائع الماركسية تعتمد على الفرق بين المعنى والمغزى،⁴ فالمعنى يُمثِّل الدلالة التاريخية في سياق صوغها، والمغزى يُمثِّل علاقة النص بالواقع، أي إنَّ النص صاغه الواقع لا الغيب، وحكم

¹ انظر: لرويلي والبازعي، دليل الناقد الأدبي، ص88.

² انظر: إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا: خمسة دروس، ترجمة: فتحي إنقزو (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، ص44-45.

³ انظر: أمبرتو إيكو، "النص آلة كسولة ثمة قارئ يعيد تنشيطها"، ترجمة: مصطفى الروحي، مجلة كلمات، المنامة، العدد (15)، (1991)، ص86.

⁴ انظر: محمد قراش، الخطاب القرآني وإشكاليات القراءة الحداثية: دراسة تحليلية نقدية (القاهرة: دار رؤيا، ط1، 2012)، ص25 وما بعدها.

المسار التاريخي وتأثيراته في ضوء مقدمات التطوُّر والتَّعْيِيرُ زماناً ومكاناً المرتبطة بأسباب النزول، والوجود التاريخي الواقعي يُحدِّد وعيَ الناسِ النَّصَّ، ويرسم طبيعة علاقة الفكر بالواقع، أي إنَّ النصَّ المقدَّس غير صالح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ!

أما المعايير الفكرية لقراءة الأنسنة للنص المقدَّس فهي:¹

- النص المقدَّس نصُّ قصصيّ أسطوريّ.
- نفيُّ المصدر التشريعيِّ للنص المقدَّس.
- تتحدّد معاني النص المقدَّس وفق معطيات الإدراك الإنساني.
- في حين تَضِحُ المعايير الفكرية للقراءة الأدبية للنص المقدَّس في أن:²
- النص المقدَّس كتاب ثقافيٌّ أدبيٌّ جماليٌّ فحسب، لا كتاب تعبديّ.
- النص المقدَّس مرتبط بالقيمة الجمالية حصراً، وهو نصُّ أدبيٌّ خاضع للنقد والتوجيه والتحليل.

وتقدِّم المعايير الفكرية للقراءة الظاهرية في إطار تحليل النص المقدَّس وبيان حملاته ودلالاته، ما يأتي:

- تطبيق أبعاد الوعي في النقد التاريخي والعقلاني والقصدي.
- تطبيق مفهوم الإدراك الذي ينطلق من نقطة الصفر المعرفي.
- عدُّ النص المقدَّس ظاهرة ثقافية مرتبطة بوعي الإنسان وتراثه.³

¹ انظر: محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة: هاشم صالح (بيروت: دار الساقي، ط2، 2006)، ص245 وما بعدها؛ مصطفى كحيل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون (الجزائر: منشورات الاختلاف؛ الرباط: دار الأمان، ط1، 2011)، ص159 وما بعدها.

² انظر: أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة (بيروت: دار الآداب، ط1، 1993)، ص19 وما بعدها.

³ انظر: أنطوان خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهرية، سلسلة الفكر المعاصر (4) (بيروت: دار التنوير، ط1، 1984)، ص39 وما بعدها.

ومن الكتب المهمة في فهم المنهج الظاهري وتأويله للنص المقدس: حسن حنفي، تأويل الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في ظاهرة الدين (لندن: مؤسسة هنداوي، 2023).

إنَّ أخطارًا عدَّةً في دراسة النص القرآني الكريم وَفَقَّ آليات نظريات الاستقبال والتلقي، وذلك انطلاقًا من أن هذه النَّظَرِيَّات تعتمد أساسًا معرفيًا في الاشتغال، هو ملءُ فجوات النص،¹ أي إنَّ القارئ أو المتلقي لن يستطيع بيان جمال النص وتوضيح دلالاته إلا بعد افتراض أن النص مليء بالفجوات، ومهمَّة هذا القارئ ملءُ هذه الفجوات كي تَصِحَّ الدلالة، ويستقيم المعنى، وتتحقَّق انسيابية الجمل، والقارئ - الذي يمكنه ملءُ الفجوات النصية وتحقيق انسيابية الجمل - قارئ مثالي أو ضمني،² وكذا اعتمدت هذه النظريات الحدائية في الأساس على المنهج الظاهراتي الفلسفي المنبثق أساسًا من المذهب الوجودي في الدرس الفلسفي الحديث، وكلُّ هذه التوجُّهات لا تناسب النصَّ القرآني الكريم - كما لا يخفى - لأنها لا تعترف بالغيب وفقَّ أبجدياتها المنهجية، ولا تؤمن بوجود الخالق، فكيف يليق بالنص القرآني الكريم أن يُجرَّد من موجدِه (الخالق)، ويُحلَّل بآليات هذه المناهج ومعطياتها؟! وفي دراسة النص القرآني الكريم بهذه الأدوات خطوط متقاطعة عدَّة؛ إذ تستند في الأساس إلى تغييب المؤلِّف، ونفي القيم العليا في النظام النصي، أي ترابطُ الدلالة، وانسيابية الأنساق النصية، فلا تعترف بأيِّ نهايةٍ للتحليل، وتحصيل الدلالة وفقَّ اعتماد منطق الإدراك، ومعيار الظاهرة.

إنَّ محاولة دراسة النص القرآني الكريم بأدوات الاستقبال والتلقي - كما يطمح إليه بعضهم - محاولة عبثية لا تستند إلى أُسسٍ علمية في مقارنة النص بالمنهج المناسب إياه، وبخاصة عندما نتحدَّث عن نصٍّ مقدَّسٍ إلهيٍّ مرتبطٍ أولاً وآخراً بالخالق، ووسيلته النظام اللغوي، وغايته إعلان العبودية للخالق عزَّ وجلَّ.

¹ "فجوات النص" مصطلح نقدي ذكره الناقد وولف جانج آيزر، ينتمي إلى مجموعة العروض النقدية لنظريات الاستقبال والتلقي.

انظر: روبرت هول، نظرية الاستقبال: مقدمة نقدية، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد (دمشق: دار الحوار، ط1، 1992)، ص111 وما بعدها.

² انظر: السابق نفسه.

وَفُقَّ هذه المسارات التأويلية للظاهراتية، يمكن القول إن دلالة النصوص لا تظهر إلى الوجود إلا بعد إدراكها، انطلاقاً من حمولات الواقع، وتأثيراته على النص، أي إن النص القرآني الكريم لم يُكْتَبْ له الظهور إلا بَعْدَ ولادة أسباب واقعية مهّدت له، أي إنه - وفقَّ هذا التصوّر - ليس محفوظاً في اللوح المحفوظ! وهذا التصوّر يتعارض مع المسار العقدي الذي ضَمِنَ حَفْظَ النص المقدّس قَبْلَ وجود الوقائع ومحفّزاتها وتأثيراتها.

والقسم الثاني من إشكالية تأويل النص المقدّس متعلّق بالقراءات النقدية للنص، ومن هذه القراءات النقدية مثلاً القراءة البنيوية، والتفكيكية، والتداولية، وقراءة نظريات التلقي.

وتَضَخُّ المعايير النقدية للقراءة البنيوية للنص بعامة بمَوْتِ المؤلّف، وقراءة النص لذاته، واعتماد الصوغ اللغوي بوصفه المرجع العلمي للدلالة.¹

أما المعايير النقدية للقراءة التفكيكية للنص فتتحدّد بمصطلح "الاختلاف"، ونظرية اللعب، والدوال غير المتناهية، وتفكيك النص لإعادة إنتاجه.²

وتعتمد المعايير النقدية للقراءة التداولية للنص على معايير محدّدة،³ بأن اللغة مرتبطة بالمقام وسياق الاستعمال والتداول فحسب، ولا تعترف باللغة المتحققة خارج الحواس، أي التعامل مع اللغة المدركة عياناً، وشرطُ اللغة أن تحقّق للمتلقّي المصلحة والمنفعة، في مقابل المعايير النقدية لقراءة نظريات التلقي للنص التي تتعلّق بأن النص محكوم بفجواته، ولا معرفة مسبقة للنص، وإعادة إنتاج النص وفقّ معرفة المتلقّي.⁴

¹ انظر: روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرايشي (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1979)، ص5 وما بعدها؛ عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2000)، ص111 وما بعدها.

² انظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد (الدار البيضاء: دار توبقال، ط2، 2000)، ص47 وما بعدها.

³ انظر: محمد سالم سعد الله، "النقد التداولي: من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني"، في: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، تحرير: بشرى البستاني (لندن: دار السياب، د.ت)، ص127-144.

⁴ انظر هذه المباحث مفصلة في: وولف جانج آيزر، فعل القراءة: نظرية في الاستجابة الجمالية، ترجمة: عبد الوهاب علوب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000).

إن مسار الظاهراتية الفكرية والمنهجية مَوْغِلٌ في الجذر الفلسفي، ويتعلَّق أساسًا بمصطلح "الإدراك" (Perception)،¹ الذي أُسِّس على فكرة انطلاق القراءة من الدرجة الصفر المعرفي، أي لا معرفة مسبقة في مواجهة النص، أما علوم النص المرتبطة أساسًا بالتوجُّهات العقدية، فتنبني على وعيٍّ قائم على معرفة مسبقة متوالية ناشئة من تراكم الخبرات والمعارف، وتسهم في تجاوزِ أُطُرِ التَّأْوِيلِ البعيدة عن مقصدية النص.

وقد اتسمت بعضُ القراءات الحدائرية بنزعِ القدسية عن النص، وحاولت تلك القراءات تقديم منهجية جديدة للتعامل مع النص المقدَّس، وانطلقت من مبدأ النسبية والظنية والتشكيك، وسَعَتْ إلى إعادة صوغ النص المقدَّس وفُقِّ رُؤى مُوجَّهة، واعتمدت معطيات المناهج النقدية الحديثة، كالبنوية والتفكيكية ونظريات التلقي، ويغلب أنها مناهج إحدائية تفصل النص عن صاحبه، ولا تعترف بالغيب، لذا لا تناسب هذه المناهج تحليل النص المقدَّس بدعوى اكتشاف الدلالات والجماليات.

خاتمة

إن توسيع أفقِ دراسة نَسَقِ النِّقْدِ المَعْرِفِيِّ بين علوم النص والعلوم الإنسانية، وتعزيز العلاقة المعرفية بينهما، والإفادة من الطفرات المعرفية الهائلة في حقول العلوم والمعارف، ثم المقارنة بين المعطيات المعرفية لعلوم النص مع المعطيات المعرفية للعلوم الإنسانية، مع الموازنة المنهجية بين نتاجات علوم النص المتعدِّدة من جهة، وبين مُدْرَكَاتِ العلوم الإنسانية والمناهج النقدية والفلسفية المتعلِّقة بها من جهة ثانية؛ تستدعي التعامل بوعيٍّ مع المفاهيم العقدية،

¹ يشير مفهوم مصطلح "الإدراك" إلى المعرفة الحسية بالأشياء الخارجية المحيطة بالذات، وعلاقات بعضها ببعض، والقدرة على تمييز الشيء المحسوس.

انظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية (تونس: دار الجنوب، 2004)، ص 19.

والسلوكات الإيمانية، والثوابت الدينية، والأحكام التعبدية؛ تعاملًا شموليًا تكامليًا، لا يُغفل جانبًا على حساب جانب آخر، ينظر بصفة الحاكمية، ويعمل بمسار العالمية، ويعلم فرادة الشرعية، ويمارس الأنشطة الدعوية بآليات منهجية، ينطلق من رسالة الوحي، ويستدلُّ بالنص القرآني الكريم، ويحكم بالصيغ العقلانية الواعية المنطقية الممنهجة المناسبة للتطور الفكري الإنساني المتَّفَق مع شرط التوحيد، فضلاً عن تجميع الأفكار والصيغ المرتحلة من ميدان معرفيٍّ إلى ميدان معرفيٍّ آخر، المختلفة نشأةً وتطورًا وتنميةً واشتغالاً.

المصادر والمراجع

- أحمد الكرساوي، مدخل إلى نظرية المعرفة (جدة: مركز تكوين، 2018).
- إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا: خمسة دروس، ترجمة: فتحي إنقزو (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007).
- أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة (بيروت: دار الآداب، ط1، 1993).
- أمبرتو إيكو، "النص آلة كسولة ثمة قارئ يعيد تنشيطها"، ترجمة: مصطفى الروحي، مجلة كلمات، المنامة، العدد (15)، (1991).
- أنطوان خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهرية، سلسلة الفكر المعاصر (4) (بيروت: دار التنوير، ط1، 1984).
- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد (الدار البيضاء: دار توبقال، ط2، 2000).
- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية (تونس: دار الجنوب، 2004).
- جيل دولوز، نيتشه، ترجمة: أسامة الحاج (بيروت: المؤسسة الجامعية، ط1، 1998).
- حسن حنفي، تأويل الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في ظاهرة الدين (لندن: مؤسسة هنداوي، 2023).
- راجح عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة (الرياض: مكتبة المؤيد، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1992).
- روبرت هول، نظرية الاستقبال: مقدمة نقدية، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد (دمشق: دار الحوار، ط1، 1992).
- روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرايشي (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1979).
- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، محمد عبد الله دراز، عبد السلام عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2004).

- عبد الرحمن بدوي، نيتشه (الكويت وكالة المطبوعات، ط5، 1975).
- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2000).
- الغزالي، المستصفي من علم الأصول، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، د.ت).
- الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: محمد أبو ليلة، نورشيف عبد الرحيم رفعت (واشنطن: دار جميعة البحث في القيم والفلسفة، 2001).
- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيد، ترجمة: هاشم صالح (بيروت: دار الساقى، ط2، 2006).
- محمد سالم سعد الله، "الفكر المنهجي للنقد المعرفي"، مجلة الأديب الثقافية، بغداد، العدد (3)، (2021).
- محمد سالم سعد الله، "المنهج النقدي وإشكالية التحيز"، في: مجموعة مؤلفين، فقه التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، 2016).
- محمد سالم سعد الله، "النقد التداولي: من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني"، في: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، تحرير: بشرى البستاني (لندن: دار السياب، د.ت).
- محمد سالم سعد الله، "جماليات التلقي في السرد القرآني"، رابطة أدباء الشام، نُشر في 11 أكتوبر 2008، الاطلاع في 8 يوليو 2024.
- محمد سالم سعد الله، أطياف النص: دراسات في النقد الإسلامي المعاصر، سلسلة النقد المعرفي (2) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- محمد سالم سعد الله، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية: دراسة فلسفية (دمشق: دار الحوار، ط1، 2007).

- محمد سالم سعد الله، أنسنة النص: مسارات معرفية معاصرة، سلسلة النقد المعرفي (3) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- محمد سالم سعد الله، ما وراء النص: دراسات في النقد المعرفي المعاصر، سلسلة النقد المعرفي (4) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- محمد سالم سعد الله، مدخل إلى نظرية النقد المعرفي المعاصر (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2013).
- محمد سالم سعد الله، مملكة النص: التحليل السيميائي للنقد البلاغي، سلسلة النقد المعرفي (1) (إربد: دار عالم الكتب الحديث، 2007).
- محمد قراش، الخطاب القرآني وإشكاليات القراءة الحديثة: دراسة تحليلية نقدية (القاهرة: دار رؤيا، ط1، 2012).
- مصطفى كيحل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون (الجزائر: منشورات الاختلاف؛ الرباط: دار الأمان، ط1، 2011).
- ميحان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً (بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط3، 2002).
- وولف جانج آيزر، فعل القراءة: نظرية في الاستجابة الجمالية، ترجمة: عبد الوهاب علوب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000).

References

- Abdurrahmān Badawi, *Nietzsche* (Kuwait: Wikālah al-Maṭbū‘āt, 5th Ed., 1975).
- Abdurrazzāq al-Dawāy, *Mawt al-’Insān fī al-Khiṭāb al-Falsafī al-Mu‘āšir* (Beirut: Dār al-Ṭalī‘ah, 1st Ed., 2000).
- Adunis, *al-Naṣ al-Qur’ānī wa-’Āfāq al-Kitābah* (Beirut: Dār al-’Ādāb, 1st Ed., 1993).
- Aḥmad al-Karsāwī, *Madkhal ‘ilā Nazariyyah al-Ma‘rifah* (Jeddah: Markaz Takwīn, 2018).
- Al-Ghazālī, *al-Munqith min al-Ḍalāl wal-Mūṣil ‘ilā Thil-’Izah wal-Jalāl*, Muḥammad Abū Lyla & Nūrshīf Abdurrahīm Rif‘at (Eds.) (Washington: Dār Jam‘iyyah al-Baḥth fī al-Qiyam wal-Falsafah, 2001).
- Al-Ghazālī, *al-Mustaṣfā min ‘Ilm al-’Uṣūl*, Ḥamzah bin Zuhayr Ḥāfīz (Ed.) (Medina: al-Jāmi‘ah al-Islāmiyyah).
- Al-Shāṭibī, *al-Muwāfaqāt fī ‘Uṣūl al-Sharī‘ah*, Abdullah Draz, Muhammad Abdullah Draz & Abdussalām Abdushāfi (Eds.) (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1st Ed., 2004).
- Anṭwan Khūrī, *Madkhal ‘ilā al-Falsafah al-Zāhirātiyyh*, Silsilah al-Fikr al-Mu‘āšir (4) (Beirut: Dār al-Tanwīr, 1st ed., 1984).
- Edmund Husserl, *Fikrah al-Fīnūmīnūlūjyā: Khamsah Durūs*, Fathī Inqzū (Tran.) (Beirut: al-Munazzamah al-‘Arabiyyah lil-Tarjamah, Markaz Dirāsāt al-Wiḥdah al-‘Arabiyyah, 2007).
- Gilles Deleuze, *Nītsheh*, Usamah al-Ḥāj (Tran.) (Beirut: al-Mu’assasah al-Jāmi‘iyyah, 1st Ed., 1992).
- Ḥasan Ḥanafī, *Ta’wīl al-Zāhiriyyat: al-Ḥālah al-Rāhinah lil-Manhaj al-Zāhiriyyātī wa-Taṭbiqahu fī Zāhirah al-Dīn* (London: Mu’assasah Hindāwī, 2023).
- Jacques Derrida, *al-Kitābah wal-Ihktilāf*, Kāzīm Jihād (Tran.) (Casablanca: Dār Tūbqāl, 2nd Ed., 2000).

- Jalāluddīn Sa‘īd, *Mu‘jam al-Muṣṭalahāt wal-Shawāhid al-falsafīyyah* (Tunis: Dār al-Janūb, 2004).
- Mījān al-Ruwylī & Sa‘d al-Bazī‘ī, *Dalīl al-Nāqid al-‘Adabī: ‘Iḍā‘ah li-‘Akthar min Sab‘īn Tyār wa-Muṣṭalḥ Naqdī Mu‘āṣir* (Beirut & Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, 3rd Ed., 2002).
- Mohammed Arkoun, *Naz‘at al-‘Ansanah fī al-Fikr al-‘Arabī: Jīl Miskawiyh wal-Tawḥīdī*, Hāshim Ṣāliḥ (Tran.) (Beirut: Dār al-Sāqī, 2nd Ed., 2006).
- Mohammed Salim Saadallah, *‘Atyāf al-Naṣ: Dirāsah fil-Naqd al-‘Islāmī al-Mu‘āṣir*, Silsilah al-Naqd al-Ma‘rifī (2) (Irbid: Dār ‘Ālam al-Kutub al-Ḥadīth, 2007).
- Mohammed Salim Saadallah, “al-Fikr al-Manhajī lil-Naqd al-Ma‘rifī”, *Majallah al-‘Adīb al-Thqāfīyyah*, Baghdad, No. (3), (2021).
- Mohammed Salim Saadallah, “al-Manhaj al-Naqdī wa-‘Ishkāliyyah al-Taḥyuz”, in: Groupe of Authors, *Fiqh al-Taḥyuz: Ru‘yah Ma‘rifīyyah wa-Da‘wah lil-Ijtihād* (Cairo: International Institute of Islamic Thought, Dār al-Salām, 2016).
- Mohammed Salim Saadallah, “al-Naqd al-Tadāwulī: min al-Ḥadath al-Lughawī ‘ilā al-Tawāṣul al-Tiqānī”, in: Bushrā al-Bustānī (Ed.), *al-Tadāwulīyyah fil-Baḥth al-Lughawī wal-Naqdī* (London: Dār al-Sayyāb, 1st Ed., 2012).
- Mohammed Salim Saadallah, “[Jamāliyyāt al-Talaqī fil-Sard al-Qur‘ānī](#)”, Rābiṭah ‘Udabā’ al-Shām, published October 11, 2008, retrieved July 8, 2024.
- Mohammed Salim Saadallah, *al-‘Usus al-Falsafīyyah li-Naqd mā Ba‘d al-Bunyawīyyah: Dirāsah Falsafīyyah* (Damascus: Dār al-Ḥiwār, 1st Ed., 2007).
- Mohammed Salim Saadallah, *Mā Warā’ al-Naṣ: Dirāsah fī al-Naqd al-Ma‘rifī al-Mu‘āṣir*, Silsilah al-Naqd al-Ma‘rifī (4) (Irbid: Dār ‘Ālam al-Kutub al-Ḥadīth, 2007).
- Mohammed Salim Saadallah, *Madkhal ‘ilā Nazariyyah al-Naqd al-Ma‘rifī al-Mu‘āṣir* (Irbid: Dār ‘Ālam al-Kutub al-Ḥadīth, 2013).

- Mohammed Salim Saadallah, *Mamlakah al-Naş: al-Taḥlīl al-Sīmyā'ī lil-Naqd al-Balāghī*, Silsilat al-Naqd al-Ma'rifi (1) (Irbid: Dār 'Ālam al-Kutub al-Ḥadīth, 2007).
- Muḥammad Qarrāsh, *al-Khiṭāb al-Qur'ānī wa-'Ishkāliyyat al-Qirā'ah al-Ḥadāthiyyah: Dirāsah Taḥlīliyyah Naqdiyyah* (Cairo: Dār Ru'yā, 1st Ed., 2012).
- Muṣṭafā Kīhil, *al-'Ansanah wal-Ta'wīl fī Fikr Mohammed Arkoun*, Silsilah Muqārbāt Fikriyyah (Algiers: Manshūrāt al-Ikhtilāf, Rabat: Dār al-'Amān, 1st Ed., 2011).
- Rājih Abdulḥamīd al-Kurdī, *Naẓariyyah al-Ma'rifah Byn al-Qur'ān wal-Falsafah* (Riyadh: Maktabah al-Mu'ayyad, Herndon: al-Ma'had al-'Ālamī lil-Fikr al-'Islāmī, 1st Ed., 1992).
- Robert Houle, *Naẓariyyah al-Istiqbāl: Muqadimah Naqdiyyah*, Ra'd Abduljalīl Jawād (Tran.) (Damascus: Dār al-Ḥiwār, 1st Ed., 1992).
- Roger Garaudy, *al-Bunyawiyyah Falsafah Mawt al-'Insān*, George Tarabishi (Tran.) (Beirut: Dār al-Ṭalī'ah, 1st Ed., 1979).
- Umberto Eco, "al-Naş 'Ālah Kasūlah thammah Qāri' Yu'īd Tanshītahā", Muṣṭafā al-Rūḥī (Tran), *Majalah Kalimāt*, Manama, No. (15), (1991).
- Wolf Gang Iser, *Fi'l al-Qirā'ah: Naẓariyyah fī al-Istijābah al-Jamāliyyah*, Abdulwahhāb 'Allūb (Tran.) (Cairo: al-Maglis al-A'lā lil-Thaqāfah, 1st Ed., 2000).



أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ الغرناطِيُّ أَوَّلُ مَنْ أَلَّفَ فِي المثلثاتِ اللغويَّةِ القرآنيَّةِ بَحْثٌ فِي معالمِ الصَّنْعَةِ والتَّفَرُّدِ والجِدَّةِ

محمد ابن سفاج *

مُلخَص

يعنى هذا البحث بالكشف عن طُفْرَة أندلسية في علمِ إعراب القرآن وفنِّ المثلثات اللغوية، اضطلع بها الإمام أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ (ت779هـ) في كتابه "تحفة الأقران فيما فُرى بالتثليث من حروف القرآن"؛ إذ يعدُّ هذا الكتاب أَوَّلَ ما أَلَّفَ في المثلثات اللغوية القرآنية، ويشي بنبوغ المغاربة في التأليف، وابتكارهم المباحث الطريفة، ومجاوزتهم مَنْ قَبْلَهُم شكلاً ومضموناً، وقد طوَّر فيه الرعيني مفهوم المثلثات باسترفاده من القرآن الكريم وقراءاته المتواترة والصحيحة والشاذة، ومن ثمَّ يجيب البحث عن إشكالين هما؛ هل كان الرُّعَيْنِيُّ مجدِّداً في حقل المعرفة الشرعية واللغوية لَمَّا صنع كتابه؟ وهل يمكن أن تكون للقرآن مثلثاتٌ لغوية خاصة به؟ وقد توسَّل البحث بالمنهج التاريخي في التعريف بالإمام الرُّعَيْنِيِّ، والمنهج الوصفي في تقديم الكتاب والتعريف به شكلاً ومضموناً، ثمَّ المنهج التحليلي في الوقوف على معالم الجِدَّةِ في الكتاب، والاجتهادات العلمية المنتقاة التي ناقش فيها الرعيني علماء اللغة والمفسرين قبله، ومن أبرز نتائج هذا البحث التنويه بالإمام الرُّعَيْنِيِّ وكتابه واجتهاداته فيه.

الكلمات الرئيسية: الرعيني، اللسانيات القرآنية، القراءات، النحو العربي، علماء مغاربة

* أستاذ اللغة العربية بالسلك الثانوي التأهيلي، وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة، المملكة المغربية،

.benseffaj2000@gmail.com



Abu Ja'far al-Ru'ynī al-Gharnaṭī, the First Author on Quranic Linguistic Triplets: A Study on the Features of Craftsmanship, Novelty, and Uniqueness

Mohamed Ben Seffaj*

Abstract

This study explores an Andalusian breakthrough in Quranic parsing and the art of linguistic triplets by Abu Ja'far al-Ru'ynī (779H.) in his book: "Tuḥfah al-'Aqrān fi ma Quri'a bil-Tathlīth min Ḥurūf al-Qur'ān". This book, the first of its kind on Quranic linguistic triplets, highlights the ingenuity of Maghribi scholars in authorship and innovative scientific inquiries, surpassing their predecessors in both form and content. Al-Ru'ynī expanded the concept of triplets by incorporating various Quranic readings, both canonical and non-canonical. The study addresses two main questions: Was al-Ru'ynī a pioneer in Islamic and linguistic knowledge through his book? And can the Quran have its own unique triplets similar to linguistic triplets? To answer these, a synthetic approach was adopted, combining historical, descriptive, and analytical methods. The historical method introduces al-Ru'ynī, the descriptive method presents the book's form and content, and the analytical method examines the novel aspects and scientific efforts in which al-Ru'ynī discussed the views of previous linguists and exegetes. One of the most prominent results of this research is the praise of al-Ru'ynī, his book, and his efforts in it.

Keywords: *Al-Ru'ynī, Quranic linguistics, recitations, Arabic syntax, Maghribi scholars*

* High School Teacher of Arabic Language, Ministry of National Education, Preschool and Sports, Morocco, benseffaj2000@gmail.com.

مُقَدِّمَةٌ

تحتجج المكتبة العربية شرقًا وغربًا، كُتِبَ شَيْءٌ فِي المثلثات اللغوية التي فَتَقَ رَتَّقَهَا فِي القرن الثالث الهجري، محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت206هـ)، وذلك فِي مثلثاته المعروفة بـ"مثلثات قطرب"، ثم توالى بعده مثلثات أرباب اللغة، كمثلثات أبي زيد الأنصاري (ت215هـ)، ومثلثات الزجاج (ت311هـ)، ومثلثات ابن السِّيد البطليوسي (ت521هـ)، ومثلثات ابن مالك الجيَّاني الطائي (ت672هـ)،¹ وكلُّهم أَرَبُوا على ما ذَكَرَهُ قطرب، واستدركوا عليه كلمات عددًا، ولكن مع هذه الخزانة الطافحة بكُتِبِ المثلثات اللغوية التي تُنِيف على مئة كتاب، ظَلَّتْ بِرِقْمَتِهَا تستمدُّ مادَّتها من دواوين الشعر والمعاجم والأجزاء اللغوية،² ومن ثمَّ لم تضطلع بدراسة المثلثات وجمِّعها من المنقل الأول للغة العربية؛ القرآن الكريم، وذلك بملاحظة اختلاف قَرَأَتِهِ فِي أداءِ بَعْضِ كلماته على ثلاثة أوجه، حتى قَيَّضَ اللهُ سبحانه لها عالمًا غرناطيًا يُسَمَّى "أبا جعفر الرُّعَيْنِيَّ الغرناطِيَّ"، فِي المئة الثامنة الهجرية، توخَّى جَمَعَ المثلثات القرآنية، أي الكلمات التي قُرئت فِي القرآن الكريم بثلاثة أوجه، سواء أكانت الأوجه إعرابية أم صرفية، وسواء اتفق معناها أم اختلف، فِي كتاب وسَمَّه بـ"تحفة الأقران فيما قُرئ بالثلاث من حروف القرآن"، فابتكر بذلك طَرَفًا بحثيًا جديدًا، وطوَّر

¹ انظر هذه العناوين وغيرها من كُتِبِ المثلثات فِي: ابن السيد البطليوسي، المثلث، تحقيق: صلاح مهدي الفوطوسي (بيروت: دار الرشيد، د.ط، 1981)، ج1: ص47-62؛ ابن السيد البطليوسي، المثلث، تحقيق: يحيى مراد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2015)، ص15-21؛ الفيروز آبادي، الغرر المثلثة والدرر المبيثة، تحقيق: سليمان بن إبراهيم العايد (القاهرة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط2، 2000)، ص105-181.

² قال ابن مالك فِي مقدمة كتابه "إكمال الإعلام بثلاث الكلام": "وليعلم النَّاطِر فِي هذا الكتاب أن أكثر اعتمادي فيما أودعته على كتاب (التهذيب) لأبي منصور الأزهري رحمه الله، وكتاب (الأفعال) لابن القطاع، وربما نقلت من غيرهما ك(ديوان الأدب)، و(الجمهرة)، و(الصَّحاح)، و(غريب الهروي)، وربما اعتمدت فِي ألفاظ يسيرة على أبي محمد بن السيد البطليوسي لم أجدها لغيره، وكفى به حجة، فإنه وإن تأخر بالزمان، فقد حاز تقدمًا فِي التحقيق والإتقان"، فهذه موارد ابن مالك ومناقله، جُلُّها من كُتِبِ اللغة والأدب، ما عدا كتاب "الغريبين" للهروي الذي شَرَحَ فِيه غريب القرآن والسنة.

انظر: ابن مالك، إكمال الإعلام بثلاث الكلام، تحقيق: سعد الغامدي (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 1984)، ج1: ص6.

مفهوم المثلثات، ووسَّع أوصاله برَبطه بالقراءات القرآنية، فكان كتابه أَوَّلَ كتاب أَلَّفَ في المثلثات القرآنية، بعد أن كانت هذه المثلثات ماثورةً في كُتُبِ التفسير والقراءات، لم تَحْطَ بِمَنْ جَمَعَهَا مع نظائرها، أو مازها من غيرها مَيزًا في مؤلَّفٍ أثيرٍ بها.

وإذا كان هذا العمل الغرناطِيُّ تجديدًا وتطويرًا لِنِّ المثلثات اللغوية، فإنه ابتكار جديد أيضًا في علم إعراب القرآن الكريم، الذي يفيد من علمي القراءات والنحو العربي، ويتجلى هذا الابتكار في اقتصار أبي جعفر على إعراب الكلمات القرآنية المثلثة فقط، واجتهاده بأراء خاصة به في إعراب بعضها، من دُونِ التعرُّيج على آي الكتاب كِلِّها،¹ أو على إعراب شاذِّ قراءته،² أو على مُشكِله،³ فيكون بذلك أَوَّلَ كتاب خاصٍّ ومستبدِّ بإعراب مثلثات القرآن الكريم وتخرُّجها.

ومع هذين المعلمين الطريفيين اللذين أتى بهما أبو جعفر الغرناطِيُّ في علم إعراب القرآن وفنِّ المثلثات؛ ظلَّ منسيًّا لم يلتفت إليه وإلى عمَلِه الفذِّ الفريد الباحثون والمعنيون، إلا في إشارات خاطفة يأتي التنبيه عليها.

وللبحث في هذا الموضوع أهمية كبرى، تكمن في إبراز ملمح بحثي مغفول عنه في الدراسات القرآنية واللغوية، هو المثلثات القرآنية التي تهدى إلى جمعها وإيلاف متفرِّقها عالم مغربي من قُطْرِ الأندلس، يُدعى "أبا جعفر الرُّعِينِي"، وكذا للموضوع أهمية أخرى تبرز في إثبات نشاط علماء المسلمين الدائم، واجتهادهم المتواصل في تفهْم القرآن ودَرْكِ مختلف علومه ومعارفه المكنونة في آياته، مع تورُّطهم في عصرِ الجمود الفكري، وزمنِ التقليد والتبعية المذهبية التي أُغْلِّ بسلاسلها المسلمون في عصرِ الرُّعِينِي؛ القرن الثامن الهجري. ومن ثم يرجو هذا البحث تحقيق الأهداف الآتية:

- التعريف بالمثلثات القرآنية، وإثبات أن أَوَّلَ كتاب أَلَّفَ فيها كتابُ عالم أندلسي في المئة الثامنة من الهجرة.

¹ من مثل "إعراب القرآن" للنحاس، و"الدر المصون في علوم الكتاب المكنون" للسمين الحلبي.

² من مثل صنيع ابن جني في كتابه "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها".

³ من مثل كتاب "البيستان في إعراب مشكلات القرآن" لأحمد الجليلي اليميني (ت717هـ).

- تأكيد الإسهام الشديد لعلماء المغرب والأندلس في العلوم الإسلامية، وتجديدها وتطويرها شكلاً ومضموناً.
- بيان مدى العلاقة الوطيدة بين دُرُسِ القراءات ودُرُسِ اللغة، وأن القراءات القرآنية مجالٌ ثرٌّ للبحوث اللغوية.
- بيان معالم الجِدَّةِ والفرادة في صناعة أبي جعفر الرُّعيني هذا الكتاب، ومواطن اجتهاده فيه.

أما إشكالية هذا البحث فتتمثّل في السؤالين الآتيين:

- هل أبو جعفر الرُّعيني الغرناطي كان - حقاً - مبدعاً ومكتشفاً مبحثاً جديداً في علمِ إعراب القرآن وكذا المثلثات اللغوية؛ لما أَلَّفَ كتابه "تحفة الأقران"؟
- وهل يمكن أن تكون للقرآن الكريم مثلثات أثيرة يتميِّز بها من المثلثات اللغوية المعروفة؟

وللإجابة عن هذين السؤالين، لم أشأ الاقتصار على منهج معيّن يخدمني في تشكيل صورة هذا البحث وتركيب فصوله؛ نظراً إلى طبيعته التي تمتاح من المصادر التاريخية واللغوية والشعرية، ولهذا عمَدْتُ إلى اتخاذ منهجٍ تركيبِي أُفيد منه في طيات هذا العمل، فقد استندتُ إلى المنهج التاريخي في أثناء التعريف بالإمام أبي جعفر الرُّعيني؛ انطلاقاً من ومضة عجلِي تنفذ بنا إلى شخصيته العلمية، وكذا عبَّرَ توظيف هذه المعطيات التاريخية في فهمِ نصوصه في هذا الكتاب ودركها، وركنْتُ أيضاً إلى المنهجين الوصفي والتحليلي في دراسة كتاب "تحفة الأقران"، وتقديمه ورصده، ووصف بنيته ومحتوياته، وبيان معالم التجديد والتطوير الكامنة فيه، وكذا فحَصُ بعض آراء مؤلِّفه المبنوثة في تضاعيفه، وفيها ناقش مَنْ تقدّمه مِنْ علماء القراءات واللغة، كلُّ هذا لأجل إثبات أطروحة البحث، وهو أن المثلثات القرآنية بحثٌ طريف في علمِ إعراب القرآن، وتطويرٌ وتوسعة لحقلِ المثلثات اللغوية، تشرّف ببعتها والتعريف بها أولاً، أبو جعفر الرُّعيني الغرناطي (ت779هـ) في كتابه "تحفة الأقران فيما فُرئ بالثلاث من حروف القرآن".

دراسات سابقة

لم تكتحل عيناى بدراسة خاصة منوّهة ومنبّهة بفضلِ أبي جعفر الرُّعيني، وفاحصة معالمِ الجِدَّة والابتكار في كتابه "تحفة الأقران"، سوى إشارات عجلى في بحوثٍ عنيت بالمثلثات القرآنية، أشارت إلى أسبقية الرُّعيني في جمع المثلثات القرآنية، ولكن من دون تفصيل ذلك ودرسه درسًا دقيقًا، حتى إن محقق الكتاب (علي حسين البواب) حطَفَ الكلام وأجهزه، ولم يتجاوز ثلاث صفحات في التعريف بالكتاب وبيان ريادته، وهذا الشحُّ الذي وجدته في دراسة الكتاب، كان الباعث على الخوض فيه، والتعريف بأمره.

وهذه لائحة الدراسات التي بحثت في موضوع المثلثات القرآنية، وأشارت عرضًا إلى أبي جعفر الرُّعيني وكتابه "تحفة الأقران"، مرتبة ترتيبًا زمنيًا:

- "الألغاز القرآنية المقروءة بالثلث: دراسة لغوية"،¹ دراسة جمعت الكلمات القرآنية المقروءة بالثلث في بنيتها وإعرابها، ولم يُدرج صاحبها كتاب "تحفة الأقران" في موارده، ولو اطلع عليه لأفاده، وأرشد دراسته بكلمات لم يُدرجها، ولست أدري لماذا لم يعد الباحث إلى كتاب الرُّعيني؟ علمًا أنني وجدته في مواطن يحاكي أبا جعفر في طريقة عرضه وأسلوبه، وعمومًا، هذه الدراسة مسبقة بكتاب "تحفة الأقران"، لأن الإمام أبا جعفر الرُّعيني أربى على ما عند الباحث جمعًا ودرسًا لغويًا.
- "الفوائد الحسان من كتاب تحفة الأقران"،² مقال صغير اقتطف فوائده من الكتاب وعرضها عرضًا حرفيًا.

¹ انظر: فراس عبد العزيز الكداوي، "الألغاز القرآنية المقروءة بالثلث: دراسة لغوية"، مجلة آداب الرفادين، العدد (52)، (2008)، ص 330-395.

² انظر: مؤلفة مجهولة، "الفوائد الحسان من كتاب تحفة الأقران"، ملتقى أهل اللغة، نُشر في 1 أكتوبر 2010، الاطلاع في 14 سبتمبر 2024.

- "مثلثات القرآن أو ما قرئ بثلاثة أوجه في القرآن الكريم"،¹ دراسة توخّت جَمْعَ المثلثات القرآنية كلّها، وقد نَبّه صاحبها إلى أسبقية الرُعيني في ذلك، واستدرك عليه ستّ عشرة كلمة، لكنه أدرج ما ليس من شَرَطِ الرُعيني، كعدّه السكونَ والإشمامَ والإمالة ونحوها، أما الرُعيني فشرطه الكلمات المقروءة بالحركات الثلاث، ولم يُدرج السكون والظواهر الصوتية من إشمام وتسهيل ونحوها، وعليه فشرطُ الرُعيني ليس شرطَ الباحث.
- "من وجوه الإعجاز في الذكر الحكيم: ظاهرة المثلث القرائي"،² مقال في صفحتين، تطرّق فيه كاتبه إلى وجود كلمات قرآنية قرئت بثلاثة أوجه، وأن أبا جعفر الرُعيني أَوَّل من خصّها بكتاب، واعتمد في نقله على مقدمة علي حسين البواب محقّق كتاب "تحفة الأقران"، ثم عرّج على فوائد هذه الظاهرة ومزاياها اللغوية.
- "المثلث اللغوي والإعرابي في القراءات القرآنية: دراسة لغوية وصفية"،³ رسالة عرّف فيها الباحث بظاهرة المثلث اللغوي، ثم المثلث القرآني، وتتبع مدارس التصنيف في التثليث اللغوي، ومؤلفاتها، ولم يفصل الكلام في كتاب أبي جعفر الرُعيني، سوى إشارة إلى ريادته وأسبقيته إلى التأليف في المثلثات القرآنية.
- "التبيان في الألفاظ المثلثة من القرآن"،⁴ دراسة جمّعت بعضَ المثلثات القرآنية التي مرّد اختلافها إلى الأوزان الصرفية والعلامة الإعرابية، وهو ما صنّعه الرُعيني نفسه في كتابه "تحفة الأقران"، بل ما في كتاب الرُعيني أوسع من هذه الدراسة.

¹ انظر: محمد أحمد مفلح القضاة، "مثلثات القرآن أو ما قرئ بثلاثة أوجه في القرآن الكريم"، الملتقى الدولي الثاني لمجموعة البحث في الدراسات القرآنية: القراءات القرآنية والإعجاز، الجديدة، المملكة المغربية، 30 يونيو 2010، ص 49-88.

² انظر: فهمي خالد، "من وجوه الإعجاز في الذكر الحكيم: ظاهرة المثلث القرائي"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (581)، (2013)، ص 62-64.

³ انظر: فرج محمد عبد الغفار، المثلث اللغوي والإعرابي في القراءات القرآنية: دراسة لغوية وصفية (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنوفية، جمهورية مصر العربية، 2016).

⁴ انظر: بلال عبد الستار مشحن، "التبيان في الألفاظ المثلثة من القرآن"، مجلة مداد الآداب، 9(17)، (2019)، ص 197-226.

- "التثليث في القراءات القرآنية: دراسة صوتية"¹، رَصَدَ فيها صاحبها المثلثات القرآنية التي منشأ اختلافها راجعاً إلى الظواهر الصوتية غير المدرجة في شرطِ الرُّعِينِيِّ، من تسهيل وإمالة وغيرهما، وقد ذَكَرَ الباحث أنه استدرك على أبي جعفر كلماتٍ لم يذكرها، لكن شرطِ الرُّعِينِيِّ في كتابه لا يُدخل سوى الحركاتِ الثلاث، كصنيع من أَلَفَ في المثلثات اللغوية، من دُونَ إدراج الظواهر الصوتية التي أدرجها الباحث.
- "ماهية المثلثات اللغوية القرآنية وفوائدها"²، دراسة ترصد ظاهرة المثلثات القرآنية عامة، من دون تخصيص ذلك بكتاب أبي جعفر الرُّعِينِيِّ، نعم، أشار الباحث فيها إلى أسبقية أبي جعفر الرُّعِينِيِّ في ذلك، لكنَّ كلامه كان وشيكًا.
- "توجيه الأسماء صرفيًا في القراءات المثلثة في كتاب (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن) لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ"³، دَرَسَ صاحب هذا المقال المنحى الصرفي في توجيهات الإمام الرُّعِينِيِّ بكتاب "تحفة الأقران"، ووطَّأه بمقدمة تعريفية بالكتاب ومؤلفه، وبعد أن اطلعتُ عليه وجدته لم ينأ عمَّا نصَّ عليه محقق الكتاب.
- هذا مجموع الدراسات التي وقفتُ عليها في موضوع المثلثات القرآنية، وكلُّها أشارت إشارة خاطفة إلى أولية الرُّعِينِيِّ في باب المثلثات القرآنية، لكن من دُونَ التعرُّض لذلك بتفصيل وإطناب، وبيان طريقته وصنعتَه واجتهاداته، وبهذا يكون هذا البحث أول بحثٍ ينخُل كتاب الرُّعِينِيِّ، ويعرِّف به تعريفًا مفصَّلًا.

¹ انظر: عصري عبد النبي الحراحشة، "التثليث في القراءات القرآنية: دراسة صوتية"، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، العدد (28)، (2020)، ص 259-342.

² انظر: عيد عيت الله أحمد، "ماهية المثلثات اللغوية القرآنية وفوائدها"، مجلة كلية الآداب بقنا، (50)، (2020)، ص 13-27.

³ انظر: غانم مشرقي، "توجيه الأسماء صرفيًا في القراءات المثلثة في كتاب (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن) لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ"، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، (2)، (2024)، ص 1899-1952.

لُحَّةٌ إِلَى حَيَاةِ أَبِي جَعْفَرِ الرُّعِينِيِّ وَسِيَاقِ التَّأْلِيفِ فِي عِلْمِ إِعْرَابِ القُرْآنِ وَالمثلثاتِ اللغويَّةِ

لا مناص من تديج فقرة تعرّفنا بالإمام أبي جعفر الرُّعينيِّ الغرناطيِّ؛ إذ هو من العلماء المغمورين، لكنّ تعريفنا به سيكون موجزاً يركّز على الجوانب المهمة الأكيدة التي توطّئ لنا الطريق نحو كتابه "تحفة الأقران"، فذكرُ مقاصد الكتاب وطريقةِ صنعة مؤلّفه فيه، متوقّفاً على الاستبصار بحياته العلمية، والاسترشاد بوضعيته ومكانته بين بني عصره.

ثم إننا لن نفر من ترجمته نحو التعريف بالكتاب مباشرة، بل سنعرّج بعد الترجمة على طرائق المؤلفين السالفين للإمام الرعيني، ومناهجهم في تصنيف كُتُبِ إعراب القرآن، وكذا كُتُبِ المثلثات اللغوية، لنرى هل سلف الرُّعينيُّ أو سبّقه أحدٌ في هذا الابتكار والتفرد؟

أولاً: لُحَّةٌ عَجَلِيٌّ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ الرُّعِينِيِّ الغرناطيِّ

1. نَسَبُهُ وَنَشَأَتُهُ بِالْأَنْدَلُسِ:

هو أبو جعفر، أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعينيِّ الغرناطيِّ، الملقَّب بـ"شهاب الدين"،¹ وُلِدَ بـغرناطة سنة (708هـ) أو (709هـ)، ودرّس فيها القراءات على أبي الحسن عليّ بن عمر

¹ انظر ترجمته في: ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية: برجستراسر (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1932)، ج1: ص151؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 2000)، ج8: ص199؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد خان (حيدر آباد الدكن: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط2، 1972)، ج1: ص403؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغم بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1969)، ج1: ص159؛ السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1993)، ج1: ص159؛ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ط2، 1979)، ج1: ص403؛ ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور (بيروت: دار التراث، ط1، 1971)، ج1: ص62؛ محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمد كمال (حلب: دار القلم، ط2، 1988)، ج5: ص73.

الْقِيَجَاطِي (ت730هـ)،¹ والفقهِ والنحو على أبي عبد الله الْخَوْلَانِي (ت753هـ)،² وغيرهما، وظلَّ فيها إلى حدود سنة (738هـ).

2. رحلته ومشيخته بالمشرق:

بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَبُو جَعْفَرِ سِنَ الثَّلَاثِينَ فِي سَنَةِ (738هـ)، خَرَجَ رَفَقَةً صَاحِبِهِ ابْنَ جَابِرِ الْهَوَّارِيِّ (ت780هـ)،³ مِنْ بِلَادِ غَرْنَاطَةَ حَاجِّينَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَقَدْ انْتَهَزَا الْفُرْصَةَ بِلِقَاءِ شَيْخِ الْعِلْمِ وَمُثَافَنَةِ أَرْبَابِهِ فِي أَقْطَارِ الْإِسْلَامِ، سَيْرًا عَلَى عَادَةِ الطَّلَبَةِ الْمَغَارِبَةِ آنَذَاكَ، الَّذِينَ كَانَتْ رِحَالَتُهُمْ الْحَجِّيَّةَ رِحَالَتٍ عِلْمِيَّةٍ أَيْضًا،⁴ وَبَعْدَ أَنْ أَدَّىا فَرِيضَةَ الْحَجِّ، قَصَدَا مِصْرَ، فَأَخَذَا عَنِ أَبِي حِيَانَ الْأَنْدَلُسِيِّ (ت745هـ)، وَكَانَ أَبُو جَعْفَرِ الرَّعِينِيُّ مَعْجَبًا بِهِ جَدًّا، كَمَا يَبْدُو فِي كِتَابِهِ "تَحْفَةُ الْأَقْرَانِ"، ثُمَّ رَحَلَ رَفَقَةً ابْنَ جَابِرِ الْهَوَّارِيِّ أَيْضًا إِلَى بَعْلَبَكِّ، لِقِرَاءَةِ "مَتَنِ الشَّاطِبِيَّةِ فِي الْقِرَاءَاتِ

¹ أبو الحسن، علي بن عمر القيجاطي، فقيه وأصولي مالكي من علماء المغرب، تميز بالتمكن في الفقه المالكي والأصول والأدب، اشتغل بالتدريس والتأليف، وقد اكتسب مكانة بارزة في الأوساط العلمية بالمغرب الأقصى في عصر الدولة المرينية. انظر: لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ط1، 1963)، ج1: ص37 وما بعدها؛ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ)، ج4: ص81 وما بعدها.

² أبو عبد الله، محمد بن علي الخولاني البيري، قال فيه ابن الخطيب: "أستاذ الجماعة، وعلم الصناعة، وسيبويه العصر... كانت له مشاركة في غير صناعة العربية، من قراءات وفقه وعروض وتفسير"، له "شرح جمل الزجاجي"، و"شرح ألفية ابن معط"، لم يكمله. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2: ص22 وما بعدها؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5: ص309.

³ أبو عبد الله، محمد بن أحمد الهواري الأندلسي، أديب شاعر ماهر، كان ضريراً وصديقاً لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ، تلازما وتصاحباً سفرًا وحضرًا، له قصائد ومنظومات فائقة راقية.

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5: ص70 وما بعدها.

⁴ من مثل رحلة ابن رشيد الفهري (ت721هـ) "ملء العيبة"، ورحلة القاسم التُّجَيْبِيِّ (ت730هـ) "مستفاد الرحلة والاعتراب"، وغيرهما.

انظر: عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب (تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 1999)، ص134.

السبع" على فاطمة بنت أبي الحسن اليونينية (ت730هـ)،¹ ودخلا دمشق، فأخذوا الحديث عن الحافظ المِزِّي (ت742هـ)،² وابن عبد الهادي (ت744هـ)،³ ومع أداء الرُّعِينِي فريضة الحج؛ ظلَّ يتردَّد إلى بيت الله الحرام، ويجاوره أيامًا عدة، وهناك التقى بالإمام أبي محمد بن فرحون (ت769هـ)،⁴ وروى عنه "صحيح البخاري"،⁵ إلى جانب تدرسه كُتُب العربية والحديث بأرض الحجاز، وإفادته للخاص والعام، مع سموِّ القدر ورفعة الشأن.⁶

انطلاقاً من هذه المسيرة، نلحظُ أن أبا جعفر الرُّعِينِي تَمَمَّ في رحلته الحجازية والعلمية تحصيلَ الأسانيد ورواية أَمَّات الحديث، وكذا ملاقاته المعمرين من العلماء، وكان شغوفاً بعلم الحديث والقراءات، ويؤكد هذا الشغف بعلم الحديث قولُ الشيخ أبي ذرِّ سبَّط

¹ فاطمة بنت علي بن أحمد اليونينية البعلية، محدثة مقرئة، سمعت من نصر الله بن عبد المنعم بن حوران.

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4: ص264، ولم أجد لها ذكراً في غيره، وقد استشكل محقق "شرح ألفية ابن معط" للرعيبي، سنة وفاتها، مع أخذ الرعيبي عنها، فإنه لم يخرج من الأندلس إلا في سنة (738هـ)، أي بعد وفاتها بثماني سنوات! انظر: أبو جعفر الرعيبي، شرح ألفية ابن معط (السفر السابع)، تحقيق: عبد الله بن عمر حاج إبراهيم (رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1997)، ج1: ص18.

² يوسف بن عبد الرحمن القضاعي المزري، محدث الإسلام، مهر في اللغة والنحو والتصريف، له "تهذيب الكمال في أسماء الرجال"، و"تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف".

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج6: ص228 وما بعدها؛ ابن شاکر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ط1، 1974)، ج4: ص353 وما بعدها.

³ محمد بن أحمد بن عبد الهادي، شمس الدين بن قدامة المقدسي، فقيه حافظ نحوي، له "شرح التسهيل"، وغيره.

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج5: ص61 وما بعدها؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج1: ص29.

⁴ إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون البعمرى المدني، قاضي المالكية، له "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب".

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1: ص52؛ ابن القاضي، درة المجال، ج1: ص182.

⁵ انظر: ابن فرحون، تاريخ المدينة المنورة المسماة بـ"نصيحة المشاور وتعزية المجاور"، علق عليه: حسين محمد شكري (بيروت: دار الأرقم، د.ط)، ص119.

⁶ انظر: المصدر السابق، ص121.

ابن العَجَمِي (ت884هـ): "وقد كَتَبَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ نَسْخَةً مِنَ البُخَارِيِّ فِي ثَلَاثِينَ مَجْلَدًا، وَكَذَا نَسْخَةً مِنَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَبَعْضُ هَذَيْنِ الكِتَابِينَ مَوْجُودٌ بِحَلْبٍ"¹، أَمَّا عُنَايَتُهُ بِعِلْمِ القَرَأَاتِ فَتَبَدَّى لَنَا فِي هَذَا الكِتَابِ بِكُلِّ وَضُوحٍ، وَنَلْحَظُ أَيْضًا أَنَّ أَبَا جَعْفَرَ الرُّعَيْنِي تَوَفَّرَ عَلَى مَشِيخَةٍ مَغْرِبِيَّةٍ وَمَشْرِقِيَّةٍ اكْتَفَيْنَا بِالإِمَاعِ إِلَى بَعْضِهَا، وَكَذَلِكَ زَاوَجَ بَيْنَ جَانِبِي الدِّرَافِيَّةِ وَالرِّوَايَةِ، وَعِلُومِ الشَّرِيعَةِ وَاللُّغَةِ.

3. اسْتِقْرَارُهُ وَإِمَامَتُهُ بِالشَّامِ:

اسْتَقَرَّ أَبُو جَعْفَرَ الرُّعَيْنِي وَصَدِيقُهُ ابْنُ جَابِرِ الهُوَارِيِّ فِي آخِرِ حَيَاتِهِمَا بِحَلْبٍ، وَبَعْدَ مَكُونَتِهِمَا فِيهَا بَلَّغَتْ شَهْرَتُهُمَا مَبْلَغًا كَبِيرًا، فَصَارَ أَبُو جَعْفَرَ إِمَامًا فِي مَسْجِدِ مَدِينَةِ حَلْبٍ، وَأَفَادَ عَدَدًا مِنَ طُلُوبَةِ العِلْمِ، مِنْهُمْ ابْنُ الجَزْرِيِّ المَقْرِي (ت833هـ)، وَابْنُ العِشَائِرِ الحَلْبِيِّ (ت850هـ)، وَغَيْرُهُمَا.²

4. أَوْضَاعُهُ وَتَرَاثُهُ:

نَظَرًا إِلَى تَفَرُّغِ أَبِي جَعْفَرَ فِي المَسْجِدِ، فَقَدْ أَلَّفَ تَأْلِيفَ مُتَفَرِّقَةً عَلَى أَبْوَابِ شَيْءٍ مِنَ العِلُومِ وَالمَعَارِفِ، فَهِيَ فِي عِلْمِ إِعْرَابِ القُرْآنِ كِتَابٌ "تَحْفَةُ الأَقْرَانِ فِيْمَا قُرئَ بِالتَّثْلِيثِ مِنَ حُرُوفِ القُرْآنِ"، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ "اِقْتِطَافُ الأَزْهَارِ وَالتَّقَاطُفُ الجَوَاهِرِ"، وَ"شَرْحُ الدَّرَةِ الأَلْفِيَّةِ"، وَكُلُّهَا مَطْبُوعٌ، وَ"رُدُّ الشُّوَارِدِ إِلَى حُكْمِ القَوَاعِدِ"، وَهُوَ مَفْقُودٌ، وَهِيَ فِي التَّارِيخِ "رِسَالَةٌ فِي السَّيْرَةِ وَالمَوْلُدِ"، وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ المَوْلُفَاتِ،³ وَكَذَا لَهُ قِصَائِدٌ شَعْرِيَّةٌ مُتَنَوِّعَةٌ الأَغْرَاضِ، تَشْهَدُ بِشَاعَرِيَّتِهِ وَتَوْفُقِهِ الأَدْبِيِّ.⁴

¹ سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تحقيق: شوقي شعث، فالخ البكور (حلب: دار القلم، ط1، 1996)، ج1: ص467.

² انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج1: ص151.

³ انظر قائمة مؤلفاته في: الرعيني، شرح ألفية ابن معط (السفر السابع)، ج1: ص29-31.

⁴ انظر: فارس النجار، "شعر أبي جعفر الرعيني"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد (64)، (2009)، ص163 وما بعدها.

5. الإكبار بأمره والتنويه بشأنه:

أثنى على أبي جعفر الرُّعِينِيِّ كلُّ من تَرَجَّمَ له من المؤرخين، ونقتطف من ذلك شهادتين؛ شهادة عالم معاصر إياه، وشهادة محدِّث ناقد، أما معاصره فهو أبو العباس المَقْرِيْزِيُّ (ت845هـ) الذي قال فيه: "كان عالماً بالنحو والتصريف والبدیع والعروض، يجيد قراءة الحديث، ويشارك فيه مشاركة جيدة، وله يدٌ طولى في الأدب، وإتقانٌ لعلم اللغة"،¹ وأما المحدِّث فهو ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) الذي قال في أبي جعفر الرُّعِينِيِّ: "وكان أبو جعفر مقتدرًا على النظم والنثر، عارفاً بالنحو وفنون اللسان، دَيِّبًا حَسَنَ الخُلُقِ، حُلُو المحاضرة، كثير التواليف في العربية وغيرها".²

6. وفاته ومقبره:

توفي أبو جعفر سنة تسع وسبعين وسبع مئة للهجرة (779هـ)، وله سبعون سنة، ودُفِنَ بمقبرة الصالحين بجلب، وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله تعالى وتقبَّله في الصالحين.³

ثانياً: صنعة المؤلفين في كُتُبِ إعراب القرآن والمثلثات اللغوية قبل الرُّعِينِيِّ

درأني للبحث في طرائق التأليف في علم إعراب القرآن وفنَّ المثلثات اللغوية، أن كتابنا "تحفة الأقران" كتابٌ في فنِّ المثلثات اللغوية، وكتابٌ في إعراب القرآن أيضاً، كما نرى، ولا يمكن رصدُ مكانن تطوُّر هذا الكتاب وتميُّزه من كُتُبِ الفنِّين إلا برصديهما معاً، كي يتبدَّى لنا نبوغ الرُّعِينِيِّ وجدَّته في صنعة إعراب القرآن، وكذا جدَّته في باب المثلثات.

¹ المقرئزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002)، ج1: ص276.

² ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1: ص404.

³ انظر: سبط ابن العجمي، كنوز الذهب، ج1: ص469.

1. تطوُّر التَّأليفِ فِي الْمَثَلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ مِنْذِ قَطْرِبِ إِلَى الرُّعِينِيِّ:

المثلاث اللغوية بإيجاز، هي الكلمات الواردة عن العرب بثلاث حركاتٍ، وهي كلمات تشابه في الأصل والوزن وترتيب الحروف، وتختلف في حركة فائها أو عينها (بنية الكلمة)، سواء أكانت هذه الكلمات بحركاتها الثلاث متَّفِقة المعنى أم مختلفة،¹ وقد ألعنا سابقاً إلى أنَّ فاطرَ هذا الفن اللغوي، هو قطرب في جزئه الذي جَمَعَ فيه اثنتين وثلاثين كلمةً مثلثة،² وقد تنامت بعده كُتُبُ التثليث تصنيفاً ونظماً وشرحاً واستدراكاً من المشاركة والمغاربة،³ لكننا على ممرِّ تاريخ التَّأليفِ في هذه الظاهرة اللغوية، بعدَ قطرب إلى عهدِ أبي جعفر الرُعيني، شهدنا طفرتين مهمَّتين على يدِ عالَمين مغربيين؛⁴ أولهما ابن السَّيد البطليوسي، في كتابه "المثلث"، الذي وسَّع وطوَّر فيه هذا الفن، بإدراجه المثلث المختلف المعنى منفصلاً عن المثلث المتَّفِق المعنى، وكذا إدراجه المضعف الرباعي، من مثلِ (سمسم)،⁵ وتوسَّع في الأفعال المثلثة، بعدَ أن لم يذكر قطرب سوى فعلٍ واحد،⁶ ويكفي فيه قول ابن خلكان (ت681هـ): "أتى فيه بالعجائب، ودلَّ على اطلاع عظيم، فإن مثلث قطرب في كراسة واحدة، واستعمل فيها الضرورة وما لا يجوز، وعَلَطَ في بعضه".⁷

¹ انظر: ابن السَّيد، المثلث، ج1: ص48.

² انظر: جلال شوقي، "المثلاث اللغوية: متونها ومنظوماتها حتى نهاية المئة السابعة للهجرة"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد (9)، (1986)، ص170.

³ انظر أسامي الكتب الموضوعية في هذا الفن في مقدمة تحقيق كتاب "الغرر المثلثة" للفيروز آبادي، ص105-181، ومقدمة تحقيق "المثلث" لابن السَّيد البطليوسي، ص50-62.

⁴ ليس هذا حيفاً وتنقُّصاً من جهود علماء المشاركة في جَمْعِ المثلثات وتدوينها، بل تأكيداً لما اتفق عليه الباحثون، وكذا العلماء المتقدمون، بأن كتابي ابن السَّيد البطليوسي وابن مالك من أعظم وأوسع ما أَلْفَ في باب المثلثات اللغوية.

انظر: الفيروز آبادي، الغرر المثلثة، ص134؛ ص138.

⁵ انظر: ابن السَّيد، المثلث، ج1: ص298.

⁶ انظر: الفيروز آبادي، الغرر المثلثة، ص124.

⁷ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ط1، 1900)، ج3: ص96.

والعالم الآخر ابن مالك الجياني (صاحب الألفية)، وذلك في كتابيه "الإعلام بتثليث الكلام"، و"إكمال الإعلام بتثليث الكلام"، اللذين أربى فيهما على ابن السيد البطليوسي وجميع من أَلَفَ في المثلثات قبَّله، بإدراجه (2131) لفظة مثلثة، وزيادته بابَ ما تُثِّي بمعنى واحد، وتُثِّلَتْ باختلاف المعنى، من مثل (القنوة) و(القنوة) اللتين تعينان اكتساب الغنم، و(القنوة) التي هي المرة من القنوة، أي فهما مما تُثِّي بمعنى واحد، وتُثِّلَتْ بمعنى مختلف.¹

ويكون أبو جعفر الرُّعِينِيُّ ثالثهما زمنياً، لأنه وسَّع هذا الحقل البحثي باسترفاده من القرآن الكريم، وتوسيع مفهومه أيضاً، ومن ثم لم أقف على كتاب مستبَدَّ بالمثلثات القرآنية قبل الرُّعِينِيِّ،² وكذا لم أقبَّ على عالم أَلَفَ في المثلثات مائله في شَرَطِ كتابه وطريقة تصنيفه، ثم إنني بعدَ تطواف في الأبحاث والمقالات البحثية الخاصة بفهرسة المثلثات؛ لم أجد دِكْرًا لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ وكتابه بينها، علماً أن عمَّله خاضع لنظام التثليث اللغوي المعروف، ومائز منه بضميمنتين اثنتين خالف فيهما غيره، كما سنرى بحول الله تعالى.

2. أوضاع كُتِبَ إعراب القرآن المهمة وطرائق التصنيف فيها إلى عصر الرُّعِينِيِّ:

يبحث علمُ إعراب القرآن في تخريج تراكيب القرآن وفُقِّ القواعد النحوية المحررة،³ وقد عدَّه ابن حزم (ت456هـ) علماً قائماً بذاته غير مندرج في علم التفسير،⁴ لكن عدَّه طاش كُزْبِي زاده (ت968هـ) فرعاً من فروع علم التفسير،⁵ وهو وجَّه من أوجه بيان النص القرآني، بل مسعِفٌ للمفسِّر في التهدي إلى حرَم المعنى والدلالة.

¹ انظر: الفيروز آبادي، الغرر المثلثة، ص138.

² أدرج يحيى مراد كتاباً للشيخ ابن العربي الحاتمي (ت638هـ) ضمن كتب المثلثات اللغوية القرآنية، وذلك في مقدمة تحقيقه لكتاب المثلث لابن السيد البطليوسي، وليس الأمر كذلك، إذ كتاب ابن العربي الحاتمي في الكلمات الثلاث المتواردة بعضها إثر بعض، مثل قوله تعالى: ((لا فَارِضٌ ولا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ)) [البقرة: 67]، وليس في المثلثات اللغوية، فلم يسبق أحد الرعيني في هذا الابتكار البديع بشهادة جهابذة العلماء وفضلاء الباحثين.

انظر: ابن السيد البطليوسي، المثلث، ص21؛ إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تحقيق: محمد شرف الدين، رفعت بيلكه الكليسي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، 1947)، ج4: ص427.

³ انظر: يوسف العيساوي، علم إعراب القرآن: تأصيل وبيان (الرياض: دار الصميعة، ط1، 2007)، ص27.

⁴ انظر: ابن حزم، التقريب لحد المنطق، تحقيق: إحسان عباس (دم: د.ن، ط1، 1951)، ص201.

⁵ انظر: طاش كُزْبِي زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1986)، ج2: ص380.

وقد تنوّعت مناهج المُعربين وتعدّدت طرائقهم في تخريج النص القرآني وفق قواعد النحويين،¹ فمنهم من توجّه إلى إعراب المشكل فقط، كمكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ) في كتابه "إعراب القرآن"،² ومنهم من توجّه إلى إعراب غريبه ومستغلّقه، كابن الأنباري (ت577هـ) في كتابه "البيان في غريب القرآن"، ومنهم من استبدّ بإعراب موضوع أثير أو كلمة فقط، كما صنع الباقلبي (ت543هـ) في كتابه "ماءات القرآن"، الذي أعرب فيه (ما) حيثما وَرَدَتْ في القرآن، ونجّد من استأثر بإعراب القراءات الشاذة فقط، كابن جني (ت392هـ) في "المحتسب"، أو إعراب القراءات السبعة المتواترة، كأبي علي الفارسي (ت377هـ) في "الحجة"، ومنهم من توسّع واستفاض في الإعراب وتخرّج الآيات على قراءات القُرأة، وأوسع ما صُنّف في ذلك كتاب عصريّ الرُّعِينِي السمين الحلبي (ت756هـ) "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون"،³ وكلّ هؤلاء كانوا قبل الرُّعِينِي حياة وتعميراً، ولم أظفر بواحد منهم أو غيرهم من المعربين خصّص إعراب مثلثات القرآن فقط من دون غيرها، ما عدا أبا جعفر الرُّعِينِي في هذا الكتاب.

إذن، كتاب الرُّعِينِي منحى مستطرف ومنزع مستلطّف في علم إعراب القرآن الكريم، كما قال السيوطي: "قد رأيت تأليفاً لطيفاً لأحمد بن يوسف بن مالك الرُّعِينِي، سماه (تحفة الأقران فيما قرئ بالثلث من حروف القرآن)"،⁴ وفي كتاب "مقدمات في علم القراءات"، لمحمد القضاة، وأحمد شكري، ومحمد منصور، تنويةً بصناعة الرُّعِينِي في هذا الكتاب، حيث

¹ انظر: العيساوي، علم إعراب القرآن، ص167-181.

² انظر عناوين هذه الكتب وغيرها في المصدر السابق، وفي الصفحات نفسها، وقد استلطف الباحث كتاب الرُّعِينِي ونوّه بطرافته، لكنه أدرجه ضمن كتب الإعراب المتوخاة الاحتجاج للقراءات (ص180)، أقول: نعم، ففي كتاب الرُّعِينِي توجيهات إعرابية ولغوية لقراءات الأئمة الأربع عشر وغيرهم، لكنه في صناعته المنفردة ومنهجه المبتكر، وكذا استبداده بالكلمات المثلثة فقط، يُستحسن إدراجه ضمن كتب إعراب كلمات خاصة من القرآن، وهي المثلثات، ولم يؤلف فيها أحد قبله.

³ انظر: العيساوي، علم إعراب القرآن، ص169.

⁴ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1974)، ج2: ص330.

قالوا: "يُعدُّ هذا الكتابَ صنيعةً جديدًا في علم القراءات، وإن كان من الناحية اللغوية قد عُرف هذا النوع من التأليف، كما هو الحال في (مثلثات فُطْرَب)، و(الدرر المبتثة في الغرر المثلثة) للفيروز آبادي".¹

معالم الجِدَّة والتمييز في كتاب "تحفة الأقران" شكلاً ومضموناً

نرصد هنا كتاب "تحفة الأقران" من كتب، وننشُد التعريف به انطلاقاً من ثلاث قضايا تكون خادمةً لهذا العلق الحفيل، وكاشفةً عن مُهماته، وفاحصةً مفاصله؛ إذ الكتابُ قمين بأن يُعطى جانباً من الدرس والتحليل أبسط وأعمق، لأهميته وأسبقيته في بابه وموضوعه.

أولاً: تجنيس الكتاب وحدُّ موضوعه، ومنتنه ومحتواه العلمي، وموارده ومناقله المغربية قصدي بالتجنيس تصنيف هذا الكتاب ضمنَ حقلي علمي يندرج تحته وينخرط في سلكه؛ إذ ما من كتاب إلا وينتمي إلى علمٍ يحتويه ويحترم حدوده وموضوعه، أما المضامين فهي المتن العلمي الثاوي في صفحات الكتاب، الذي يبرهن على انتمائه إلى نوعٍ من العلوم أو ضربٍ من الفنون.

1. جنسُ الكتاب وحدوده الموضوعية:

أما الجنس العلمي والحقل المعرفي الذي يُدرج تحته هذا الكتاب المهم، فهو علمُ إعراب القرآن، يعني فيه الباحث بإعراب آيات القرآن الكريم، وبيان وجهها من كلام العرب، عبّر النظر في الكلمة وصيغتها ومحلّها، من مثل أنها مبتدأ، أو خبرٌ، أو فاعلٌ، أو مفعول، أو في مبادئ الكلام، أو في جوابٍ، إلى غير ذلك، وقد أدرج هذا الكتاب في هذا العلم (إعراب

¹ محمد القضاة، أحمد شكري، محمد منصور، مقدمات في علم القراءات (عمان: دار عمار، ط1، 2001)، ص180. والصواب أن عنوان الكتاب "الدرر المبتثة في الغرر المثلثة"؛ إذ هو كذا مثبّت في "العقد الثمين" لتقي الدين الفاسي (ت832هـ)، وفي الضوء اللامع للسخاوي (ت902هـ).

انظر: تقي الدين الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998)، ج2: ص428؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط)، ج10: ص82.

القرآن) الإمام السيوطي (ت911هـ) في "الإتقان"¹، وحاجي خليفة (ت1067هـ) في "كشف الظنون"²، والقنوجي (ت1307هـ) في "أبجد العلوم"³، فالإمام أبو جعفر الرُّعِينِيُّ لم يقتصر على جرد المثلثات فقط، بل نَسَبَ كُلَّ قِراءةٍ وكلِّ وَجْهٍ إلى أصحابه، ودَكَرَ له وَجْهَهُ من العربية بإعرابه وبيان موضعه من كلام العرب، واستدلَّ على ذلك بالأصول النحوية إذا احتاج لذلك، وفي هذا الملمح التوجيهي تتبدَّى للقارئ مكانة الرُّعِينِيِّ اللُّغَوِيَّةِ، وقَبْضُهُ على زمام اللغة، وإتقانه لعلومها، ولا سيما النحو والصرف، كما سنرى.

ومع أن الكتاب مُدرَج في عِلْمِ إعراب القرآن، هو أيضًا من كُتُبِ القراءات، لأن مؤلِّفه ارتكن في تأليفه إلى القراءات المتواترة والصحيحة والشاذة، وجعلها نُصَبَ عينيه في استخراج المثلثات القرآنية⁴، ففضلاً عن القراءات الأربع عشرة (المتواترة والصحيحة والشاذة) المعروفة⁵، حَفَلَ هذا الكتاب بقراءات الصحابة، كقراءة ابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، رضي الله عنهم أجمعين، وكذا قراءات أئمة التابعين وكبارهم - وإن كانت بعضها شاذة - كقراءة زيد بن علي بن الحسين، وسعيد بن المسيب، وسفيان بن عيينة، وابن شهاب الزهري، وأبي الأسود الدؤلي، والنخعي، وعمر بن عبد العزيز، فقد اعتدَّ الإمام أبو جعفر الرُّعِينِيُّ بقراءات هؤلاء جميعًا في دراسة المثلثات القرآنية، وإن كانت شاذة، لأن قصده - كما صرَّحَ كِفاحًا في فاتحة الكتاب - جَمْعُ ما تَفَرَّقَ وشرَّدَ من الكلمات القرآنية المثلثة عن الحفظ، مهما كانت صحيحة أو شاذة.

¹ انظر: السيوطي، الإتقان، ج2: ص330.

² انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عناية: محمد شرف الدين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت)، ج1: ص123.

³ انظر: صديق حسن خان، أبجد العلوم (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2002)، ص284.

⁴ انظر: الرعيني، تحفة الأقران، ص12.

⁵ أما السبعة فهم ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو بن العلاء، وحزمة، والكسائي، وأما الثلاثة الباقون من العشرة، فهم أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي، وخلف، وأما الأربعة المتممون للقراء الأربعة عشر فهم الحسن البصري، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي، والشنبوذي.

انظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1995)، ج1: ص368-375.

وأما موضوع هذا الكتاب فهو المثلثات القرآنية، أي الكلمات التي قُرئ أخذ حروفها أو أكثر من حرفٍ بالحركات الثلاث (الفتحة والضمة والكسرة)، سواء أكان هذا الحرف في بنية الكلمة (فاء الكلمة وعينها)، أم في آخرها (لام الكلمة)، وسواء أكانت القراءة متواترة أم غير متواترة (الصحيحة والشاذة)¹، أما مَثَلُ بنية الكلمة فقوله تعالى: ((فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ)) [الأنبياء: 58]، قُرئت بفتح الجيم وضمة و كسرهما،² ومَثَلُ آخِرِ الكلمة: ((سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ)) [انفصلت: 9]³، قُرئت الهمزة في كلمة (سواء) بثلاث حركات.

إذن نلاحظُ أن الرُعيني وسَّع بهذا العمل مفهوم المثلثات، فأدرج فيه اختلاف الحركة الإعرابية (آخر الكلمة)، واختلاف البنية الصرفية (بداية الكلمة ووسطها)، بعد أن كان وقفًا على الاختلاف في بنية الكلمة فقط في مصنفات اللغويين،⁴ وكذا جعل المثلثات موصولة بالنص القرآني كسائر الظواهر اللغوية، نعم، كانت المثلثات مبنوثة في كُتُب التفسير والقراءات، لكنَّ الإمام الرُعيني توخَّى جمعها في موضع واحد، ليسهل حفظها واحتواؤها، ويصدِّق ذلك قوله في خطبة الكتاب: "فإني رأيتُ من القراءات ما جاء مُثَلَّت اللَّفْظ، وهو من القسم الشَّارد عن الحِفظ، فأردتُ أن أجمعه مُتَّبِعًا لجواهره، ومُقْتَطِفًا لأزاهره، ومُبَيِّنًا لإعرابه، ورافعًا لإعرابه، مع نكتٍ أبديها، ونُحْفٍ أهديتها، فلَمَّا يَسَّرَ اللهُ جَمْعَ ذلك كَتَبْتُهُ ليكون تَذَكُّرًا لِلبَّيْب، وتَنْبِيهاً لِلأَرِيْب".⁵

¹ صُعُتُ هذا التعريف بعد دراستي صنيع الرُعيني في الكتاب والنظر في مادته، وهو ما أكَّده محقق الكتاب في مقدمته.
انظر: الرُعيني، تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن، تحقيق: علي حسين البواب (الرياض: دار كنوز إشبيلية، ط2، 2007)، ص12.
² انظر: المصدر السابق، ص61.
³ انظر: المصدر السابق، ص16.
⁴ انظر: الفيروز آبادي، الغرر المثلثة، ص107.
⁵ الرُعيني، تحفة الأقران، ص3.

وأرى أن السبب في إدراج الرُّعَيْنِيِّ المثلثات الإعرابية ومخالفته غيره في ذلك؛ أن غايته بيانُ التخريج النحوي والوجه اللغوي لهذه القراءة، حتى يسهل حفظها على مبتغيها كما ذَكَرَ في خطبة الكتاب، بخلاف المثلثات اللغوية التي لا يُدرَج فيها ما تُثَلَّث حركة إعرابه، لأن ذلك راجِعٌ إلى العوامل التي أثَّرت في آخرِ الكلم، وهذا مما لا يمكن حصره ولا حدُّه، أما مثلثات القرآن فمحصورة محدودة بين دَفَّتِي المصحف، وجمَعُها أسهل ومرغوب فيه، حفظًا لقراءات الكتاب العزيز، وصورًا لها من النسيان والالتحاء.

2. متْنُ الكتاب ومحتواه العلمي:

يحتوي الكتاب كما فَرَطَ على المثلثاتِ القرآنية، وبلَغَ عَدَدُ المثلثات فيه ثمانينًا وثمانين كلمة، وقد ضَمَّنَ الإمام الرُّعَيْنِيُّ كتابه الحفيل جمهرةً من المُعْطِيَّات والمعلومات، وأُتِيَ صفحاته بنقولٍ موزَّعة على مجموعة من العلوم، وبِحُكْمٍ أني عاشرت الكتاب أشهرًا وأيامًا فَحَصَّته فيها، وتَمَلَّيت بتضاعيفه وأطوائه، فيمكن أن أقول إن الكتاب مع أنه من كُتُبِ إعراب القرآن الكريم؛ اشتمل مباحث من علوم البلاغة، والنقد، واللغة، والعقيدة، والتفسير، وأسباب النزول، والفقه، والشعر، لكنَّ الغلبة كانت للنحو والصرف، لما يلزم توجيه القراءة وإعرابها من استدعاء المادة النحوية والصرفية استدعاء أكبر من غيرهما.

ويمكن أن نسأل: لم وظَّفَ الإمام الرُّعَيْنِيُّ هذه العلوم والفنون كلَّها في صناعة الكتاب؟ فالجواب أن دراسة النص القرآني ومقارنته لا يكفيها الاقتصار على علوم بعينها، بل ينبغي لها أن تستند إلى ذخيرة معرفية كثيفة، كي تكون مقاربة للصواب، وبعيدةً من الغلط والخطأ، وإذا لاحظنا كُتُبَ التفسير فسنجدُ أن كُتُبَ التفسير اللغوية التي شَهِدَ لها النُّقَاد بالتميز والموضوعية والتحري في إعراب النص القرآني وتفسيره؛ هي كُتُبُ أَلْفِ وَأفادت من التفسير واللغة والفقه وغير ذلك، وكتابنا هذا "تحفة الأقران" لا يخرج نسبيًّا عن هذه الإفادة الحبلية والمقتبسة من علوم شتى، وإن كان مطبوعًا بصفة الإيجاز، لأن مؤلِّفه تَوَحَّى أن يكون كتابَ مراجعةٍ ومذاكرةٍ، لا كتابَ إقراء ومدارسة، كما ألمع إلى ذلك في فاتحته، ولأنه مطبوع أيضًا بصفة الانتقاء، نظرًا إلى اقتصار مؤلِّفه على المثلثات القرآنية من دون سائر الآيات والعبارات القرآنية.

وأنتبه إلى أن هذه العلوم المساعدة من علوم الشريعة وسائر فروع اللغة وغيرها، قد وظَّفها المؤلِّف في كتابه بَعْدَ الانتهاء من رصْدِ القراءات والتوجيه اللغوي، تحت عنوان خاص بها (تتميم)¹، وكان المؤلِّف جَعَلَهُ تَمِيمًا لَفَهْمِ الآيَةِ، وتكميلًا لدلالاتها وبنيتها النحوية والمعجمية والصرفية وغيرها، لَعَرَضَ رَأَهُ فِي ذَلِكَ التَّمِيمِ؛ إما تصحيح وجهه، وإما تكميل نَقْصٍ، وإما استدراك معنًى، وإما تعقيب على عالم²، ويتجلى في تعدُّد المواد المعرفية المبتوثة في الكتاب سَعَةً اِطِّلاَعِ الرُّعِينِيِّ وثقافته الموسوعية، وأنه جَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ بالعربية والشريعة، كما أَلْمَعَتْ إِلَى ذَلِكَ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ.

3. المناقل والموارد المغربية في الكتاب:

نظرًا إلى هذه الخزانة المعرفية الوسيعة التي استقى منها أبو جعفر الرُّعِينِيُّ مادَّته؛ اعتمد مصادر تراثية مهمَّة تتوزع بين كُتُبِ التفسير واللغة والنحو، ولا سيما كُتُبِ التفسير المعنوية بالقراءات والإعراب، وقد أثار انتباهي نقولُ الإمام الرُّعِينِيِّ النحوية؛ إذ إن فيها مادةً نحويةً مغربيةً، فقد كان مَطَّلَعًا على النحو الأندلسي والسبتي بأعلامه وآرائهم، ولمَّا كانت نشأته في غرناطة وطلَّبه للعلم بها؛ تمكَّن من معاينة الآثار النحوية المغربية والأندلسية والاعتناء بها.

ومن بَيْنِ النحاة المغاربة الذين أورد الرُّعِينِيُّ أقوالهم في الكتاب؛ الأعلام الشَّنَمَرِيُّ (ت476هـ)³ وابن الطَّراوَةِ المَالَقِيُّ (ت528هـ)⁴ وأبو عَلِيٍّ الشَّلَّوْبِينِ (ت645هـ)⁵ وابن أبي الرِّبِّيعِ السَّبْتِيُّ (ت688هـ)⁶ وغيرهم.

¹ انظر: الرعيني، تحفة الأقران، ص17، 20، 56، 60، 92، 105، 110، وغيرها.

² يأتي الدليل على ذلك لاحقًا بحول الله.

³ انظر: الرعيني، تحفة الأقران، ص19.

⁴ انظر: المصدر السابق، ص52.

⁵ انظر: المصدر السابق، ص166.

⁶ انظر: المصدر السابق، ص130.

ومن كُتُبِ التفسيرِ المغربيةِ التي أفاد منها أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ؛ كتاب "المحرر الوجيز" لابن عطية (ت 541هـ)،¹ و"البحر المحيط" لشيخه أبي حيان الأندلسي (ت 745هـ)،² وهو عمدته وسنده؛ إذ إن نُقُولَهُ من "المحرر الوجيز" مقارنةً بما نقله من "البحر المحيط" قليلة، وأما منقلاهُ من الكتبِ النحويةِ المغربيةِ فهما؛ كتاب "التذليل والتكميل" لأبي حيان أيضاً،³ و"شرح التسهيل" لابن مالك الجياني.⁴

أما ما رَجَعَ إليه من كُتُبِ إعرابِ القرآنِ المغربيةِ، فنجد كتاب "المجيد في إعراب القرآن المجيد" للسِّفَاقِسي (ت 742هـ)،⁵ ولا أستبعد نقله من مصادر مشرقية، سواء أكانت في التفسير أم النحو أم اللغة، فذلك مُتوافِرٌ مُتكاثِرٌ في الكتاب، منها "المحتسب" لابن جني،⁶ و"الصِّحاح" للجوهري (ت 393هـ)،⁷ و"أمالِي ابن الحاجب" (ت 646هـ)،⁸ و"إعراب القرآن" للعكبري (ت 850هـ).⁹

وتجدر الإشارة إلى أن في الكتاب مطارحات نقدية مع أئمة اللغة بالمغرب، كابن عطية الإشبيلي،¹⁰ وابن عصفور الإشبيلي (ت 669هـ)،¹¹ وكذا السِّفَاقِسي،¹² ومن المشاركة

¹ انظر: المصدر السابق، ص 22، 132، 139.

² انظر: المصدر السابق، ص 134.

³ انظر: المصدر السابق، ص 27، 28، 42.

⁴ انظر: المصدر السابق، ص 16.

⁵ انظر: المصدر السابق، ص 163.

⁶ انظر: المصدر السابق، ص 32، 47.

⁷ انظر: المصدر السابق، ص 75، 86.

⁸ انظر: المصدر السابق، ص 153.

⁹ انظر: المصدر السابق، ص 20، 22.

¹⁰ انظر: المصدر السابق، ص 139 وما بعدها، 171.

¹¹ انظر: المصدر السابق، ص 154.

¹² انظر: المصدر السابق، ص 163.

جازَ اللهُ الزمخشري (ت538هـ)،¹ وفي هذه المناقشات تتجلى شخصية الرُّعِينِيِّ اللُّغَوِيَّةِ المَجْتَهِدَةِ، وتبتدئُ عياناً بأنَّها شخصية ناقدة واعية أمعية، كما سيأتي.

ثانياً: منهجية المؤلف المبتكرة، وصنعته المبتدعة في جمع الكتاب وتأليفه
رتب الإمام الرُّعِينِيُّ أجزاء الكتاب وشيّدَه بطريقة مبتكرة اعتمدها ووظفها، هي:

1. تنظيم المثلثات اللُّغَوِيَّةِ القُرْآنِيَّةِ وَفَقَّ تَرْتِيبَيْنِ:

أولهما ترتيب حروف المعجم (الألفباء)، وجعلهُ في عناوين الفصول، وذلك بأن جعلَ المؤلف الحرفَ المثلثَ في الكلمة معيار الترتيب بيّنَ فصول الكتاب، فقوله تعالى: ((المصباح في زُجَاجَةٍ)) [النور: 35]، فُرئت فيه زاي (الزجاجة) بثلاث حركات، ومن ثم يذكر الرُّعِينِيُّ كلمة (الزجاجة) في حرف الزاي، مراعاةً للحرف المثلث.

وفي الكتاب إجمالاً خمسة وعشرون فصلاً مُعنوناً بأسماء الحروف (حرف الهمزة، حرف الباء، حرف التاء... إلخ)، وقد يُسأل بأن الكتاب لم يحتوِ على جميع الحروف العربية الثمانية والعشرين، فالجواب أن ذلك تابعٌ لوجود مثلث ذلك الحرف في القرآن الكريم، فلما لم يجد الرُّعِينِيُّ مثلاً كلمات قرآنية مثلثة في حرف الخاء والصاد والظاء؛ لم يُدرج هذه الحروف ضمن فصول الكتاب.

وثاني الترتيبين الترتيب المصحفي، وجعلهُ في المادة التي داخل الفصول؛ إذ رتبَ الإمام الرُّعِينِيُّ الآيات المتضمنة للمثلث وفق ترتيب القرآن الكريم، مبتدئاً بما وردَ في الفاتحة إلى سورة الناس، فمثلثات حُرِفِ العَيْنِ الواردة في القرآن مثلاً، يرتبها فيما بينها وفق ورودها في المصحف، ولا يُوردها عشوائياً.

2. دراسة المثلثات القُرْآنِيَّةِ وتحليلها وفق الطريقة الآتية:

- (أ) يعرض الآية المتضمنة للمثلثة القرآنية.
(ب) يذكر القراءات الواردة فيها (الفتحة والضمة والكسرة).

¹ انظر: المصدر السابق، ص56، 70، 95.

(ج) يعزو كلَّ قراءة لصاحبها على حدة، وقد لا يلتزم بذلك، فلا ينسب القراءة إلى صاحبها،¹ ثم يوجهها ويخرجها لغويًّا، تارة بذكْر دليلها، وتارة بإغفاله، ثم يضطلع بفحص الآراء اللغوية المتشعبة فيها.

(د) يقدِّم القراءة المتواترة أو التي تملأ عليها معظم القراء، على القراءة الصحيحة، ثم الشاذة. (هـ) يُردف توجيه القراءات بتسميمات يستثمر فيها التراث الشرعي واللغوي وغيرهما، لبيان معنى الآية التي تضمّنت المثلث أو نحو ذلك، وقد لا يلتزم بهذه التسميمات في المثلثات كلّها. ونسوق مثلاً شاهداً لطريقة أبي جعفر في تأليفه مثلثات القرآن ومنهجيته التي سار عليها، ولم يخرج عنها إلا لماماً.

يقول في حرف الراء عند دراسة راء (غير) المثلثة في قوله تعالى: ((لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرِّ)) [النساء: 94]: "قُرئ برفع الراء من (غَيْر)، ونصبها، وجربها، أما قراءة الرفع، فقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحزمة، ووجهها أنها مرفوعة على البدل من (القاعدين)، وقيل: وهو أولى من النعت، لأنهم نصبوا على أن الأفضح بعد النفي البدل، كقوله تعالى: ((مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)) [النساء: 65] ولأجل هذا اجتمع القراء السبعة عليه إلا ابن عامر، ثم النصب على الاستثناء، كقراءة ابن عامر، ثم الصفة، فالصفة على هذا في رتبة الثالثة، ولأنه يلزم من إعراب (غير) هنا نعتاً نعتُ المعرفة بالنكرة، لأنَّ (غيراً) نكرة وإن أُضيفت إلى معرفة، ومذهب سيبويه ومن تبعه أن (غيراً) هنا صفة، ويعتذر عمّا يلزمه من وصفِ المعرفة بالنكرة، بأن يقدر في (القاعدين) الشياخ؛ لكونهم غير مُعَيَّنِينَ، فكأنهم نكرات، فلذلك وُصِفَ بالنكرة، أو يقدر إخراج (غير) عن وضعها فيقدر فيها التعريف، هذا هو مذهب سيبويه وما يلزم عليه.

وأما قراءة النصب فقرأ بها نافع وابن عامر والكسائي وعاصم، ووجهها أنها استثناء من (القاعدين)، وقيل: من (المؤمنين)، وقيل: الأول أظهر، لأنه المُحَدَّث عنه، وقيل: انتصب على الحال من (القاعدين).

¹ انظر: المصدر السابق، ص 56 وما بعدها.

وأما قراءة الكسر فقرأ بها الأعمش وأبو حيوة، ووجهها أنها صفة للمؤمنين)، فإن قلت: يلزم منه وصفُ المعرفة بالنكرة؟ فالجواب ما تقدّم من تقدير الشيعاء في (المؤمنين)، أو تقدير التعريف في (غير)، لأنَّ سيويوه يرى أنَّ كلَّ ما إضافته غيرُ محضة، قد يُقصد بها التعريف فتصير محضة، إلا (الحسن الوجه).

تتميم: (غير) اسم مفرد مذكّر دأئماً، وإذا أُريد به المؤنث جاز تذكير الفعل حملاً على اللفظ، وجاز تأنيثه حملاً على المعنى، ومدلوله المخالفة بوجه ما، وأصله الوصف، ويُستثنى به، ويلزم الإضافة لفظاً أو معنى، وإدخال (أل) عليه خطأ¹.

فها هو الإمام أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ - في هذا النص المقتطف - ذكّر القراءات المتناوبة على الآية، وعزاها إلى قرّائها، وخرّجها نحوياً، لأن الاختلاف في إعراب الكلمة لا في بنيتها الصرفية، وداخل هذا التخرّيج يناقش ويفحص الآراء وينخلها، ثم أردف ذلك بتتميم يثري ويضيف إضافات طريفة على الكلمة المثلثة، سواء أكانت إضافة لغوية كما هنا، أم بيانية تفسيرية كما في مواضع أخرى²، أم بلاغية كذلك³.

ثالثاً: تعقُّبات الرُّعَيْنِيِّ في كتاب "تحفة الأقران" ونقوده واجتهاداته وآراؤه

لا أجدُ بُدّاً من تقييد هذا المطلب؛ لأنه سيُعرفنا إلى ملمح آخر مغفول عنه في شخصية الإمام أبي جعفر الرُّعَيْنِيِّ، وهو ملمح التجديد والاجتهاد في علم العربية، والدفاع عن القراءات القرآنية، تبدّى لي عياناً في هذا الكتاب، ولم أجدُ مَنْ دَرَسَهُ أو فَحَصَهُ من قبلي، فكان هذا ضربة لازب؛ لأنه أمرٌ خبأه الله لي، ولعلي أجدُ مُنَّةً فأَتَقَصَّى ما في الكتاب من اجتهادات واختيارات، واقتراحات وتصحيحات، تفرّد بها الإمام الرُّعَيْنِيُّ واستُخَصَّ بها، وهي اجتهادات احتجَّ فيها بقواعد العربية وأصولها، وكذا بالقراءات القرآنية، لدعم منزع في العقيدة الأشعرية، أو قولٍ في تفسير حرفٍ قرآني، أو تصحيح وترجيح قراءة قرآنية تُوهّم شذوذها،

¹ المصدر السابق، ص 87-89.

² انظر: المصدر السابق، ص 23، 82، 100.

³ انظر: المصدر السابق، ص 58، 62، 191.

وأُدعي جنوحها عن اللسان العربي المبين الفصيح، ولستُ أحشِدُها كلَّها، فذاك يتطلَّب بحثًا خاصًّا ذا ورقات عدة، ولكن أسوق منها ثلاثة نماذج فقط، تكون آخذةً مُحجَز علم التفسير والعقيدة والقراءات واللغة، وماتَّة إليها بصلة كبيرة، وحسبُك من القلادة ما أحاط بالعنق.

1. الألف واللام في ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) [الفاتحة: 1] للاستغراق على أصحِّ الأقوال، والردُّ على الزمخشري وأنصاره في اختيارهم:

تضاربت أقوال المفسرين وآراء أرباب التأويل في تحديد نوع (أل) في حملة فاتحة القرآن، دكَّر الإمام أبو جعفر الرُّعَيْنِيُّ أربعة أقوال، وصحَّح أحدها، ورجَّحه.¹

أما القول الأول فهو جعلها للعهد، أي الحمد المعروف المعهود بيِّن الله وعباده، فهي على هذا من باب (العهد العلمي).

وأما القول الثاني فجعل (أل) لتعريف الماهية، أي حقيقة الحمد لله سبحانه وتعالى، فهي جنسية لبيان الحقيقة.

وأما القول الثالث فهو أن (أل) جنسية تفيد شمول أفراد الجنس، فهي للاستغراق، فالتقدير حينها: "كلُّ الحمد لله"، وهذا هو الذي اختاره المؤلِّف بقوله: "وهذا هو أصحُّ الأقوال؛ إذ لا حَمَدٌ في الحقيقة إلا لله".²

وأما القول الرابع - وهو للزمخشري ومَن شايعه من المعتزلة³ - فهو أن (أل) في حملة الفاتحة للعهد للعلمي، فهو رديف القول الأول، وقد عبَّر المؤلِّف عن رأي المعتزلة والزمخشري بقوله: "والمعنى عندهم - أي المعتزلة -: لله حمدٌ من جنس الحمد الذي تعرفون"⁴، فهو على هذا حمدٌ معروف ومعهود بين الله وخلقه.

¹ انظر: المصدر السابق، ص 69 وما بعدها.

² المصدر السابق، ص 69.

³ انظر: الزمخشري، الكشاف (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 3، 1987)، ج 1: ص 9 وما بعدها.

⁴ الرعيني، تحفة الأقران، ص 70.

وإذا كان الزمخشريُّ قد حمل (أل) على العهد العلمي، فإنها لا تفيد استغراق جميع أفراد الحمد، بل تدلُّ على تخصيص نوع بعينه، كأنه أراد بهذا القول أنَّ بعضَ الحمد لله لا كلُّه، ويُردف المؤلِّف بعدَ كلامه الفارط قائلاً للردِّ على الزمخشري وأنصاره: "وهَمَّ الزمخشريُّ من ادَّعى الاستغراق، وهو الواهم في الحقيقة"¹، ثم يتابع في الردِّ على حُجَجِهِم التي دافعوا بها عن قولهم إن الحمد لله من باب العهد الخاص، لا من باب الاستغراق، وهو ردُّ وصدُّ يُعزِّزُ بالخناجر على الخناجر كما يُقال، أوردته برؤيته؛ لما فيه من فوائد، ثم لتبيين معالم اجتهاد الرُّعِينِيِّ في هذا الباب.

يقول أبو جعفر الرُّعِينِيُّ الغرناطِي رحِمَهُ اللهُ: "قال بعض أشياعه: إنما كان ادِّعاء الاستغراق وهَمًّا لوجهين؛ أحدهما أنَّ (الحمدُ لله) نابٍ منابٍ (أحمدُ الله)، و(أحمدُ الله) لا يفيد الاستغراق، فكذلك (الحمدُ لله)، لأنَّ النائب لا يكون أقوى من المنوب عنه. قلنا: لا نسلم النيابة، وإن سلَّمناها، فكم من نائب أقوى من المنوب عنه، دليله عينُ مسألته؛ ألا ترى أن الزمخشري قد قرَّر أن (الحمدُ لله) بالرفع أبلغ من النصب، لأنَّ الرفع يقتضي الدوام والاستقرار، والنصب يقتضي التجدد؟ فقد بان لك أن (الحمدُ لله) وإن كان نائباً، فهو أبلغ وأقوى من المنوب عنه، وهو (أحمدُ الله)، فانظر هذا الرجل كيف انتصر للزمخشري بشيء لا يرتضيه؟! فحُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ. الثاني من الوجهين أنَّ غيرَ الله يُحمد، فمن ادَّعى الاستغراق خالف الواقع، وهذا باطل، لأنَّ غيرَ الله لا يستحقُّ حمداً إلا بالمجاز، والحمد بالحقيقة إنما هو لله تعالى، لأنَّه خالقُ كلِّ نعمة والفاعل لها، والعبدُ واسطةٌ، فالحمدُ في الحقيقة لله تعالى، وما ذكره من أن شكر المُنْعِمِ واجبٌ مُسَلَّمٌ، لكنَّ المُنْعِمَ في الحقيقة هو الله تعالى"².

هذا الجواب على نفاسته لم أجده عند غير أبي جعفر الرُّعِينِيِّ في تفسير هذا الموضع، فقد بيَّن وهَمَّ المعتزلة من وجهين، فَضَحَ فيهما بطلان قولهم، وفساد منزعهم ورأيهم، وما ذكره في الوجه الأخير من أن المعتزلة لم يقولوا باستغراق الحمد، نظراً إلى أن غير الله يُحمد كذلك؛

¹ السابق نفسه.

² السابق نفسه.

هو قولُ بُني على زَعَلٍ عَقْدِي تَأَبَّطَه المعتزلة وعُرفوا به، وهو "خَلْقُ الأفعال"، فالمعتزلة - الذين يُعَدُّ الزمخشري رأساً فيهم¹ - يقولون إن أفعال العبد مخلوقة من قِبَلِهِ، فهو خالقها وفاعلها، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي:² "اتَّفَقَ كُلُّ أَهْلِ العَدْلِ على أن أفعال العباد من تصرُّفهم وقيامهم وعودهم حادثة من جِهَتِهِمْ، وأن الله عزَّ وجلَّ أقدَرَهُمْ على ذلك، ولا فاعل ولا مُحدث سواهم، وأن من قال إن الله سبحانه خالقها ومُحدثها؛ فقد عَظَّمَ خطوَه، وأحالوا حدوث فعلٍ من فاعلين"³، فلاجِلِ هذا الاعتقاد جَنَحَ الزمخشري نحو القول بأن الحمد لله حمدٌ مخصوص لا مستغرق، ما دام أن للعبد استقلالاً عن الله سبحانه في تصرُّفاته وأفعاله.

2. توجيه المؤلف قراءة الجَرِّ في كلمة (السلاسل) من قوله تعالى: ((إِذِ الأَعْلَالُ فِي أعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ)) [إغافر: 71] وتَعَقُّبُهُ كَلَامَ الفراءِ والزجاجِ:

أَوَّلُ الفراءِ قراءة الجَرِّ في كلمة (السلاسل) بأَها معطوفة على المعنى لا على اللفظ، وتقدير الكلام عنده: أعناقهم في الأَعْلَالِ والسلاسل،⁴ وأَيَّدَهُ الزمخشري وابن عطية في تفسيريهما،⁵

¹ يُذكر أن الزمخشري خَلَعَ رِبْقَةَ الاعتزال في مَغِبِّ عمره، واستمسك بعقيدة أهل السنة الأشاعرة، لكنَّ المَقْرِي (ت1041هـ) وبعض الباحثين المعاصرين يستبعدون ذلك.

انظر: المَقْرِي التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد العظيم شلي (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1939)، ج3: ص283؛ كمال جبري عبهري، الزمخشري: سيرته، آثاره، مذهبه النحوي (بيروت: دار الجنان، ط1، 2014)، ص52 وما بعدها.

وقد ألف أبو عبد الله الصُّعَيْرِيُّ تَأْلِيْفًا خاصًّا في توبة الزمخشري وسَمَّه بـ"طَلْعَةُ المُشْتَرِي بِثبوت توبة الزمخشري".

انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002)، ج7: ص67.

² عبد الجبار بن أحمد، عالم قاضي أصولي، من رؤوس الفكر الاعتزالي، توفي سنة (415هـ).

انظر: الزركلي، الأعلام، ج3: ص273 وما بعدها.

³ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: توفيق الطويل، وسعيد زايد (القاهرة: الدار المصرية، ط1، 1962)، ج8: ص3.

⁴ انظر: الفراء، معاني القرآن، تحقيق: عبد الفتاح الشلي، أحمد يوسف نجاتي، محمد علي التَّجَار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط1، 1955)، ج3: ص11.

⁵ انظر: الزمخشري، الكشاف، ج4: ص178؛ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002)، ج4: ص569.

وقاسوا - أي ثلاثتهم - الآية على قولهم: أدخلتُ القلنسوة في رأسي، من باب القلب، وأما الزجَّاج فإنه أوَّلها بحذْفِ حَرْفِ الجر، أي: وفي السلاسل، ولم يعطفها على (الأعناق).¹

وضَعَفَهُ الرُّعِينِيُّ بقوله: "وهذا تأويل ضعيف"،² ثم ساق رأيه وتخرجه للقراءة بقوله: "قلت: ويمكن أن تخرَج هذه القراءة على وجهٍ حَسَنٍ سالم من حذْفِ حَرْفِ الجرِّ، ومن العطف على ما يصلح في الموضع، وهو أن يكون (السلاسل) معطوفاً على (الأعناق)، ويكون المعنى أن الأغلال في أعناقهم، وهي أيضاً في السلاسل التي يُقَاد بها المغلول؛ إذ لو كان العُلُّ في العنوق،³ وليس في سلسلة يُجْبَس بها عن الفرار، لكان أسهل على المغلول، فأخبر الله تعالى أن العُلَّ في شيتين؛ في العنوق، وفي السلسلة التي يُسحب بها المغلول، ويُمنع بها عن التصرُّف، وذلك أعظم وأهول".⁴

فالرُّعِينِيُّ عَطَفَ (السلاسل) على (الأعناق)، حملاً على ظاهر اللفظ، ولم يتأوَّل الكلام على المعنى أو المحل، وأرى أن تسويغه للتخريج الذي ذكَّره وجيه وبلغ؛ لما فيه من العطف على الظاهر من دوْنِ تمحُّل في التأويل وتقدير في الكلام، وهذا تخريج جَنَحَ إليه الرُّعِينِيُّ، ولم أجده عند غيره من مُعَرَّبِي القرآن ومُفَسِّرِيه.

¹ انظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط (دمشق: دار القلم، د.ط، د.ت)، ج: 9، ص: 497.

² الرعيني، تحفة الأقران، ص: 157.

³ عدتُ إلى النسخة المخطوطة التي طُبِعَ وقَّعها الكتاب، وهي ضمن مجموع بالخزانة الوطنية في باريس، برقم (ARABE/4452) لوحة (189)، فوجدتُ كلمة (العنوق) كذا رُسمت فيها، علماً أن جمع (عُنُق) هو (أعناق)، ومن ضوابط تحقيق النص المخطوط أن ثبت ما فيه وإن كان خطأ، مع التنبيه على الخطأ في الحاشية، وعليه فأرى أن قصَّد المؤلف (العنق) بصيغة المفرد، ولعل الناسخ زلَّ به القلم في كُتِب هذا الحرف.

⁴ انظر: الرعيني، تحفة الأقران، ص: 158.

3. جواز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، والرّد على المانعين والمتأولين لقراءة حمزة قوله تعالى: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)) (النساء: 1).¹ وهي استبدّ توجيه قراءة الجرّ لكلمة (الأرحام) في هذه الآية بسبع صفحات من الكتاب، وهي متعلقة بمسألة من أهم المسائل النحوية المختلف فيها بين البصريين والكوفيين، التي تناولوها بالخفض والرفع، واحتدم النقاش فيها إلى غاية من الطعن والقدح بين الفريقين، وهي عطف الظاهر على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وقد ارتبط الحديث عن هذه المسألة في الكتاب بتوجيه قراءة ابن عباس ومجاهد وحمزة وغيرهم بالجرّ في كلمة (الأرحام) لقوله تعالى: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ))، وقد وجّهها المؤلّف بقوله: "ووجهها أنه معطوف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض"،² وهذا التوجيه مساوٍ لتوجيه ابن مالك في "شواهد التوضيح"،³ وأبي حيان في "البحر المحيط"،⁴ وقد ألمع ابن مالك إلى هذه المسألة بقوله [من الرجز]:⁵

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفٍ عَلَى ضَمِيرٍ خَفِضٍ لَازِمًا قَدْ جُعِلَا
وَلَيْسَ عِنْدِي لَازِمًا إِذْ قَدْ أَتَى فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ الصَّحِيحِ مُنْتَبَا
وهو رأي جمهور الكوفيين أيضاً، ووافقهم من البصريين أبو الحسن الأخفش (ت215هـ)، ومن المغاربة ابن مالك الأندلسي وأبو حيان كما تقدّم، وكذا أبو علي الشّلوّين وأبو جعفر الرُعَيْنِيُّ،⁶ فكلُّ هؤلاء جَنَحُوا إلى جواز عطفِ الْمُظْهَرِ على الْمُضْمَرِ

¹ برواية ورش عن نافع.

² الرعيني، تحفة الأقران، ص165.

³ انظر: ابن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق: طه محسن (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1985)، ص109.

⁴ انظر: أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل (بيروت: دار الفكر، د.ط، 2000)، ج2: ص387.

⁵ ابن مالك، الألفية في النحو والتصريف المسماة "الخلاصة في النحو"، تحقيق: سليمان العيوني، (دم: د.ن، د.ط، د.ت)، ص40.

⁶ انظر: الرعيني، تحفة الأقران، ص165 وما بعدها.

المخفوض من غير إعادة حَرْفِ الحَفْضِ، مستدلِّين بقراءة حمزة والشعر العربي،¹ وخالفَ البصريون، فَمَنَعُوا هذا التَّخْرِيجَ، وِجْهَهُ وَعَدُوهُ قَبِيحًا، ولا يجوز إلا في ضرورة الشعر،² وقد رَعَفَ قَلَمٌ بَعْضُ أَنْصَارِ مَذْهَبِهِم بِالطَّعْنِ فِي قِرَاءَةِ حَمْزَةِ الثَّابِتَةِ الصَّحِيحَةِ.³

والمؤلِّفُ الرُّعِينِيُّ رَحِمَهُ اللهُ - كما ذَكَرْتُ - رَجَّحَ مَذْهَبَ الكُوفِيِّينَ، واستدلَّ له بالنقل والقياس، وصرَّحَ بِعبارته: "والعطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض جائز في السَّعَةِ نَظْمًا وَنَثْرًا عند المحققين، وبه قال أكابر الكوفيين"،⁴ ثم أورد الإمام أبو جعفر الرُّعِينِيُّ مَجْمُوعَةً من الشواهد الشعرية المعرَّزة لهذه الظاهرة، ثم بعدَ تقريره هذا المنزَعِ النحويِّ، تصدَّى للدِّفاعِ عن قراءة حمزة، وتأنب البصريين ومن تابَعَهُم من المعتزلة وأئمة النحو على تقدُّمِهِم الاجتهاد الظني على القراءة القطعية المُسنَّدة إلى أفصح العرب سيدنا محمد ﷺ.

يقول رحمه الله: "وقد وقفْتُ على ما وَرَدَ من ذلك نَظْمًا وَنَثْرًا، ممَّا يدل على كثرة العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وإن كان بعضُ البصريين قد ذهبوا إلى مَنَعِ ذلك، فليست القراءة متوقفةً على مذهب البصريين ولا الكوفيين، بل إذا صحَّت القراءة وتواترت فهي أكبرُ حجَّةٍ على صحة الحكم، وكم من حُكْمٍ ثَبَّتَ بِقَوْلِ الكُوفِيِّينَ لم يُثَبِّتْهُ البصريون، وكم من حُكْمٍ ثَبَّتَ بِقَوْلِ البصريين لم يُثَبِّتْهُ الكوفيون، فلسنا مُلتزمين قول أحد الطائفتين، بل أيُّهُم أثبت حُكْمًا بنقلٍ صحيح عن العرب أخذنا به، لأنَّ كلتا الطائفتين أثبات ثقات فيما نقلوا، وقد رَدَّتْ النحاة المعتزلة هذه القراءة جرياً على عادتهم في ذلك، ولا يُلتَفَتُ إليهم، لأنهم يصحِّحون القراءة بنحوهم، والأمر بالعكس، وكان حقُّهم أن يُصحِّحوا نحوهم بالقراءة المتواترة، وأعجبُ شيءٍ فيهم أنهم إذا سمعوا بيتَ شعرٍ لا يعرفون قائله قد خرَّجَ عن

¹ انظر: ابن الأباري، الإنصاف في حلِّ مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 2003)، ج2: ص379-382.

² انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج2: ص387.

³ انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج2: ص4 وما بعدها؛ الزمخشري، الكشاف، ج1: ص462.

⁴ الرعيني، تحفة الأقران، ص165.

قواعد العربية التمسوا له أحسنَ المخارج، واعتذروا عنه بأشدِّ العذر، وإذا رأوا قراءةً منقولةً من طريق صحيح قد اعتنى بها الأئمةُ، إلَّا أنها قليلةُ النظر، رَمَوْها عن قوسٍ واحد، وطعنوا فيها! وكان حَقُّهم أن يقبلوها ويُبينوا مخرجها، كما يصنعه أهلُ السُنَّة من أهل الصَّنعة، والعجبُ أيضًا من ابن عطية على طهارة لسانه وعُلوِّ منصبه، كيف مال إلى ردِّ هذه القراءة! ولكن الجواد قد يكبو، والصارم قد يبنو، والله أسأل أن يعصمنا من الزَّل في القول والعمل".¹

قلتُ: في هذا الدفاع المجنَّح عن القراءات القرآنية، دلالة على متين ديانة أبي جعفر الرُعيني، وعظيم تبحُّله لقراءات الأئمة، وتحرُّره الفكري وانعتاقه من رِبقة الأغلال المذهبية، وأنه جانحٌ إلى منزع مُجتهدة المتأخرين من النحويين بالترجيح بين الأقوال، والاختيار بين الآراء، وهو صميم مذهب الأندلسيين، كما أشار إليه شوقي ضيف،² وعليه كان ابن مالك وغيره من أعلام النحاة،³ ولا أنفي أن الرُعيني قد أفاد هذا المنزع الاختياري من شيوخه في الأندلس، ومعانقة مؤلِّفات ابن مالك، وشيخه أبي حيان الأندلسي، وإن كان في بعض المواطنين يُعرب عن ولائه لسيبويه ومدرسة البصرة.⁴

رابعًا: تقويمات واستدراكات على ما في كتاب "تحفة الأقران" من هنات

مع زيادة أبي جعفر الرُعيني في جمعه المثلثات القرآنية؛ لم يخُل كتابه من نقصٍ وخللٍ؛ إذ الضعف نافذٌ إلى أيِّ عمَلٍ بشري، وقد نبّه محقق الكتاب علي حسين البواب على ملحوظاته التي تراءت له في الكتاب، وهي لا تخرج عن ثلاث،⁵ وإني إضافةً إلى ما ذكره المحقق، أسوق ملحوظاتي واستدراكي على كتاب "تحفة الأقران"، وهي تصبُّ برمتها في المتن العلمي والمادة المعرفية، ولا تعدو خمسة استدراكات.

¹ المصدر السابق، ص 171.

² انظر: شوقي ضيف، المدارس النحوية (القاهرة: دار المعارف، ط 7، د.ت)، ص 292.

³ انظر: المرجع السابق، ص 310.

⁴ انظر: الرعيني، شرح ألفية ابن معط، ج 1: ص 130 وما بعدها.

⁵ الرعيني، تحفة الأقران، ص 14 وما بعدها.

1. لا ضَعْفَ فِي قِراءَةِ ((رَبِّ العالَمِينَ)) [الفاتحة: 1] بالنصب، خِلافًا للرُّعِينِيِّ:

نصَّبُ كلمة (رب العالمين) من القراءات غير السبعية، وقد وجَّهها بعضُ المعرِّبين بأنَّها منصوبة على النداء،¹ لكن الرُّعِينِيُّ علَّقَ على هذا الإعراب بقوله: "وهو ضعيف"،² وسكَّت من دوَّن بيان وجهِ ضَعْفِهِ وعلَّة هزله، ووجهُ ضَعْفِ هذا الإعراب فضله بين الصفة والموصوف بأجنبي، فلَفِظُ الجلالة (الله) موصوف، و(الرحمن الرحيم) صفتان له مجروران على قراءة الجر فيهما، فُصِّلَ بينهما بجملة أجنبية عنهما، هي جملة النداء [يا رَبَّ العالمين]، ولا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف بالجملة الأجنبية كما تقرَّر، يقول ابن عصفور (ت669هـ) نقلًا عن شيخه الشَّلَوِيِّين: "واعلم أنه لا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، ونعني بالأجنبي ما ليس بصفة، إلا أن يكون الفاصلُ جملةً اعتراضيةً"،³ فجملة النداء [رَبَّ العالمين] ليست صفة، لأنَّها جملة طلبية، والجملة الطلبية تُمنع وقوعها نعتًا إلا بتأويل وتقدير، كما قال ابن مالك [من الرجز]:⁴

وامنَعْ هُنَا إيقاعِ دَاتِ الطَّلَبِ وإنَّ أَتتْ فَالْقَوْلَ أضْمِرُ تُصِبِ
يبقى احتمال أن تكون جملة النداء اعتراضية، لأن الجملة الاعتراضية تكون طلبية عادة وغير معمولة لشيء من أجزاء الجملة، وإدراجها بين الوصف والموصوف ليس بالقبيح في لغة العرب، وعلى هذا فإذا قلتُ إن جملة النداء في الآية اعتراضية، فلا يبقى وجهٌ للقول إن إعرابها على النداء ضعيف، كما قرَّر أبو جعفر الرُّعِينِيُّ.

¹ لم يسمهم أبو جعفر الرُّعِينِيُّ، انظر: المصدر السابق، ص19.

² السابق نفسه.

³ ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تحقيق: صاحب أبو جناح (العراق: جامعة الموصل، مؤسسة دار الكتب، ط1، 1980)، ج1: ص186.

⁴ ابن مالك، الألفية، ص37.

2. جمع (رَاعٍ) على (رِعَاء) ليس جمعًا شاذًّا، خلافًا لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ:

الوزن القياسي المطَّرد في جَمْعِ كَلِّ وَصَفِ عَلَى وَزْنِ (فاعل) معتلِّ اللامِ لمذكَّرِ عاقلِ نحو (داعٍ)، هو وزن (فُعْلَةٌ)، نحو (قاضي)، يُجمع قياسًا على (قضاة)، و(حامٍ) يُجمع على (حُمَاة)، ويدل على ذلك قول ابن مالك [من الرجز]:¹

فِي نَحْوِ رَامٍ ذُو اطِّرَادٍ فُعْلَةٌ

وبالنظر في قوله تعالى: ((حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)) [القصص: 23]، نرى أن (الرِّعَاءُ) جَمْعُ (رَاعٍ)، فهو وَصْفٌ لمذكَّرِ عاقلِ معتلِّ اللامِ، والقياس في جَمْعِهِ جَمْعُ تَكْسِيرٍ هو (رُعَاة) لا (رِعَاءُ)، وقد جَنَحَ المؤلِّفُ في هذا الموضوع إلى أن يحكم بالشذوذ على هذا الجمع، مفيدًا من شيخه أبي حيان،² ومعقبًا على الزمخشري الذي قال: "إنه جمعٌ قياسي"،³ ونصُّ كلام الرُّعِينِيِّ: "فأما قراءة الكسر فقرأ بها السبعة، ووجهها أن (الرِّعَاءُ) جمع تكسير، الواحد (رَاعٍ)، وهو شاذُّ، لأن وجهه أن يكون (رُعَاة)، ك(قاضي) و(قضاة)، وأخطأ الزمخشري في جعله قياسًا، قاله الشيخ أبو حيان".⁴

قلتُ: إذا كان (الرِّعَاءُ) جمعًا شاذًّا، فكيف يُسَوِّغُ إطباق القراءات السبع عليه، وهي قراءات متواترة صحيحة غير شاذة؟! بل إن لكلِّ ما وَرَدَ في القرآن من اللغات وجهًا في العربية، وحجة قوية من اللسان العربي، كما تَبَّه على ذلك السيوطي،⁵ وإذا نظرنا مليًّا في جمع (الرِّعَاءُ)، فسنجدّه واردًا في القرآن الكريم كما سَبَقَ، وفي الحديث الشريف أيضًا، عند قوله

¹ المصدر السابق، ص 57.

² انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج 8: ص 297.

³ الزمخشري، الكشاف، ج 3: ص 401.

⁴ الرعيني، تحفة الأقران، ص 94.

⁵ انظر: السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق: محمود فجال (دمشق: دار القلم، ط 1، 1989)، ص 68 وما بعدها.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَنْ تَرَى الْخَفَاةَ الْأَعْرَاءَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبِنْيَانِ»،¹ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَسْتَدَلُّ بِالْحَدِيثِ فِي أَصُولِ النَّحْوِ، وَهُوَ مُثَبَّتٌ فِي الْمَعَاجِمِ،² بَلْ إِنْ ابْنُ مَنْظُورٍ اسْتَدَلَّ بِهِ لِإِثْبَاتِ أَنْ (الرَّاعِي) يُجْمَعُ عَلَى (الرِّعَاءِ) وَ(الرُّعَاةِ)،³ وَعَلَيْهِ فَأَجْنَحُ إِلَى مَا قَرَّرَهُ الشَّاطِبِيُّ (ت790هـ) بِأَنْ كَلَّ مَا اعْتَوَرَ جَمَعَ (فُعْلَةٌ) مِنَ الْجُمُوعِ الْأُخْرَى فَهُوَ نَادِرٌ لَا شَأْذٌ، يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَتْنَاءَ حَدِيثِهِ عَنْ جَمْعِ (فُعْلَةٌ): "وَقَدْ يَدْخُلُ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ (فُعْلَةٌ) غَيْرُهُ، لَكِنَّهُ نَادِرٌ، وَغَيْرُ قَادِحٍ فِي الْإِطْرَادِ"،⁴ وَالنَّادِرُ فِي الْإِصْطِلَاحِ النَّحْوِيِّ مَا وَافَقَ الْقِيَاسَ وَكَانَ قَلِيلًا فِي الْإِسْتِعْمَالِ،⁵ بِخِلَافِ الشَّاذِ الَّذِي يَجِيدُ عَنْ مَحَجَّةٍ لُغَةِ الْعَرَبِ الْفُصْحَاءِ، سِوَاءً قَلَّ أَمْ كَثُرَ فِي الْإِسْتِعْمَالِ.⁶

وَاعْتِدَادًا بِهَذَا الْأَمْرِ، فَإِنَّ (الرِّعَاءَ) وَإِنْ كَانَ الْقِيَاسُ فِيهِ (الرُّعَاةَ) كَمَا قَرَّرَ فَفَقَهَاءُ اللُّغَةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ قِيَاسًا مَطَّرَدًا كَمَا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ، وَلَيْسَ شَأْذًا كَمَا قَالَ أَبُو حَيَّانٍ وَالرُّعِينِيُّ وَالسِّيُوطِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ النَّحَاةِ،⁷ بَلْ هُوَ قَلِيلٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا يَقْدَحُ فِي الْقِيَاسِ كَمَا جَنَحَ لِذَلِكَ الشَّاطِبِيُّ، وَالْعِلْمُ لِلَّهِ.

¹ حديث صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه (الحديث 8)، وهو عند البخاري في صحيحه (الحديث 50)، بلفظ: «رُعَاةُ الْإِبِلِ»، ولعله زُوي بالمعنى في إحدى الروايتين، والرواية بالمعنى من الموانع التي حجرت علماء النحو من الارتكان إلى الحديث في الاحتجاج النحو.

انظر: السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص77 وما بعدها.

² انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (رعي).

³ انظر: السابق نفسه.

⁴ الشاطبي، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: محمد إبراهيم البناء، سليمان العايد، السيد تقي (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط1، 2007)، ج7: ص86 وما بعدها.

⁵ انظر: حسن البخاري الباقوي، تشويق العاني بتصريف الزنجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2023)، ص42.

⁶ انظر: السابق نفسه.

⁷ انظر: السيوطي، همع الموامع شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هندواي (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت)، ج3: ص356.

3. لا استدراك على أبي علي الفارسي في إغفاله قراءة الإمالة في أَلِفِ ((مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)) [الفاحة: 3].

ذكر الإمام الرُّعَيْنِيُّ أن من القراءات التي ثلّيت بها كلمة (مالك) في سورة السبع المثاني، هي قراءة يحيى بن يعمر (ت90هـ)، وأيوب السَّخْتِيَّانِي (ت131هـ)، بالإمالة المحضة،¹ وقراءة قُتَيْبَةَ بن مِهْرَانَ (ت201هـ) عن الكسائي بإمالة الألف بَيْنَ بَيْنَ،² والإمالة في هذه الكلمة جائزة في العربية؛ لما تَقَرَّرَ من أن الألف تُمال حين وقوعها قبل كسرة مباشرة، ولم يقع قبلها أو بعدها حرفٌ من حروف الاستعلاء (حُصَّ ضَعُطٌ قِظٌ)، وقد أفصح عن اطراد إمالة هذا الموضوع ابنُ مالك في قوله بباب الإمالة [من الرجز]:³

كَذَاكَ مَا يَلِيهِ كَسْرٌ

أي تجوز الإمالة اطرادًا في الكلمات التي يلي الألف فيها كسْرٌ، من مثل (مساجد)،⁴ فإذا سُلِّمَ هذا الأمر علمنا أن العربية تبيح إمالة (مالك)، ولهذا وردت القراءات المشار إليها وَفَّقَ هذه المسألة، لكن نجد أبا علي الفارسي في كتابه "الحجة" عبَّرَ كِفَاحًا بأنه لم يقرأ أحدٌ من القُرَّاءِ بالإمالة في (مالك)، ونصُّ مقاله رحمه الله: "ولم يُملِ أحدٌ الألفَ من (مالك)"،⁵ فعقَّبَ عليه الرُّعَيْنِيُّ بقوله إفادَةً من شيخه أبي حيان:⁶ "وقال أبو علي الفارسي:

¹ الإمالة المحضة، وتُسمى "الإمالة الكبرى"، هي تقريب الفتحة من الكسرة، والألف من الياء، من غير قلب خالص، ولا إشباع مبالغ فيه، فلو زادت درجة الإمالة في هذا النوع لصارت الألف ياء.

انظر: إبراهيم الجرمي، معجم علوم القرآن (دمشق: دار القلم، ط1، 2001)، ص50.

² الإمالة بين بين، وتُسمى "الإمالة الصغرى"، هي الإتيان بالحرف بين الفتح المتوسط وبين الإمالة الشديدة.

انظر: الجرمي، معجم علوم القرآن، ص50.

³ ابن مالك، الألفية، ص64.

⁴ انظر: السابق نفسه.

⁵ أبو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي، بشير جويجايي (دمشق: دار المأمون للتراث، ط2، 1993)، ج1: ص8.

⁶ انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج1: ص36 وما بعدها.

لم يُجَلِّ أحدٌ ألف (مالك)، وهو جائز في العربية، لكنّه لا يُقرأ بكل ما يجوز إلا أن يأتي بذلك أكثر، ولم تصل هذه القراءة إلى أبي علي، فلذلك أنكر الإمامة¹،¹ فيها هو قد اعتذر لأبي عليّ بأنه لم تصل إليه رواية الإمامة في كلمة (مالك).

قلتُ: بأدنى نظرٍ نجد أن لإغفال أبي علي الفارسي هذه القراءة في كتابه، وإنكاره إياها، وجَهًّا من النظر، وخطأً من الصواب، لأن أبا علي رَصَدَ في كتابه "الحجة" القراءات السبعَ فقط، ولم يُدرج ما فوقها اقتفاءً بصنعة ابن مجاهد (ت324هـ) في كتابه "السبعة في القراءات"، وقد أعرب في خطبة كتابه عن نيّته هذه قائلاً: "فإن هذا كتاب نذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين تَبَيَّنَت قراءاتهم في كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد - رحمه الله - المترجم بمعرفة قراءات أهل الأمصار بالحجاز والعراق والشام"²، وبالنظر في كتاب ابن مجاهد؛ نُلفي أنه لم يُدرج رواية ابن يعمر وأيوب السخيتاني وقتيبة ضمن السبعة³، وعلى هذا فلا محلّ لاعتراض أبي حيان وتلميذه الرعيني على أبي علي الفارسي، والعلم لله⁴.

4. لم يَتَّفِق اللُّغَوِيُّونَ جَمِيعُهُمْ عَلَى الفِرْق اللُّغَوِيِّ بَيْن (أَجْمَع) و(جَمَع):

دَرَجَ معظم أهل اللغة على التفريق بين (أَجْمَع) و(جَمَع)، استقراءً من كلام العرب، وبيان ذلك أن مدخول (أَجْمَع) ليس هو مدخول (جَمَع)؛ إذ الأول لا يُستعمل إلا في المعاني، أي الأمور المعنوية غير الحسية، كقولنا: أجمعت أمري، وأجمعت فكري... إلخ، والآخر لا يُستعمل إلا في الذوات، أي الأمور الحسية، كقولنا: جمعت الرفقاء، وجمعت الأسرة... إلخ، لكنّ هذا الاستعمال أغلبي أكثر من لا دائم؛ إذ قد يتعاور الفعلان ومدخوليهما بقلّة في كلام العرب، فقد يدخل (جَمَع) على المعاني، كما في قوله تعالى: ((فَجَمَعَ كَيْدَهُ)) [طه: 59]، وقد يدخل (أَجْمَع) على الذوات، كقولك: أجمعتُ الشركاء، وقد نبّه الإمام الرُّعَيْنِيُّ إلى هذا التفريق

¹ الرعيني، تحفة الأقران، ص147.

² الفارسي، الحجة، ج:1، ص5 وما بعدها.

³ انظر: ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1980)، ص78 وما بعدها، ص98.

⁴ قد نبّه محققا كتاب "الحجة للقراء السبعة" على هذا الأمر، انظر التعليق الأول، في ج:1، ص8.

اللغوي بين الفعلين في أثناء توجيهه قراءات الهمزة الثلاثة من كلمة (الشركاء) في قوله تعالى: ((فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ)) [ابنس: 71¹]، وحَكَمَ عليه بالكثرة تبعًا لشيخه أبي حيان،¹ وهو ما قرَّره السَّمِين الحلي،² والألوسي (ت1270هـ)،³ لكنَّ الإمام الرُّعَيْنِي حَكَمَ على اللغة القليلة بالفصاحة، مع أنها عزيزة الدوران في الكلام العربي، وأورد قوله برُمَّته للفائدة.

يقول رحمه الله: "أهل اللغة قالوا إنَّ (أَجْمَعَ) لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا في المعاني، و(جَمَعَ) لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا في الأعيان، فيقال: أجمعتُ الأمر؛ لأنه معنى، قال الشاعر [من الخفيف]:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا
أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ عَوَّاءُ
وقال الآخر [من الكامل]:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَى لا تَنْفَعُ
هَلْ أَعْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ؟
يُقال: جَمَعْتُ شُرَكَائِي، لأنَّ الشُّركاءَ أعيان، قلت: هذا هو الأكثر، وقد يوضع كلُّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر، وهو قليل فصيح، فيقال: أجمعتُ الشركاء، وجمعتُ الأمر، قال الله تعالى: ((فَجَمَعَ كَيْدَهُ))، وهو من المعاني، وقرأ أبو عمرو في (طه): ((فاجمَعُوا كَيْدَكُمْ)) من (جَمَعَ)، وقرئ هنا في الشاذِّ كذلك".⁴

قلتُ: فيها أنت ذا ترى أن الإمام الرُّعَيْنِي ينجح نحو القول بفصاحة اللغة القليلة في (أَجْمَعَ) و(جَمَعَ)، ولعلَّ ورود القرآن بها رَفَعَهَا إلى سُدَّة الفصاحة، لأن كلَّ ما وَرَدَ في القرآن لغة صحيحة فصيحة، ولو لم يَرِدْ إلا مرة واحدة، كما قال ابن خالويه (ت370هـ): "قد أجمع الناس جميعًا أن اللغة إذا وَرَدت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك"،⁵ بل إن القراءة سواء أكانت متواترة أم شاذة فهي حجة في اللغة، كما قرَّر ذلك

¹ انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج: 6، ص: 88.

² انظر: السمين الحلي، الدر المصون، ج: 6، ص: 240 وما بعدها.

³ انظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995)، ج: 6، ص: 148 وما بعدها.

⁴ الرعيني، تحفة الأقران، ص: 4 وما بعدها.

⁵ السيوطي، المزهري في علوم اللغة، تحقيق: فؤاد علي منصور (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998)، ج: 1، ص: 168، وقد نقل السيوطي عبارة ابن خالويه من شرحه على "الفصح".

السيوطي، وقال إنها مسألة مُجمع عليها بين النحاة لا خلاف فيها،¹ فإذا كانت اللغة قليلة، ووردت في القرآن؛ كانت فصيحة صحيحة، لكن قد يُتَعَبَّ على دعوى الإمام الرُّعِينِي فِي أن أهل اللغة من دُونِ استثناء جَنَحُوا نَحْوَ التفريق بين (أَجْمَع) و(جَمَع)، بأنَّ الأمر ليس كذلك؛ إذ إن القول بالتمييز بين الفعلين مذهب بعض أهل اللغة، لكنَّ بعضَهم - ومنهم أبو معاذ النحوي² (ت211هـ)، كما نَبَّه عليه القرطبي (ت671هـ) في تفسيره - جَنَحَ إِلَى أن لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وقال بتساوي معناه،³ وقد حكى الألويسي أيضًا في تفسيره أن بعض اللغويين ساوَوْا بين الفعلين في المعنى، ولم يفرِّقوا بينهما.⁴

5. ليس هناك جذرُ (كوكب) في "صحاح الجوهري":

عَقَّب الإمام أبو جعفر الرُّعِينِي على الإمام الجوهري (ت393هـ) صاحب "تاج اللغة و صحاح العربية"، بأنه أورد كلمة (كوكب) في الجذر (كوكب)، أي في فصل الكاف من باب الباء، لكنَّ الأولى والصواب أن يُوردها في الجذر (ككب)، لأن الواو زائدة، بدليل أننا إذا وزنَّا كلمة (كوكب) قلنا (فَوَعَلَ)، فالواو إذن زائدة، والصناعة المعجمية التي اعتمدها الجوهري - مؤسس مدرسة القافية التي اقتفى أثرها الفيروز آبادي أيضًا - هي تجريد الكلمات من الحروف الزائدة، ثم ترتيبها وفقَّ أصولها، وتشهد لذلك صناعته في الكتاب، وما يُحفظ في هذا الباب، بيتٌ شعريٌ وُجِدَ بِحَطِّ الفيروز آبادي في نسخته الخاصة من "القاموس المحيط"، يقول فيه [من الطويل]:⁵

ولا تَعْتَبِر فِي بَدْئِهَا وَأَخِيرِهَا
مَزِيدًا وَلَكِنَّ اعْتِبَارَكَ بِالْأَصْلِ

¹ انظر: السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، ص39 وما بعدها.

² الفضل بن خالد، أبو معاذ النحوي المروزي، روى عن عبد الله بن المبارك وغيره، صنف كتابًا في القرآن.

انظر: ابن الجزري، غاية النهاية، ج:2، ص:9؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج:2، ص:45.

³ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964)، ج:8، ص:363.

⁴ انظر: الألويسي، روح المعاني، ج:6، ص:148.

⁵ انظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين (القاهرة: دار الهداية، د.ط، د.ت)، ج:1، ص:86.

أي لا تعتدُّ في أثناء البحث عن كلمةٍ في هذا الكتاب بالحروف الزائدة، بل جرِّدها ودع الحروف الأصول من الكلمة هي الحَكَم في الدلالة على موضعها.

يقول الرُّعِينِيُّ رحمه الله: "وهنا تنبيه، وهو أن (كوكبًا) وزنه (فَوَعَلَ)، والواو زائدة، فكان حقُّ الجوهرى أن يذكره في فصل (ككب)، لا في فصل (كوكب)، والله أعلم".¹

قلت: ما قاله الإمام الرُّعِينِيُّ متَّجه ووجيه لو كان صوابًا؛ إذ إننا بالرجوع إلى "صحيح الجوهرى"، نجد ذكر (كوكب) في الجذر (ككب) لا في (كوكب)، كما قال الإمام الرُّعِينِيُّ،² ثم ليس هناك فصل (كوكب) في "الصِّحاح"، اللهم إلا أن تكون النسخة التي بيده الرُّعِينِيُّ من "الصِّحاح" أصابها تحريف أو خلطٌ، أو اعترى الإمام الرُّعِينِيُّ ما اعتراه من الغفلة والذهول، وعلى هذا فالصواب حليفُ الجوهرى، ولا محلَّ لاعتراض الإمام الرُّعِينِيُّ عليه، والعلم لله.

خاتمة

نستصحب معنا حينَ الخروج من هذا البحث النتائج الآتية:

1. الإمام أبو جعفر الرُّعِينِيُّ الغرناطى (ت779هـ) من أعلام الأندلسيين المؤثرين في الشرق الإسلامى (الحجاز والشام)، وحلقة وصلٍ بين التراث المغربى والتراث المشرقى، ورابطة جَمِّع بين الطبقات العلمية في القطرين.
2. الرُّعِينِيُّ أَوَّلُ مَنْ أَلْفَ كتابًا في المثلثات اللغوية القرآنية، وقد سمَّه بـ"تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن".
3. الرُّعِينِيُّ عالم لغوى مجتهد، وقد أعرب عن اجتهاده في هذا الكتاب، بتوسيعه وتطويره مفهوم المثلثات اللغوية، من حيث إدراجه المثلثات الإعرابية (آخر الكلمة)، بعد أن كانت خاصة بالمثلثات الصرفية (بدء الكلمة ووسطها).

¹ الرعيني، تحفة الأقران، ص75.

² انظر: الجوهرى، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987)، ج1: ص213.

4. كتاب "تحفة الأقران فيما فُرى بالتثليث من حروف القرآن"، بَلَّغَ عَدَدُ المَثَلَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ المَبْثُوثَةِ بَيْنَ طَيَّاتِهِ - بِإِحْصَاءِ الإِمَامِ أَبِي جَعْفَرِ الرُّعِينِيِّ - إِلَى ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ كَلِمَةً، مَعْتَدًا فِي إِحْصَائِهِ بِالْقُرَاءَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالشَّاذَةِ.
5. الكِتَابُ ثَرِيٌّ بِالمَادَّةِ المَعْرِفِيَّةِ الَّتِي طُوِيَ عَلَيْهَا، فَقَدْ اِحْتَوَى جَمَهْرَةً مَتَكَاتِفَةً مِنَ العُلُومِ اللُّغَوِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، إِذْ نَ لَيْسَ كِتَابَ لَعَةٍ فَقَطْ، بَلْ كِتَابُ لُغَةٍ وَإِعْرَابٍ وَعَقِيدَةٍ وَتَفْسِيرٍ وَغَيْرِهَا.
6. يَتَضَمَّنُ هَذَا الكِتَابُ اجْتِهَادَاتٍ وَاخْتِيَارَاتٍ لِلإِمَامِ الرُّعِينِيِّ، تَتَوَزَّعُ بَيْنَ عُلُومِ اللُّغَةِ، وَتَفْسِيرِ بَعْضِ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَتَرْجِيحِ قُرَاءَةٍ مِنَ الْقُرَاءَاتِ.
- وعليه فيوصي هذا البحث بالتهمُّم بالمثلثات اللغوية القرآنية والأوضاع المؤلفة فيها في تراث المسلمين؛ لبلورة هذا المبحث اللغوي القرآني، وبيان من أَلْفٌ فِيهِ مِنْ غَيْرِ الإِمَامِ أَبِي جَعْفَرِ الرُّعِينِيِّ، مَعَ جَمْعِ الاجْتِهَادَاتِ وَالآرَاءِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي بَثَّهَا الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ الرُّعِينِيِّ فِي هَذَا الكِتَابِ، وَتَوَزِيْعِهَا إِلَى حَقُولِهَا المَعْرِفِيَّةِ، لِلنَّظَرِ فِي مَدَى اجْتِهَادِهِ وَتَجْدِيدِهِ، وَلِلتَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّةِ مَا افْتَرَضْنَاهُ بِأَنَّهُ كَانَ إِمَامًا مَجْتَهِدًا، فَضْلًا عَنِ ضَرُورَةِ نَشْرِ التَّرَاثِ المَخْطُوطِ لِهَذَا الإِمَامِ الكَبِيرِ، لِيَتَجَلَّى لَنَا صَاحِبُهُ عَلَى أَحْسَنِ مَجْلَى وَأَكْمَلِ مَظْهَرٍ، فَتُقَيِّمَهُ مَقَامَهُ العِلْمِيَّ، وَنَفِيْدَ مِنْ عِلْمِهِ، وَنَعْرِفَ لَهُ حَقَّهُ وَنُصَبِيْهِه أَمَامَ جِحَافِلِ عُلَمَاءِ المُسْلِمِيْنَ وَشِيُوْخِهِمْ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- إبراهيم الجرمي، معجم علوم القرآن (دمشق: دار القلم، ط1، 2001).
- ابن الأنباري، الإنصاف في حلِّ مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 2003).
- ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية: برجستراسر (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1932).
- ابن السيد البطليوسي، المثلث، تحقيق: صلاح مهدي الفرطوسي (بيروت: دار الرشيد، د.ط، 1981).
- ابن السيد البطليوسي، المثلث، تحقيق: يحيى مراد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2015).
- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور (بيروت: دار التراث، ط1، 1971).
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد خان (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط2، 1972).
- ابن حجر العسقلاني، إنباء العُمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ط، 1969).
- ابن حزم، التقريب لحد المنطق، تحقيق: إحسان عباس (دم: د.ن، ط1، 1951).
- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ط1، 1900).
- ابن شاعر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ط1، 1974).
- ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تحقيق: صاحب أبو جناح (الموصل: جامعة الموصل، مؤسسة دار الكتب، ط1، 1980).

- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002).
- ابن فرحون، تاريخ المدينة المنورة المسماة بـ"نصيحة المشاور وتعزية المجاور"، علق عليه: حسين محمد شكري (بيروت: دار الأرقم، د.ط.).
- ابن مالك، إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تحقيق: سعد الغامدي (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 1984).
- ابن مالك، الألفية في النحو والتصريف المسماة "الخلاصة في النحو"، تحقيق: سليمان العيوني، (دم: دن، د.ط، د.ت).
- ابن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق: طه محسن (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1985).
- ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1980).
- أبو جعفر الرعيني، شرح ألفية ابن معط (السفر السابع)، تحقيق: عبد الله بن عمر حاج إبراهيم (رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1997).
- أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل (بيروت: دار الفكر، د.ط، 2000).
- أبو علي الفارسي، الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي، بشير جويجايي (دمشق: دار المأمون للتراث، ط2، 1993).
- إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تحقيق: محمد شرف الدين، رفعت بيلكه الكليسي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، 1947).
- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995).
- بلال عبد الستار مشحن، "التبيان في الألفاظ المثلثة من القرآن"، مجلة مداد الآداب، (17)9، (2019).

تقي الدين الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998).

جلال شوقي، "المثلثات اللغوية: متونها ومنظوماتها حتى نهاية المئة السابعة للهجرة"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد (9)، (1986).

الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987).

حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عناية: محمد شرف الدين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

حسن البخاري الباقوي، تشويق العاني بتصريف الزنجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2023).

خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002).

الرعيبي، تحفة الأقران فيما قرئ بالثلث من حروف القرآن، تحقيق: علي حسين البواب (الرياض: دار كنوز إشبيليا، ط2، 2007).

الزيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين (القاهرة: دار الهداية، د.ط، د.ت).

الزنجشري، الكشاف (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1987).

سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تحقيق: شوقي شعث، فالح البكور (حلب: دار القلم، ط1، 1996).

السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1993).

السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط).

السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط (دمشق: دار القلم، د.ط، د.ت).

- السيوطي، الإِتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1974).
- السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق: محمود فجال (دمشق: دار القلم، ط1، 1989).
- السيوطي، المزهري في علوم اللغة، تحقيق: فؤاد علي منصور (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998).
- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ط2، 1979).
- السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هندواوي (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت).
- الشاطبي، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، سليمان العايد، السيد تقي (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط1، 2007).
- شوقي ضيف، المدارس النحوية (القاهرة: دار المعارف، ط7، د.ت).
- صديق القنوجي، أبجد العلوم (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 2002).
- الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 2000).
- طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1986).
- عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب (تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 1999).
- عصري عبد النبي الحراحشة، "التثليث في القراءات القرآنية: دراسة صوتية"، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، العدد (28)، (2020).

عيد عيت الله أحمد، "ماهية المثلثات اللغوية القرآنية وفوائدها"، مجلة كلية الآداب بقنا، 29(50)، (2020).

غانم مشرفي، "توجيه الأسماء صرفياً في القراءات المثلثة في كتاب (تحفة الأقران فيما قُرىء بالثلث من حروف القرآن) لأبي جعفر الرُّعِينِيِّ"، حولية كلية اللغة العربية بجرجا، 28(2)، (2024).

فارس النجار، "شعر أبي جعفر الرعيني"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد (64)، (2009).

الفراء، معاني القرآن، تحقيق: عبد الفتاح الشلبي، أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط1، 1955).

فراس عبد العزيز الكداوي، "الألفاظ القرآنية المقروءة بالثلث: دراسة لغوية"، مجلة آداب الرافدين، العدد (52)، (2008).

فرج محمد عبد الغفار، المثلث اللغوي والإعرابي في القراءات القرآنية: دراسة لغوية وصفية (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنوفية، جمهورية مصر العربية، 2016).

فهمي خالد، "من وجوه الإعجاز في الذكر الحكيم: ظاهرة المثلث القرائي"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (581)، (2013).

الفيروز آبادي، الغرر المثلثة والدرر المبتثثة، تحقيق: سليمان بن إبراهيم العايد (القاهرة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط2، 2000).

القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: توفيق الطويل، وسعيد زايد (القاهرة: الدار المصرية، ط1، 1962).

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1964).

كمال جبيري عبهري، الزمخشري: سيرته، آثاره، مذهبه النحوي (بيروت: دار الجنان، ط1، 2014).

لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ).

لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ط1، 1963).

مؤلفة مجهولة، "الفوائد الحسان من كتاب تحفة الأقران"، ملتقى أهل اللغة، نُشر في 1 أكتوبر 2010، الاطلاع في 14 سبتمبر 2024.

محمد أحمد مفلح القضاة، "مثلثات القرآن أو ما قرئ بثلاثة أوجه في القرآن الكريم"، الملتقى الدولي الثاني لمجموعة البحث في الدراسات القرآنية: القراءات القرآنية والإعجاز، الجديدة، المملكة المغربية، 30 يونيو 2010.

محمد القضاة، أحمد شكري، محمد منصور، مقدمات في علم القراءات (عمان: دار عمار، ط1، 2001).

محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمد كمال (حلب: دار القلم، ط2، 1988).

محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1995).

المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد العظيم شلي (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1939).

المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002).

يوسف العيساوي، علم إعراب القرآن: تأصيل وبيان (الرياض: دار الصمعي، ط1، 2007).

References

Al-Qur'ān al-Karīm.

Abdullāh al-Murābiṭ al-Taghrī, *Fahāris 'Ulama' al-Maghrib* (Tetouan: Manshūrāt Kulliyyah al-'Ādāb wal-'Ulūm al-'Insāniyyah, 1st Ed., 1999).

Abū Ḥayyān, *al-Baḥr al-Muḥīṭ*, Ṣidqī Muḥammad Jamīl (Ed.) (Beirut: Dār al-Fikr, 2000).

Al-Baṭalyawsī, *al-Muthallath*, Yaḥyaā Murād (Ed.) (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 2015).

Al-Baṭalyūwsī, *al-Muthallath*, Ṣalāḥ Maḥdī al-Farṭūsī (Ed.) (Beirut: Dār al-Rashīd, 1981).

Al-Fārisī, *al-Hujjah lil-Qurrā' al-Sab'ah*, Badruddīn Qahwājī & Bashīr Jwījānī (Damascus: Dār al-Ma'mūn lil-Turāth, 2nd Ed., 1993).

Al-Farrā', *Ma'ānī al-Qur'ān*, Abdulfattāḥ al-Shalabī, Aḥmad Yūsuf Najātī & Muḥammad Alī al-Najjār (Eds.) (Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, 1955).

Al-Fyrūz 'Ābādī, *al-Ghurar al-Muthllathah wal-Durr al-Mubaththah*, Sulymān bin Ibrāhīm al-'āyid (Ed.) (Riyadh: Maktabah Nizār Muṣṭafa al-Bāz, 2nd Ed., 2000).

Al-Jawāharī, *Tāj al-Lughah wa-Ṣiḥāḥ al-'Arabiyyah*, Aḥmad Abdulghafūr 'Aṭṭār (Ed.) (Beirut: Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, 4th Ed., 1987).

Al-Maqqarrī al-Tilimsānī, *'Azhār al-Riyāḍ fī 'Akhbār al-Qāḍī 'Iyād*, Muṣṭafā al-Saqqā, Ibrāhīm al-Abyārī & Abdul'azīm Shalabī (Eds.) (Cairo: Maṭba'ah Lajnah al-Tal'īf wal-Tarjamag wal-Nashr, 1st Ed., 1939).

Al-Maqrīzī, *Durar al-'Uqūd al-Farīdah fī Tarājim al-'A'yān al-Mufīdah*, Maḥmūd al-Jalīlī (Ed.) (Beirut: Dār al-Gharb al-'Islāmī, 1st Ed., 2002).

Al-Nuwyri, *Nihāyah al-'Arab fī Funūn al-'Adab*, Mufīd Qamḥīyah (Ed.) (Cairo: Dār al-Kutub wal-Watha'iq al-Qawmiyyah, 1st Ed., 2003).

- Al-Qādī Abduljabbār, *al-Mughnī fī 'Abwāb al-Tawḥīd wal- 'Adl*, Tawfīq al-Ṭawīl & Sa'īd Zāiyd (Eds.) (Cairo: al-Dār al-Miṣriyyah, 1st Ed., 1962).
- Al-Qurtubī, *al-Jāmi' li-'Aḥkām Al-Qur'ān*, Aḥmad al-Bardūnī & Ibrāhīm Aṭfīsh (Eds.) (Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, 2nd Ed., 1964).
- Al-Ru'ynī, *Sharḥ 'Alfiyyah Ibn Mu'ī' (al-Sifr al-Sābi')*, Abdullāh bin Umar Hāj Ibrāhīm (Ed.) (Makkah: Umm al-Qurā University, Daculty if Arabic Language, 1997).
- Al-Ru'ynī, *Tuḥfah al-'Aqrān fī-mā Quri' bil-Tathlīth min Hurūf al-Qur'ān*, Alī Ḥusyn al-Bawwāb (Ed.) (Riyadh: Dār Kunūz 'Ishbilyā, 2nd Ed., 2007).
- al-Ṣafadī, *al-Wāfī bil-Wafayāt*, Aḥmad al-'Arnā'ūt & Turkī Muṣṭafa (Eds.) (Beirut: Dār 'Iḥyā' al-Turāth, 1st Ed., 2000).
- Al-Sakhāwī, *al-Tuḥfah al-Latīfah fī Tārīkh al-Madīnah al-Sharīfah* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 1993).
- Al-Samīn Al-Ḥalabī, *al-Dur al-Maṣūn fī 'Ulūm al-Kitāb al-Maknūn*, Aḥmad Muḥammad al-Kharrāt (Ed.) (Damascus: Dār al-Qalam).
- Al-Shāṭibī, *al-Maqāsid al-Shāfiyyah fī Sharḥ al-Khulāṣah al-Kāfiyah*, Muḥammad al-Bannā, Sulymān al-'Āyid & al-Sayyid Taqī (Eds.) (Makkah: Ma'had al-Buḥūth al-'Ilmiyyah wa-'Iḥyā' al-Turāth bi-Jāmi'ah Umm al-Qura, 2007).
- Al-Suyūṭī, *al-Muzhir fī 'Ulūm al-Lughah*, Fu'ād Alī Maṣṣūr (Ed.) (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 1998).
- Al-Suyūṭī, *al-Iqtirāḥ fī Uṣūl al-Naḥw*, Maḥmūd Fajjāl (Ed.) (Damascus: Dār al-Qalam, 1st Ed., 1989).
- Al-Suyūṭī, *al-'Itqān fī 'Ulūm al-Qur'ān*, Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm (Ed.) (Cairo: al-Hy'ah al-Miṣriyyah al-'Āmmah lil-Kitāb, 2nd Ed., 1974).
- Al-Suyūṭī, *Bughyah al-Wu'āh fī Ṭabaqāt al-Lughawīyyīn wal-Nuḥāh*, Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm (Ed.) (Bierut: al-Maktabah al-'Aṣriyyah, 2nd Ed., 1979).

- Al-Suyūṭī, *Ham' al-Hawāmi' Sharḥ Jam' al-Jawāmi'*, Abdulḥamīd Hindāwī (Ed.) (Cairo: al-Maktabah al-Tawfiqiyyah).
- Al-Zabīdī, *Taj al-'Arūs min Jawāhir al-Qāmūs*, A Group of Editors (Cairo: Dār al-Hidāyah).
- Al-Zamakhsharī, *al-Kashshāf* (Beirut: Dār al-Kitāb al-'Arabī, 3rd Ed., 1987).
- Al-'Alūsī, *Rūḥ al-Ma'ānī fī Tafsīr al-Qur'ān al-'Aẓīm wal-Sab' al-Mathānī*, Alī Abd Aṭīyyah (Ed.) (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 1995).
- Anonymous Author, "[al-Fawā'id al-Hisān min Kitāb Tuhfah al-'Aqrān](#)", *Multaqā 'Ahl al-Lughah*, published October 1, 2010, retrieved September 14, 2024.
- Fārīs al-Najjār, "Shi'r Abī Ja'far al-Ru'ynī", *Majllah 'Afāq al-Thaqāfah wal-Turāth*, No. (64), 2009.
- Hājī Khalīfah, *Kashf al-Zunūn 'an 'Asāmī al-Kutub wal-Funūn*, Muḥammad Sharfulddīn (Ed.) (Beirut: Dār 'Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī).
- Ḥasan al-Bukhārī al-Bāqawī, *Tashwīq al-'Ānī bi-Taṣrīf al-Zanjānī* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 2023).
- Ibn al-Anbārī, *al-'Inṣāf fī Ḥal Masā'il al-Khilāf byn al-Naḥwiyyīn al-Baṣriyyīn wal-Kūfiyyīn* (Beirut: al-Maktabah al-'Aṣriyyah, 1st Ed., 2003).
- Ibn al-Jazarī, *Ghāyah al-Nihāyah fī Ṭabaqāt al-Qurrā'*, Bergstrasser (Cairo: Maktabah Ibn Tymiyyah, 1st Ed., 1932).
- Ibn al-Qāḍī, *Durrah al-Ḥijāl fī Ghurrah 'Asmā' al-Rijāl*, Muḥammad al-Aḥmadī Abū al-Nūr (Ed.) (Beirut: Dār al-Turāth, 1st Ed., 1971).
- Ibn Farḥūn, *Tārīkh al-Madīnah al-Munawwarah al-Musmmāh bi-Naṣīḥah al-Mushāwir wa-Ta'ziyah al-Mujāwir*, Ḥusyn Muḥammad Shukrī (Ed.) (Beirut: Dār al-Arqam).
- Ibn Ḥajar al-'Asqalānī, *al-Durar al-Kāminah fī 'A'yān al-Mi'ah al-Thāminah*, Muḥammad Abdulmu'īd Khān (Hyderabad: Majlis Dā'irah al-Ma'ārif al-'Uthmāniyyah, 2nd Ed., 1972).

- Ibn Ḥajar al-‘Asqalānī, *‘Inbā’ al-Ghamr bi-‘Abnā’ al-‘Umr*, Ḥasan Ḥabashī (Ed.), (Cairo: al-Majlis al-‘A‘lā lil-Shu‘ūn al-‘Islāmiyyah, 1969).
- Ibn Ḥazm, *al-Taqrīb li-Ḥad al-Mantiq*, ‘Iḥsān ‘Abbās (Ed.) (1st Ed., 1951).
- Ibn ‘Aṭiyyah, *al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafṣīr al-Kitāb al-‘Azīz*, Abdulsalām Abdulshāfi Muḥammad (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1st Ed., 2002).
- Ibn ‘Uṣfūr, *Sharḥ Jumal Al-Zajjājī*, Ṣāhib Abū Janāḥ (Mosul: University of Mosul, Mu’assasah Dār al-Kutub, 1st Ed., 1980).
- Ibn Khillikān, *Wafayāt al-‘A‘yān wa-‘Abnā’ al-Zamān*, Iḥsān ‘Abbās (Ed.) (Beirut: Dār Ṣādir, 1st Ed., 1990).
- Ibn Mālik, *al-‘Alfiyyah fī al-Naḥw wal-Taṣrīf al-Musmāh al-Khulāṣah fī al-Naḥw*, Sulymān al-‘Uyūnī (Privet publication).
- Ibn Mālik, *Sharḥ Taḥṣīl al-Fawā’id*, Abdulraḥman al-Sayyid & Muḥammad al-Makhtūn (Eds.) (Cairo: Dār Hajar, 1st Ed., 1990).
- Ibn Mālik, *Shawāhid al-Tawdīḥ wal-Taṣḥīḥ li-Mushkilāt al-Jāmi‘ al-Ṣaḥīḥ*, Ṭaha Muḥsin (Ed.) (Cairo: Maktabah Ibn Tymiyah, 1st Ed., 1985).
- Ibn Mālik, *‘Ikmāl al-‘I‘lām bi-Tathlīth al-Kalām*, Sa‘d al-Ghāmīdī (Ed.) (Makkah: Umm al-Qurā University, 1st Ed., 1984).
- Ibn Mujāhīd, *al-Sab‘ah fī al-Qirā’āt*, Shawqī Dyf (Ed.) (Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 2nd Ed., 1980).
- Ibrāhīm al-Jarmī, *Mu‘jam ‘Ulūm al-Qur‘ān* (Damascus: Dār al-Qalam, 1st Ed., 2011).
- Ismā‘īl al-Baghdādī, *‘Īdāḥ al-Maknūn fī al-Thyl ‘alā Kashf al-Zunūn*, Muḥammad Sharafuddīn & Rif‘at Bilkīh al-Kulysī (Eds.) (Beirut: Dār ‘Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, 1974).
- Jalāl Shawqī, “al-Muthllathāt al-Lughawiyyah: Mutūnuhā wa-Manzūmātuhā ḥattā Nihāyah al-Mi‘ah al-Sābi‘ah lil-Hijrah”, *Hawliyyah Kullīyah al-‘Insāniyyāt wal-‘Ulūm al-Ijtīmā’iyyah*, Qatar, No. (9), (1986).
- Kamāl Jabrī Abharī, *al-Zamakhsharī: Sīratuh, ‘Āthāruh, Mathhabuh al-Naḥwī* (Beirut: Dār al-Jinān, 1st Ed., 2014).

- Khyruddīn al-Ziriklī, *al-'A'lām* (Beirut: Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, 15th Ed., 2002).
- Muḥammad Abdul'azīm al-Zarqānī, *Manāhil al-'Irfān fī 'Ulūm al-Qur'ān*, Fawwāz Aḥmad Zamarlī (Ed.) (Beirut: Dār al-Kītab al-'Arabī, 1st Ed., 1995).
- Muḥammad al-Quḍāh, Aḥmad Shukrī & Muḥammad Mansūr, *Muqadimāh fī 'Ilm al-Qirā'āt* (Amman: Dār 'Ammār, 1st Ed., 2001).
- Muḥammad bin Shākir, *Fawāt al-Wafayāt*, Iḥsān Abbās (Ed.) (Beirut: Dār Ṣādir, 1st Ed., 1974).
- Muḥammad Rāghib al-Ṭabbākh, *'I'lām al-Nub'alā' bi-Tārīkh Ḥalab al-Shahbā'*, Muḥammad Kamāl (Ed.) (Aleppo: Dār al-Qalam al-'Arabī, 2nd Ed., 1988).
- Shawqī Ḍayf, *al-Madāris al-Naḥwiyyah* (Cairo: Dār al-Ma'ārif, 7th Ed.).
- Sibṭ bin al-'Ajamī, *Kunūz al-Thahab fī Tārīkh Ḥalab*, Shawqī Sha'th & Fālih al-Bakkūr (Eds.) (Aleppo: Dār al-Qalam, 1st Ed., 1996).
- Ṣiddīq al-Qinnawjī, *'Abjad al-'Ulūm* (Beirut: Dār Ibn Ḥazm, 1st Ed., 2002).
- Ṭāsh Kubrī Zādah, *Miftāḥ al-Sa'ādah wa-Misbāh al-Siyādah* (Beirut: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1st Ed., 1986).
- Yūsuf al-'Īsawī, *'Ilm 'I'rāb al-Qur'ān, Ta'ṣīl wa-Bayān* (Riyadh: Dār al-Ṣamī'ī, 1st Ed., 2007).



بنية التكرير في الخطاب النبوي خطبة الوداع أمودجاً

مصطفى قنبر*

ملخص

يرمي هذا البحث إلى دراسة بنية التكرير في الخطاب النبوي الشريف، من خلال أشهر حُطَبِ النبي ﷺ، خطبة الوداع؛ إذ عمدَ مُنشئ الخطاب إلى توظيف بنية التكرير شكلاً ومضموناً في هذه الخطبة، سعياً لتبليغ رسالته إلى مُتلقيها في كلِّ زمان ومكان، بما يحقق هدي الإقناع والتأثير، وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، متوسلاً بالمنهج الإحصائي الذي يتفق مع موضوعه، وتوصل البحث إلى أن توظيف بنية التكرير ساعد في إيصال الرسالة التي حملتها الخطبة الشريفة، وتبليغها بكلِّ وضوح، وأبان عن فهم مُنشئ الخطاب ﷺ العميق شخصية مُتلقي هذا الخطاب، فضلاً عن تعدد أنماط التكرير (تكرير المفرد، التركيب، المضمون).

الكلمات الرئيسية: الخطاب النبوي، خطبة الوداع، التكرير، المرسل، المستقبل، الدلالة

* دكتوراة في علوم اللغة (اللسانيات)، منسق اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم والتعليم العالي، دولة قطر، mqnbr@yahoo.com.



Repetition in Prophetic Discourse The Farewell Khutbah as a Sample

Mostafa Qnbr^{*}

Abstract

This research examines repetition in Prophet Muhammad's (peace be upon him) *Khutbahs* (sermons), focusing on the famous Farewell *Khutbah*. The Speaker (peace be upon him) deliberately employed repetition, both in form and content, in delivering his message effectively to an audience present across time and space, achieving both persuasion and influence. The Study adopts a descriptive-analytical approach, utilizing statistical methods consistent with the topic. This research concludes that employing repetition significantly contributed to delivering the message of the noble *Khutbah* with clarity and demonstrated the profound understanding of the audience by the Speaker (peace be upon him). Repetition at various levels has been identified (repetition at the level of the word, structure, and content).

Keywords: *Prophetic discourse, Farewell Khutbah, repetition, sender, receiver, denotation*

* Ph.D. in Language Sciences (Linguistics), Coordinator of Arabic Language, Ministry of Education and Higher Education, Qatar, mqnbr@yahoo.com.

مُقَدِّمَة

لخطبة الوداع مكانتها في الخطابة النبوية، فهي آخر خطب النبي ﷺ التي جمعت كثيراً من المبادئ العامة في جميع النواحي التي أسست وتؤسس لمجتمع فاضل ودولة عصرية، ولا شك في أنّ الخطاب النبوي الشريف في مرتبة الفصاحة العليا بعد الخطاب القرآني، ومن تجليات هذه الفصاحة توظيف بنيّة التكرير - بنوعها؛ في الشكل، وفي المضمون - التي عمداً إليها منشئ الخطاب الشريف بهدف الإقناع والتأثير، وهذا هدف أصيل في الجانب الرسالي الذي ابْتُعِثَ من أجله ﷺ، قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)) (المائدة: 67).

وتتماز عمليات التلقّي في الخطاب الشريف للنبي ﷺ من غيرها بالاستمرارية، ومن ثمّ كانت آنيّةً ومتجدّدةً؛ آنيّةً بحُكْمِ عمليات التلقّي الأولى؛ إذ متلقّي خطابه ﷺ هم جماعة المسلمين من الصحابة الذين شرفوا بالجلوس بين يديه الشريفتين استماعاً وإنصافاً في تلك اللحظات التاريخية الفارقة من عُمرِ دعوة الإسلام ودولته، أولئك الذين يمكن أن نُطلق عليهم صفة "المتلقّي الأول"، ومتجدّدةً بحُكْمِ أنّ عمليات التلقّي الشريف لا تنصرف إلى أولئك (رضوان الله عليهم) فقط، بل تشمل كذلك كلّ من بلّغته دعوة الإسلام، ولم يحظ بشرف الجلوس بين يدي صاحب الخطاب ﷺ، ولم يكن في الحجّ معه، وتتنوع دائرة التلقّي أكثر فأكثر لتنداح متخطيةً حدود الزمان والمكان، وتشمل كلّ مَنْ قَبِلَ الدخول في الإسلام، وكلّ مَنْ أَقْبَلَ على دراسة الإسلام ومأثورات نبيّه من الأحاديث والخطب، إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومنّ عليها.

الخطاب والإقناع

في وقوف الباحثين عند مصطلح "الخطاب"، جرت العادة أن تتمّ عملية سرد تاريخية مصحوبةً بالحقول التي انجرت إليها المصطلح، ثم علاقته بمصطلح آخر هو "النص"، أيعدّ الأخير مرادفاً الأول، أم إنّ لكل مصطلح حدوده واستقلاليتيه التي بها يمتاز من غيره؟ ولسنا في فسحة حتى نعرض لهذا كلبه، بل نكتفي بالخلاصة، وبما لا يخلُ ببنيّة هذا البحث.

يقول محمد العبد إنَّ تعريف النصِّ بالخطاب شيءٌ مألوفٌ عند كثير من الدارسين، وينقل عن روجر فاوُلر (Roger Fowler) قوله إنَّ كلَّ نصِّ خطابٍ، فِعْلٌ لُغَةٌ من لُدُنْ مؤلَّفٍ ضمّني، له تصميم محدّد لقارئٍ ضمّني محدّد الهوية، وعن جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) قولها إنَّ النصُّ الأدبي خطابٌ يخرق حاليًّا وجهَ العلم والأيدولوجيا والسياسة، وبعد أن يستعرض العبد آراء علماء آخرين، يصل إلى رؤية مفادها أن التمييز بين النص والخطاب من زاوية أن النصَّ في الأساس بنية، مقابل أن الخطاب في الأساس موقف؛ هو التمييز السائد في أدبيات نظرية النص وتحليل الخطاب.¹

أما الإقناع فيُعرَّف بأنه عملية اتصال تتضمَّن بعضَ المعلومات التي تؤدِّي بالمستقبل إلى إعادة تقييم إدراكه محيطه، أو إعادة النظر في حاجاته وطُرق التقائها، أو علاقاته الاجتماعية، أو معتقداته، أو اتجاهاته،² فهو محاولة واعية للتأثير في السلوك، وآلية رئيسة لتكوين الآراء والمواقف،³ ويخضع الإقناع من الناحية النفسية للقوانين التي تحكم عمليات الإدراك والمعرفة والدافعية، لذا يرى الخبراء أن الفرد يميل إلى الاقتناع بالإيحاءات التي يعتقدها أنها تصدر عن ذوي المكانة الاجتماعية البراقة،⁴ وكلُّ اتصال هدفه الإقناع بالمعنى العام، وذلك أنه يبحث عن تحصيل ردِّ فعلٍ على أفكار القائم بالاتصال.⁵

¹ انظر: محمد العبد، *النص والخطاب والاتصال* (القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 2014)، ص 10. ومن تعرض لهذه الإشكالية أيضًا صاحب هذا البحث، انظر: مصطفى أحمد قنبر، *الخطاب السياسي في الصحف الحزبية المصرية: دراسة معجمية دلالية* (رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2001)، ص 7 وما بعدها.

² انظر: عامر مصباح، *الإقناع الاجتماعي: خلفيته النظرية وآلياته العملية* (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2006)، ص 20.

³ انظر: محمد العبد، "النص الحجاجي العربي"، *مجلة فصول*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (60)، (2002)، ص 45؛ حاكم عمارة، *الخطاب الإقناعي في ضوء نظرية التواصل اللغوي: الحجاج بن يوسف الثقفي نموذجًا* (رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006-2007)، ص 109.

⁴ انظر: السابق نفسه.

⁵ انظر: العبد، *النص الحجاجي العربي*، ص 45.

ويرتبط مفهوم "الإقناع" بمفهوم "التأثير"، ويُرادفه، فكلاهما يشير إلى عملية تبدأ من المصدر لتصل إلى المستقبل، مع توفّر إرادة لذلك، أما التأثير فيشير إلى الحالة التي يكون عليها الفرد بعد التعرّض لعلمية الإقناع، واستقبال الرسائل وتفاعله معها، فهو النتيجة المُحقّقة بعملية التأثير، وبذا يكون التأثير مرادفًا للإقناع، في حين يكون التأثير مرادفًا للاقتناع.¹

عناصر الخطاب في النصّ الشريف

للخطاب عناصر أساس ثلاثة يتكوّن منها، ومنها يستمدّ وجوده ويصوغ ماهيته، ولا تفاضل في الأهمية بيّن هذه العناصر؛ إذ كلُّ واحد منها ذو أهمية في هذا الكيان، فيتوقّف وجوده على وجود الآخر، ومن ثم يصعب أن يستقلَّ أحدها أو أن يُستغنى عنه ضمنَ دائرة مكوّنات الخطاب، وهي نفسُها عناصر الرسالة الاتصالية الرئيسة التي تتكوّن من المرسل أو المتكلّم أو الباث، والمستقبل أو السامع أو المتلقّي، ثم الرسالة، وهي المضمون الخطابي.

أولاً: المرسل

المرسل أو الباث أو المتكلّم في الخطاب، هو صاحب الخطاب ومُتّجهه، ومن دونه لا ميلاد لخطاب ولا وجود له، وهو مَنْ حرّكته القصدية وحرّضته لإنتاج خطاب فردي أو مؤسسي، يعبر عنه أو عن المؤسسة التي ينتمي إليها،² وذلك بانتقاء مجموعة الألفاظ والتراكيب وفق مستويات اللغة التي تُناسب خطاب المتلقّين، وعلى قواعد تأليف الكلام، وإلا مُني المرسل بالفشل في إيصال ما يريد.

وهذا ما عناه الجاحظ حين قال نقلاً عن بشر بن المعتمر، ومبيّنًا العلاقة بين المتكلّم والمتلقّي التي يوجبها إنتاج خطاب ناجح: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بيّنهما، وبيّن أقدار المستمعين، وبيّن أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلامًا، ولكلّ حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".³

¹ انظر: مصباح، الإقناع الاجتماعي، ص 20.

² انظر: قنبر، الخطاب السياسي في الصحف الحزبية المصرية، ص 16.

³ الجاحظ، البيان والتبيين (بيروت: دار الهلال، 1423هـ)، ج 1: ص 131.

أما مُنتج هذا الخطاب فهو النبي الكريم محمد ﷺ الذي تعلّم الفصاحة العربية صغيراً في بادية بني سعد، ثم جاءه الوحي بالقرآن الذي أعجز أرباب الفصاحة والبيان؛ فكان كلامه ﷺ في أعلى درجات البيان بعد القرآن الكريم، وقد قال الجاحظ عن كلامه ﷺ في ميزان البيان العربي: "وهو الكلام الذي قلَّ عددُ حروفه، وكثُرَ عددُ معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلّف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ((وما أنا من المُتكلِّفين)) [ص: 86]، فكيف وقد عاب التشديد، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمّع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عددِ الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهلَ مخرجاً، ولا أفصحَ معنى، ولا أبينَ في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلّم كثيراً".¹

ويؤكّد ما ذهب إليه الجاحظ، العلامة ابن الأثير الجزري، عندما يشير إلى مراعاته ﷺ أحوال المخاطبين، وامتلاكه مخزوناً لغوياً هائلاً، فضلاً عن توفّر توظيف إستراتيجيات الإقناع في الحوار مع المتلقين، يقول ابن الأثير: "وقد عرفت - أيّدك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه - أنّ رسول الله ﷺ كان أفصح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعدّهم نطقاً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم لهجةً، وأقومهم حجةً، وأعرّفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييداً إلهياً، ولطفاً سماوياً، وعناية ربّانية، ورعاية روحانية، حتى لقد قال له عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وسمعه يخاطب وقد نبى تهدي: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تُكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال: «أدبني ربّي، فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد»، فكان ﷺ يُخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم

¹ المصدر السابق، ج: 2، ص 13-14.

وفصائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويُحادثهم بما يعملون، ولهذا قال - صدّق الله قوله -: «أمرتُ أن أخطبَ الناسَ على قدرِ عُقولهم»، فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أعلمه ما لم يكن يَعْلَمُه غيرُه من بني أبيه، وجمَع فيه من المعارف ما تفرَّق ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه، وكان أصحابه (رضي الله عنهم) ومن يَفدُّ عليه من العرب يعرفون أكثرَ ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه، فيُوضحه لهم¹.

وقد كانت لمعرفة ﷺ المتلقين، ومراعاته أحوالهم؛ أثرها في الإقناع والتغيير والتأثير، فمخاطبة العقول والقلوب فنٌّ لا يجيده إلا من يمتلك أدوات الإقناع مع توفُّر الظروف المناسبة لإحداث التأثير، ومهارات الاتصال والحوار المقنع للآخر تعدُّ وسائل تأثيرية بالغة في تغيير المفاهيم، ولا يتأتَّى ذلك إلا لمن أحاط بمعرفة أغوار النفس البشرية، وفهم مستوى تفكيرها وأسلوب أدائها الحقيقي، الذي ينعكس في سلوكها وتصرفاتها، فيمكن على أساس ذلك قياس طريقة التعامل معها ومعرفتها².

ثانياً: المستقبل

هو المرسل إليه أو المخاطب، وهو الذي صيغ الخطاب من أجله، فوجوده مؤثّر في عملية الاتصال، من أجله تحركت القصدية عند المرسل، ولمراعاة أحواله فاضل المتكلم بين كلام وكلام، وتعمد ألا ينطق بما اعتاده من لهجات خشية أن تعوق عملية الاتصال والفهم، أو أن ينعته متلقوه بالتعالي والتكبر³، وهذا المستقبل أو المتلقي يندر في الخطابات أن يكون فرداً؛ إذ اقترنت الخطابات - ولا سيما السياسية والاجتماعية - بوجود جماهير من المتلقين، قد

¹ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية، 1979)، ج: 1، ص: 4.

² حنان محمد مهدي العقدي، "لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي"، مجلة العميد، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، بغداد، عدد خاص، (2013)، ص: 242.

³ في بعض القرى في مصر - وبخاصة في الصعيد - يُنظر إلى بعض أبنائها من يتحدث اللهجة القاهرية إثر إقامته للدراسة أو العمل في القاهرة عند زيارته للقرية؛ على أنه نوعٌ من التعالي أو الكبر، مما يمثل حاجزاً نفسياً بينه وبين مخاطبيه، في حين يُبتع بالأصالة من كان لسانه وقياً للهجة قرينته، وإن تظاهر بذلك طيلة إقامته القصيرة في القرية.

تتقارب مستوياتهم الثقافية في الريف أو المجتمعات التقليدية، وقد تتباعد في الحواضر والمدن، أو في الإقليم والدولة.

وقد يتبادل الطرفان الوظيفة، فيصير المستقبل مرسلًا، والمرسل مستقبلًا، وبخاصة في الخطابات السياسية والاجتماعية، حين تتوالى الخطابات من الطرفين، وتتحمم هنا عدة عوامل في نجاح المرسل في جذب اهتمام متلقيه، أو إغراضهم عن كلامه، منها شخصية المتكلم ومكانته، ومضامين الخطاب الذي يُلقيه، ومدى إنصاته إلى خطاب متلقيه أو انشغاله عنه، وتعليقاته على كلام مخاطبيه، هل بادلهم النظرات نفسها التي توحى بالاهتمام، أو دون ما يرونه مهمًا في خطابهم إياه، وبخاصة إن كان الأمر يتعلق بمطالب جماعية أو شعبية؟

وقد وجد بعض الباحثين أن النظر إلى الجمهور في أثناء الكلام يؤثر في العملية الإقناعية أكثر مما لو أن الخطيب جال بنظره من دون تركيز، لأن النظر إلى الجمهور يزيد الثقة بالمتكلم، وكذلك يؤثر تقويم الجمهور للخطاب ومدى جودته، في الثقة الممنوحة للخطيب.¹ ويمكن القول إن المستقبل أو المتلقي لهذا النص النبوي الشريف - وكل النصوص القرآنية والنبوية - على نوعين؛ أولهما من حضر الخطبة الشريفة وحج مع النبي ﷺ، وشرف برؤيته خطيبًا، واستمع وأنصت، والثاني من لم يحج مع النبي ﷺ، وبلغته الخطبة الشريفة، سواء أكان يعيش في العهد النبوي الزاهر، أم جاء بعد هذا العهد حتى قيام الساعة.

ثالثًا: الرسالة

هي الرامزة السريّة التي يفك رموزها الطرف الآخر وهو المستقبل،² وهو الكلام الذي ضمنه المرسل المعاني والدلالات التي أرادها أن تصل إلى المتلقي، وقد راعى المتكلم الألفاظ والتراكيب التي لها تأثير أو وقع خاص في هذا المخاطب وفق نشئته الاجتماعية والثقافية، ووفق معاني الألفاظ والتراكيب عند جماهير المتلقين، فكم من الألفاظ تحمل معاني الاحترام والتقدير في

¹ انظر: علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع: دراسة مقارنة (بيروت: دار الصفوة، ط1، 1994)، ص116.

² انظر: عيسى عودة برهومة، "تمنلات اللغة في الخطاب السياسي"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 36(1)، (2007)، ص125.

أوساط اجتماعية، أو تعبّر عن مشاعر وجدانية، غير أن بعضها مرفوض في مجتمعات أخرى؛ إذ تُعدّ من الألفاظ المحظور التّفوه بها، لأنها تخدش الحياء، وفي حين تعبّر ألفاظ وتراكيب أُخرى عن الرفض، نجدّها عند متلقّين آخرين تعبّر عن القبول، وربما الإعجاب؟!

وهذا ما عُرفَ عندّ البلاغيين العرب بمراعاة المقام، فجاءت عبارتهم المشهورة: "لكلّ مقام مقال"، فحين قال البلاغيون: "لكلّ مقام مقال، ولكلّ كلمة مع صاحبها مقام"؛ وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم، تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كلّ الثقافات سواءً بسواءٍ، ولم يكن مالمينوفسكي (Malinowski) وهو يصوغ مصطلحه المشهور "سياق الحال" (Context Of Situation) يعلم أنه مسبق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو يزيد، إن من عرفوا هذا المفهوم سجّلوه في كُتُبهم تحت اصطلاح "المقام"، ولكن كُتُبهم لم تجد من الدعاية والانتشار على المستوى العلمي ما وجدّه اصطلاح مالمينوفسكي.¹

وتتميّز الرسالة التي حملتها هذه الخطبة الشريفة بأنها رسالة جامعة شاملة، عيّنت بالتركيز على مجموعة من المبادئ والأسس التي تقوم عليها الحياة في المجتمع الصالح في كلّ زمان ومكان، في شؤون العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والحدود، والمعاملات... إلخ، وقد راعي المرسل ﷺ في هذه الرسالة الوضوح، فلا لبس ولا غموض في ألفاظها أو تراكيبها؛ إثر توظيف ألفاظ وتراكيب غريبة عن معهود المعجم العام للمتلقّين، ومن ثمّ لم يُؤثر أن سأل صاحب الخطاب متلقّوه عن ماهية كذا، أو مقصده من كذا، في كلامه الشريف، وكذا من أتى بعد عصر هذه الخطبة، وهذا لعمري يعكس حرصه على جماعته المؤمنة ورحمته بهم، فهو من أنفسهم - بأبي هو وأمي - ﷺ: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)) [التوبة: 128].

وحريّ بنا - قبل أن نشرع في بيان وسائل الإقناع في هذه الخطبة النبوية - أن نقف على السياق الذي أحاط بولادة هذه الخطبة الشريفة، ومكانتها بين حُطَبِ النبي الكريم ﷺ، وهاكم أولاً نصّ الخطبة.

¹ انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومعناها (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979)، ص372.

خطبة الوداع

أولاً: نصُّ الخطبة

"أيُّها الناس، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري، لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيُّها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربَّكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنَّكم ستلقون ربَّكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغتُ، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها، وإنَّ كلَّ ربِّا موضوعٌ، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون، ولا تُظلمون، وقضى الله أنَّه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلُّه، وإن كلَّ دمٍ في الجاهلية موضوعٌ، وإن أولَ دماءكم أضغ دُم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مُستبضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، فهو أولُ ما أبداً به من دماء الجاهلية.

أمَّا بعدُ أيُّها الناس، فإنَّ الشيطان قد يئسَ (من) أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنَّه إن يُطعَ فيما سوى ذلك فقد رَضِيَ به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيُّها الناس، ((إنَّما النَّسيءُ زيادةٌ في الكُفْرِ يُضِلُّ به الَّذِينَ كَفَرُوا يُجِلُّونَهُ عَامًا وَيُجَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ))، ويُجَرِّمُوا ما أحلَّ الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خَلَقَ الله السماوات والأرض، وإن عِدَّةَ الشهور عندَ الله اثنا عشرَ شهراً؛ منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليَّة، ورجبٌ مُضَرُّ الذي بينَ جمادى وشعبان.

أمَّا بعدُ أيُّها الناس، فإنَّ لكم على نساءكم حقًّا، ولهنَّ عليكم حقًّا، لكم عليهنَّ ألاَّ يُوطئنَ فُرُشكم أحدًا تكرهونه، وعليهنَّ ألاَّ يأتينَ بفاحشةٍ مبينةٍ، فإنَّ فَعَلَنَ فَإِنَّ الله قد أذَنَ لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع، وتضربوهنَّ ضرباً غيرَ مُبرحٍ، فإن انتهينَ فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنَّهنَّ عندكم عوانٌ، لا يملكنَ لأنفسهنَّ شيئاً، وإنَّكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحلَّتم فُرُوجهنَّ بكلمات الله، فاعقلُوا - أيُّها الناس - قولي، فإنِّي قد بلغتُ، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلُّوا أبداً؛ أمراً بيناً، كتابَ الله، وسنةَ نبيِّه.

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ، تَعَلَّمَنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَحَقُّ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِيٍّ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَلَى طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظَلْمَنَّ أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟

فَذَكَرَ لِي أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.¹

ثانيًا: السياق الحيط بولادة النص

تُعرف هذه الخطبة بخطبة الوداع، ألقاها النبي ﷺ في جَمْعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ حَجَّ مَعَهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْمُهْجَرَةِ، وَعُرِفَتْ هَذِهِ الْحُجَّةُ بِحُجَّةِ الْبَلَاغِ، وَحُجَّةِ الْإِسْلَامِ، وَحُجَّةِ الْوَدَاعِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا، وَلَمْ يَحْجَّ بَعْدَهَا.²

وَقَدْ حَمَلَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ فِي أَوَّلِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا آخِرُ خُطْبَتِهِ ﷺ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَأَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ، وَفُتِحَتْ مَكَّةُ، وَأَعْلَنْتْ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبَائِلِ دُخُولَهَا فِي الْإِسْلَامِ، فَقَدْ "كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ قَارِبُ النِّهَايَةِ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي أَنْشَأَهَا قَدْ تَشَبَّهَتْ بِظَهْرِ الْأَرْضِ، وَفَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى التَّارِيخِ، وَانْتَقَلَ الْأَذَانُ مَعَ الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ، وَتَوَزَّعَتْ جَمَاعَاتُ الصَّلَاةِ عَلَى أَطْرَافِ الزَّمَانِ، فَهِيَ تَلْتَقِي عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ... مَاذَا بَقِيَ لَهَا؟ لَا يَرِيدُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، صَحِيحٌ أَنَّهُ مُرْسَلٌ لِلْعَالَمِينَ، لِيَكُنْ، فَهَوْلَاءُ الَّذِينَ رَبَّاهُمْ سَيَمْدُونَ النُّورَ إِلَى مَا بَقِيَ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ، إِنَّ الْجِيلَ الَّذِي رَبَّاهُ جَزْءٌ مِنَ الرَّسَالَةِ الَّتِي أَدَّاهَا... مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ يَحْدِثُ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ يُوَدِّعُ، وَفِي تَضَاعِيفِ حَدِيثِهِ كَانَ يَفْرَغُ كُلَّ مَا فِي فَوْادِهِ مِنْ نَصْحٍ وَحُبِّ وَإِخْلَاصٍ، وَالْعَرَبُ قَبْلَ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَجْدَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَعُوهَا هَذِهِ الْوَصَايَا"³، لِذَا حَمَلَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ كَثِيرًا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُهْمَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ طَبِيعَةَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ وَعِلَاقَاتِهِ الْدَاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ.

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد (طنطا: دار الصحابة للتراث، ط1، 1995)، ج4: ص297-298.

² انظر: علي محمد الصلابي، السيرة النبوية (دمشق: دار ابن كثير، 2009)، ج2: ص535.

³ محمد الغزالي، "وقفة مع خطبة حجة الوداع"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، (1)، ص88.

التكرير: أنواعه ودوره في النص

التكرير أو التكرار وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية؛ إذ يقولون إن الشيء إذا تكرر تقرر، والتكرار تعرفه الرامزتان المنطوقة والمكتوبة كلتاهما، وإن كان تأثيره في بنية الرامزة المنطوقة التلقائية أقوى،¹ وهو وسيلة مهمة من الوسائل السحرية التي تعتمد تأثير اللفظ المكرر في إحداث نتيجة إيجابية في العمل الفني المميز.²

وللتكرار وظائف خطابية عدة عُبر عنها بالإفهام، والإفصاح، والكشف، وتوليد الكلام، والتشديد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته.³

فالتكرار ليس ألفاظاً موضوعة في الخطاب أكثر من مرة فحسب، وليس هو ذلك التكرار المولد للرتابة والملل، أو التكرار المولد للخلل والهلهلة في البناء، بل هو التكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة بوصفه أحد آليات إنتاج الكلام، وهو أيضاً التكرار الذي يضمن انسجام النص وتوألده وتناميته.⁴

واللفظ المكرر مصدر الثورة، وهدفه الإثارة حُبّاً أو بُغْضاً في أيّ عَرَضٍ من أغراض الكلام، وكذا التكرار مرتبط بقانون التردد من قوانين تداعي المعاني، لذا يعدّ وسيلة تربوية من وسائل التقرير، ويرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد المعنى المكرر تميّزاً من غيره.⁵

ويعدّ التكرار في القصيدة الشعرية من مكوناتها الجمالية، فالشاعر يُبرز شعرية التكرار، ابتداءً من تكرار الحرف، وانتهاءً بالتكرار الزومى في التركيب، ولعلّ ما يثير الحراك الجمالي في الشعر تناعم التكرار مع الحدث والموقف الشعري، لذا يأتي التكرار بوصفه المتعبّر

¹ انظر: العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 248.

² انظر: عبد الفتاح يوسف، "فاعلية التكرار في بنية الخطاب الشعري للنقائض"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد (62)، (2003).

³ المرجع السابق، ص 178-179.

⁴ انظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج (بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010)، ص 49؛ دليّة قسيمة، إستراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي (رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012)، ص 167-168.

⁵ انظر: عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير (بيروت: عالم الكتب، ط2، 1986)، ص 136.

الجمالي للرؤية والمشهد، فليس التكرار وسيلةً سلبيةً في القصيدة، بل هو الرابط للجمل الشعرية والأنساق التشكيلية المحكّمة، فكم من الأنساق الشعرية لا يحركها إلا التكرار، ولا يثير فنيّتها إلا المتكرّر الذي يصوغ رؤية، ويُنبتج رؤية جديدة مع كل حالة يتكرّر فيها الحرف أو الكلمة أو الجملة أو المقطع؟ إن غنى التكرار ليس بالمتغيّر التكراري الذي يُظهره في النسق فحسب، بل بمقدار تفاعل المتكرّر مع نسق القصيدة في دلالاتها ورؤيتها وبوّحها الذاتي.¹

وفي عشرات الخطابات يعمد المتكلمون إلى تكرار ألفاظ وتراكيب يهدفون بها إلى إيصال مفاهيمها الدلالية إلى المتلقين، كإبراز أهميتها، أو التمسك بها، أو التباهي بها، أو التحذير منها، أو غير ذلك من الدلالات التي تُستشف من النص، وتعكس الاتجاه الفكري للمتكلّم، سواء أكان فردياً، أم مؤسسياً، أم تعبيراً عن السياسة العامة لتلك المرحلة، ولولا أن اللفظ المتكرّر وما يكتنفه من دلالات لا يثير اهتماماً عند المتكلم؛ ما لجأ إلى تكراره، وما ألحّ على أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه ووجدانهم، أو من هم في حُكم المخاطبين، ممن يصلّ إليهم القول على بُعد الزمان والديار.²

وقد أشار دي بوجراند (R. Debeaugrande) إلى أن التكرار (إعادة اللفظ) يتطلّب وحدة الإحالة وفق مبدأي الثبات والاقتصاد، ولكنه قد يؤدي إلى تضارب في النصّ، حين يتكرّر المشترك اللفظي مع اختلاف المدلولات، ويمكن للمخالفة المتعمّدة لمبدأي الثبات والاقتصاد أن تزيد في الإعلامية والاهتمام.³

ويهدف التكرار أيضاً إلى تدعيم التماسك النصي، ويُوظّف من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكوّنة للنص، ويشترط صلاح فضل شرطاً أساساً حتى يقوم التكرار بهذه الوظيفة، وهو أن تكون لهذا الملمح المكرّر نسبةٌ ورود عالية في النص يتميّر بها من

¹ انظر: عصام شرّح، "دراسة نصية جمالية في قصيدة (مدح من أهوى) لـ محمد عمران"، ديوان العرب، نُشر في 17 أبريل 2017، الاطلاع في 19 يوليو 2024.

² انظر: السابق نفسه.

³ انظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1998)، ص303-304.

نظائره، وأن يساعدنا رصده على فكِّ ترميز النص، وإدراك كيفية أدائه دلالاته، فالتكرار زيادة عن تأديته وظائف دلالية معينة، يؤدي إلى تحقيق التماسك النصي، وذلك عن طريق امتداد عنصر معين من بداية النص حتى آخره، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص، مع مساعدة عوامل التماسك الأخرى.¹

وليس التكرار في مرتبة واحدة، بل هو سُلَّم مكوّن من أربع درجات، يأتي أعلاها إعادة العنصر المعجمي نفسه، يليه الترادف أو شبه الترادف، ثم الاسم الشامل، وفي أدنى درجات هذا السُلَّم تأتي الألفاظ العامة،² وقد صنّف محمد العبد التكرير في صنفين رئيسين؛ تكرير الشكل، وتكرير المضمون، ويشتمل التكرير الشكلي على ثلاثة أنواع:

- تكرير المكرر بذاته، سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك، في منطوق واحد أو غير ذلك.

- التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة.

- التكرير بإعادة الصياغة.

أما تكرير المضمون فيبنى على مكوّنات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزئ من المعنى، وقد أمكن تصنيفه في الأنواع الآتية:

- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر في جملة واحدة أو منطوق واحد.

- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليين.

- تكرير مفردتين في ثنائية.

- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين.³

¹ انظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (القاهرة: دار قباء، 2000)، ج2: ص22؛ صلاح فضل، "ظواهر أسلوبية في شعر شوقي"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1(4)، (1984)، ص210.

² انظر: حدة رواجية، "آليات التماسك النصي في قصيدة المآب لإبراهيم ناجي"، مجلة حوليات جامعة قلمة للغات والآداب، جامعة قلمة، الجزائر، العدد (12)، (2015)، ص156.

³ انظر: العبد، النص والخطاب والاتصال، ص183-187.

تجليات التكرير في الخطبة الشريفة

مثّلت ظاهرة التكرار سمّةً لغويّةً أسلوبيةً في الخطبة الشريفة لا تخطئها عينُ الدارس، وقد لجأ صاحب الخطبة ﷺ إلى هذه البنية لإبراز دور هذه الألفاظ المكرّرة بما تحمله من دلالات، وإلحاحًا منه على إيصال ذلك إلى متلقّيه، "ومحاولة منه لإبقائها في بؤرة التعبير ظاهرةً للقارئ"¹، فقد كرّر صاحب الخطبة ﷺ اللفظ والتركيب، وجاءت مرات التكرار - وفق نصّ ابن هشام الذي اعتمده هذا البحث - على النحو المبين في الجدولين الآتيين:

اللفظ	مرّات تكراره
الله	10
إنَّ	10
لا	7
دم	5
قد	5
إنَّ	5
أَنَّ	5
هذا	4
أَنَّ	3
أخ	3
لكم	3
ريكم	2
مسلم	2
قولي	2
عليهن	2
أبدًا	2
الجاهلية	2
شهرًا	2
عام	2

جدول (1): عدد مرات تكرار الألفاظ في خطبة الوداع

¹ رواجحة، آليات التماسك النصي، ص 157.

مَرَّات تَكَرَّارِهِ	التَّرَكِيب
7	أَيُّهَا النَّاسُ
2	وَقَدْ بَلَغْتُ
2	اسْمَعُوا قَوْلِي
2	أَمَّا بَعْدُ

جدول (2): عدد مرات تكرار التراكيب في خطبة الوداع

جاء لفظُ الجلالة (الله) في المرتبة الأولى في الألفاظ المكررة؛ إذ بلغَ (10) مرَّات، وليتَّه أداة التوكيد (إنَّ)، وكان أقلها ورودًا الألفاظ الثمانية التي حُتم بها الجدول، أما التراكيب فقد جاء في المرتبة الأولى أسلوب النداء (أَيُّهَا النَّاسُ) الذي تَكَرَّرَ (7) مرَّات، ثم تساوت سائر التراكيب في مرَّات تكرارها؛ إذ جاء كلُّ تركيب مرَّتين في الخطبة الشريفة.

ولن يستطيع هذا البحث الوقوف عند كلِّ لفظٍ وتركيبٍ تَكَرَّرَ، وبيان دوره الدلالي، وما أحدثه من تماسك نصيٍّ في هذا الخطاب، ولكننا نتخيَّر بعضَ هذه المواضع، طالبين العون من الله سبحانه في تجليتها.

1. تكرير لفظِ الجلالة (الله) في عدة سياقات بوظائف نحوية مختلفة؛ فاعلاً للأفعال (قضى، حرَّم، أحلَّ، خلق)، ومضافاً إليه بعدَ الظرف (عندَ)، وبعدَ الأسماء (أمانة، كلمات، كتاب)، ثم جاء اسمًا لحرف التوكيد (إنَّ).

أما عن التكرار بعد الأفعال (قضى، حرَّم، أحلَّ، خلق)، فلفظُ الجلالة فاعلُها يُنظر إليه من خلال السياق اللغوي الذي وَقَعَ فيه؛ إذ توسَّطَ الجملة بعدَ الفعل الذي قبله والمفعول الذي بعده، ليتجلَّى دورُ التماسك الذي أحدثته في نسيج النص، وذلك أن الوقوف عندَ إسناد هذه الأفعال إلى الله سبحانه، ثم ما وَقَعَ عليها، يُكسبها درجة عليا في سلَّم التوكيد، ومن ثمَّ لا مجال للتردُّد في قبولها أو التفاؤض فيما تتضمنه من أحكام؛ إذ هي تتعلَّق بتشريع السياسات التي تحكم أنشطة الدولة الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية... إلخ، فالحكم نهائيٌّ باتُّ على وجوبها وفرضيتها وثباتها وقدسيتها مصدرها، والسمع والطاعة لمنزَّل أحكامها، والوعيد الشديد لمن يتجرَّأ على مخالفتها في الدنيا والآخرة.

ولا يختلف الأمر كثيراً عند مجيء لفظ الجلالة بعد الأسماء المضافة (أمانة، كلمات، كتاب)؛ إذ اكتسبت هذه الأسماء إثر إضافتها إليه مكانة عظيمة، وبخاصة عند ورودها في سياق التشريع الأسري الخاص بالزواج، ثم بمصدر التشريع الذي يحكم نظام الحياة، ولا يتعد عن هذا الدور تقدّم الظرف (عند)، وحرف التوكيد (إن).

2. تكرير التركيب (أيها الناس)، وهو أسلوب نداء محذوف الأداة، يلجأ إليه في البيان العربي لدلالة على القرب المكاني أو العاطفي، أو كليهما معاً، ويتصدّر عادة الخطابات للتنبيه على ما سيأتي بعده من كلام له أهميته في نظر المتكلم، ومن ثمّ يريد إشعار متلقيه بهذه الأهمية، وكذا يلجأ إليه المتكلم عند الانتقال من موضوع إلى آخر في خطابه، وربما لجذب انتباه المتلقيين إذا شعر المتكلم بنوع من فقد الاهتمام، أو أن الفتور خيم على جمهوره، وقد يُعالج ذلك بعض المتحدثين باستطراد فكاهي، أو نادرة بيتغي بها تنشيط انتباه السامعين وإعادة تجميعهم حوله.

ولا شك في أن الغرض الأخير نربأ أن يُنزله أيُّ باحث على مجلس الخطاب النبوي، فما قال صاحبه قولاً إلا والقلوب قبل الأسماع أسيرة له ﷺ، أما تنبيه المخاطبين في عدة مواضع فهو لإشعارهم بأهمية ما سيعقب هذا النداء من توجيهات وأحكام، وتأكيد على ثوابت هذا الدين، وبخاصة عندما نبه المتكلم ﷺ في مستهل حديثه أنّ لقاءه الخطابي هذا قد يكون اللقاء الأخير - بأبي هو وأمي ﷺ - حين قال: «فإني لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً»، ومن ثمّ كان حرصه ﷺ على استجلاب كلّ العناصر اللغوية التي تستجمع القلوب والأسماع، وكلما انتهى من أحد الموضوعات، وأراد الدخول في موضوع آخر؛ تكرر هذا العنصر التركيبي، لتجدد جماهير المخاطبين استجماع قواها في الدائرة الاتصالية، وتجدد نشاطها الاستقبالي لتلقّي جديد يمسّ جوهر حياتهم وأحزاهم بما يضمن لهم العيش الرغيد، إلى جانب تأكيد حرصه ﷺ على أنه قد أدّى دوره في الإبلاغ، واستيعاب الرسالة، وقد تأكّد له ﷺ - بعد كلّ هذه التنبيهات وتكرار عناصر الجذب - أنهم سمعوا وعقلوا، وذلك بسؤالهم: «اللهم هل بلغت؟»، وإجاباتهم كما ذكر الراوي: «قالوا: اللهم نعم»، بل أقام الحجة عليهم بقوله: «اللهم شهد».

ولا شك في أن تكراره ﷺ الجملة الفعلية المؤكدة (قد بلغت) له وجاهاته الدلالية؛ إذ ترمي إلى هدفين؛ أحدهما موجّه إلى المتكلم، والثاني موجّه إلى المخاطب، أما الدلالة التي تستهدف المتكلم فهي تبرئة ساحته ﷺ من القصور والتهاون والتقصير في الإبلاغ، وأنه أدّى الأمانة ونصح الأمة، وأما الدلالة التي تستهدف المخاطب فهي التعريض بانتقال التبعة إلى أهلها، وتحملهم حقوقها، وإثبات الحجة عليهم مع الإشعار بعظم جانبها.¹

3. تكرر الحرف (إنّ) الذي تصدّر الجملة الاسمية لغرض التوكيد، ويهدف إلى التشديد على أهمية ما سيأتي بعده، والإشارة إلى خطورته، وقد بلغت مرّات تكراره عشرًا، ولا يكاد موضوع من موضوعات الخطبة يخلو من هذا الحرف، بداية من تأكيده ﷺ أهمية الإنصات لما يقوله، إلى تأكيده حرمة الدماء، ولقاء الله سبحانه والحساب، وحرمة الربا، وموضوع النسبي، حتى حقوق النساء... إلخ، وكلها موضوعات لها من الأهمية والخطورة ما يستوجب أن يتصدّرها التوكيد بالأداة (إنّ) التي دخلت على الجمل الاسمية لتؤكد وتشدّد على ثبات المعاني والدلالات التي تحملها هذه الجمل.

ولم تكن هذه الأداة بتكرارها مُشعرة المتلقّي بالسأم أو الضيق، ولكنها أوصلت إليه ضرورة التنبّه إلى خطورة القضايا التي عبّرت عنها، وإقناعه بها، ثم التأثير فيه بضرورة التقيد بما دعت إليه من حرمة الدماء، والربا، والخشية من حساب الله سبحانه ولقائه، ولا تخرج الدلالات التي تحملها الجمل التي تصدّرتها (أنّ) المفتوحة عن الدلالات السابقة.

4. تكرر حرف النفي (لا) الذي حلّ متصدّرًا الجمل الفعلية في ثلاثة من الموضوعات التي تناولتها الخطبة؛ عند الحديث عن موضوع الربا، وعند مناقشة موضوع حقوق النساء، وحرمة التعدي على الأموال، فضلاً عن تصدّره مقدّمة الخطبة التي أراد من خلالها المتكلم ﷺ نفي علمه باستطاعة لقاء مخاطبيه مرة أخرى، «فإني لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»، وقد أراد ﷺ من وراء هذا النفي أن يشحذ الأذهان حولّه لتعي ما يقول، ولإيصال أهمية ما سيقوله بالنسبة إلى مخاطبيه، ومن وراء هذا النفي نلحظ التأكيد على بشريته ﷺ.

¹ انظر: أميمة بدر الدين، "التكرار في الحديث النبوي الشريف"، مجلة جامعة دمشق، 26(2/1)، (2010)، ص84؛ علي يوسف حسين البعقوبي، "حاضنات النص في خطبة الوداع"، مجلة المدينة العالمية (مجمع)، العدد (5)، (2016)، ص444.

وكذا تصدّر الحرف مجموعة من الجملة التي تؤكد واجبات النساء على أزواجهنّ؛ «عليهنّ ألاّ يُوطئنَ فُرُشَكُم أحدًا تکرهونه، وعليهنّ ألاّ يأتينَ بفاحشةٍ مبينةٍ»، وبيان ضعفهنّ أمام أزواجهنّ؛ «فإنهنّ عندكم عوانٌ، لا يملكنَ لأنفسهنّ شيئًا».

ولأهمية ما يحمله حرفُ النفي (لا) من دلالاتٍ جيء به متصدّرًا الجمل الفعلية، فقد حُظّ أن الحرف (لا) يفيد دخوله على الفعل المضارع النفي في المستقبل، يُفهم هذا من كلام سيبويه؛ إذ يقول: "وإذا قال: هو يفعل، ولم يكن الفعل واقعًا، فنفيّه: لا يفعل، وإذا قال: ليفعلنّ، فنفيّه: لا يفعل، وإذا قال: فعل، فإنّ نفيّه: لم يفعل، وإذا قال: قد فعل، فإنّ نفيّه: لمّا يفعل، وإذا قال: لقد فعل، فإنّ نفيّه: ما فعل، لأنه كأنّه قال: والله لقد فعل، فقال: والله ما فعل، وإذا قال: هو يفعل، أي هو في حال فعل، فإنّ نفيّه: ما يفعل، وإذا قال: هو يفعل، ولم يكن الفعل واقعًا، فنفيّه: لا يفعل، وإذا قال: ليفعلنّ، فنفيّه: لا يفعل، كأنه قال: والله ليفعلنّ، فقلت: والله لا يفعل، وإذا قال: سوف يفعل، فإنّ نفيّه: لن يفعل".¹

ومن النحاة من يرى أن ذلك غيرُ لازم، يقول المرادي: "دَهَبَ الأُخْفَش والمبرّد، وتبعهُما ابن مالك، إلى أن ذلك غيرُ لازم، بل قد يكون المنفي بما للحال"،² وعلى هذا فالنفي ب(لا) صالح للحال والاستقبال معًا، مع الدلالة على التوكيد، إلا إذا وردَ في الجملة ما يفيد تقييد الزمن أو يوجهه.³

إذن، النفي الصالح للحال والاستقبال يُفهم من توظيف هذا الحرف (لا) عند عرضِهِ ﷺ حقوقَ النساء، وحرمة التعدي على الأموال، «فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه على طيبِ نفسٍ منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم»، أما توظيفها لنفي علمِهِ ﷺ باستطاعة لقاء مخاطبيه مرة أخرى، «فإني لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا»، فهذا النفي صالح للحال، وقد جاء توسُّط العنصر (لعلّي) بينَ الجملتين، ليفيد نفيّ الجزم بعلمٍ بما سيقع في المستقبل، فقد يتنزّل عليه الوحي ليكشف له عند ذلك.

¹ سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1988)، ج:3، ص:117.

² المرادي، الجني الداني، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992)، ص:296.

³ انظر: سعيد مجري، ظواهر تركيبية (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2006)، ص:145.

وهكذا لم يكن حرف النفي (لا) عنصراً قَلْباً أو مضطرباً في مكانه من التراكيب التي حلَّ فيها، بل جاء مُحدِّثاً نوعاً من التماسك، منسجماً تركيبياً ودلالياً في إطار البنيتين الصغرى والكبرى للنص الشريف.

5. من أنواع التكرار المعجمي ما جاء في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة؛ أحدهما اسم، والآخر فعل:

- «فمن كانت عنده أمانة، فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها».
- «وإنَّ كلَّ دمٍ في الجاهلية موضوعٌ، وإنَّ أوَّلَ دمائكم أضغدمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب».
- «وتضربوهنَّ ضرباً غيرَ مبرحٍ».

ولا شكَّ في أن أبرز ما تفيده البنية التكريرية هنا التأكيد على إبقاء المعاني التي تحملها الألفاظ المكررة في بؤرة اهتمام المتلقي، فالأمانة يجب أن يؤدِّها المسلم إلى من ائتمنه عليها، مهما كان هذا الشخص مسلماً أو غيرَ مسلم، وهو ما عبَّر عنه العنصر (مَنْ)، فمصير هذه الأمانة إمَّا الأداء، وهو ما نصَّ عليه التركيب، وإما التراجع عن الأداء، بإنكارها وخيانتها، وهذا ما حدَّر منه مضمون التركيب.

ونظراً إلى تأكيد ما أحدثته الدين الحنيف من زلزلة لقيم الجاهلية التي ترسَّخت في المجتمع العربي، وبخاصة في موضوع الدماء؛ يقرر المتكلم ﷺ أنَّ كلَّ دمٍ في الجاهلية موضوع، ويأخذ هذا التشريع النظري طريقه إلى التطبيق عندما يأتي الفعل (أضع)، ليغلق هذا الباب نهائياً من غير عودة.

وتأكيداً لمراعاة حقوق النساء، وكيفية التعامل الأسري من الزوج تجاه زوجته، جاء العنصران المتعاقبان: «وتضربوهنَّ ضرباً غيرَ مبرحٍ»، ليؤكد أنَّ الأمر منضبط بعيد من التجاوز، ولا يقع إطلاقاً تحت طائلة الانفعالات أو التهور من الزوج، محافظةً على اللحمة الأسرية من التفكك أو الانهيار، وإبقاءً على جوِّ السكينة، وروح المودة والرحمة، وهو ما أبرزه الوصف (غير مبرح) الذي أعقب المصدر.

6. ومن أنواع التكرير ما يُسمى "تكرير المضمون"، وينبغي على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى، وتلك آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملاً؛ إذ تُقصر المفردة الواحدة في السياق عن أداء هذه الوظيفة، فالترادف لا يبلغ - مهما بدا قريباً - أن يكون ترادفًا كاملاً.¹

وتكاد تخلو موضوعات الخطبة من المكونات المترادفة، فلم ترد إلا لفظتا (فرشكم، المضاجع)؛ لتعبّر الأولى عن فردة مكان محدد في بيت الزوجية، له من المكانة ما يجعله محمياً بسياج لا يُنتهك من الزوجة، وعبرت الثانية التي ترادفها عن عقوبة تأديبية تكون الكلمة محلاً لتنفيذه.

ولكننا مع ذلك لا نفتقد مكونات أخرى تشترك فيما بينها في جزء من المعنى، منها (يوم، شهر، عام، الزمان)، و(يعبد، يُطع)، و(اسمعوا، اعقلوا)، و(مسلم، امرؤ، الناس)، ويمكن القول إن هذه المجموعات الثلاث تنتظم كل واحدة منها ضمن حقل دلالي:

- عن الوقت (يوم، شهر، عام، الزمان).

- عن ردة الفعل (يعبد، يُطع، اسمعوا، اعقلوا).

- نوعية المتلقي (مسلم، امرؤ، الناس).

7. ومن درجات التكرار ما يسمّى "الكلمة الشاملة"، وهي كلمة يندرج تحتها عددٌ من الكلمات المتكافئة، فكلمة (الْفَن) مثلاً تقع تحتها كلمات متكافئة، كالموسيقا والشعر والنحت والغناء، وكذلك كلمة (الإنسان)، فإنه يندرج تحتها كلٌّ من الرجل والمرأة والولد والبنات... إلخ، وهكذا،² ويُسمّى هذا اللفظ أيضاً "اللفظ الأعم" (Hyperonymy)، و"الكلمة الرئيسة" (Head-word)، و"الكلمة الغطاء" (Cover word).³

وقد حفل النص الشريف بعددٍ من الكلمات الشاملة التي كان لتوظيفها مرامٍ لا تخطئها عينُ القارئ المتلقي (الناس، أموال، أعمال، أمانة، الزمان، رزق، خير، شيء).

¹ انظر: العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 187.

² انظر: رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1990)، ص 484.

³ انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، ط5، 1998)، ص 99.

فكلمة (الناس) التي وظّفها المتكلم في أسلوب النداء، تحمل أبعادًا إنسانية وعالمية أعمق وأدقّ مما لو استعمل كلمة (المسلمين) أو (المؤمنين)، ذات النطاق الضيق والمحصور بهذه الطائفة، لتتخطّى حدود المكان، وتعمّ أرجاء البسيطة جمعاء، وتتخطّى بهذا العمق أيضًا حدود الزمان الذي أُلقيت فيه الخطبة، لتمتدّ نحو المستقبل، إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها،¹ وترسخ في الأذهان فكرةً جوهريةً عن هذا الدّين، وهو أنه دِينٌ عالمي ليس محدودًا بزمان أو مكان، وكلّ ما أتى به من توجيهات ليست محصورة في إطار زماني أو مكاني محدّد؛ إذ الناس - مطلق الناس - هم المقصودون في عنصر التلقي في هذه الرسالة. ولا يخفى على المتلقّي ما يحيط بكلمات من مثل (أعمال، أموال، الزمان، رزق... إلخ) من معاني العموم والشمول، وما يندرج تحتها من أنواع ليست في حاجة إلى الذكر أو الشرح؛ إذ لكل منها أحكام محدّدة في العبادات والمعاملات، نصّ عليها الكتاب العزيز، وفصّلتها السنّة المطهرة، والمقام الذي أحاط بالخطبة الشريفة لا يستوعب أكثر من هذا المقال. وقريب من تلكم الكلمات ما يُسمّى "الكلمات العامة" أو "ألفاظ العموم المجرّدة"، وهي تلك الكلمات التي اتّسم فضاؤها الدلالي بالعموم والشمول، مما يجعل في المعنى شيئًا من السعة والاندياح، ولعلّ هذا النوع يتداخل مع النوع السابق، فألفاظ (أمانة، الزمان، خير، شيء) تندرج تحت هذا النوع، ولكن يمكن القول إنه ليست كل كلمة شاملة كلمة عامة أو مجرّدة، وبشيء من التّسّمح يمكن عدّ بعض الكلمات العامة أو المجرّدة كلمات شاملة؛ إذ منها ما يتسم بالشمولية، وتندرج تحتها بعض الكلمات المتكافئة.

8. ومن أشكال التكرار ما يطلق عليه "التكرار الهندسي"، وهو تكرار قائم على الشكل الخارجي للنص، وبخاصة في الشعر؛ إذ يقوم الشاعر بتكرار كلمة أو عبارة تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة، ويهدف من ورائها إلى أن يوجّه القصيدة في اتجاه معين، أو لتأكيد موقف محدّد.²

¹ انظر: اليعقوبي، حاضنات النص في خطبة الوداع، ص 444.

² انظر: رواجية، آليات التماسك النصي، ص 160.

ويؤدّي هذا النوع من التكرار إلى "رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية، تُغني الشاعر عن الإفصاح المباشر، وتصل القارئ بمدى كثافة الذروة العاطفية عنده، ويغلب أن تكون العبارة المكرّرة مقتطعة من كلام سمّعه الشاعر، ووجد فيه تعليقاً مريباً على حالة حاضرة تؤلمه، أو إشارة إلى حادث مثير يصحّي حزناً قديماً، أو سخرية موجعة، ويصحب هذا التكرار أحياناً البتر للألفاظ المكرّرة، تعبيراً عن كثافة الدفقة الوجدانية، وثقل وقّعها على اللفظ"،¹ وليست هذه الدلالات بعيدة من النصوص الثرية، ولا سيما القرآن والحديث، ولنقف قليلاً أمام هذه التراكيب الهندسية في نصّ البحث:

- «ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون، ولا تظلمون».

- «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا».

- «فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ».

فالمتكلم يريد أن يعبر عن طهارة المعاملات إثرّ تحريم الربا تحريماً قطعياً، بما ينتزع من قلوب المشاركين في النشاط الاقتصادي في المجتمع أيّ أمراض اجتماعية، فيسلم الطرفان من الضرر والإضرار، وقد جاءت الجملتان الفعليتان المسبوقتان بـ(لا) النافية، وفعلُهُما ذو الجذر الواحد (ظلم)، وذو الزمن الواحد المعبر عن الاستمرار والتجدد واستحضار صورته في الذهن، والفاعل ونائبه ذوا النوع الواحد، وكما نجد المساواة - وهي السمة الشكلية - أحد وجهي هذا التكرار، نجد الوجه الثاني كان للمعاني التي اختزلتها هذه البنية التكريرية؛ إذ يسلم الطرفان؛ الفاعل، والمفعول.

وينطبق القول نفسه على البنية التكريرية الثانية المعبرّة عن تحكّم الأهواء في مدى السفه الذي حلّ بطائفة ممن كفّر ليتلاعبوا بعدة الشهور، وليست البنية التكريرية الثالثة إلا مثلاً آخر على ضلال هؤلاء واستخفافهم بالتشريع الإلهي، وقد أدّت بنية المقابلة في هذه البنية دورها في إبراز المعاني التي حملتها كلٌّ منها، ويلحظ في البنية الثلاث أنّها من البنية المتوازية توازيًا كلياً، التي يكون فيها "التطابق التام في كلّ عناصر البناء النحوي للجمل المتوازية توازيًا أفقيًا"،² وقد اقتصر هذا التوازي على البنية الفعلية.

¹ السيد، التكرير بين المثير والتأثير، ص282.

² رواجحة، آليات التماسك النصي، ص165.

خاتمة

- في ختام هذه الرحلة الماتعة مع الخطبة الشريفة، توصلت البحث إلى جملة من النتائج، هي:
1. وظف منشئ الخطاب ﷺ بنية التكرير للمساعدة في إيصال الرسالة التي حملتها الخطبة الشريفة، وتبليغها بكل وضوح.
 2. أبان توظيف التكرار في الخطبة الشريفة عن فهم منشئ الخطاب ﷺ شخصية متلقي الخطاب.
 3. أسهمت بنية التكرار التي توزعت في فضاء هذا النص، في تحقيق ما هدف إليه صاحب الخطاب ﷺ من الإقناع فالتأثير.
 4. لكل بنية تكريرية في النص الشريف دلالات مفصلة يسر الله الكشف عنها، يُطمح أن تشرف بنظمها في سلك البحوث التي عيّنت بالخطاب الشريف.
 5. تعددت وتنوعت أنماط التكرير في الخطاب الشريف، ووظفت أنماط عدة للتكرير (المفرد، التركيب، المضمون، الهندسي... إلخ).
- ومن ثم يوجه البحث الدارسين إلى الوقوف على بنية التكرير في الأحاديث النبوية الشريفة، للكشف عن تجلياتها في الخطاب النبوي الشريف، وإقامة ندوات وملتقيات موسعة تعنى بظاهرة التكرير في الخطاب النبوي الشريف، وتأثيرها في الخطابات الأخرى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية، 1979).

ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد (طنطا: دار الصحابة للتراث، ط1، 1995).

أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج (بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010).

أحمد مختار عمر، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، ط5، 1998).

أميمة بدر الدين، "التكرار في الحديث النبوي الشريف"، مجلة جامعة دمشق، 26(2/1)، 2010.

تمام حسان، اللغة العربية معناها ومعناها (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979).

الجاحظ، البيان والتبيين (بيروت: دار الهلال، 1423هـ).

حاكم عمارية، الخطاب الإقناعي في ضوء نظرية التواصل اللغوي: الحجاج بن يوسف الثقفي نموذجًا (رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2006-2007).

حدة رواجية، "آليات التماسك النصي في قصيدة المآب لإبراهيم ناجي"، مجلة حوليات جامعة قلمة للغات والآداب، جامعة قلمة، الجزائر، العدد (12)، (2015).

حنان محمد مهدي العقيدي، "لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي"، مجلة العميد، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، بغداد، عدد خاص، 2013).

دليلة قسيمة، إستراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي (رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012).

رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1990).

روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1998).

سعيد بحيري، ظواهر تركيبية (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2006).

سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1988).

صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (القاهرة: دار قباء، 2000).

صلاح فضل، "ظواهر أسلوبية في شعر شوقي"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (4)، (1984).

عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي: خلفيته النظرية وآلياته العملية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2006).

عبد الفتاح يوسف، "فاعلية التكرار في بنية الخطاب الشعري للنقائض"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد (62)، (2003).

عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير (بيروت: عالم الكتب، ط2، 1986).

عصام شرتح، "دراسة نصية جمالية في قصيدة (مديح من أهوى) لمحمد عمران"، ديوان العرب، نُشر في 17 أبريل 2017، الاطلاع في 19 يوليو 2024.

علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع: دراسة مقارنة (بيروت: دار الصفوة، ط1، 1994).

علي محمد الصلابي، السيرة النبوية (دمشق: دار ابن كثير، 2009).

علي يوسف حسين اليعقوبي، "حاضنات النص في خطبة الوداع"، مجلة المدينة العالمية (مجمع)، العدد (5)، (2016).

- عيسى عودة برهومة، "تمثلات اللغة في الخطاب السياسي"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 36(1)، (2007).
- محمد العبد، "النص الحجاجي العربي"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (60)، (2002).
- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال (القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، (2014).
- محمد الغزالي، "وقفه مع خطبة حجة الوداع"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 7(1)، (2023).
- المرادي، الجنى الداني، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992).
- مصطفى أحمد قنبر، الخطاب السياسي في الصحف الحزبية المصرية: دراسة معجمية دلالية (رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2001).

References

Al-Qur'ān al-Karīm.

Abdulfattāh Yūsuf, “Fā‘iliyyah al-Tikrār fī Buniyah al-Khiṭāb al-Shi‘rī lil-Naqā‘id”, *Majallah Fuṣūl*, al-Hy‘ah al-Miṣriyyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo, No. (62), (2003).

Abū Bakr al-Azzāwī, *al-Khiṭāb wal-Hijāj* (Beirut: Mu’assasah al-Riḥāb al-Ḥadīthah, 1st Ed., 2010).

Aḥmad Mukhtār Umar, *‘Ilm al-Dilālah* (Cairo: ‘Ālam al-Kutub, 5th Ed., 1998).

Al-Jāhiz, *al-Bayān wal-Tabayīn* (Beirut: Dār al-Hilāl, 1423H).

Al-Murādī, *al-Jana al-Dānī*, Fakhruddīn Qabāwah & Muḥammad Nadīm Fāḍil (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1st Ed., 1992).

Alī Muḥammad al-Ṣalābī, *al-Sīrah al-Nabawiyyah* (Damascus: Dār Ibn Kathīr, 2nd Ed., 2009).

Alī Rizq, *Nazriyyah fī ‘Asālīb al-‘Iqnā‘: Dirāsah Muqārnah* (Beirut: Dār al-Ṣafwah, 1st Ed., 1994).

Alī Yūsuf Ḥusīn al-Ya‘qūbī, “Ḥāḍināt al-Naṣ fī Khuṭbah al-Wadā‘”, *Majallah al-Madīnah al-‘Ālamiyyah (Majma‘)*, No. (5), (2016).

Āmir Miṣbāḥ, *al-‘Iqnā‘ al-Ijtimā‘ī, Khalfiyyatuhu al-Nazariyyah wa-‘Āliyyātuhu al-‘Amaliyyah* (Algiers: Dīwān al-Maṭbū‘āt al-Jāmi‘iyyah, 2nd Ed., 2006).

Aumymah Badruddīn, “al-Tikrār fīl-Ḥadīth al-Nabawī al-Sharīf”, *Majallah Jāmi‘ah Dimashq*, 26(1/2), (2010).

Dalīlah Qasīmah, *al-Khiṭāb fīl-Ḥadīth al-Nabawī* (Master thesis, Kulliyah al-‘Ādāb wal-Lughāt, Jāmi‘ah al-Ḥāj Lakhḍar, Batna (2011-2012)).

Ḥaddah Rawābhiyyah, “‘Āliyyāt al-Tamāsuk al-Naṣī fī Qaṣīdah al-Ma‘āb li-Ibrāhīm Nājī”, *Majallah Hawliyyāt Jāmi‘at Qālmah lil-Lughāt wal-‘Ādāb*, Jāmi‘ah Qālmah, Algeris, No. (12), (2015).

- Hakīm Ammāriyyah, *al-Khiṭāb al- 'Iqnā'ī fī Ḍaw' Nazriyyah al-Tawāṣul al-Lughawī: al-Ḥajjāj bin Yūsuf al-Thaqafī 'Unmūthajan* (Master thesis, *Jāmi'ah Abī Bakr Bilqāyid, Tlemcen*, (2006-2007).
- Hanān Muḥammad Mahdī al-'Uqydī, “Lughah al-Ḥikmah wa 'Iqnā' al-Mukhāṭab fī Auslūb al-Khiṭāb al-Nabawī”, *Majallah al-'Amīd*, Markaz al-'Amīd al-Dawlī lil-Buḥūth wal-Dirāsāt, Baghdad, Special Issue, (2013).
- Ibn al-Athīr, *al-Nihāyah fī Gharīb al-Ḥadīth wal-'Athar*, Ṭāhir Aḥmad al-Zāwī & Maḥmūd Muḥammad al-Ṭanāhī (Eds.) (Beirut: al-Maktabah al-'Ilmiyyah, 1979).
- Ibn Hishām, *al-Sīrah al-Nabawiyyah*, Majdī Fathī al-Sayyid (Ed.) (Tanta: Dār al-Ṣaḥābah li-Turāth, 1st Ed., 1995).
- Īsā Awdah Barhūmah, “Tamathulāt al-Lughah fil-Khiṭāb al-Siyāsī”, *Majallah 'Ālam al-Fikr*, al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wal-Funūn wal-'Ādāb, Kuwait, 36(1), (2007).
- Iṣām Shartaḥ, “[Dirāsah Nasiyyah Jamāliyyah fī Qasīdah \(Madh man 'Ahwā\) li-Muḥammad Umrān](#)”, *Dīwan al-'Arab*, published April 17, 2017, retrieved July 19, 2024.
- Izzuddīn Alī al-Sayyid, *al-Tikrīr byn al-Muthīr wal-Ta'thīr* (Beirut: 'Ālam al-Kutub, 2nd Ed., 1986).
- Muḥammad al-Abd, “al-Naṣ al-Ḥijājī al-'Arabī”, *Majallah Fuṣūl*, al-Hy'ah al-Miṣriyyah al-'Āmmah lil-Kitāb, Cairo, No. (60), (2000).
- Muḥammad al-Abd, *al-Naṣ wal-Khiṭāb wal-Ittiṣāl* (Cairo: al-'Akādimiyyah al-Ḥadīthah lil-Kitāb al-Jāmi'ī, 2014).
- Muḥammad al-Ghazālī, “Waḳfah ma' Khuṭbah Ḥajjah al-Wadā'”, *Majallah Jāmi'ah al-'Amīr 'Abdulqādir lil-'Ulūm al-'Islāmiyyah*, Algiers, 7(1), (2023).
- Muṣṭafā Aḥmad Qanbar, *al-Khiṭāb al-Siyāsī fil-Ṣuḥuf al-Ḥizbiyyah al-Miṣriyyah: Dirāsah Mu'jamiyyah Dilaliyyah* (Master thesis, *Ma'had al-Buḥūth wal-Dirāsāt al-'Arabiyyah*, Cairo, (2001).
- Ramzī Munīr Ba'labakkī, *Mu'jam Al-Muṣṭalahāt al-Lughawīyah* (Beirut: Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, 1st Ed., 1990).

- Robert Debeaugrande, *al-Naş wal-Khiṭāb wal-’Ijrā’*, Tammām Ḥāssān (Tran.) (Cairo: ‘Ālam al-Kutub, 1st Ed., 1998).
- Sa‘īd Baḥīrī, *Zawāhir Tarkībiyyah* (Cairo: Maktbah al-’Ādāb, 1st Ed., 2006).
- Ṣalāḥ Faḍl, “Zawāhir ’Uslūbiyyah fī Shi‘r Shawqī”, *Majallah Fuṣūl*, al-Hy’ah al-Miṣriyyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Cairo, 4(1), (1984).
- Sībawyh, *al-Kitāb*, Abdussalām Muḥammad Hārūn (Ed.) (Cairo: Maktabah al-Khānjī, 3rd Ed., 1988).
- Tammām Ḥāssān, *al-Lughah al-’Arabiyyah: Ma’nāhā wa-Mabnāhā* (Cairo: al-Hy’ah al-Miṣriyyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, 2nd Ed., 1979).



شِعْرِيَّةُ التَّنَاوُبِ الْأَسْلُوبِيِّ فِي "الْقَصِيدَةِ الدِّمَشْقِيَّةِ" لِنَزَارِ قَبَّانِي

محمد فلفل*

مُلخَّص

بناءً على أن الشعر فنُّ لغويُّ الماهية، وعلى أن الوظيفة الجمالية هي الوظيفة المهيمنة في الخطاب الشعري، كان من الطبيعي أن تكون اللغة هي البوابة الرئيسة للدخول في عوالم القصيدة الانفعالية والدلالية، وذلك برِبطِ عناصر تشكيلها اللغوي بوظائفها الجمالية، وفي هذا السياق يأتي هذا البحث استمراراً لجهود سابقة قائمة على التسليم بأن المنهج اللغوي هو المنهج الأكثر مناسبة لتحليل النص الشعري، وهو منهج يقوم على رِبطِ عناصر التشكيل اللغوي للقصيدة في مستوياتها المختلفة؛ الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والنصّية، بما يتراءى لها في مخيال التلقي وتدوّقه من دورٍ في إنجاز شعرية النصّ، لذا حاول هذا البحث رِبطَ عناصر التشكيل اللغوي في واحدة من عيون شعرِ نزار قبّاني، بما لهذه العناصر من مكانة في إنجاز شعريتها، وذلك بضوابط يمكن إجمالها بأن تحليل النظر يُستغنى عنه بتحليل نظيره، وأن الأدوات النقدية لدى الدارس لا تقوى بالضرورة على كشْفِ كلِّ تجليات شعرية النصّ، إضافة إلى التسليم بأن في النصّ الشعري عناصرَ محايدةً فنيّاً، وأن كثيراً من الظواهر الجمالية تُمارَس فعلاً التواصلي من غيرِ قابليةٍ للتحليل بالأدوات الإجرائية المتاحة.

الكلمات الرئيسة: الشعرية، المنهج اللغوي، القصيدة العربية، التناوب الأسلوبي، جمالية الشعر

* أستاذ النحو والصرف، كلية الآداب، جامعة حماة، الجمهورية العربية السورية، drmohmedf11960@gmail.com



The Poeticism of Stylistic Variation in “The Damascene Poem” by Nizar Qabbani

Mohmed Flfl^{*}

Abstract

Given that poetry is an artistic expression based on language, and that poetic discourse is dominated by the aesthetic function, it is natural for language to serve as the main gateway through which we can access the affective and denotative realms of the poem. This involves linking the linguistic elements of the poem’s composition to its aesthetic functions. In this context, the present article builds upon earlier studies that consider linguistic research methodology the most suitable approach for analyzing poetic texts. This methodology connects elements emanating from various levels of the poem’s linguistic structure - phonetic, lexical, morphological, syntactic, and textual - to their impact in fulfilling the aesthetic function as perceived by the audience. This scientific contribution thus attempts to examine these elements in one of Nizar Qabbani’s celebrated poems, emphasizing their role in creating the poetic effect. This study adopts principles such as steering clear of redundancy, as the analysis of a poem would unveil the essence of its counterpart, recognizing the limitations of analytical tools in uncovering all poetic dimensions, acknowledging the artistic neutrality exhibited by some elements of the poetic text, and accepting that some aesthetic features may resist available procedural analysis.

Keywords: *Poetics, linguistic methodology, Arabic poetry, stylistic variation, poetic aesthetics*

* Professor of Syntax and Morphology, Faculty of Arts, Hama University, Syrian Arab Republic, drmohmedflfl1960@gmail.com.

مدخل

قد يكون من الصواب أن تقديم مقولة "السهل الممتنع" مشفوعةً بدرسٍ تطبيقي يُوضِّح عملياً أنها حُكْمٌ نقديٌّ مُهمٌّ؛ يجمع بين الوجازة والعمق والشمول، ولعلَّ تحليل "القصيدة الدمشقية" لنزار قباني تحليلاً نحوياً يتفصّل الآثار الجمالية للعتها؛ يُسهّم في توضيح تلك المقولة وتأكيدّها، فالشعر السهل الممتنع - كما يتجلّى في هذه القصيدة - دليلٌ على اقتدار صاحبه، وامتلاكه للوازم القول الشعري، وإنجازته من غير افتعالٍ أو تكلفٍ، وقد تُوهّمك ألفه ألفاظه اليومية، والوضوح الظاهري في معانيه، وشفافية صوره البيانية، وبساطة تراكيبه وسلاستها وتلقائيتها؛ بأنّه شعْرٌ بسيطٌ مقدورٌ على مثله يُيسرُ وسهولةٍ، ولكنك ما إن تُعمِلُ فيه مخيال التلقّي وذائقته حتى تُدرك غناه وعمقه، وأنت تتذكّر مقولةً مفادها أن "الشعر شأنه شأن أية خبرة إنسانية، يبدو بسيطاً في ظاهره على الغالب، لكنه بالرغم من هذا مُتأصّلٌ في أعماق أعماق ما تُصلُّ إليه المشاعر بعمليات الترابط والتداعي بينها".¹

في هذا الفضاء من التلقّي تأتي هذه القراءة التحليلية للقصيدة الدمشقية، وهي قراءة تتبّع معنى الشعر وشعريته في السياق الجزئي العارض، وفي السياق النصّي العام، مؤمنةً بأن الكلمة في الأدب عامة، والشعر خاصة "لا تحمل معها معناها المعجمي فقط، بل هالةً من المترادفات والمتجانسات، فالكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنىً فقط، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت، أو بالمعنى، أو بالاشتقاق، أو حتى كلمات تُعارضها أو تُفنيها".²

وظاهرٌ من كلام صاحبي نظرية الأدب هذا أن العنصر اللغوي في الشعر مثيرٌ دلاليٌّ وانفعاليٌّ أكثر من كونه دالاً وحيد الدلالة أو مُحدّدها، ولعلّ مما يُؤنس بذلك ويُوضّحه بيان المعاني المضمرّة في عبارة "القصيدة الدمشقية"، في علاقتها العضوية بالقصيدة التي عُنوت بها؛ إذ مما بات معروفاً أن بيّن القصيدة وعنوانها في الأعمّ الأغلب علاقةً، قوامها أن كلاً

1 م. ل. روزنتال، الشعر والحياة العامة، ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابي (دمشق: وزارة الثقافة، 1983)، ص 8.

2 رينيه ويليك، أوستين واربن، نظرية الأدب، ترجمة: محيي الدين صبحي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2،

(1981)، ص 181.

منهما مُنْفَتِحٌ عَلَى الْآخِرِ بَوَّحًا وَدَلَالَةً، وَذَلِكَ عَلَى نَحْوِ يَجْعَلُ السَّائِرَ لَبْنِيَّةً كُلٍِّ مِنْهُمَا مَحْتَاجًا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى بَنِيَّةِ صَاحِبِهِ، وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ يُمْكِنُ النَّظْرُ فِي "الْقَصِيدَةِ الدِّمَشْقِيَّةِ"؛ عِنْوَانُ قَصِيدَتِنَا هَذِهِ، فَهُوَ مَرْكَبٌ وَصْفِيٌّ تَقْرِيرِيٌّ يَنْسَبُ الْقَصِيدَةَ إِلَى (دِمَشْقٍ)، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ دِمَشْقِيَّتَهَا سَلِيلَةٌ دِمَشْقِيَّةٌ مُنْشَعِئَةٌ، لِذَا لَيْسَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ الزَّعْمُ بِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ عَلَى قِصَرِهَا تُضْمَرُ - بِنَسَبِهَا الْقَصِيدَةَ إِلَى (دِمَشْقٍ) - تَمْجِيدَ الْمُنْشِئِ لِمَوْطِنِهِ، وَاعْتِدَادَهُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِ، كَمَا تُضْمَرُ حَنِينَهُ، وَتَوَجُّعَهُ مِنْ مَآسِيهِ، نَقُولُ ذَلِكَ لِأَنَّهَا مَعَ قَصِيدَةٍ تَكْتُبُ صَاحِبَهَا الدِّمَشْقِيَّ الْهُوَى وَالِانْتِمَاءَ وَالْوَجْعَ، وَيُصَفُّ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ "مَجْنُونٌ دِمَشْقِيٌّ"¹، وَقَصِيدَتُهُ هَذِهِ - كَمَا سَنَرَى - تَقُومُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَبُوحُ بِهَا هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْعِنْوَانِيَّةُ، مِمَّا يَجْعَلُهَا مَدْخَلًا هَادِيًّا إِلَى عَوَالِمِ النَّصِّ الَّذِي عُيِّنَ بِهَا.

عَلَى أَنَّ أَبْرَزَ مَا يُبْلَغُ أَسْلُوبِيًّا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَنَّهَا زَاوَجَتْ بَيْنَ أُسْلُوبِيَّيِ الْخَبْرِ وَالْإِنْشَاءِ، وَذَلِكَ بِاسْتِعْمَالِ كُلٍِّ مِنْهُمَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ فِي الْأَصْلِ لَهُ، مِمَّا أَتَّاحَ لِلتَّرْكِيبِ الْوَاحِدِ - فِي أَحْيَانٍ غَيْرِ قَلِيلَةٍ - أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَعَانٍ وَمَشَاعَرَ مُتَعَدِّدَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ، أَوْ عَلَى أَكْثَرِ مَا يَقُولُهُ ظَاهِرُ لَفْظِهِ، أَوْ خِلَافَهُ، كَمَا يَقُولُ التَّدَاوُلِيُّونَ²، وَذَلِكَ عَلَى نَحْوِ يُوضِحُ عَمَلِيًّا أَنَّ الشَّعْرَ لَمْ يَخُفِ إِشَارَتَهُ، كَمَا يُفْهَمُ مِمَّا نَسَبْنَا مِنْ مَعَانٍ دَلَالِيَّةٍ وَانْفِعَالِيَّةٍ إِلَى عِبَارَةِ الْعِنْوَانِ، لِذَا جَاءَ النَّصُّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْغِنَى وَالتَّدَاخُلِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْعَمَقِ الْعَاطِفِيِّ.

وَمَعْرُوفٌ أَنَّ أَنْمَاطَ التَّرَاكِيِبِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ مَحْدُودَةٌ نَهَائِيَّةٌ مَهْمَا تَعَدَّدَتْ، عَلَمًا أَنَّ الْأَغْرَاضَ وَالْمَقَاصِدَ كَثِيرَةً كَثْرَةً لَيْسَتْ لَهَا غَايَةٌ تَقْفُ عِنْدَهَا³، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ الْأَسَالِيْبِ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ وَسِيلَةً غِنَاءٍ وَنَمَاءٍ لِلُّغَةِ، فِي سِيَاقِ الْاسْتِعْمَالِ الْحَافِلِ بِالْقَرَائِنِ الَّتِي تَسَاعِدُ التَّرْكِيبَ فِي أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَا لَيْسَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهِ فِي حَالِ غِيَابِ هَذِهِ الْقَرَائِنِ أَوْ

¹ عَلَى الشَّابِكَةِ تَصْرِيحُ لِنَزَارِ قَبَّانِي يُقَرِّئُ فِيهِ بِأَنَّهُ "مَجْنُونٌ دِمَشْقِيٌّ"، لَا "مَجْنُونٌ لَيْلِيٌّ"، لِأَنَّ فِي عَالَمِ النِّسَاءِ - كَمَا يَقُولُ - "أَلْفُ لَيْلِيٍّ، أَمَا فِي عَالَمِ الْمَدِينِ فَلَا يَبُوجِدُ إِلَّا دِمَشْقِيًّا وَاحِدَةً".

² انظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2011)، ص33-85.

³ انظر: يوسف رحامي، الإثبات في العربية: دراسة نحوية تداولية (الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ط1، 2023)، ص229.

تغيُّرها، وهو ما نرجو أن يتَّضح أكثر في تناوُلنا التَّنَاوُبِ الْأَسْلُوبِيِّ الذي يمثِّل ظاهرة أسلوبيَّة بِنَاءة في المعمار الفني للقصيدَة الدمشقية، وهو تناوُلٌ يأتي استمرارًا لجهود سابقة،¹ قائمة على التسليم بأن المنهج اللغوي هو المنهج الأكثر مناسبة لتحليل النص الشعري، وهو يقوم على ربط عناصر التشكيل اللغوي للقصيدَة في مستوياتها المختلفة؛ الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والنصّية، بما يترأى لها في مخيال التلقي وتدوُّقه من دورٍ في إنجاز شعريَّة النصِّ، وهو ما حاولَه هذا البحث وفق ضوابط يمكن إجمالها بأن تحليل النظر يُستغنى عنه بتحليل نظيره، وأن الأدوات النقدية لدى الدارس لا تقوى بالضرورة على كشف كلِّ تجلّيات شعريَّة النصِّ، مع التسليم بأن في النصِّ الشعري عناصر محايدةً فنيًّا، وأن كثيرًا من الظواهر الجمالية تُمارس فعلها التواصلي من غير قابلية للتحليل بالأدوات الإجرائية المتاحة.²

ولعلَّ من المناسب أن نستهلَّ قراءة التحليلية هذه بذكر القصيدَة موضوع البحث، وذلك رغبةً في أن يتفاعل القارئ معها التفاعل المأمول.

القصيدَة الدمشقية³

هَذِي دِمَشْقِيٌّ، وَهَذِي الْكَاسُ وَالرَّاحُ	إِنِّي أَحَبُّ، وَبَعْضُ الْحَبِّ ذَبَّاحُ
أَنَا الدِّمَشْقِيُّ لَوْ شَرَحْتُمْ جَسَدِي	لَسَالُ مِنْهُ عَنَاقِيدُ وَثَقَّاحُ
وَلَوْ فَتَحْتُمْ شَرَايِينِي بِمَدِّيَّتِكُمْ	سَمِعْتُمْ فِي دَمِي أَصَوَاتَ مَنْ رَاحُوا
زِرَاعَةُ الْقَلْبِ تَشْفِي بَعْضَ مَنْ عَشِفُوا	وَمَا لِقَلْبِي - إِذَا أَحْبَبْتُ - جَرَّاحُ
أَلَا تَزَالُ بِخَيْرٍ دَارُ فَاطِمَةَ؟	وَالنَّهْدُ مُسْتَنْفَرٌ.. وَالْكُحْلُ صَدَّاحُ
إِنَّ النَّيِّدَ هُنَا.. نَارٌ مُعْطَّرَةٌ	فَهَلْ عُيُونُ نِسَاءِ الشَّامِ أَفْدَاحُ؟

¹ تتمثل هذه الجهود في إصدارين سابقين، هما:

- في التشكيل اللغوي للشعر: مقاربات في النظرية والتطبيق (دمشق: وزارة الثقافة، ط1، 2013).

- صور من التحليل النحوي للنص الشعري (دمشق: وزارة الثقافة، ط1، 2021).

² انظر: صلاح فضل، أساليب الشعريَّة المعاصرة (بيروت: دار الآداب، ط1، 1995)، ص11-18.

³ انظر: نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة (بيروت: منشورات نزار قباني، ط2، 1999)، ج6: ص441.

وَلِلْمَآذِنِ كَالْأَشْجَارِ أَرْوَاحُ
وَقِطْعَةُ الْبَيْتِ تَعْفُو.. حَيْثُ تَرْتَاخُ
فَكَيْفَ نَنْسَى؟ وَعِطْرُ الْهَالِ فَوَاحُ
وَوَجْهُهُ (فَائِزَةٌ) حُلُوٌّ وَلَمَّاحُ
فَكَيْفَ أَوْضِحُ؟ هَلْ فِي الْعِشْقِ إِضْحَاحُ؟
حَتَّى أُعَارِزَهَا وَالشَّعْرُ مِفْتَاحُ
فَهَلْ تُسَامِحُ هَيْفَاءً وَوَضَّاحُ؟
فَوْقَ الْمُحِيطِ، وَمَا فِي الْأُفُقِ مِصْبَاحُ
وَطَارِدْتَنِي شَيَاطِينٌ وَأَشْبَاحُ
حَتَّى يُفْتِحَ نَوَّارٌ وَقَدَّاحُ

أَلَيْسَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَفْرَاحُ؟
إِذَا تَوَلَّاهُ نَصَّابٌ وَمَدَّاحُ؟
وَكُلُّ نَائِيَةٍ يَأْتِيكَ سَفَّاحُ؟

مَاذَا مِنَ الشَّعْرِ يَبْقَى حِينَ يَرْتَاخُ؟

مَاذُنُ الشَّامِ تَبْكِي إِذْ تُعَايِنِي
لِلْيَاسَمِينِ حُفُوقٌ فِي مَنَازِلِنَا
طَاحُونَةُ الْبُرِّ جُزْءٌ مِنْ طُفُولِنَا
هَذَا مَكَانٌ (أَبِي الْمُعْتَرِّ).. مُنْتَظَرٌ
هُنَا جُدُورِي. هُنَا قَلْبِي. هُنَا لَعْنِي
كَمْ مِنْ دِمَشْقِيَّةٍ بَاعَتْ أَسَاوِرَهَا
أَتَيْتُ يَا شَجَرَ الصَّفْصَافِ مُعْتَذِرًا
حَمْسُونَ عَامًا.. وَأَجْزَائِي مُبَعْتَرَةٌ
تَقَادَفْتَنِي بِحَارٍ لَا ضِفَافَ لَهَا
أَقَاتِلُ الْفُجْحَ فِي شِعْرِي، وَفِي أَدْبِي

مَا لِلْعُرُوبَةِ تَبْدُو مِثْلَ أَرْمَلَةٍ
وَالشَّعْرُ مَاذَا سَيَبْقَى مِنْ أَصَالَتِهِ
وَكَيْفَ نَكْتُبُ وَالْأَفْقَالُ فِي فَمِنَا

حَمَلْتُ شِعْرِي عَلَى ظَهْرِي فَاتَّبَعَنِي

أول ما يستوقف المرء في هذا النصّ السلاسة والعفوية وتلقائية التدفق التركيبي والعاطفي، وكل ذلك بالمألوف من ألفاظ حياتنا اليومية، لذا قد لا يكون بعيداً عن الصواب القول إن شعرية "القصيدة الدمشقية" تكمن في صياغتها من الألفاظ اليومية نصّاً إبداعياً غير عادي، وهذه سمة أساسية من سمات الشعر السهل الممتنع، وذلك إنما يعود - بلغة عبد القاهر الجرجاني - إلى نظم هذه الألفاظ في علاقات تركيبية نحوية متجاوزة، أي مُخَلَّة بما يُعرف بالتوارد المعجمي، ومن ذلك إسناد الشيء إلى ما ليس من المألوف أن يُسند إليه، كإسناد الدُّبْحِ إلى الحَبِّ، والبكاء إلى المآذن، والأرواح إلى الأشجار، والسيلان إلى العناقيد والتفاح، ومن ذلك أيضاً جعلُ دمشق راحاً وكأساً، والنبيد الدمشقي ناراً معطرة، وعيون

نساء الشام أقداحًا، وقد نَجَمَ عن هذا الضرب من التجاوز في نَظْمِ الألفاظ مع ما لَيْسَ من المألوف في اللغة غَيْرِ الفنية أن يُنْظَمَ مَعَهُ قَدْرٌ من الصور البيانية الشفيفة، كالاستعارة والتشبيه البليغ، وغَيْرِ ذلك من ضروب المجاز الذي أسهم في إغناء النصِّ دلاليًّا، وفي شحْنِه بطَيِّفٍ واسعٍ من ألوان الانفعالات المتداخلة، وذلك بالنأي عن المعاطلة التركيبية والتعقيد المعنوي، وبالتوسُّلِ بالبوح والتلميح المؤثِّر والمثير في الوقت نفسه، على أن ذلك لا ينفي أن الظاهرة الأسلوبية الأبرز والأكثر إسهامًا في إنجاز شعريَّة "القصيدة الدمشقية" إمَّا هو التجاوُّر الأسلوبِي، أو التناوُب الأسلوبِي، المتمثِّل بمزاوجة الشاعر بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي، واستعمالِ كلِّ منهما فيما وُضِعَ له صاحِبُه، أو في غَيْرِ ما وُضِعَ له في الأصل، وهذا ما كان له - كما سيَتَّضح - بالغُ الأثر في إغناء النصِّ بما شَحَنَ فضاءاته دلاليًّا وعاطفيًّا وإيقاعيًّا، وهو ما سنحاول بيانه فيما يأتي.

التناوب الأسلوبِي من وجهة نظريَّة

من الشائع في درسيِّنا النحويِّ البلاغيِّ حَصْرُ الأساليب التعبيرية في قسمين؛ خبرية وإنشائية،¹ وأن معيار خبرية التركيب هو قابليته للوصف بالصدق أو الكذب، لأنه - أي الخبر - له في الواقع نسبة خارجية، فإن وافقها فهو صادقٌ، وإن خالفها فهو كاذبٌ، ولم يُفْتِ البلاغة العربية التنبية على قضية أساسية في تحليل الخطاب عامة، وفي تحليل النص الشعري خاصة، وهي ما عُرِفَ لديهم بأغراض الخبر، مرادهم بذلك أن الجملة الخبرية لا يكون - في الأعمِّ الأغلب - قصْدُها أو وظيفتها نقلُ المعلومة أو وصفُ الواقعة نقلًا أو وصفًا مجرَّدَيْن من أيِّ بُعدٍ انفعالي، أو معنَى نفسي، علمًا أن أنماط التراكيب اللغوية المجرَّدة كما دَكَّرنا محدودة نهائية،² أما القصود والمعاني النفسية في الجملة الخبرية، فتتعدَّد بتعدُّد

¹ انظر: عبد العزيز أبو سريع ياسين، الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1989)، ص22-23؛ عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط5، 2001)، ص13.

² انظر: رحامي، الإثبات في العربية، ص229.

مثيرات القول وسياقاته، كالشكوى، والتخُّسر، والتحرُّن، والرجاء، والفخر، والهجاء، والمدح، والذم، والاعتذار، وغير ذلك من الانفعالات أو المعاني النفسية.¹

والجدير بالذكر أن هذه الانفعالات أو المعاني التي جاءت في بلاغتنا أغراضاً للخبر، والتي لا يكاد يخلو منها ما سمّوه "أسلوباً خبرياً"؛ جَعَلَهَا الدرسُ التداوُلِيَّ الحديثُ معياراً لإنشائية التراكيب، لأنَّ التراكيب في هذه الحالة - من وجهة تداولية - تُنَجِّزُ تلك المعاني النفسية أو الانفعالات لحظةَ التفوُّه بالكلام الخاص بها، وهو ما يُعرَفُ لديهم بنظرية الأفعال الكلامية، والفعل الكلامي هو الفعل الذي يُنجزُه الإنسان بالكلام لحظةَ التفوُّه به، كالإفصاح عن حالة نفسية معينة،² والغاياتِ التأثيرية التي تخصُّ ردود فعلِ المتلقي، ويرى نُقَّاد الأدب في هذه النظرية إضاءةً لما تُحدِثُه النصوص من تأثيرٍ في المتلقي،³ ولمَّا كان الفكر في اللغة - كما يقول التحليل النفسي - لا يكاد يخلو من الانفعال؛⁴ كان الوصف أو الإخبار المجردان منه - في أساليب التعبير اللغوي - أقرب ما يكون إلى الوهم.⁵

ولعلَّ الخطاب الشعري هو الدليلُ الأسطعُ على صحة هذه المقولة، وذلك لسببين؛ أولهما أنَّ الانفعالي مكوّن أساسي من مكوّنات هذا الخطاب، وثانيهما أنَّ للخيال دوراً أساسياً في إنجازه، وفي ضوء هذا الدور يكون تلقينا للشعر مُنعتقاً من أسرِ الحُكم عليه بالصدق أو الكذب، وذلك بغضِّ النظر عن مدى مطابقتها نسبته للخارج، لأنَّ الوظيفة الأساسية للشعر إمَّا هي التمتع والإمتاع، مما ينأى به عن المحاكمة بموجب مقولة الصدق والكذب، وإذا كان الأمر كذلك كان الشعر خطاباً إنشائياً بالضرورة، لأنَّ عَدَمَ القابلية للوصف بالصدق أو الكذب معيار أساسي في إنشائية التركيب، حتى في البلاغة العربية، أو على الأقل كان الشعر

¹ انظر: محمد أبو موسى، خصائص التراكيب (القاهرة: مكتبة وهبة، ط5، 2000)، ص80-82.

² انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2005)، ص10-11، 40-44.

³ انظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص42، 108.

⁴ انظر: آن موريل، النقد الأدبي المعاصر: مناهج اتجاهات قضايا، ترجمة: إبراهيم أولحيان، محمد الزكراوي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2008)، ص147.

⁵ انظر: رحامي، الإثبات في العربية، ص269-270، 303.

ليس خطابًا خبريًا، ولعلّه أقرب ما يكون إلى ما يُعرف تداوليًا بالتعابيريات، وهي أفعال كلامية يُعبّر المتكلّم بها عن مشاعره، وليس لهذا النوع من الخطاب اتجاّه للمطابقة.¹

والجدير بالذكر فيما نحن فيه أنّ الخطاب اللغوي عامة يقوم في الغالب على تناوُب الأساليب تناوُبًا نوعيًا، وهو أن تتناوَب في الخطاب - أو تتجاوز فيه بنسبٍ مختلفة - أساليب التعبير الخبرية والإنشائية، كالإثبات، أو النفي، أو النهي، أو الاستفهام، وغيرها، أما التناوُب الوظيفي فهو أن ينوب الأسلوب في التعبير عن غيره، فيدلّ على ما الأصل أن يُعبّر عنه بغيره، كالتعبير بالاستفهام عن التقرير أو النفي أو الإنكار، فهذه معانٍ الأصل أن يُعبّر عنها بالخبر. والذي يعيننا من أمر هذا التناوُب بوجهيه النوعي والوظيفي، أنه يُمثّل في الخطاب اللغوي عامة، والشعري خاصة؛ مصدر غناء ونماء انفعالي ودلالي وإيقاعي، وذلك لأن أيّ أسلوب عندما ينوب عن غيره غالبًا ما يُبقي سياق الاستعمال على شيء من المعنى الأساسي للأسلوب النائب،² ولأن بنية الأسلوب مما يُحدّد طبيعة نبره وتنغيمه، وهذا يعني أن تناوُب الأساليب أو تجاوزها يُفضي بالنصّ إلى غنى وتجدّد في بنيته الإيقاعية، وهو ما نرجو أن نوضّحه عمليًا في التناول الآتي للقصيدة الدمشقية.

التناوُب الأسلوبي الوظيفي في القصيدة الدمشقية

يُفضي النظر في هذه القصيدة إلى أنها تقوم على المزوجة بين الأساليب الخبرية التي لم تُستعمل لمجرد الوصف والإخبار، بل لمعانٍ نفسية تتمثّل بالفخر، والتمجيد، والتحزّن، والحنين، والشكوى، وغير ذلك، وبين تراكيب إنشائية يغلب عليها الاستفهام الذي حَرَج عن الدلالة على معناه الأصلي - وهو طلب الفهم - إلى الدلالة على مجموعة متباينة ومركّبة من الانفعالات والمعاني النفسية، وفيما يأتي بيان ما كان لكلٍ من هذه الأساليب من دور في إنشاء المحمولين الدلالي والانفعالي اللذين يقوم عليهما النصّ.

¹ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 52، 83.

² انظر: ياسين، الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، ص 73.

1. دلالات التركيب الخبري في القصيدة الدمشقية:

من المسلّم به أن الوظيفة الجمالية هي الوظيفة المهيمنة دائماً في الخطاب الشعري، ولذلك من الطبيعي ألا تكون التراكيب الخبرية في "القصيدة الدمشقية" مجرد الوصف والإخبار، بل لما نُجِزُهُ من معانٍ نفسية وانفعالات تُمثّل أساس التجربة، كما تُمثّل مفردة رئيسة في معجم القدرة التأثرية والتأثيرية لهذه القصيدة، وهذا ما يمكن أن نقف عليه في أبياتها الأربعة الأولى:

هَذِي دِمَشْقُ، وَهَذِي الْكَاسُ وَالرَّاحُ إِنِّي أَحِبُّ، وَبَعْضُ الْحُبِّ ذَبَّاحُ
أَنَا الدِّمَشْقِيُّ لَوْ شَرَحْتُمْ جَسَدِي لَسَأَلَ مِنْهُ عَنَّا قَيْدٌ وَنُقَّاحُ
وَلَوْ فَتَحْتُمْ شَرَايِينِي بِمِدْيَتِكُمْ سَمِعْتُمْ فِي دَمِي أَصْوَاتَ مَنْ رَاخُوا
زِرَاعَةَ الْقَلْبِ تَشْفِي بَعْضَ مَنْ عَشِقُوا وَمَا لِقَلْبِي - إِذَا أَحْبَبْتُ - جَرَاحُ

هذه الأبيات التي جاءت في مطلع القصيدة تُصدر - كعنوانها - عمّا في نفس منشئها من معاني تمجيد دمشق، والاعتزاز بالانتماء إليها، وإلى ما تُمثّله من تاريخ حضاري حافل بالترقي والمدنيّة، فقوله: "هذي دمشق"، تركيب خبري إشاري لا يُقصد به إلى الإخبار بأنّ المشار إليه هو دمشق، بل يُقصد تمجيد أجداد هذه المدينة، والاعتزاز بالانتماء إلى ما تُمثّله من حضارة ومدنيّة رسالتها سعادة الإنسان، لذا جعل الشاعر في تشبيهه بليغ مدينته كأساً وراحاً، لأنها سليفة حضارة تترأى في مخيلة المنشئ مبعث سعادة تحكي ما تتركه الحمرة من متعة في نفس شارحها، ولعلّ في اختيار الشاعر ل(الراح) دون سائر أسماء الحمرة؛ ما يؤنس بهذه المعاني التي تتوسّمها في هذا البيت المطلع، فالراح شقيقة الراحة في الاشتقاق، والراحة مظهر من مظاهر سكينه النفس، وفي ذلك تمجيد لدمشق بما تُمثّله من إرث حضاري إنساني سامٍ.

ومما يُشجّع على استيحاء معاني التمجيد والاعتزاز بالانتماء إلى دمشق؛ تأكيد ذلك في الشطر الثاني: "إني أحبُّ، وبعضُ الحبِّ ذبّاحُ"، فحبُّه لدمشق متأصلٌ في النفس تأصلاً مُتجدِّداً، لذا اختير في الخبر المضارع (أحبُّ) لما فيه من الإيحاء بتجدد حبِّ الشاعر لمدينته،¹ حبّاً قليلاً كفيلاً بأن يُضني صاحبه! فما بالك بكثيره؟

¹ انظر: رحامي، الإثبات في العربية، ص 203-204.

ويواصل في البيت الثاني اعتزازه بالانتماء إلى دمشقه، وما تمثله من إرث حضاري:
 أَنَا الدِّمَشْقِيُّ لَوْ شَرَحْتُمْ جَسَدِي لَسَأَلَ مِنْهُ عَنَاقِيدُ وَثَقَّاحُ
 فاللافت هنا أن إخبار الشاعر عن نفسه بأنه دمشقي إخباراً تأسيسياً وموطيناً في
 الوقت نفسه، كما يقول النحاة،¹ أما كونه تأسيسياً فمرده إلى أن أحد معنويه الأساسيين إنما
 هو اعتداد الشاعر بدمشقيته، وأما كونه موطيناً فهو أن دمشقيته غير كافية في الإخبار عن
 نفسه، وتماز ذلك فيما كانت دمشقية الشاعر سبباً له، وهو ما يتمثله من قيم الخير والسعادة
 والجمال بسبب دمشقيته هذه، فعصارة العنب والتفاح التي تسيل من جسد الشاعر؛ معادلٌ
 فنيٌ لعصارة حضارة دمشق التي نثرت على البشرية قيماً إنسانيةً ساميةً، توالى على حملها قومٌ
 ما تزال حكمتهم منهج حياة يتهدى الشاعر بنوره:

وَلَوْ فَتَحْتُمْ شَرَايِينِي بِمِدِّيَّتِكُمْ سَمِعْتُمْ فِي دَمِي أَصْوَاتَ مَنْ رَاحُوا
 ولا يستطيع المرء أن يُنهي اكتناحه لما تكتنزه هذه الأبيات الخيرية المبنية من دلالات
 متعدّدة وانفعالات متداخلة، دون أن يستشعر فيها قدرة نزار على شعرنة مفرداتٍ قد تُوهم
 حقوقها الدلالية بأنها مفرداتٌ لا تصلح لعالم الشعر، من مثل جراحة القلب، وزراعته،
 والشرايين، وتشريحها، والذبح، والمدينة، فهذه المفردات مع أنها من عالم الطب والعلم والحرب؛
 شَعْرَهَا² نزار باقتدار لافِتٍ، وذلك بأن جعلها في علاقات تركيبية أهلتها للبوح بمشاعر

¹ الخبر المؤسس هو الخبر الذي تتم به الفائدة، ويُطابق قصد المتكلم، نحو: زيدٌ ناجحٌ، والخبر الموطئ هو الخبر الذي لا تتم
 به الفائدة، ولا يُجمل قصد المتكلم، لأن تمام الفائدة كامنٌ في الصفة التي يُوطئ لها هذا الخبر، كقوله تعالى: ((بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 بِجَهْلُونَ)) [النمل: 55]، فالفائدة ليست في الخبر (قوم)، بل في الصفة التي وطأ لها، وهي جملة [يجهلون].

² نقول ذلك على إيماننا بأن "شعرية المفردة" مفهوم تركيبية تكتسبه من علاقاتها السياقية، أي إن الكلمة مفردة على
 الأغلب إنما تكون في حالة عطالة فنية، أو حالة حياد من الناحية الجمالية أو الشعرية أو الأدبية، ولكن ذلك لا ينفي أن
 كثرة استعمال المفردة في حقلٍ دلاليٍّ قد يُكسبها شحنةً نفسيةً محدّدة، وقد يترتب على ذلك تحوُّل في دلالات التركيب
 وسياقات استعماله، فطول اليد مثلاً في مرحلة من تاريخ العربية كان كناية عن المبادرة إلى فعل الخير، ولا شك في أن كثرة
 استعمال هذه العبارة في ما بعدُ بمعنى السرقة يحول دون استعمالها بمعنى المبادرة إلى فعل الخير، وكذلك عبارة "القلب
 المفتوح"، فقد كانت تُستعمل في سياق محدد تعبيراً عن صدقنا في تعاملنا أو أحاديثنا مع الآخرين وإقبالنا بجرارة عليهم،
 ولكن بعد شيوع هذه العبارة تسميةً لضرب من ضروب جراحة القلب؛ لم يعد من المناسب نفسياً استعمالها بالمعنى الأول،
 وذلك أن الكلمات مصطحبةً أبداً الظلال النفسية لمعانيها الأفضى استعمالاً بين الناس.

إنسانية حزينة دافئة تحكي الوجد والشكوى، مما مكنها من أن يكون لها إسهامٌ فعَّالٌ في رسم معالم لغةٍ شعريَّةٍ مشهديةٍ نابضةٍ بالحياة، لأنَّها تجمع بين المرئي والمسموع في الوقت نفسه؛ مشهدية تُري المدية وهي تفتح الشرايين، وتُسمع صوت الحكمة في إرث السلف، فنزائرُ تفاعلٍ، ويريدنا أيضًا أن نتفاعلَ مع هذا المشهد بحاسِّي الرؤية والسمع، وقد تبدو المدية فائضًا يمكن الاستغناء عنه، "ولو فَتَحْتُمْ شَرَايِينِي بِمِدِّيَّتِكُمْ"، لأنَّ التشريح لا يكون إلا بمدية، ومع ذلك حَرَصَ المخيال الشعري على ذكرها، لأنَّ المدية جزءٌ من تفصيلات مشهدٍ شعريٍّ وجعيٍّ، عَوَّلَ نزار على رسمه بما يُتيح له الأسلوب الخبري من الاسترسال في رسم الجزئيات، ورضدٌ أدقِّ التفاصيل:

مَآذِنُ الشَّامِ تَبْكِي إِذْ تُعَانِفُنِي
لِلْيَاسْمِينِ حُقُوقٌ فِي مَنَازِلِنَا
طَاحُونَةُ البُرِّ جُزْءٌ مِنْ طُفُولَتِنَا
هَذَا مَكَانٌ (أَبِي المُعْتَزِّ) .. مُنْتَظَرٌ
وَلِلْمَآذِنِ كَالْأَشْجَارِ أَزْوَاجُ
وَقِطَّةُ البَيْتِ تَغْفُو.. حَيْثُ تَرْتَاخُ
فَكَيْفَ نَنْسَى؟ وَعِطْرُ الهَالِ فَوَاحُ
وَوَجْهُ (فَائِزَةٌ) حُلُوٌّ وَلَمَّاحُ

ففي هذه الأبيات مَكَنَ الأسلوب الخبري الشاعر من الاسترسال في ذكر تفاصيل المشهد الشعري (المآذن، الأشجار، الياسمين، القطة، طاحونة البن، مكان أبي معتز، وجه فائزة)، وبمنطق لغة الشعر نقول إن نزارًا ما كان ليستحضر هذه الجزئيات لو لم يكن لكلٍ منها ذكرياتٌ مشحونةٌ بمعاني الحزن الدافئ، والحنين المصحوب بالوجد، كلُّ ذلك جاء بلغةٍ مشهديةٍ نابضةٍ بالحياة، أَضَفَتْ على المكان بُعدًا إنسانيًا قائمًا على أنسنة الشاعر لما في المشهد من حيوانٍ وجمادٍ ونباتٍ، فالمآذن تبكي وتعانق، لأنَّ لها أزواجًا كالأشجار، والياسمين كالشجر، له حقوقٌ لا بُدَّ من أن يرهاها سكانُ منزله الذي تغفو فيه القطة حيث تجدُّ راحتها، لأنَّها في موئل الوثام ومعقل العزِّ الذي لا يزال ينتظر حالمًا بخلفٍ لأبي المعتز يُعيد إليه حضوره الاجتماعي البهِّي.

ولو تَبَّعْنَا سائر التراكيب الخبرية في هذه القصيدة لَمَا زِدْنَا شيئًا على تأكيد أنَّ هذا الضرب من التراكيب في "القصيدة الدمشقية" لم يقتصر على مجرَّد الوصف والإخبار الذي

هو الوظيفة الأصلية الأولى للأسلوب الخبري، بل تعدى ذلك إلى إنجاز انفعالات تأثرية تُمَثِّلُ الحالة النفسية، والجدير بالذكر أنَّ الفكر التداولي يُخْرِجُ من الخبر ما كان دالاً على التعبير عن الحال الشعورية للمتكلم،¹ يُضَافُ إلى ذلك أن هذه الانفعالات تُمَثِّلُ القوة التأثيرية في المتلقي، وهي قوة إيجابية تُرَشِّحُ التركيب الذي أوجدها لأن يكون من منظور تداولي أيضاً في عداد الأساليب الإنشائية، لأنها مثلها تُعَيِّرُ الواقع، وتُوجَدُ فيه ما لم يكن موجوداً.

واستكمالاً لبيان أثر التناوب الأسلوبي في المنجز الجمالي للقصيدة الدمشقية نُبيِّنُ فيما يأتي ما كان للأساليب الإنشائية الحقة من دورٍ بنائٍ في هذا المنجز.

2. دلالات التركيب الإنشائي في القصيدة الدمشقية:

للأساليب الإنشائية ممثلة بالاستفهام خاصة؛ حضورٌ لافتٌ في بنية "القصيدة الدمشقية" الواقعة في عشرين بيتاً، ففيها ثلاثة عشر تركيباً إنشائياً، أحد عشر منها استفهامية، كان لها بالغ الأثر في إغناء النص إيقاعاً وانفعالاً ودلالةً، لأنَّ الاستفهام في هذه القصيدة - كما في الشعر عامة - دالٌّ على غير معناه الأصلي، وهو طلبُ الفهم، أو طلبُ إفهام السائل حقيقة ما يسأل عنه، فهذا في الشعر غيرُ وارد، لأنَّ الأولوية فيه لِيَسْتِ للفهم والمعرفة، بل للتمتع والإمتاع، لذا جاء أسلوب الاستفهام في "القصيدة الدمشقية" دالاً أحياناً على ما يُعَبَّرُ عنه عادةً بالأسلوب الخبري، كالتقرير والنفي والإنكار، ونحن في هذه الحالة مع ما يمكن أن نسميه "التناوب الأسلوبي النوعي والوظيفي"، لأنَّ الأصل في هذه المعاني أن يُعَبَّرَ عنها بالأسلوب الخبري.

وكذا جاء الاستفهام في هذه القصيدة دالاً على معاني نفسية تخرج به عن وظيفته الأصلية المتمثلة بطلب الإفهام، إلى إنشاء معاني نفسية والبوح بها، وهو ما يمكن تسميته "التناوب الوظيفي" في الأسلوب الإنشائي نفسه، والمراد بذلك تناوب عدّة معاني على الأسلوب الإنشائي.

¹ انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 101.

وفي الحالتين يأتي الاستفهام حاملاً في ثناياه طيفاً واسعاً من الانفعالات التي تختلف شدةً ونوعاً من سياقٍ إلى آخر، وهذا الجمع بين الدلالي والانفعالي في التركيب الاستفهامي هو سرُّ التعويل عليه في "القصيدة الدمشقية"، لذلك أفهمتُ عبارتها أكثر مما يقوله ظاهرها، أو خلافَ ما يقوله، بعبارة التداولين، مما جعلها عبارة مُتَعِّقَةٌ قَبْلَ أَنْ تُفِيدَ، بعبارة أصحاب نظرية الأدب.

وفي "القصيدة الدمشقية" دروس عملية توضح وتؤكد صحة تلك المقولات التداولية النقدية الحاكمة لآلية عمل اللغة في الأدب عامة، والشعر خاصة، فالسؤال عن دار فاطمة مثلاً يفيد ما يرجو الشاعر أن يكون عليه موطنه ومهدُّ طفولته؛ أن يكون كما كان ناعماً بالأمن والسلام، مؤازراً بالبهجة والسعادة والجمال، وسُبُلِ العيش الرغيد، إضافة إلى ذلك، ييوح السؤال بمشاعر حبِّ الوطن، والقلق عليه، والحنين إليه، والإعجاب به:

أَلَا تَنَالُ بِخَيْرٍ دَارَ فَاطِمَةَ؟
وَالنَّهْدُ مُسْتَنْقَرٌ.. وَالْكُحْلُ صَدَّاحٌ
ولا يقلُّ سؤال الشاعر عن العروبة كثافةً دلاليةً، وغنى انفعالياً، عن سؤاله عن دار فاطمة:

مَا لِلْعُرُوبَةِ تَبَدُّو مِثْلَ أَرْمَلَةٍ
أَلَيْسَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَفْرَاحٌ؟
فهذا السؤال - متلوّاً بمثله - بؤرةٌ بؤح بانفعالات متداخلة ومتباينة أيضاً، فهو تعجُّبٌ من حال العروبة التي ليس لها في مخيال الشاعر من يرعى لها حُرْمَتَهَا، وإنكارٌ تويخيٌّ لِمَنْ تَخَلَّوْا عَنْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وحصُّ على إنقاذ العروبة مما ألمَّ بها من ضعةٍ وضباع، وتوجُّعٌ من حالها المزرية هذه، وتحزُّنٌ عليها، وحثُّ على إنقاذها باستلهاً ما في تاريخ الأمة من صفحات مشرقة، أشار إليها في النص بحفاوةٍ وتمجيدٍ في الاستفهام التقريري في الشطر الثاني: "أَلَيْسَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ أَفْرَاحٌ؟"، وغاية التوتر الانفعالي في النص يحكيه سؤال يشي بضيق الشاعر بلُغْتِهِ لعجزها عن احتواء ما هو فيه من مشاعر، يقول:

هُنَا جُدُورِي. هُنَا قَلْبِي. هُنَا لُغْتِي
فَكَيْفَ أَوْضِحُ؟ هَلْ فِي العِشْقِ إِضْحَاحٌ؟

فقوله: "فَكَيْفَ أَوْضِحُ؟ هَلْ فِي الْعِشْقِ إِضْاحٌ؟"، سؤالان طافحان بانفعالات تعلق الشاعر بدمشق، إنَّه تعلقُ المحبِّ بِمَنْ أَحَبَّ، وهذه حالة تُعَاش، وتُعَانِي، ولا تحتاج إلى وصفٍ وبيانٍ، لأنَّها حالة عشقٍ معيشةٍ ظاهرًا وباطنًا، والعشق كالحرب، واضحٌ للعيان، ولا يمكن إخفاؤه أو التسترُ عليه.

على هذا النحو من التكتيف في الدلالة، والعمق في الانفعال؛ أسهمت صيغة السؤال في إنجاز تجربة نزار قباني في "القصيدة الدمشقية"، على أن هذه الصيغة كان لها أيضًا دورٌ في إنجاز البنية الإيقاعية لهذه التجربة، وهذا ما تتضح بعض تجلياته في الفقرة الآتية.

3. البنية الإيقاعية في القصيدة الدمشقية:

ما من شكٍّ في أن "القصيدة الدمشقية" تُقدِّم أمودجًا للشعرية الشفاهية، وأبرز مكونات شعريتها الشفاهية أمَّا ظاهرة صوتية تتبدى قدراتها التأثرية والتأثيرية بمنبرية أحاذة، وقد بدا توظيف نزار هذه الظاهرة في مطلع قصيدته، وفي قافيتها، فقد حرصَ في المطلع على التصريح، وهذا سببٌ ثانٍ لاختيار (الراح) في هذا البيت اسمًا للخمرة، إضافة إلى قيمتها الدلالية الانفعالية التي أشرنا إليه من قبل، يُضاف إلى ذلك أن لفظة (الراح) أسست لقافية قائمة على مَدَّين كفيلين باستيعاب المكوّن الانفعالي في النصّ اندياحًا وعمقًا، فهما صائتان طويلان أخذتا مداهما في السعة، وبينهما حاءٌ مبسوطة عميقة المخرج، ومتبوعةً بأثقل المدود، وهو الواو، ولا شكٍّ في أن لهذا المُرَكَّبِ الصوتي الدور الأهم في إنجاز المنشئ بعمقٍ وكثافةٍ واندياحٍ مشاعر اللحنِ الحزينِ الدافئ؛ لحنِ الوجد الذي تعزفه موسيقا القصيدة بعامة.

وما زاد هذا اللحنَ دفنًا وعمقًا أنَّ البنية الصوتية للقافية مكنت الشاعر غيرَ مرّةٍ من توظيف القيمة الصرفية لصيغة مبالغة اسم الفاعل (فَعَال: ذَبَّاح، جَرَّاح، صَدَّاح، فَوَّاح، لَمَّاح... إلخ)، فصيغة (فَعَال) هذه بتشديدها، وبما تدلُّ عليه من المبالغة والتوكيد؛ كان لها دورٌ أساسيٌّ في تكوين إيقاع "القصيدة الدمشقية".

ومما كان له دورٌ أساسيٌّ أيضًا في ذلك، ما وضَّحناه قبلاً من تناوب بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، ولا سيما الاستفهامي، فهذا التناوب بما يرافقه من شحنات انفعالية متباينة نوعًا وحادّةً؛ يصحبه أيضا تنوعٌ وغميٌّ إيقاعيان يتغلبان على ما يمكن أن يترتب على

وحدة الوزن والقافية من رتبة قد تفضي إلى فتورٍ في التلقي، أي إن هذا التناوب يُعني إيقاع النصِّ ويُجِدِّده، وذلك لاختلاف تنعيم التركيب الخبزي المثبت أو المنفي، عن تنعيم التركيب الاستفهامي، لذا جاءت تنغيمات إيقاع "القصيدة الدمشقية" متناغمة بانسجام بينَ مستقرِّ ممتدَّة تارةً،¹ وبينَ مرتفعةٍ هابطةٍ تارةً أُخرى، وفي هذا التنوع الإيقاعي ما يشحذُ الذائقة أو ينشطها، ويساعدها على التفاعل مع النصِّ تفاعلاً أكثر عمقاً وحرارةً، ولعلَّ لطبيعة بنية مفردات النص عامة، ونظْمها في التراكيب نظماً عفويّاً سلساً؛ دوراً لا يُنكر في إنجاز بنيته الإيقاعية الغنية والمتنوعة، وهو ما نتلمَّس بعضَ معالمه في تناولنا لألفاظ هذا النصِّ.

4. البنية اللفظية في القصيدة الدمشقية:

لم ينجح نزار في "القصيدة الدمشقية" فقط في اختيار المفردات المستجيبية لبنية نصِّه الدلالية والانفعالية والموسيقية، بل نَجَحَ أيضاً في اختيار ألفاظ دالَّة على الحركة والتجدُّد فيما تدلُّ عليه من الأحداث والمعاني، مما جعلَ القصيدة لوحات تشكيلية مؤارة بنبض الحياة بمختلف مآسيها وأحزانها وأوجاعها، وهذه الحركة وذلك التجدُّد إنما عبَّرت عنهما المفردة النزارية في هذه القصيدة ببنيته الصرفية، وبطبيعة الحدث الذي تدلُّ عليه، وهو ما يُلاحظ فيما استعمله النص من الأفعال المضارعة،² (إني أحبُّ، مآذن الشام تبكي إذ تعانقني، أقاتل القبح في شعري... إلخ)، كما يُلاحظُ فيما استعمله من كلمات على زنة مبالغة اسم الفاعل (ذبَّاح، صدَّاح، جَرَّاح، فَوَّاح... إلخ)، وقد تدلُّ المفردة في هذه القصيدة على الحركة والتجدُّد بطبيعة الحدث الذي تدلُّ عليه، وهذا ما يُلاحظ فيما استعمله الشاعر من أفعال ماضية، (لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وتفاح، ولو فتحتم شراييني بمديتكم، تقاذفتني بحاراً لا ضفاف لها، وطاردتني شياطين وأشباح... إلخ)، فهذه المفردات كلُّها تدلُّ بمعناها المعجمي على الحركة والتجدُّد أو التكرار.

¹ لعلَّ من المفيد الإشارة إلى أن النبر والتنغيم - وهما مكونان أساس من مكونات الإيقاع - يسيران القوة الإنجازية للفعل قوةً وضعفاً.

انظر: نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص 84، 114.

² انظر: رحامي، الإثبات في العربية، ص 203.

والجدير بالذكر أنَّ الحركة والتجذُّد أو التكرار أحداثٍ محيِّزة بالضرورة زمانياً ومكانياً، مما مَكَّن لغة النص من أن تكون - كما بيَّنا - لغةً مشهديَّةً نابضةً بالحياة، تستهدف - إذا أنعمنا النظر - أن يتواصل المتلقي مع النصِّ بمختلفِ الحواس؛ الرؤية والسمع والذوق، وهذه المشهدية الحركية التصويرية في لغة هذه القصيدة لا تعتمد فقط على قدرات مفرداتها المعنوية والصرفية كما لاحظنا، بل تعتمد أيضاً على العلاقات التركيبية بين مختلفِ مفردات الجملة الشعرية، وهذا جلِّي واضح في قول الشاعر:

حَمْسُونَ عَامًا.. وَأَجْرَائِي مُبَعَثَةٌ
فَوْقَ الْمُحِيطِ، وَمَا فِي الْأُفُقِ مِصْبَاحٌ
وقوله:

حَمَلْتُ شِعْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَتَعَبَنِي
مَادَا مِنَ الشَّعْرِ يَبْقَى حِينَ يَرْتَاخُ؟
فهذا المشهد صورة حية متحركة، تصوّر الشاعر جائباً الأفق بشعره، مثقلاً وسعيداً في الوقت نفسه بحملِ مسؤولية الكلمة، فلا قيمة للشعر عنده إذا لم يحمل هذه المسؤولية، هذا ما نطق به سؤال الشطر الثاني الذي يدلُّ على النفي كما يدلُّ على الحضي والتفريع؛ حضي على ضرورة أن يحمل الشاعر مسؤولية الدفاع عن القضايا الإنسانية عامة، وتفريع لمن تحلَّى في شعره عن حملِ هذه المسؤولية.

خاتمة المطاف

وبعد، فقد حاولت هذه القراءة التحليلية للقصيدة الدمشقية لنزار قباني، أن تربط العناصر اللغوية ذات الدور الأبرز في إنجاز شعرية هذه القصيدة، بما لها من إسهام في هذا الإنجاز، وذلك بدءاً بالصوت، ومروراً بالمفردة ومعناها المعجمي وبنيتها الصرفية، وبالعبارة النحوية، وانتهاءً بالدلالة النصية العامة، مما ساعد في الوقوف على منطوق دلالة العنصر اللغوي ومفهومها، وقد تبين أن التركيب اللغوي في الشعر عامة، وفي "القصيدة الدمشقية" خاصة؛ يُفهم أكثر مما يقول أو يُوهم به ظاهرُ بنيتِه.

ولا شكَّ في أن مقولة "السهل الممتنع" في "القصيدة الدمشقية" إنما تجلَّت فيها بأنَّ ما قامت عليه من ألفاظ يومية مألوفة، ووضوح ظاهري في المعنى، وشفافية في الصورة البيانية، وبساطة تركيبية، وسلاسة وعفوية؛ لم يخلُ دُونَ أن يقدِّم لنا نزار نصًّا احتاج الوقوفُ على شعرته بتجلياتها الانفعالية والدلالية والموسيقية، إلى قراءة ساهرة مستنيرة بما يساعدها من المقولات النحوية والبلاغية والنقدية واللسانية، ليتَّضح أننا أمام نصٍّ يقوم على تنوعٍ وغنى في معانيه وانفعالاته وموسيقاه، ورؤية شعرية أساسها تجذُّر الانتماء إلى دمشق ومرموزها الحضاري، وتمجيدٌ لها ولحضارتها، وحنينٌ إليها وحرزٌ دافئ، واحتجاجٌ لم يرقَ إلى حدِّ الصدام الحادِّ أو التصعيد الصارخ، لأنَّه احتجاجٌ مصحوب بالوجع مما حلَّ بالأُمَّة من الضَّعة والضياع.

المصادر والمراجع

- آن موريل، النقد الأدبي المعاصر: مناهج اتجاهات قضايا، ترجمة: إبراهيم أولحيان، محمد الزكراوي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2008).
- رينيه ويليك، أوستين وارين، نظرية الأدب، ترجمة: محيي الدين صبحي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1981).
- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة (بيروت: دار الآداب، ط1، 1995).
- عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط5، 2001).
- عبد العزيز أبو سريع ياسين، الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1989).
- م. ل. روزنتال، الشعر والحياة العامة، ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابي (دمشق: وزارة الثقافة، 1983).
- محمد أبو موسى، خصائص التراكيب (القاهرة: مكتبة وهبة، ط5، 2000).
- محمد عبدو فلفل، صور من التحليل النحوي للنص الشعري (دمشق: وزارة الثقافة، ط1، 2021).
- محمد عبدو فلفل، في التشكيل اللغوي للشعر: مقاربات في النظرية والتطبيق (دمشق: وزارة الثقافة، ط1، 2013).
- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2011).
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2005).
- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة (بيروت: منشورات نزار قباني، ط2، 1999).
- يوسف رحامي، الإثبات في العربية: دراسة نحوية تداولية (الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ط1، 2023).

References

- Abdul‘azīz Abū Srī‘ Yāsīn, *al-‘Asālīb al-‘Inshā’iyyah fī al-Balāghah al-‘Arabīyyah* (Cairo: Maktabah al-‘Ādāb, 1st Ed., 1989).
- Abdussalām Hārūn, *al-‘Asālīb al-‘Inshā’iyyah fī al-Naḥw al-‘Arabī* (Cairo: Maktabah al-Khānjī, 5th Ed., 2001).
- Anne Maurel, *al-Naqd al-‘Adabī al-Mu‘āṣir: Manāhij, Itijāhāt, Qaḍāyā, Ibrāhīm Ulaḥyan & Muḥammad al-Zakawī* (Trans.) (Cairo: al-Markaz al-Qawmī lil-Tarjamah, 1st Ed., 2008).
- M. L. Rosenthal, *al-Shi‘r wal-Hayāh al-‘Āmmah*, Ibrāhīm Yaḥyā al-Shihābī (Tran.) (Damascus: Ministry of Culture, 1983).
- Maḥmūd Aḥmad Naḥlah, *‘Āfāq Jadīdah fī al-Baḥth al-Lughawī al-Mu‘āṣir* (Cairo: Maktabah al-‘Ādāb, 1st Ed., 2011).
- Mas‘ūd Shaḥrāwī, *al-Tadawuliyyah ‘ind al-‘Ulamā’ al-‘Arab* (Beirut: Dār al-Talī‘ah, 1st Ed., 2005).
- Muḥammad Abū Mūsā, *Khaṣā’iṣ al-Tarākīb* (Cairo: Maktabah Wahbah, 5th Ed., 2000).
- Nizar Qabbani, *al-‘A‘māl al-Siyāsiyyah al-Kāmilah* (Beirut: Manshūrāt Nizar Qabbani, 2nd Ed., 1999).
- René Wellek & Austin Warren, *Naẓariyyah al-‘Adab*, Muḥyiddīn Ṣubḥī (Tran.) (Beirut: al-Mu‘assasah al-‘Arabīyyah lil-Dirāsāt wal-Nashr, 2nd Ed., 1981).
- Ṣalāḥ Faḍl, *‘Asālīb al-Shi‘riyyah al-Mu‘āṣirah* (Beirut: Dār al-‘Ādāb, 1st Ed., 1995).
- Yūsuf Raḥymī, *al-‘Itḥbāt fī al-‘Arabīyyah: Dirāsah Naḥwiyyah Tadāwuliyyah* (Riyadh: King Salman Global Academy for Arabic Language, 1st Ed., 2023).



إشكالات الترجمة من التركية إلى العربية لدى الطلاب الأتراك دراسة تقابلية

هاني إسماعيل رمضان*

مُلخَص

تتباين الأسرة اللغوية لكلٍ من اللغتين العربية والتركية، وهو ما يمثّل تحديًا لدى المترجمين والمتعلّمين من الأتراك، ولا سيما المبتدئين منهم، فقد لحظَ الباحثُ جملةً من الأخطاء الشائعة في الترجمة، ناتجة عن ذلك التباين لدى طلاب المرحلة الجامعية في كليّات الإلهيات، وفي محاولة لتوصيف هذه الإشكالات وحصرها ينطلق هذا البحث من فحص مجموعة من ترجمات الطلبة الأتراك في كليّات الإلهيات واستقرائها، معتمداً منهجي التحليل التقابلي وتحليل الأخطاء.

الكلمات الرئيسية: الترجمة، العربية، التركية، إشكالات، كلية الإلهيات

* أستاذ مشارك متخصص في النقد والأدب المقارن، كلية الإلهيات، جامعة غيرسون، الجمهورية التركية،

.hany.ramadan@giresun.edu.tr



Problems of Translation from Turkish to Arabic for Turkish Students A Contrastive Study

Hany Ismail Ramazan*

Abstract

The linguistic family of both Arabic and Turkish languages varies, which represents a challenge for translators and learners from Turkey, especially beginners. The researcher has noticed several common translation errors resulting from this variation among undergraduate students in theology faculty. To describe and limit these problems, this study starts from examining a group of translations by Turkish students in theology faculty, and extrapolating them, relying on the contrastive analysis and error analysis.

Keywords: *Translation, Arabic, Turkish, problems, faculty of Theology*

* Associate Professor of Criticism and Comparative Literature, Faculty of Theology, Giresun University, Turkey, hany.ramadan@giresun.edu.tr.

مُقَدِّمَة

لا شكَّ في أن لكلِّ لغةٍ أدواتها وتراكيبها التي تُعبِّر بها عن الزمن بأشكاله المتنوعة ودلالاته المختلفة، ولا ريب في أن كلَّ لغةٍ تتفاوتُ في طرائق التعبير عن الأفكار والمعاني المجرّدة، ولكن اللغات قد تتكافأ أحياناً في بعض تلك الطرائق، أو في دلالات الألفاظ المعبّرة عن المعنى، بيد أنها يغلب أن تتباين، فلعلَّ لغةٍ بنيةً سطحيةً¹ تختلف عن غيرها في أنماط التراكيب، وقرائن السياق، ومحمولات الألفاظ الثقافية والاجتماعية، وهو ما يمثّل تحدياً حين الترجمة من لغةٍ إلى أخرى، ويمثّل في آنٍ معاً عائقاً لاكتساب اللغات الأجنبية، مع أن البنية العميقة² في اللغات تنطلق من مبادئ عامّة وقواعد كُليّة تكاد تتشابه ما لم تتطابق، فوفق مفهوم النَّحو الكليّ³، ثمّة مجموعة من القواعد والقوانين والمبادئ العامّة التي تشترك فيها معظم اللغات، ولا تختصُّ بها لغةٌ معيَّنة.

ويُتّضح هذا التباين جلياً في اللغتين العربية والتركية اللتين تنتميان إلى أسرّتين لغويتين متباينتين؛ إذ تنتمي اللغة العربية إلى "اللغات السامية التي تُعدُّ من أقدم اللغات الإنسانية التي وصلت إلينا مُدونةً"⁴، ويُطلق اسمُ "اللغات السامية" على لغات هذه الأمم التي عاشت في أقصى الغرب من قارة آسيا، أو ما يُسمّى "الشرق الأدنى" أو "الشرق الأوسط"⁵، وما تفرّع

¹ يُقصد به التركيب الظاهر للجملة في مرحلتها الأخيرة من التمثيل النحوي للجملة، ويقابله مصطلح "البنية العميقة". انظر: عبد العزيز العصيلي، المعجم الموسوعي لمصطلحات اللسانيات التطبيقية (الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، 2023)، ج3: ص1057.

² يُقصد به التركيب الأساس أو التمثيل التجريدي للجملة في ذهن المتحدث أو الكاتب، أي معنى الجملة الذي يتحوّل فيما بعد - باستعمال قواعد تحويلية معيَّنة (Transformational Rules) - إلى تركيبٍ سطحيٍّ ظاهرٍ (Surface Structure)، وهو الكلام المنطوق أو النص المكتوب في صيغته الأخيرة، والبنية العميقة من المفاهيم الرئيسة في نظرية تشومسكي، وتُقابلها "البنية السطحية".

انظر: العصيلي، المعجم الموسوعي لمصطلحات اللسانيات التطبيقية، ج1: ص377، ج3: ص1626.

³ انظر: المرجع السابق، ج3: ص1630-1631.

⁴ محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة (القاهرة: دار قباء، د.ت)، ص166.

⁵ انظر: حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم (دمشق: دار القلم، 1990)، ص5.

منها، ويُطلق كذلك على بعض لغات أخرى ظَهَرَ لهم انتماؤها إلى الأسرة نفسها التي تنتمي إليها هذه اللغات، وتضمُّ عددًا من اللغات القديمة والحديثة، منها ما انقرض، ومنها ما هو حيٌّ إلى اليوم، من مثل العربية، والعبرية، والأمهرية، والآرامية، وغيرها من اللغات الأفروآسيوية.¹ أمَّا اللغة التركية فتتنتمي إلى أسرة اللغات الأورالية الألطية،² التي تشمل معظم لغات آسيا الوسطى، من مثل التركية، والفلنندية، والمجرية، والمنغولية، ومن الباحثين من يجعل اليابانية والكورية من أفراد هذه الأسرة،³ ومنهم أيضًا من جعلها أُسرتين منفصلتين؛ الأورالية، والألطية، ومهما يكن فإن من الخصائص اللغوية المشتركة للغات الأورالية الألطية أنها لغات إصاقية؛ إذ تتألَّف الكلمة من جذرٍ ومجموعة من اللواحق والسوابق التي تؤدي إلى التغيُّر الدلالي والصرفي، بالإضافة إلى الوظائف النحوية.

وتأتي اللواحق جميعها في اللغة التركية في نهاية الجذر، ولما كانت صياغة الجمل والمفردات تنتج من تتابع هذه اللواحق؛ فإنه قد يُضاف إلى الجذر الواحد أحدَ عشرَ لاحقة، وتصل أحيانًا إلى سبعة عشر لاحقة.⁴

ومن خصائص اللغة التركية وأسرة اللغات الأورالية الألطية مراعاة التوافق الصوتي وتناغم الصوائت من حيث التفخيم والترقيق؛ إذ تتغيَّر اللواحق وفقَّ صوائت الجذر، فإن كان الجذر مرقِّعًا كما في (öğrenmek)، فعندَ تصريفه في الماضي يصبح (öğrendi)، وإن كان مفتحًا كما في (yasmak) يصير في الماضي (yazdı)، وتنطبق القاعدة أيضًا على الأسماء، فنقول (evdeyim)؛ إذ جاءت اللاحقة (de) بدلاً من (da)، وجاءت اللاحقة (im) بدلاً من (ım) مراعاة لصائت الجذر، وذلك خلاف كلمة (okul) ذات الصوائت المفتحة، فقد أصبحت (okuldayım) مراعاة لتفخيم صوائت الجذر.

¹ انظر: علي عبد الواحد وافي، *فقه اللغة* (القاهرة: دار نضرة مصر، 2004)، ص 7.

² انظر: حسن ظاظا، *اللسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللغة* (دمشق: دار القلم، 1990)، ص 161.

³ See: Ahmet Bican Ercilasun, "Türkçenin Dünya Dilleri Arasındaki Yeri", *Dil Araştırmaları*, No. 12, (2013), pp. 17-22.

⁴ See: Vecihe Hatiboğlu, *Türkçenin Ekleri* (Ankara: Türk Dil Kurumu Yayınları, 1981), p. 5.

وتتميز اللغة التركية وأسرتها كذلك بأنها لا تفرّق بين المذكر والمؤنث، فالضمائر عينها تشير للجنسين، وكذا تخلو من أدوات التنكير والتعريف، ويتصدّر المسند إليه الجملة في حين يأتي المسند في نهاية الجملة.¹

ولتوضّح بنية النظام اللغوي للتركية نمثّل بجملة: قرأتُ روايةً صديقي الجديدة، وهي

في التركية: Ben arkadaşıımın yeni romanını okudum.

فالجزر (oku) دلّ على زمن الماضي بعدما أُضيفت له اللاحقة (du)، وتدلّ اللاحقة (ım) على الفاعل المتكلم، ومن ثم صار الجذر بمعنى الفعل الماضي للمتكلّم (قرأتُ، okudum)، ومن الملحوظ أن ترتيبه جاء في نهاية الجملة.

وأما (arkadaşıımın) التي تعني (صديقي)، فهي تتكوّن من (arka) التي من معانيها المساعدة والتعاون، مع لاحقة المفاعلة والمشاركة (daş)، فتولّدت مفردة (صديق، arkadaş)، ثم أُضيفت لاحقة ضمير المتكلم (ım)، ولاحقة الملكية (ın).

وأما كلمة (romanını) فتتألّف من (roman)، أي (رواية)، مع لاحقة الإضافة (ı)، ولاحقة المفعولية (ı)، مسبوقة بلاحقة الوقاية (n).

وقد جاء ترتيب الجملة وفق ما يأتي:

- المسند إليه (Ben).

- المضاف إليه (arkadaşıım).

- الصفة (yeni).

- المضاف (roman).

- المسند (okudum).

وبمقارنة هذا الترتيب بترتيب الجملة العربية، نجد اختلافات جوهرية، منها أن المسند في اللغة التركية يأتي دائماً في نهاية الجملة، وأن المضاف إليه يسبق المضاف، وأن الصفة تفصل بين المضاف والمضاف إليه.

¹ انظر: حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص 207 وما بعدها.

الترجمة من التركية إلى العربية: غايتها وأهميتها

إن الهدف الرئيس من الترجمة إلى العربية - وبخاصة في كليات الإلهيات والعلوم الإسلامية محل هذا البحث - اتخاذها إستراتيجية تعليمية لاكتساب العربية وتعلمها، وهو ما يسوّغ اتخاذ الترجمة من التركية إلى العربية من دون العكس.

وبنظرة سريعة إلى طرائق تعليم اللغات يتّضح أن الترجمة كانت - وما زالت - تنبؤاً مكانة بارزة في طرائق تدريس اللغات؛ إذ تربيّت طريقة القواعد والترجمة على هَرَم الطرائق المتبّعة، وتعدّ أقدم طرائق تعليم اللغات المعروفة، نشأت منذُ ظَهَرَت الحاجة إلى تعلّم اللغات الأجنبية وتعليمها،¹ وما زالت هذه الطريقة شائعة في كثير من مؤسّسات تعليم اللغات، وهي الطريقة المفضّلة لكثير من المعلّمين والمتعلّمين مهما تكن الانتقادات الحادة التي وُجّهت إليها بعد بزوغ الطرائق الحديثة لتعليم اللغات، ولا سيما الطريقة التواصلية.

وقد تباينت وجهات النظر إلى الترجمة ومكانتها في تعليم اللغات الأجنبية² وتعلّمها بين القبول والرفض، فثمة من يؤيّد توظيف الترجمة في البرامج التعليمية لاكتساب اللغات، ويؤكّد أنّها عاملٌ مساعدٌ في إدراك مواطن الاتفاق والفرق بين لغة المتعلّم واللغة الهدف، مما يسهّل ويسرّع عملية التعلّم واكتساب اللغة، وثمة من يعارض ذلك، ويُكرّس مكانة الترجمة جملةً وتفصيلاً، ويرى أنّها تمثّل عائقاً من عوائق اكتساب اللغة؛ إذ لا ينفكّ المتعلّم من سلطة لغته الأمّ، ويُسقط أنظمتها على اللغة الهدف، مما يؤدي إلى تعثر عملية التعلّم، وكثرة الأخطاء اللغوية، وثمة فريق ثالث يتوسّط في الأمر، فيرى أنّ الترجمة قد تُسهّم في اكتساب اللغات في مواقف معيَّنة، وأُطر محدّدة.

ومهما تكن جدوى طريقة القواعد والترجمة في تعليم اللغات؛ فإن الترجمة هي السمة الرئيسة فيها، أي إن الترجمة من أولى الإستراتيجيات التعليمية - ما لم تكن أولها - في تعليم اللغات، واقتران استعمال الترجمة بطريقة القواعد والترجمة جعلها في مرمى الانتقادات.

¹ انظر: عبد العزيز إبراهيم العصيلي، طرائق تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2002)، ص33.

² تفرّق الدراسات اللسانية بين مصطلحي "اللغة الثانية" و"اللغة الأجنبية"، بيد أن الباحث استعمل "اللغة الأجنبية" للإشارة إليهما من دون تفریق.

ولتقييم جدوى الترجمة في تعليمية اللغات الأجنبية، يجدر بنا فكُّ هذا الارتباط، والإشارة إلى بعض المنطلقات التي تكاد تكون من مسلّمات الدرس اللساني، فتعلّم اللغة الأجنبية لا ينطلق من فراغ، ومتعلّمها لا يبدأ من الصفر؛ إذ يقارن بين اللغة الهدف ولغته الأم التي تمثّل المرتكز والمعيار، فيستدعي منها المتشابهات في قواعدها ومفرداتها وأصواتها، ويُبرزها في اللغة الهدف، "وهذا ما يفسّر لنا شعور المتعلّم بسهولة بعض المسائل التي يتعلّمها في اللغة الجديدة، وصعوبة بعضها، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه يسير في تعلّمه على هدًى من سنن لغته الأم".¹

ومن ثم تكون اللغة الأم عاملاً مساعداً في تعلّم اللغة الأجنبية، نظراً إلى تمرّسه في تعلّم قوانين اللغة بعامة، وانطلاقه من أرضية مشتركة للقواعد الضمنية التي اكتسبها من لغته الأم، وقد انتهت دراسات عدة إلى العلاقة الوطيدة بين اللغة الأم للمتعلّم واللغة الهدف التي يروم اكتسابها وأهميتها في عملية الاكتساب، ومن هذه الدراسات دراسة مارا سالمونا مديريانا الموسومة "استعمال اللغة الأولى في فصول اللغة الثانية: دعم اكتساب اللغة الثانية"،² وقد توصلت إلى إمكانية استعمال اللغة الأم داعماً لعملية اكتساب اللغة الثانية، يُسهّل عملية التعلّم للمتعلّمين والمعلّمين سواء بسواء، وذا بسبب النقل الإيجابي بين اللغتين، فوفق آراء المعلّمين ينقل المتعلّمون خبراتهم من اللغة الأم إلى اللغة الهدف، وقد أكّدت الدراسة نظرية كمنس (Cummins)،³ التي تفترض أن اللغتين - وإن كانتا مختلفتين - معالجتهما تسير بالمنوال نفسه في جميع مواقف التعلّم، ومن ثم تعدّ المعرفة السابقة نقطة انطلاق لاكتساب لغة جديدة.

¹ سهل درويش، أثر اللغة الأم في تعلم اللغة الثانية دراسة تطبيقية على متعلم العربية من الناطقين بالتركية وفق المنهج التحليلي (أنقرة: إلهيات، 2022)، ص 25.

² See: Mara Salmona Madriñan, "The Use of First Language in the Second-Language Classroom: A Support for Second Language Acquisition", *GIST Education and Learning Research Journal* 9, (2014), pp. 50-66.

³ See: Jim Cummins, *Language, Power and Pedagogy: Bilingual Children in the Crossfire* (Multilingual Matters, 2000).

النَّصُّ المصدِر: الأنماط والخصائص

الغرض الأول من توظيف الترجمة في قاعة الدرس في كليات الإلهيات؛ اكتساب اللغة العربية، ولا سيما المهارات الإنتاجية (الكتابة والمحادثة)، ولإنجاز هذه المهمة كانت الاستعانة بالترجمة، فهي أداةٌ مُجديَّةٌ لا هدفٌ في ذاتها، وذلك رغبة في تمرين المتعلِّم على صياغة الأفكار والجمل باللغة العربية، وتصويب الأخطاء التي يقع فيها بالاستعانة بمنهج تحليل الأخطاء.

وتجدر الإشارة إلى أن إستراتيجيات تعلُّم اللغة تتماهى مع إستراتيجيات اكتساب فنِّ الترجمة، فكلاهما مهارة تُكتسب بالممارسة والدُّربة، فالترجمة فنُّ تطبيقي لا يتأتَّى إلا بالدُّربة والمران والممارسة استنادًا إلى المهوبة، ومن ثمَّ لا يمكن للمترجم أن يُخرج نصًّا مقبولًا مترجمًا من دون ممارسة طويلة للترجمة،¹ وصبرٍ جميل، فالترجمة ليست علمًا صرْفًا ولا فنًّا خالصًا.²

وما ينطبق على الترجمة ينطبق على اكتساب اللغة بدءًا، فالقدرة على فهم اللغة وإنتاجها يتطلَّب مستويات عُليا من المهارة،³ ولا يقتصر على المعرفة بنظام اللغة وتحصيل معلومات ومعارف عنها.

وقد زُوعي حينَ اختيار نصوص المصدر أن تكون في مستوى المتعلِّمين اللغوي، وألَّا تتجاوز حصيلة مفرداتهم في اللغة العربية، لئلا تمثِّل لهم عائقًا، مما يساعدهم في التركيز على صياغة الجمل والتراكيب بالعربية، بدلاً من البحث عن المفردات الجديدة، وقد جاءت معظم النصوص المستهدف ترجمتها من المستوى فوق المبتدئ (A2)، والمستوى المتوسط (B1)، وقليل من المستوى فوق المتوسط (B2).

¹ انظر: محمد عناني، فن الترجمة (لندن: لونغمان، 2000)، ص2.

² انظر: عز الدين نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس (القاهرة: مكتبة ابن سينا، 2005)، ص10.

³ See: Nick Chater, Stewart M. McCauley and Morten H. Christiansen, "Language as skill: Intertwining comprehension and production", *Journal of Memory and Language* 89, (2016), p. 244.

وتمثل محدودية المعجم اللغوي للمتعلم إشكالاً واضحاً أمام تَلْفِيهِ النصِّ وفهم أفكاره الرئيسية والجزئية؛ إذ كلما زادت المفردات الجديدة في النصِّ؛ زادت صعوبته، وقلَّت نسبة استيعابه، مما يُفقد أهدافه ويسلبه أغراضه.¹

وقد رُوِعت في ذلك "فرضية الإدخال" التي تتطلب أن تحتوي على بنى تزيد قليلاً عن مستوى قدرة المتعلم الحالية، فإن كان المتعلم في المستوى (A)؛ فاللغة الداخلة ينبغي لها أن تكون (1+A)، أي تزيد قليلاً عن مستواه الحقيقي، فلا تكون قريبة جداً من مستواه (0+A)، فلا تحقِّق تحدياً له، ولا تكون صعبة جداً (2+A)، فتفوق قدراته وتُنهك قواه.²

وبناءً على أنموذج كاترينا ريس لأنماط النصوص،³ اعتمد النمط الأول؛ نمط النصوص الإخبارية (Informative) ذات لغة النثر البسيطة، وغالباً ما تهدف تلك النصوص إلى إيصال المعلومات والحقائق إيصالاً مباشراً، وذلك على خلاف النمطين الآخرين؛ نمط النصوص التعبيرية (Expressive) ذات الطابع الإبداعي والجمالي، ونمط النصوص الدعائية (Operative) التي تسعى لإحداث تأثيرات انفعالية واستجابة سلوكية معتمدة على الإقناع.

ولا شك في أن اختيار نمط النصِّ المناسب للمتعلمين يحظى بأهمية بالغة؛ إذ يساعدهم حين الترجمة في تحديد رسالة النصِّ المصدر، وإستراتيجيات الترجمة الملائمة لنقل هذه الرسالة من المصدر إلى النصِّ الهدف،⁴ وقد أشار غننغ إلى أن من يدرسون موادَّ سهلة ولا تمثل لهم تحدياً يُذكر، تؤدِّي بهم إلى تحجُّر مستواهم، في حين أن من يدرسون موادَّ صعبة لا تتناسب مع قدراتهم يفشلون في تقدُّم مستواهم.⁵

¹ انظر: هاني إسماعيل رمضان، "مهارة القراءة للناطقين بغير العربية: الأهداف الإشكاليات الاستراتيجيات"، المؤتمر الدولي الرابع العربية للناطقين بغيرها الحاضر والمستقبل، جامعة جرسون، الجمهورية التركية، 2022، ص 91.

² انظر: هنري دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة: عبده الراجحي، علي أحمد شعبان (القاهرة: دار النهضة العربية، 1994)، ص 232.

³ See: Munday Jeremy, *Introducing Translation Studies: Theories and Applications* (London: Routledge, 2008), pp. 73-74.

⁴ See: Oana-Maria PUIU, "Functional Approaches to Translation", *Journal of Young Researchers*, 5(1), (2022), p. 149.

⁵ See: Thomas G. Gunning, "The Role of Readability in Today's Classrooms", *Topics in Language Disorders*, 23(3), (2003), pp. 175-189.

ومن السمات التي وُضعت في الحسبان حينَ اختيار نصوص المصدر؛ تناسب النصِّ مع العمر العقلي للمتعلِّمين، فمن الأخطاء الجسيمة اختيار النصوص المعدَّة للأطفال وأخذها مادةً تدريسية للمتعلِّمين الراشدين، وهو ما يدفعهم إلى العزوف عن المهمة الدراسية، وخفوت الشغف الذي يدفعهم إلى متابعة القراءة والترجمة، فالنصُّ الذي يتَّفَق مع العمر العقلي للمتعلِّمين، ويلبي عطشهم المعرفي؛ يمثِّل حافزًا في ذاته، بخلاف تقديم نصوص تشعرهم بأنَّها لا تحترم عقولهم وميولهم الوجدانية والمعرفية.

الترجمة من التُّركيَّة إلى العربيَّة: التصنيف والمنهج

تتفرَّع الترجمة وفقَّ القناة التواصلية إلى ترجمة تحريرية (Written Translation) تنقل نصًّا مكتوبًا من اللغة المصدر إلى نصِّ مكتوب باللغة الهدف، فيكون موجَّهًا إلى قارئ، وإلى ترجمة شفوية (Interpreting Translation) تنقل خطابًا شفويًا إلى مستمع، وفي سياقات محدَّدة قد تكون هناك ترجمة منظورة (Sight Translation) تنقل شفويًا خطابًا مكتوبًا إلى المستمع.¹ وثمة تقسيمات تفصيلية أخرى، بيَّد أنه لما كان الغرض من هذا البحث استقراء إشكالات الترجمة بوصفها إستراتيجية لاكتساب العربيَّة؛ اقتصر على الترجمة التحريرية، لالتزامها بقواعد اللغة المكتوبة التزامًا صارمًا، على خلاف الترجمة الشفوية التي تتَّسم بالمرونة والتساهل مع قواعد اللغة واختزال العبارة، ففي الترجمة الشفوية تُتصوَّر الرموز المكتوبة (الحروف، الكلمات، الجمل، الفقرات، علامات الترقيم، الرسوم التوضيحية) افتراضياً، أما في الترجمة التحريرية فتبدو واضحة، ويمكن وتقييمها بناءً على ضوابط الإملاء والتعبير،² وهو ما يتيح للمتعلِّم قراءة النصِّ ومراجعته لاستيعابه، إضافة إلى أن علامات الترقيم تُسهِّم في تيسير النصِّ، وهو ما يحدُّ من توتُّر المتعلِّم حينَ تعامله مع النصِّ، فالترجمة التحريرية أقلُّ صعوبة من الترجمة الشفوية.³

¹ انظر: هيئة الأدب والنشر والترجمة (تحرير)، الدليل المهني للمترجم (الرياض: جمعية الترجمة، 2023)، ص 5.

² See: Feriduddin Aydın, *Tercüme Bilimine Giriş ve Tercüme Teknikleri* (Istanbul: Furkan Basın Yayın, 2017), p. 87.

³ انظر: هيئة الأدب والنشر والترجمة، الدليل المهني للمترجم، ص 11.

أما مستويات الترجمة التي تُعالج بها النصوص؛ فإنها وفق لدايردن تتوزع بين الترجمة الحرفية (Metaphrase) التي تقوم بالنقل الحرفي للألفاظ، وترجمة المعاني (Paraphrase) التي تنقل المعنى مهما كان نظام الكلمات في العبارة أو كيفية سبكها، وترجمة المحاكاة (Imitation) التي تقوم على إعادة سبك العبارة إذا اقتضت الحاجة تقديم نصّ بديل.¹ وثمة من فرّع هذه الثلاثية إلى مستويات عدّة للترجمة، من مثل الترجمة بتصرف، والترجمة التفسيرية، والترجمة الشارحة، والترجمة التلخيصية، والترجمة الفورية، وبالنظر إلى هذه الأنواع نستطيع ردها إلى نوعين؛ الترجمة الحرة، والترجمة الحرفية.²

ولما كان متعلّمو العربية في المستويات الأولى - المبتدئ والمتوسط - فالترجمة الحرفية هي المرتكز الذي يمكن الانطلاق منه، ويغلب أن تكون مرحلة وسيطة لتراجم المحترفين،³ ويمكن من خلالها تأسيس منطق اللغة العربية ونظامها لدى متعلّميها، فاكساب منطق اللغة وخصائصها لا يتأتّى إلا بالممارسة والتدريب، وتتوقّف الصحة اللغوية على مبدئين؛⁴ أولهما وضع كلّ عنصر في الجملة في موضعه السليم، وثانيهما أن تعبر الجملة عن معنى صحيح دلاليًا، ومن المعتاد أن تولي كُتُب القواعد اهتمامها للمبدأ الأول من دون المبدأ الثاني، وهنا تأتي مكانة الترجمة في تلافي ذلك النقص.

ومن خلال الممارسة تتجلى الأخطاء التي يقع فيها المتعلّمون، وهنا تأتي مكانة منهج التحليل التقابلي (Contrastive Analysis)، ومنهج تحليل الأخطاء (Error Analysis) لاستكشاف هذه الأخطاء ومعالجتها، وهما منهجان متكاملان؛ إذ ينطلق التحليل التقابلي من تحليل لغوي يجري على اللغة الهدف واللغة الأم للمتعلّم، مقررًا أن أيّ متعلّم لغة أجنبية لا يبدأ من فراغ، ومن ثمّ يختصّ التحليل التقابلي بالبحث في الاتفاق والاختلاف بين اللغة الأولى للمتعلّم واللغة الأجنبية التي يتعلّمها.⁵

¹ انظر: نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس، ص 17.

² See: Ahmed ed-Diyab, "Çeviri Türleri", *Eskiyeni* 27, (2013), p. 157.

³ انظر: نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس، ص 17.

⁴ See: Aydın, *Tercüme Bilimine Giriş ve Tercüme Teknikleri*, p. 100.

⁵ انظر: عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995)، ص 45-46.

وإن كان تحليل الأخطاء يُقارن بين اللغتين الهدف والأُم، فمنهج تحليل الأخطاء يدرس اللغة التي يُنتجها المتعلِّم في اللغة الهدف التي يغلب أن تعثر بها أخطاء نتيجة نقْصِ المعرفة بالنظام اللغوي الذي يتعلَّمه، وهنا يحدد منهج تحليل الأخطاء تلك الأخطاء ويصفها ويفسرهما، ومن ثم يصوبها ويعالجها،¹ ولعل هذا ما يجعل منهج تحليل الأخطاء ملائمًا هذا البحث، لأنه يركِّز على أخطاء الأداء الإنتاجي أو التعبيري (Expressive).

إشكالات الترجمة: أمثلة تحليليَّة

يختلف نظام بناء الجملة بين التُّركيَّة والعربيَّة؛ إذ تتكوَّن الجملة التُّركيَّة من (مسند إليه، فمكثَّلات الجملة، فمسند)، وتتكوَّن الجملة العربيَّة من (مسند، فمسند إليه، فمكثَّلات الجملة)، وقد يتبادُل المسند والمسند إليه - في العربيَّة - المواضع في الجملتين الفعلية والاسميَّة، بيِّد أن المسند في التُّركيَّة يأتي دائمًا في نهاية الجملة.

ومع ذلك التباين لم يمثِّل ترتيب الجملة إشكالًا للمتعلِّمين في أثناء الترجمة، فقد أظهر تحليل الأمثلة التي أعدَّها المتعلِّمون جملةً من الأخطاء الشائعة في الترجمة التحريرية من التُّركيَّة إلى العربيَّة، ولم يكن من ضمنها ترتيب عناصر الجملة، ومن أشهر تلك الأخطاء ما يأتي:

- استعمال التركيب الإضافي.
- استعمال التركيب الوصفي.
- الخلط بين الاسم والصفة.
- استعمال حروف الجر.
- مراعاة التذكير والتأنيث.
- مراعاة التنكير والتعريف.

وثمة أخطاء أخرى، بيِّد أنها لم تكن شائعة، من مثل استعمال المفرد في موضع الجمع، وتعريف العلم، ولضيق مجال هذا البحث نقصر على التركيب الإضافي، لأنه يعدُّ الأكثر شيوعًا، فضلاً عن أنه يتداخل مع الأخطاء الأخرى كما يتَّضح.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 50.

والتركيب الإضافي من أكثر الأخطاء الشائعة التي وردت في أثناء تحليل النصوص المترجمة، ويرجع ذلك إلى التباين بين اللغتين العربية والتركية؛ إذ يتألف التركيب الإضافي في العربية من (مضاف، مضاف إليه)، والمضاف يكون نكرة دائماً، في حين يكون المضاف إليه معرفة غالباً، فيكتسب المضاف التعريف من المضاف إليه، وقلماً يكون المضاف إليه نكرة، وحينها يكتسب المضاف التخصيص لا التعريف، والأصل في الإضافة إثبات نسبة المضاف إلى المضاف إليه على الحقيقة.¹

أما الإضافة في التركية فتتكوّن من إضافة اسمين، ولا أداة للتعريف أو التنكير في التركية، وتنقسم الإضافة في التركية إلى ثلاثة أقسام:²

- الإضافة الاسمية المعرفة (Belirtili İsim Tamlaması)، التي تشتمل على لاحقة المضاف إليه (in) في المضاف إليه (tamlayan)، ولاحقة الإضافة (i) في المضاف (tamlanan)، من مثل (evin kapısı، باب البيت).
- الإضافة الاسمية النكرة (Belirtisiz İsim Tamlaması)، التي تخلو من لاحقة المضاف إليه (in) من المضاف إليه، من مثل (Fen öğretmeni، أستاذ علوم).
- الإضافة التتابعية (Zincirleme İsim Tamlaması) التي يتعدّد فيها المضاف مع المضاف إليه، فلا تقلّ الإضافة عن ثلاثة أسماء، من مثل (Ali'nin annesinin çantası، حقيبة والدة علي).

ومن الملحوظ بعامة أن الإضافة المتتابعة شائعة في اللغة التركية، بخلاف اللغة العربية التي لا تستسيغ تعدّد المضاف إلا في حالات نادرة، كالإضافة إلى الضمير، من مثل (رسول ربك) في قوله تعالى: ((قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)) [مریم: 19].

¹ انظر: عبد اللطيف الخطيب، سعد مصلوح، نحو العربية (الكويت: دار العروبة، 2000)، ج 4: ص 95.

² انظر: محمد هنكريم، قواعد اللغة التركية مشروحة باللغة العربية، ترجمة: محمد حقي صوتشين (أنقرة: دار أنكين، 2015)، ص 53 وما بعدها.

وكذا الإضافة إلى النكرة في اللغة العربية قليلة، وتفيد التخصيص، من مثل (صاغ حبّ، صاغ تمرّ)، في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَصْبَحَ عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ صَاغُ حَبِّ، وَلَا صَاغُ تَمْرٍ»، وذلك بخلاف التركيّة، فالإضافة النكرة شائعة، حتى إن ثمة قسمًا رابعًا متنازعًا فيه بين التركيبين الإضافي والوصفي يخلو تمامًا من اللواحق، من مثل (Pamuk gömlek، قميص قطن).

وهذا التمايز ما يفسر الأخطاء التي يقع فيها المتعلّمون عند الترجمة، من مثل ترجمة جملة (Annem ev hanımıdır) إلى (أمي ربّة المنزل)، والصواب (أمي ربّة منزل)، فالتركيب الإضافي هنا خبرٌ، والأصل في الخبر التنكير، والإضافة إلى نكرة لا تُكسب المضاف تعريفًا، بل تخصيصًا.

ولعلّ تحليل ترجمة الجملة الآتية يوضّح جملة من الأخطاء، فكثير من الطلاب ترجموا (Emre'nin çok hobisi var) إلى (توجد الإمرة هواية كثيرة)، والصواب (إمرة هوايات كثيرة).

ويُتضح أن المتعلّمين بسبب مستواهم اللغوي اكتفوا بالمكافئ للكلمة (var) (يوجد) من دون الانتباه إلى استعمالاتها السياقية، وربما هذا يحتاج إلى مستوى متقدم، بيدّ أن تعريف العلم (إمرة) بالألف واللام خطأ شائع، وهو كثير في أسماء المدن والدول، من مثل (الإسطنبول، المكة، الباكستان).

ويُعبّر في التركيّة بالمفرد عن الجمع إذا كان في سياق العموم، أما في العربية فيغلب أن يُعبّر عنه بالجمع، ففي الجملة السابقة جاء التعبير عن الهوايات بصيغة المفرد في التركيّة (hobi)، لذلك ترجمها المتعلّمون بصيغة المفرد في العربية (هواية)، والصواب ترجمتها بصيغة الجمع بقرينة الصفة (çok، كثيرة)، ومثلها تركيب (çocuk doktoru) الذي يترجمونه (طبيب طفل)، والصواب (طبيب أطفال).

ونلاحظ أن التركيب الإضافي في التركيّة (Emre'nin çok hobisi) لا يتكافأ مع التركيب الإضافي في العربية في هذه الجملة، وكان من الأفضل أن يُترجم إلى تركيب وصفي.

ومما يتعلّق بالتركيبين الإضافي والوصفي أن بعضَ التعابير تكون مُستساغة في العربية في التركيب الوصفي، أما في التركية فتكون مستساغة في التركيب الإضافي من مثل (Bayan giyim bölümü) الذي ترجمه المتعلّمون (قسم ملابس النساء)، والصواب (قسم الملابس النسائية)، لكرهة توالي الإضافة.

خاتمة

ناقشَ هذا البحث الترجمة من التركية إلى العربية، وأهمية توظيفها في تعليم العربية لغةً أجنبيةً، وجدوى ذلك في تحسين مستوى المتعلّمين من طلاب كليّات الإلّهيات في الجامعات التركية، وركّز البحث على الترجمة التحريرية من دون الشفوية للسهولة النسبية بينهما، واستعراض أنماط النصوص في حقل الترجمة، ورجّح أن تُختار النصوص من النمط الإخباري، وكذا تطرّق البحث إلى تصنيف مستويات الترجمة، وارتأى أن الترجمة الحرفية هي الأنسب للمستويات المبتدئة والمتوسطة، ولا سيما أن الغرض من الترجمة أن تكون إستراتيجية لاكتساب اللغة العربية، لا هدفًا في ذاتها، ومن ثمّ عاجلَ البحث بعضَ الأمثلة وتحليلها باعتماد منهجي التحليل التقابلي وتحليل الأخطاء، وانتهى إلى أن ثمة أخطاء شائعة يأتي في مقدّمها التركيب الإضافي، وقد عرّض بعضَ الأمثلة، وناقشَ ما يكتنفها من أخطاء أخرى.

وقد انتهى البحث إلى أهمية توظيف الترجمة في حقل تعليم العربية لغةً أجنبيةً، لذا يُوصي بأن تُخصّص ساعات تدريسية منفصلة للترجمة التحريرية من التركية إلى العربية في كليّات الإلّهيات، بدءًا من المستويات المبتدئة، ومرورًا بالمتوسطة، وانتهاءً بالمتقدّمة، ولما كانت الترجمة فنًّا تطبيقي، فإن البحث يُوصي أيضًا بإجراء بحوثٍ تجريبية على ترجمات المتعلّمين وتحليلها؛ لاستكشاف الأخطاء الشائعة في أثناء الترجمة، بالتوازي مع إعداد مناهج تعليمية للترجمة التحريرية من التركية إلى العربية، بالإضافة إلى دمج الترجمة في المناهج الحالية أو المستقبلية.

ملحق

من أمثلة الخطأ في التركيب الإضافي المترجم من التركية إلى العربية

الخطأ في الترجمة إلى العربية	الأصل في التركية	م.
اللغة العربية مهم جدا	Arapça çok önemlidir	1
الأم تتعب ليربي أولادها	Anne çocuklarını büyütmekten yoruldu	2
	Anne çocuklarını büyütmek için çok çalışıyor	3
أريد تعلم ثقافة الإسلامية	İslam kültürünü öğrenmek istiyorum	4
المسلم يتبسم على كل الناس	Müslüman herkese gülümser	5

المصادر والمراجع

- حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم (دمشق: دار القلم، 1990).
- حسن ظاظا، اللسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللغة (دمشق: دار القلم، 1990).
- سهل درويش، أثر اللغة الأم في تعلم اللغة الثانية: دراسة تطبيقية على متعلم العربية من الناطقين بالتركية وفق المنهج التحليلي (أنقرة: إهيات، 2022).
- عبد العزيز إبراهيم العصيلي، طرائق تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2002).
- عبد العزيز العصيلي، المعجم الموسوعي لمصطلحات اللسانيات التطبيقية (الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، 2023).
- عبد اللطيف الخطيب، سعد مصلوح، نحو العربية (الكويت: دار العروبة، 2000).
- عبد الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995).
- عز الدين نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس (القاهرة: مكتبة ابن سينا، 2005).
- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة (القاهرة: دار نفضة مصر، 2004).
- محمد عناني، فن الترجمة (لندن: لونجمان، 2000).
- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة (القاهرة: دار قباء، د.ت).
- هاني إسماعيل رمضان، "مهارة القراءة للناطقين بغير العربية: الأهداف الإشكاليات الاستراتيجية"، المؤتمر الدولي الرابع العربية للناطقين بغيرها الحاضر والمستقبل، جامعة جرسون، الجمهورية التركية، 2022.

هنري دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة: عبده الراجحي، علي أحمد شعبان (القاهرة: دار النهضة العربية، 1994).

هيئة الأدب والنشر والترجمة (تحرير)، الدليل المهني للمترجم (الرياض: جمعية الترجمة، 2023).

Ahmed ed-Diyab, "Çeviri Türleri", *Eskiyeni* 27, (2013).

Ahmet Bican Ercilasun, "Türkçenin Dünya Dilleri Arasındaki Yeri", *Dil Araştırmaları*, No. 12, (2013).

Feriduddin Aydın, *Tercüme Bilimine Giriş ve Tercüme Teknikleri* (Istanbul: Furkan Basın Yayın, 2017).

Jim Cummins, *Language, Power and Pedagogy: Bilingual Children in the Crossfire* (Multilingual Matters, 2000).

Mara Salmona Madriñan, "The Use of First Language in the Second-Language Classroom: A Support for Second Language Acquisition", *GIST Education and Learning Research Journal* 9, (2014).

Munday Jeremy, *Introducing Translation Studies: Theories and Applications* (London: Routledge, 2008).

Nick Chater, Stewart M. McCauley & Morten H. Christiansen, "Language as skill: Intertwining comprehension and production", *Journal of Memory and Language* 89, (2016).

Oana-Maria PUIU, "Functional Approaches to Translation", *Journal of Young Researchers*, 5(1), (2022).

Thomas G. Gunning, "The Role of Readability in Today's Classrooms", *Topics in Language Disorders*, 23(3), (2003).

Vecihe Hatiboğlu, *Türkçenin Ekleri* (Ankara: Türk Dil Kurumu Yayınları, 1981).

References

- Abduh al-Rājihī, *'Ilm al-Lughah al-Taṭbīqī wa-Ta'līm al-'Arabiyyah* (Alexandria: Dār al-Ma'rifah al-Jāmi'iyyah, 1995).
- Abdul'azīz al-'Aṣīlī, *al-Mu'jam al-Mawsū'ī li-Muṣṭalahāt al-Lisāniyyat al-Taṭbīqiyyah* (Riyadh: King Salman Global Academy for Arabic Language, 2023).
- Abdul'azīz al-'Aṣīlī, *Ṭarā'iq Ta'līm al-Lughah al-'Arabiyyah lil-Nāṭiqīn bi-Lughāt 'Ukhrā* (Riyadh: Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University, 2002).
- Abdullaṭīf al-Khaṭīb & Sa'd Maṣlūḥ, *Naḥw al-'Arabiyyah* (Kuwait: Dar al-'Urūbah, 2000).
- Ahmed ed-Diyab, "Çeviri Türleri", *Eskiye* 27, (2013).
- Ahmet Bican Ercilasun, "Türkçenin Dünya Dilleri Arasındaki Yeri", *Dil Araştırmaları*, No. (12), (2013).
- Alī Abdulwāḥid Wāfī, *Fiqh al-Lughah* (Cairo: Dār Naḥḍah Misr, 3rd Ed., 2004).
- Feriduddin Aydın, *Tercüme Bilimine Giriş ve Tercüme Teknikleri* (Istanbul: Furkan Basın Yayın, 2017).
- H. Douglas Brown, *'Usus Ta'allum al-Lughah wa-Ta'līmihā*, Translated by Abduh al-Rājihī & Alī Sha'bān (Beirut: Dār al-Naḥḍah al-'Arabiyyah, 1994).
- Hānī Ramaḍān, "Mahārat al-Qirā'ah lil-Nāṭiqīn bi-Ghayr al-'Arabiyyah: al-Ahdāf al-'Ishkāliyyat, al-'Istrāṭijiyat", *al-Mu'tamar al-Dawlī al-Rābi'*; *al-'Arabiyyah lil-Nāṭiqīn bi-Ghayrihā: al-Ḥādir wal-Mustaqbal*, Giresun University, (2022).
- Ḥasan Zāzā, *al-Lisān wal-'Insān: Madhkal 'ilā Ma'rifah al-Lughah* (Damascus: Dār al-Qalam, 2nd Ed., 1990).
- Ḥasan Zāzā, *al-Sāmiyyūn wa-Lughatuhm* (Damascus: Dār al-Qalam, 2nd Ed., 1990).
- Hy'ah al-'Adab wal-Nashr wal-Tarjamah, *al-Dalīl al-Mihnī lil-Mutrajim* (Riyadh: Jam'iyyah al-Tarjamah, 1st Ed., 2023).

- Izzuddīn Najīb, *'Usus al-Tarjamah min al-'Inglīziyyah 'ilā al-'Arabīyyah wa-bil-'Aks* (Cairo: Maktabah Ibn Sīnā, 5th Ed., 2005).
- Jim Cummins, *Language, Power and Pedagogy: Bilingual Children in the Crossfire* (Multilingual Matters, 2000).
- Maḥmūd Ḥijāzī, *Madkhal 'ilā 'Ilm al-Lughah* (Cairo: Dār Qibā').
- Mara Salmona Madriñan, "The Use of First Language in the Second-Language Classroom: A Support for Second Language Acquisition", *GIST Education and Learning Research Journal* 9, (2014).
- Muḥammad 'Anānī, *Fan al-Tarjamah* (London: Longman, 5th Ed., 2000).
- Munday Jeremy, *Introducing Translation Studies: Theories and Applications* (London: Routledge, 2008).
- Nick Chater, Stewart M. McCauley and Morten H. Christiansen, "Language as skill: Intertwining comprehension and production", *Journal of Memory and Language* 89, (2016).
- Oana-Maria PUIU, "Functional Approaches to Translation", *Journal of Young Researchers*, 5(1), (2022).
- Sahl Darwīsh, *'Athar al-Lughah al-'Umm fi Ta'allum al-Lughah al-Thānīyah: Dirāsah Taṭbīqiyyah 'alā Muta'lim al-'Arabīyyah min al-Nāṭiqīn bil-Turkiyyah waḥq al-Manhaj al-Taḥlīlī* (Ankara: 'Ilāhiyyāt, 2022).
- Thomas G. Gunning, "The Role of Readability in Today's Classrooms", *Topics in Language Disorders*, 23(3), (2003).
- Vecihe Hatiboğlu, *Türkçenin Ekleri* (Ankara: Türk Dil Kurumu Yayınları, 1981).



تطبيق الذكاء الاصطناعي في تعليم اللغات وتعلمها برنامج (QuestionWell.org) أمودجًا

محمد صبري شهري*

مُلخَص

إثر وباء كوفيد 19، أدّى ظهور تطبيقات متنوعة للذكاء الاصطناعي، إلى انطلاقة عصرٍ جديد من استعمال المنصّات الرقمية التي تختلف اختلافًا واضحًا عن المنصّات التعليمية الإلكترونية المستعملة سابقًا، وتعدّ منصّات الذكاء الاصطناعي واعدةً مُجديةً، ولكنها تثير إشكالات ومخاوف تجاه بعض الآثار المترتبة، وبخاصة على المعلم، من مثل اختيار الأدوات المناسبة، والاستفادة منها في التعليم والتعلّم الواقعي، وكذا في التقييم، ونظرًا إلى فوائد توظيف تلك المنصّات في تعليم اللغات وتعلّمها، كان من الضروري معالجة الإشكالات والتخلص من المخاوف المترتبة على اختيار البرامج المناسبة وفق أهداف التعليم والتعلّم، والتأكد من استعمال تلك الأدوات التقنية استعمالًا واقعيًا، ومن ثمّ تتأثى أهمية هذا البحث في تعزيز استعمال المعلمين والتربويين تطبيقات الذكاء الاصطناعي في تعليم اللغات وتعلّمها، وهو بحثٌ وصفي يُركّز على برنامج QuestionWell.org أمودجًا في تطبيق الذكاء الاصطناعي، مما يمكّن المعلمين والتربويين من الاستفادة منه في تعليم اللغات وتعلّمها نظريًا وتطبيقيًا.

الكلمات الرئيسية: الذكاء الاصطناعي، المنصّات التعليمية، التعليم الإلكتروني، اللغة العربية

* أستاذ تعليم العربية للناطقين بغيرها، كلية التربية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، muhdsabri@iiium.edu.my



Artificial Intelligence in Language Teaching and Learning QuestionWell.org as a Model

Muhammad Sabri Sahrir^{*}

Abstract

In the wake of the COVID-19 pandemic, the emergence of various artificial intelligence (AI) applications has heralded a new era of digital platforms, significantly distinct from the previously used educational e-platforms. AI platforms are promising and effective, but they also raise concerns regarding their potential impacts, particularly on teachers. These concerns include selecting appropriate AI tools, integrating them into real-world teaching and learning processes, and utilizing them for assessment. Given the benefits of employing AI platforms in language teaching and learning, it becomes essential to address these concerns and resolve the associated issues by selecting software that aligns with teaching and learning objectives and ensuring its application in real-life scenarios. This study highlights the importance of encouraging educators to employ AI applications in teaching and learning languages. It is a descriptive study that focuses on the QuestionWell.org software as an AI application model, enabling teachers and educators to take advantage of AI in language teaching and learning, in both theory and practice.

Keywords: *Artificial intelligence, educational platforms, e-learning, language teaching and learning, Arabic language*

* Professor of Teaching Arabic as a Second Language, Kulliyah of Education, International Islamic university Malaysia, muhdsabri@iiu.edu.my.

مُقَدِّمة

يمتاز الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence) بالقدرة على إحداث تحوُّل ملموس في التعليم والتعلُّم بطرائق مختلفة وأشكال متنوعة، مما يُسهِّم في ظهور ثورة تعليمية جديدة، ويتيح فرصًا مجديَّةً لكلِّ من التربويين والمعلمين والمتعلمين، وقد تحوَّلت عملية التعليم والتعلُّم من استعمال وسائل تاريخية، من مثل المواقع الشبكية، والمدوَّونات، وتطبيقات الهواتف الذكية، والتقانة السحابية، إلى اختيار تطبيقات الذكاء الاصطناعي - إنَّثر وباء كوفيد 19 - منصاتٍ تعليميةً تختلف اختلافاً واضحاً عمَّا سَبَقَها، وهي واعدةٌ مجديَّةٌ، ولكنها تثير إشكالاتٍ ومخاوفَ تجاه بعض آثارها المترتبة، وبخاصة عند المعلمين؛ في اختيار أنسب البرامج نظرياً وتطبيقياً لتنفيذ التعليم والتعلُّم، وكذلك التقييم التعلُّمي.

توظيف الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلُّم

أدَّى الذكاء الاصطناعي إلى فتح آفاق جديدة حديثة في المناهج الدراسية، وإستراتيجيات التدريس، وتقنيات التعليم في المجالات التربوية كلها، حيث تُستعمل هذه التطبيقات بنجاح،¹ وقد أشارت دراسات سابقة كثيرة إلى فوائد الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلُّم، ومن ذلك القدرة على تصميم الدروس لتناسب احتياجات الطلبة المختلفة،² وتوفير تعليقات شخصية فورية للطلبة على عملهم،³ وإنشاء اختبارات مُجديَّة،⁴ والتنبؤ بأداء الطلبة في

¹ انظر: سارة آل سعود، "التطبيقات التربوية للذكاء الاصطناعي في الدراسات الاجتماعية"، مجلة سلوك، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، الجزائر، 3(3)، (2017)، ص 133-163.

² See: Wira Jaya Hartono, Nurfitri Nurfitri, Ridwan Ridwan, Emanuel B. S. Kase, Floribertha Lake & Rony Sandra Y. Zebua, "Artificial Intelligence (AI) Solutions in English Language Teaching: Teachers-Students Perceptions and Experiences". *Journal on Education*, 6(1), (2023), pp. 1452-1461.

³ See: Daryn A. Dever, Roger Azevedo, Elizabeth B. Cloude & Megan Wiedbusch, "The Impact of Autonomy and Types of Informational Text Presentations in Game-based Environments on Learning: Converging Multi-channel Processes Data and Learning Outcomes", *International Journal of Artificial Intelligence in Education* 30, (2020), pp. 581-615.

⁴ See: Rusmiyanto Rusmiyanto, Nining Huriati, Nining Fitriani, Novita Kusumaning Tyas, Agus Rofi'i & Mike Nurmalia Sari, "The Role of Artificial Intelligence (AI) in Developing English Language Learner's Communication Skills", *Journal on Education*, 6(1), (2023), pp. 750-757.

الفصل الدراسي¹، وكذا يمكن للذكاء الاصطناعي إنشاء عروض تقديمية تواصلية افتراضية واقعية، ويمكن للطلبة التدرب في بيئة آمنة مليئة بالتحديات، وبناء الثقة، وتعزيز مهارات العرض، من دون خوفٍ من الفشل.²

ويشير الاعتماد البالغ على الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلم تساؤلات عن مدى كفاءته في تنمية المهارات اللغوية للطلبة، وعمّا في تطبيقه من التحديات التي قد يواجهها المعلمون والتربويون، ومن هذه التحديات الرئيسة اعتماد الطلبة المحتمل على الذكاء الاصطناعي في التعلم لذا كان من شأن دمج الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلم - من دون توجيهات تعليمية وتربوية مناسبة - أن يجعل المعلمين والتربويين والطلبة يعتمدونه اعتماداً كاملاً، مع غياب عناصر تصميم تعليمي مناسب منظم، وقد أيد بعض الباحثين هذا الرأي، وذهبوا إلى أن دمج الذكاء الاصطناعي في التعليم من دون تنظيم مناسب؛ من شأنه أن يحدّ من فرص الطلبة في التفكير النقدي واتخاذ القرارات المستقلة.³

ثم إن دمج الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلم - بما فيه تعليم اللغات وتعلمها - يؤثر في الطلبة سلبياً في جانب عزلتهم الاجتماعية⁴، وذلك من حيث تفاعلهم المفرط مع هذه التقنية، وانخفاض تواصلهم مع المعلمين والزملاء تواصلًا مجديًا، والمشاركة في تصورات العروض التقديمية الواقعية.⁵

¹ See: Mustafa Çağataylı & Erbuğ Çelebi, "Estimating Academic Success in Higher Education Using Big Five Personality Traits: A Machine Learning Approach". *Arabian Journal for Science and Engineering*, 47(2), (2022), pp. 1289-1298.

² See: Panayiota Kendeou, Julie S. Lynch, Paul van den Broek, Chris A. Espin, Mary Jane White & Kathleen E. Kremer, "Developing Successful Readers: Building Early Comprehension Skills through Television Viewing and Listening". *Early Childhood Education Journal*, 33(2), (2005), pp. 91-98.

³ انظر: شريف الأتري، التعليم بالتخيل (القاهرة: دار العربي، 2019).

Tony Bates, Cristóbal Cobo, Olga Mariño & Steve Wheeler, "Can Artificial Intelligence Transform Higher Education?", *International Journal of Educational Technology in Higher Education*, 17(42), (2020).

⁴ See: Stefan A. D. Popenici & Sharon Kerr, "Exploring the Impact of Artificial Intelligence on Teaching and Learning in Higher Education". *Research and Practice in Technology Enhanced Learning*, 12(22), (2017).

⁵ See: Eleni Dimitriadou & Andreas Lanitis, "A Critical Evaluation, Challenges, and Future Perspectives of Using Artificial Intelligence and Emerging Technologies in Smart Classrooms". *Smart Learning Environments*, 10(1): 12, (2023).

مُحاورُ رئيسة لاستعمال الذكاء الاصطناعي في التعليم والتعلُّم

يمتاز الذكاء الاصطناعي بقدرة فائقة على معالجة كميات هائلة من البيانات وتحليلها، مما يوفّر فرصاً واعدة لقطاع التعليم، وقد أحدث الذكاء الاصطناعي ثورةً في طريقة التعليم والتعلُّم عبْر الانتقال من تجارب التعلُّم الشخصية إلى أنظمة التعليم الذكية، وهناك أنواع مختلفة من تطبيقات الذكاء الاصطناعي في النظام التعليمي،¹ من ذلك:

1. التعلُّم الشخصي:

يمكن للذكاء الاصطناعي أن يساعد المعلمين في توفير الوقت وتيسير العملية التعليمية، وذلك باستعمال خوارزميات معالجة اللغة الطبيعية (NLP) في تحليل المحتوى التعليمي وإنشائه، وبفضل منصات التعلُّم المدعومة بالذكاء الاصطناعي، يمكن للطلبة اليوم تلقّي محتوى وتوجيهات مخصّصة بناءً على احتياجاتهم وتفضيلاتهم الفردية، من أجل تحليل مكامن القوة والضعف لديهم، وتكييف المواد التعليمية وفق ذلك.

2. إنشاء المحتوى الذكي:

للذكاء الاصطناعي مكانة مهمة في مساعدة الطلبة وتمكين المعلمين والتربويين من إنشاء محتوى تعليمي عالي الجودة، ويمكن له - بمساعدة خوارزميات معالجة اللغات الطبيعية (NLP) - فحُص المواد التعليمية وتصميمها بكفاءة، مما يوفّر الجهد والوقت الذي يتكبّده المعلمون والتربويون، من مثل إنشاء الواجبات والاختبارات وحُطّط الدروس التي تتفق مع أهداف التعليم والتعلُّم المحدّدة مسبقاً، لذا يمكن لهذه الأدوات تحليل مجموعات واسعة من البيانات، واستخراج المعلومات ذات الصلة، وتقديمها بطريقة مننّمة مترابطة، مما يسهم في توفير وقت المعلمين والتربويين، وضمان محتوى شامل وفق المنهج الدراسي.

¹ See: Zubair Akhtar, "[Applications of Artificial Intelligence in Education](#)", DatabaseTown, published May 8, 2023, retrieved January 3, 2024.

3. أنظمة الدرجات الذكية:

التقييم من مكُونات نظام التعليم الرئيسة، ولكنه يستغرق وقتاً طويلاً، ويخضع للخطأ البشري، لذا يمكن للذكاء الاصطناعي تيسيره وجعله أكثر دقة وكفاءة؛ إذ يمكن لأنظمة الدرجات المدعومة بالذكاء الاصطناعي تحليل واجبات الطلبة ومقالاتهم - بما فيها الأسئلة المفتوحة - وتقييمها، وتحديد الأنماط، وتقديم تعليقات متسقة موثوقة للطلبة، مما يتيح للمعلمين والتربويين التركيز أكثر على توفير التوجيه والدعم المخصّصين للطلبة، بدلاً من قضاء وقتٍ زائد في وضع الدرجات.

4. الفصول الافتراضية والواقع الافتراضي:

أدّى وباء كوفيد 19 إلى طُرُقٍ بديلة للتعليم والتعلّم، وشاعت الفصول الدراسية الافتراضية المدعومة بالذكاء الاصطناعي، حلاً لسدّ الفجوة بين التعلّم الواقعي والتعلّم الافتراضي، وذلك يُسهّل التعاون بين الطلبة من خلال تمكينهم من العمل في مشاريع جماعية، والمشاركة في المناقشات التفاعلية، وتبادل الأفكار والملاحظات، وهذا يُعزّز العمل الجماعي، ومهارات الاتصال، والشعور بالانتماء إلى المجتمع بين الطلبة، ومن خلال الفصول الدراسية الافتراضية التي تعمل بالذكاء الاصطناعي، يمكن للمعلمين والتربويين أيضاً متابعة تقدّم الطلبة، وتحديد المجالات التي يواجهون صعوبات فيها، مما يتيح لهم تقديم دعمٍ وموارد إضافية لمساعدة الطلبة في التغلّب على تحدياتهم وتحقيق النجاح العلمي.

5. أنظمة الدعم الذكية:

لخدمات دعم الطلبة مكانة في ضمان النجاح العلمي؛ إذ يمكن لأنظمة الدعم المدعومة بالذكاء الاصطناعي تقديم المساعدة للطلبة على مدار الساعة، ومعالجة مخاوفهم، وتوفير الدعم في الوقت المناسب، ويمكن مثلاً دمج (Chatbots) في المنصات التعليمية، للإجابة عن الأسئلة الشائعة، وتقديم التوجيه بخصوص الإجراءات الإدارية، وتقديم المشورة العلمية،

وتستعمل روبوتات الدردشة إمكانات معالجة اللغة الطبيعية (NLP) لفهم استفسارات الطلبة والرد بالمعلومات ذات الصلة، وتوفير الدعم الفوري تسهم أنظمة دعم الطلبة المدعومة بالذكاء الاصطناعي في نجاح الطلبة، وتخفيف بعض الضغوط عن المعلمين والتربويين.

6. الاعتبارات والتحديات الأخلاقية:

في حين أن تطبيقات الذكاء الاصطناعي توفر في التعليم والتعلم إمكانات هائلة؛ هناك اعتبارات وتحديات أخلاقية تحتاج إلى معالجة؛ إذ تعد خصوصية البيانات، والحاجة إلى التدخل البشري؛ من بين الاهتمامات الرئيسة التي يلزم التعامل معها بعناية حين تطبيق الذكاء الاصطناعي في التعليم، ولا سيما تخزين بيانات الطلبة - بما في ذلك المعلومات الشخصية وتقديم التعلم - وحمايتها أمنة، ومن الضروري وضع سياسات قوية لخصوصية البيانات، وضمان الامتثال للوائح ذات الصلة، من أجل حماية معلومات الطلبة الدقيقة.

ويمثل التحيز الخوارزمي تحديًا آخر تلزم معالجته؛ إذ تتعلم خوارزميات الذكاء الاصطناعي من البيانات التي تتدرّب عليها، وإن كانت البيانات متحيزة أو تفتقر إلى التنوع، فقد يؤدي ذلك إلى نتائج غير منصفة، فينبغي للمعلمين والمطورين ضمان التوازن بين الأنشطة التعليمية التي تعتمد الذكاء الاصطناعي، وبين الحاجة إلى التدخل البشري في التعليم والتعلم.

آفاق مستقبلية للذكاء الاصطناعي في تعليم اللغات وتعلّمها

في مجال تعليم اللغات وتعلّمها، يضمن الذكاء الاصطناعي حصول الطلبة على أفضل مساعدة تعليمية ممكنة؛¹ إذ يمكن لهم التقدم عبر المقررات الدراسية بالسرعة التي تتناسب مع قدراتهم، والحصول على تعليقات فورية عن تطوّرهم التعليمي، فيواجهون من دون الحاجة إلى

¹ See: QiaoLing Yong, "Application of Artificial Intelligence to Higher Vocational English Teaching in the Information Environment", *Journal of Physics: Conference Series*, 1533(3), (2020); Jia-Cing Liang, Gwo-Jen Hwang, Mei-Rong Alice Chen & Darmawansah Darmawansah, "Roles and Research Foci of Artificial Intelligence in Language Education: An Integrated Bibliographic Analysis and Systematic Review Approach", *Interactive Learning Environments*, 31(7), (2023), pp. 4270-4296.

تدخل مباشر من المعلم،¹ ويمكن للمعلم تزويدهم بتجارب تعليمية مصممة لتلبية احتياجاتهم الفردية بخاصة، وتقديم اقتراحات للمراجعة، وقياس تقدّمهم.²

وقد تنامي استعمال الذكاء الاصطناعي في تعليم اللغات وتعلمها،³ فهو يساعد المعلمين في تقديم المحتوى التعليمي بطريقة أكثر كفاءة ودلالة؛ إذ يوفر لهم أساسًا جديدًا لإنشاء فصل دراسي مرّن قابل للتكيف الفردي في تعليم اللغات وتعلمها،⁴ ومن الممكن بذلك تخفيف الأعباء عنهم بعدّة طرق،⁵ من ذلك استعمال التعرف على الوجه للحضور، والتقييم التلقائي للطلبة، وتصحيح النطق،⁶ ومراقبة مشاعر الطلبة وسلوكاتهم وتسجيلها،⁷ وجمع المصادر التعليمية، وتصحيح الواجبات المنزلية، والإجابة عن أسئلة الطلبة.⁸

¹ See: Muhammad Roil Bilad, "Enhancing Engineering Electromagnetics Education: A Comparative Analysis of Synchronous and Asynchronous Learning Environments", *International Journal of Essential Competencies in Education*, 2(1), (2023), pp. 66-74.

² See: Xinyi Huang, Di Zou, Gary Cheng, Xieling Chen & Haoran Xie, "Trends, Research Issues and Applications of Artificial Intelligence in Language Education". *Educational Technology & Society*, 26(1), (2023), pp. 112-131.

³ See: Qurotul Aini, Untung Rahardja & Taqwa Hariguna, "The Antecedent of Perceived Value to Determine of Student Continuance Intention and Student Participate Adoption of i-Learning". *Procedia Computer Science*, No. (161), (2019), pp. 242-249; Taqwa Hariguna, Untung Rahardja & Athapol Ruangkanjanases, "The Impact of Citizen Perceived Value on their Intention to Use e-Government Services: An Empirical Study". *Electronic Government: An International Journal*, 16(4), (2020), pp. 426-440; Hernando Barrios Tao, Vianney Rocío Díaz Pérez & Yolanda M. Guerra, "Artificial Intelligence and Education: Challenges and Disadvantages for the Teacher", *Arctic Journal*, 72(12), (2019), pp. 30-50.

⁴ See: Amy Adair, "Teaching and Learning with AI: How Artificial Intelligence is Transforming the Future of Education", *XRDS: Crossroads, The ACM Magazine for Students*, 29(3), (2023), pp. 7-9.

⁵ See: Yong, *Application of Artificial Intelligence*.

⁶ See: Li Na, "Simulation of English Feature Recognition based on Machine Learning and Artificial Intelligence Technology", *Journal of Ambient Intelligence and Humanized Computing*, 13(5), (2021), pp. 1-12.

⁷ See: Zhirong Hou, "Research on Adopting Artificial Intelligence Technology to Improve Effectiveness of Vocational College English Learning", *Journal of Physics: Conference Series*, 1744(4), (2021).

⁸ See: Yanxia Hou, "Foreign Language Education in the Era of Artificial Intelligence", *Big Data Analytics for Cyber-Physical System in Smart City: BDCPS 2019*, December 28-29, 2019, Shenyang, China (Singapore: Springer, 2020), pp. 937-944.

وأكدت عدّة دراسات كفاءة الذكاء الاصطناعي في دعم تعلّم الطلبة المهارات اللغوية الأربع، مع الاهتمام ببعض القضايا المتعلقة بالمعلمين، من مثل مستوى انتباههم ومشاركتهم واهتماماتهم واتجاهاتهم، أو تقييم كفاءتهم ومستوى إنجازهم، وقد تضمنت النتائج تحسين جودة الكتابة، والدقة، والحوارات المثمرة، والحدّ من القلق المرتبط بالكلام، وزيادة مستوى المشاركة، في حين ركّزت دراسات أخرى على القلق من تعلّم اللغة،¹ وبذا يُدمج تعليم اللغة بين البشر والتقانة في أسلوب تعليمي تفاعلي مرن.²

ويتيح الذكاء الاصطناعي فرصاً لتطوير المهارات اللغوية للطلبة؛ إذ يوفّر فرصاً تعليميةً مخصّصةً عبر تحديد قدراتهم واحتياجاتهم الفردية،³ ويمكن له تعديل المواد وطرق التعلّم لتناسب مع قدرة كلّ طالب وأسلوب تعلّمه، مما يساعده في تطوير مهاراته اللغوية بكفاءة، وتقديم تعليقات في أثناء جلسات التعلّم،⁴ ويمكن لأدوات الذكاء الاصطناعي من مثل (Veed.io) و (ElevenLabs) و (Canva) تقديم تعليقات تفاعلية فورية عن جودة العرض التقديمي للطلبة، والسماح بإجراء التعديلات في الوقت المناسب.

¹ See: Chunmei Pan & Xian Zhang, "A Longitudinal Study of Foreign Language Anxiety and Enjoyment", *Language Teaching Research*, 27(6), (2023), pp. 1552-1575; Sabahattin Yeşilçınar & Nihan Erdemir, "Are Enjoyment and Anxiety Specific to Culture? An Investigation into the Sources of Turkish EFL Learners' Foreign Language Enjoyment and Anxiety", *Innovation in Language Learning and Teaching*, 17(2), (2023), pp. 453-468; Li Zhou, Yiheng Xi & Katja Lochtmann, "The Relationship between Second Language Competence and Willingness to Communicate: The Moderating Effect of Foreign Language Anxiety", *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, 44(2), (2023), pp. 129-143.

² See: Muhammad Rehan Anwar & Herdi Aziz Ahyarudin, "AI-Powered Arabic Language Education in the Era of Society 5.0", *IAIC Transactions on Sustainable Digital Innovation (ITSDI)*, 5(1), (2023), pp. 50-57.

³ See: Dawood Ahmed Mahdi, "Improving Speaking and Presentation Skills through Interactive Multimedia Environment for Non-Native Speakers of English". *SAGE Open*, 12(1), (2022); Tinghong Lai, Xianqin Zeng, Bin Xu, Chuyin Xie, Yanxiu Liu, Zheng Wang, Hong Lu & Shimin Fu, "The Application of Artificial Intelligence Technology in Education Influences Chinese Adolescent's Emotional Perception". *Current Psychology*, No. (43), (2023), pp. 5309-5317.

⁴ See: Xin An, Ching Sing Chai, Yushun Li, Ying Zhou, Xi Shen, Chunping Zheng & Mengyuan Chen, "Modeling English Teachers' Behavioral Intention to Use Artificial Intelligence in Middle Schools", *Education and Information Technologies*, 28(5), (2023), pp. 5187-5208.

ومن ثمّ كان من الضروري للمعلمين اختيار تطبيقات الذكاء الاصطناعي المناسبة، واستعمالها في تعليم اللغات وتعلّمها، وتقييم نتائج الطلبة التعلّمي، عبر دليل تعليمي واضح لتخطيط الأنشطة التعليمية والتعلّمية المناسبة، وتنفيذها بتطبيقات الذكاء الاصطناعي.

برنامج (QuestionWell.org) في تعليم اللغات وتعلّمها أمودجًا

1. تعريف عامّ:

هذا البرنامج من تطبيقات الذكاء الاصطناعي المخصّصة لمساعدة المعلمين والتربويين في أداء واجباتهم المدرسية، ويُتيح لهم إنشاء كثير من الأسئلة، مما يساعدهم في العمل بكفاءة أكبر من دون الحاجة إلى بذل جهدٍ إضافي، ويمكن للمعلمين إدخال بعض النصوص أو المقاطع المرئية، ثم يُنشئ الذكاء الاصطناعي الأسئلة الأساس ومخرجات التعلم وأسئلة الاختيار من متعدد، التي يمكن تصديرها إلى الأدوات التعليمية المفضّلة، أو طباعتها مباشرة من البرنامج نفسه، ومن تلك الأدوات التعليمية المفضّلة:

- .Canvas -
- .Quizziz -
- .Quizlet -
- .Kahoot -
- .Google Forms -
- .Google Slides -
- .Socrative -
- .Blackboard -
- .Microsoft Forms -
- .Blooket -
- .Gimkit -
- .Moodle -
- .Doc -

QuestionWell

AI. to help teachers do their homework.

Generate an endless supply of questions so you can work **smarter** not **harder**.

Just input some reading or a video, and the AI will write Essential Questions, Learning Outcomes, and aligned multiple choice questions, which you can then export to your favorite tool.

[Try It Out](#) [Explore Features](#)

This image was generated using AI

صورة (1): واجهة برنامج QuestionWell.org

2. خصائص البرنامج:

البرنامج متاح بنسختين؛ إحداهما مجانية، والأخرى مدفوعة، كما يوضح في الصورة أدناه:

QuestionWell For teachers Pricing Contact Us Join Our Group [Teacher Login](#)

Free Plan

\$0 per month

This includes:

- Create and edit multiple choice questions
- Export to Kahoot, Quizizz, Canvas and more!
- Create essential questions
- Unlimited question sets
- Submit short readings
- AI-generated readings

[Sign in with Google](#)

Paid Plan

\$7 per month

Monthly Yearly

Everything in our free plan, PLUS...

- Fill-in-the-blank & short answer questions
- 10x longer readings
- Search for learning outcomes based on your organization's standards
- Upload PDF, DOCX, PPTX, JPEG and PNG files
- Vocab lists, additional questions, and more!

[Sign in with Google](#)

Team Plan

- Admin panel to manage all teachers' access in one place
- Easily increase and decrease the number of users as needed
- Organize your question sets into classes and share them with your team

Users	Per user per year
1	\$70
2-10	\$60
11-30	\$50

[Sign in with Google](#)

Enterprise

This includes everything in our Team Plan, PLUS add a la cart options such as...

- Making reading, standards, and/or outputs private
- Bulk add questions
- Single Sign On
- Reference Materials
- Custom question requirements
- And more!

[Get Quote](#)

About Us Privacy Policy Terms of Service FAQs Team Settings

© 2023-2024 Maya Bialik LLC

Arabic (Saudi Arabia)
Arabic (101) keyboard
To switch input methods, press Windows key+Space.

صورة (2): خصائص برنامج QuestionWell.org

3. خطوات إجرائية في دمج المواد التعليمية في البرنامج:

الخطوة الأولى: المدخل إلى البرنامج

- إضافة موضوع لمساعدة الذكاء الاصطناعي في تحديد ما يطلبه المعلم في أثناء القراءة.
- يمكن للمعلم نسخ النص الذي يرغب في اختباره، ولصّقه، أو يمكنه كتابة نصّ القراءة الخاص به.
- يمكن للمعلم البحث عن مقطع مرئي على منصة (YouTube)، أو رفع ملفّ لاستعماله مرجعًا خاصًا به.
- يمكن للمعلم إضافة ما يرغب فيه من نتائج التعلّم ومعايير.
- يمكن للمعلم التواصل مع مصمّم البرنامج إن كان يحتاج إلى إضافة لغةٍ غير متوفرة في البرنامج واستعمالها.
- يمكن للمعلم تعديل مستوى القراءة في البرنامج إن كان يرغب في منح الطلبة إمكانية الوصول إلى القراءة والتأكّد منها.

QuestionWell

Topic:

The structure of an atom

This is the general concept the reading discusses e.g. conduction

Reading:

An atom is made up of protons, neutrons, and electrons. Each element is defined by its atomic number, or the number of protons it has, because if it has a different number it behaves so differently, we call it a different element. Protons and neutrons are in the center or nucleus of the atom. Electrons are in energy levels surrounding the nucleus. the first energy level can fit two electrons, the second one can fit eight. Protons are positive in charge and contribute 1amu to mass. Neutrons are neutral in charge and contribute 1amu to mass. Electrons are negative in charge and do not contribute to mass. By default, all elements on the periodic table are neutral, meaning they have the same number of protons and electrons. Mass is computed by adding the number of protons and the number of neutrons. Charge is computed by subtracting the number of electrons from the number of protons. A charge of zero is neutral. Charged atoms are called ions. An ion is positively charged if it has more protons than electrons and negatively charged if it has more electrons than protons. There can be different isotopes of an element that have different numbers of neutrons, and the mass is determined by averaging them all.

Write or copy and paste student reading from any source. This is what the AI will use to write the questions. Estimated Tokens: 311/907

صورة (3): المدخل إلى برنامج QuestionWell.org

الخطوة الثانية: تحديد مخرجات التعلُّم وإعداد الأسئلة الأساس:

- يحلل البرنامج النصّ، ثم يستخلص مجموعة من نتائج التعلُّم، ويضعُ أسئلة رئيسة لتوجيه عملية تعلُّم الطلبة.
- تُوضِّح الأرقام في جوار نتائج التعلُّم (LO) عدَدَ الأسئلة التي أُنشئت، وعدَدَ الأسئلة المحدَّدة.
- إن رَغِبَ المعلم في تحديد مجموعة مختلفة من نتائج التعلُّم (LO)، أمكنه إعادة المحاولة وإضافة مجموعته الخاصة.
- إن حدَّد المعلم أنواع الأسئلة الأخرى، أمكنه تعديلها وتصفيتها أيضًا.
- يمكن للمعلم أيضًا الاطلاع على المفردات التي سُجِّبت، والأوصاف الموجزة لكلِّ كلمة أو جملة.

Urban Heat Islands Article

(0 / 21) selected

Done saving

Export	∨
Essential Questions	∨
Filter By Question Type ⚡	∨
Filter By Learning Objectives	∧
1. Identify the percentage of the planet's expected urban area that is yet too/1 to be built by 2030.	
2. Explain the relationship between cities and global GDP.	0/5
3. Recognize the vulnerability of populations in tropical zones to extreme heat events.	0/3
4. Understand the urban heat island effect and its impacts on human health, animal life, social events, tourism, water availability, and business performance.	0/3
5. Analyze the impacts of urban expansion patterns, built form, and choice of materials on local microclimates.	0/6
6. Recognize the differences between BoM data recorded at Cairns airport/2 and inner-city recordings.	0/2
7. Evaluate the need for research on the economic and social impacts of climate change and urban heat islands in the tropical context.	0/1

صورة (4): تحديد مخرجات التعلُّم وإعداد الأسئلة الأساس

الخطوة الثالثة: خطوات إعداد الأسئلة وتحديدّها في الاختبار اللغوي

- قراءة الأسئلة التي يرغب المعلم في تحديدها.
- لإضافة سؤال إلى الاختبار الخاص به، على المعلم النقر فوق الزر (+) في الزاوية العلوية اليسرى.
- لتصفية السؤال بناءً على نتيجة التعلّم أو نوع السؤال، ينبغي للمعلم استعمال اللوحة اليمنى.
- يمكن للمعلم تعديل الأسئلة والإجابة عنها بالنقر عليها.
- لنسخ سؤال أو تعديله، ينبغي للمعلم النقر على رمز التكرار أسفل الرمز (+).
- لإزالة سؤال بالكامل، يمكن النقر فوق رمز سلّة المهملات.
- لوضع علامة على سؤال لمساعدة الذكاء الاصطناعي في التعلّم، يمكن النقر على العَلَم.
- لتعديل القراءة، يمكن النقر على رمز التعديل في أعلى اليمين (للنسخة المدفوعة فقط).

+ Select All
📄 📝 ↻

+ 1. What is slope intercept form?

A. A method for expressing linear equations in algebra

B. A method for calculating the area of a triangle

C. A method for solving systems of linear equations

D. A method for finding the roots of a quadratic equation

Learning Objective:

Identify the slope intercept form of a linear equation ▾

+ 2. What does the slope of a line represent?

A. The area under the line

B. The y-intercept of the line

C. The x-intercept of the line

D. The steepness of the line

Learning Objective:

Explain the meaning of the slope and y-intercept in a linear ▾

+ 3. What is the formula for computing the slope of a line?

A. $m = (x1 - x2) / (y1 - y2)$

B. $m = (y1 - y2) / (x1 - x2)$

C. $m = (y2 - y1) / (x2 - x1)$

D. $m = (x2 - x1) / (y2 - y1)$

Learning Objective:

Compute the slope of a line using the formula $m = (y2 - y1) / (x2 - x1)$ ▾

صورة (5): خطوات إعداد الأسئلة وتحديدّها في الاختبار اللغوي

الخطوة الرابعة: تصدير الأسئلة المصممة إلى البرامج الإلكترونية الخارجية الأخرى سواء أكان المعلم يقوم بنشاط تعليمي تفاعلي، أم بنشاط تعليمي فرعي، أم بتقييم نهائي للتعلّم، فلديه خيارات عدّة لتصدير المحتوى إلى المنصّات الحاسوبية كما في الصورة (6).



صورة (6): منصات التعلم الحاسوبي الخارجية المتكاملة مع برنامج QuestionWell.org

خاتمة

ركّز البحث على واقع استعمال تطبيقات الذكاء الاصطناعي في التعليم الإلكتروني الحديث، وبيّن أنه ظهور تلك التطبيقات يترافق مع نتائج إيجابية وسلبية في آنٍ معاً، مما يتطلّب جهوداً مشتركة من المتخصصين في مجالي التربية والتعليم لإعداد منهج تعليمي ودليل تطبيقي واضح، من أجل دمج هذه التقانة في عمليتي تعليم اللغات وتعلّمها، ولعل هذا البحث يُسهم في سدّ ثلثة في هذا المجال عبّر تقديم مَثَلٍ تطبيقي مختصر لبرنامج (QuestionWell.org)، حتى يتعاون المعلمون والتربويون معاً للاستفادة من الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته، بطريقة منظمة مناسبة وفق أهداف التعليم والتعلّم وأنشطتهما.

المصادر والمراجع

سارة آل سعود، "التطبيقات التربوية للذكاء الاصطناعي في الدراسات الاجتماعية"، مجلة سلوك، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، (3)3، (2017).

شريف الأتري، التعليم بالتخيل (القاهرة: دار العربي، 2019).

Amy Adair, "Teaching and Learning with AI: How Artificial Intelligence is Transforming the Future of Education", *XRDS: Crossroads, The ACM Magazine for Students*, 29(3), (2023).

Chunmei Pan & Xian Zhang, "A Longitudinal Study of Foreign Language Anxiety and Enjoyment", *Language Teaching Research*, 27(6), (2023).

Daryn A. Dever, Roger Azevedo, Elizabeth B. Cloude & Megan Wiedbusch, "The Impact of Autonomy and Types of Informational Text Presentations in Game-based Environments on Learning: Converging Multi-channel Processes Data and Learning Outcomes", *International Journal of Artificial Intelligence in Education* 30, (2020).

Dawood Ahmed Mahdi, "Improving Speaking and Presentation Skills through Interactive Multimedia Environment for Non-Native Speakers of English". *SAGE Open*, 12(1), (2022).

Eleni Dimitriadou & Andreas Lanitis, "A Critical Evaluation, Challenges, and Future Perspectives of Using Artificial Intelligence and Emerging Technologies in Smart Classrooms". *Smart Learning Environments*, 10(1): 12, (2023).

Hernando Barrios Tao, Vianney Rocío Díaz Pérez & Yolanda M. Guerra, "Artificial Intelligence and Education: Challenges and Disadvantages for the Teacher", *Arctic Journal*, 72(12), (2019).

Jia-Cing Liang, Gwo-Jen Hwang, Mei-Rong Alice Chen & Darmawansah Darmawansah, "Roles and Research Foci of Artificial Intelligence in Language Education: An Integrated Bibliographic Analysis and Systematic Review Approach", *Interactive Learning Environments*, 31(7), (2023).

- Li Na, "Simulation of English Feature Recognition based on Machine Learning and Artificial Intelligence Technology", *Journal of Ambient Intelligence and Humanized Computing*, 13(5), (2021).
- Li Zhou, Yiheng Xi & Katja Lochtman, "The Relationship between Second Language Competence and Willingness to Communicate: The Moderating Effect of Foreign Language Anxiety", *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, 44(2), (2023).
- Muhammad Rehan Anwar & Herdi Aziz Ahyarudin, "AI-Powered Arabic Language Education in the Era of Society 5.0", *IATIC Transactions on Sustainable Digital Innovation (ITSDI)*, 5(1), (2023).
- Muhammad Roil Bilad, "Enhancing Engineering Electromagnetics Education: A Comparative Analysis of Synchronous and Asynchronous Learning Environments", *International Journal of Essential Competencies in Education*, 2(1), (2023).
- Mustafa Çağataylı & Erbuğ Çelebi, "Estimating Academic Success in Higher Education Using Big Five Personality Traits: A Machine Learning Approach". *Arabian Journal for Science and Engineering*, 47(2), (2022).
- Panayiota Kendeou, Julie S. Lynch, Paul van den Broek, Chris A. Espin, Mary Jane White & Kathleen E. Kremer, "Developing Successful Readers: Building Early Comprehension Skills through Television Viewing and Listening". *Early Childhood Education Journal*, 33(2), (2005).
- QiaoLing Yong, "Application of Artificial Intelligence to Higher Vocational English Teaching in the Information Environment", *Journal of Physics: Conference Series*, 1533(3), (2020).
- Qurotul Aini, Untung Rahardja & Taqwa Hariguna, "The Antecedent of Perceived Value to Determine of Student Continuance Intention and Student Participate Adoption of i-Learning". *Procedia Computer Science*, No. (161), (2019).
- Rusmiyanto Rusmiyanto, Nining Huriati, Nining Fitriani, Novita Kusumaning Tyas, Agus Rofi'i & Mike Nurmalia Sari, "The Role of Artificial Intelligence (AI) in Developing English Language Learner's Communication Skills", *Journal on Education*, 6(1), (2023).
- Sabahattin Yeşilçınar & Nihan Erdemir, "Are Enjoyment and Anxiety Specific to Culture? An Investigation into the Sources of Turkish EFL Learners' Foreign Language Enjoyment and Anxiety", *Innovation in Language Learning and Teaching*, 17(2), (2023).

- Stefan A. D. Popenici & Sharon Kerr, “Exploring the Impact of Artificial Intelligence on Teaching and Learning in Higher Education”, *Research and Practice in Technology Enhanced Learning*, 12(22), (2017).
- Taqwa Hariguna, Untung Rahardja & Athapol Ruangkanjanases, “The Impact of Citizen Perceived Value on their Intention to Use e-Government Services: An Empirical Study”. *Electronic Government: An International Journal*, 16(4), (2020).
- Tinghong Lai, Xianqin Zeng, Bin Xu, Chuyin Xie, Yanxiu Liu, Zheng Wang, Hong Lu & Shimin Fu, “The Application of Artificial Intelligence Technology in Education Influences Chinese Adolescent’s Emotional Perception”. *Current Psychology*, No. (43), (2023).
- Tony Bates, Cristóbal Cobo, Olga Mariño & Steve Wheeler, “Can Artificial Intelligence Transform Higher Education?”, *International Journal of Educational Technology in Higher Education*, 17(42), (2020).
- Wira Jaya Hartono, Nurfitri Nurfitri, Ridwan Ridwan, Emanuel B. S. Kase, Floribertha Lake & Rony Sandra Y. Zebua, “Artificial Intelligence (AI) Solutions in English Language Teaching: Teachers-Students Perceptions and Experiences”. *Journal on Education*, 6(1), (2023).
- Xin An, Ching Sing Chai, Yushun Li, Ying Zhou, Xi Shen, Chunping Zheng & Mengyuan Chen, “Modeling English Teachers’ Behavioral Intention to Use Artificial Intelligence in Middle Schools”, *Education and Information Technologies*, 28(5), (2023).
- Xinyi Huang, Di Zou, Gary Cheng, Xiuling Chen & Haoran Xie, “Trends, Research Issues and Applications of Artificial Intelligence in Language Education”. *Educational Technology & Society*, 26(1), (2023).
- Yanxia Hou, “Foreign Language Education in the Era of Artificial Intelligence”, *Big Data Analytics for Cyber-Physical System in Smart City: BDCPS 2019*, December 28-29, 2019, Shenyang, China (Singapore: Springer, 2020).
- Zhirong Hou, “Research on Adopting Artificial Intelligence Technology to Improve Effectiveness of Vocational College English Learning”, *Journal of Physics: Conference Series*, 1744(4), (2021).
- Zubair Akhtar, “[Applications of Artificial Intelligence in Education](#)”, *DatabaseTown*, published May 8, 2023, retrieved January 3, 2024.

References

- Amy Adair, "Teaching and Learning with AI: How Artificial Intelligence is Transforming the Future of Education", *XRDS: Crossroads, The ACM Magazine for Students*, 29(3), (2023).
- Chunmei Pan & Xian Zhang, "A Longitudinal Study of Foreign Language Anxiety and Enjoyment", *Language Teaching Research*, 27(6), (2023).
- Daryn A. Dever, Roger Azevedo, Elizabeth B. Cloude & Megan Wiedbusch, "The Impact of Autonomy and Types of Informational Text Presentations in Game-based Environments on Learning: Converging Multi-channel Processes Data and Learning Outcomes", *International Journal of Artificial Intelligence in Education* 30, (2020).
- Dawood Ahmed Mahdi, "Improving Speaking and Presentation Skills through Interactive Multimedia Environment for Non-Native Speakers of English". *SAGE Open*, 12(1), (2022).
- Eleni Dimitriadou & Andreas Lanitis, "A Critical Evaluation, Challenges, and Future Perspectives of Using Artificial Intelligence and Emerging Technologies in Smart Classrooms". *Smart Learning Environments*, 10(1): 12, (2023).
- Hernando Barrios Tao, Vianney Rocío Díaz Pérez & Yolanda M. Guerra, "Artificial Intelligence and Education: Challenges and Disadvantages for the Teacher", *Arctic Journal*, 72(12), (2019).
- Jia-Cing Liang, Gwo-Jen Hwang, Mei-Rong Alice Chen & Darmawansah Darmawansah, "Roles and Research Foci of Artificial Intelligence in Language Education: An Integrated Bibliographic Analysis and Systematic Review Approach", *Interactive Learning Environments*, 31(7), (2023).
- Li Na, "Simulation of English Feature Recognition based on Machine Learning and Artificial Intelligence Technology", *Journal of Ambient Intelligence and Humanized Computing*, 13(5), (2021).
- Li Zhou, Yiheng Xi & Katja Lochtman, "The Relationship between Second Language Competence and Willingness to Communicate: The Moderating Effect of Foreign Language Anxiety", *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, 44(2), (2023).
- Muhammad Rehan Anwar & Herdi Aziz Ahyarudin, "AI-Powered Arabic Language Education in the Era of Society 5.0", *IAIC Transactions on Sustainable Digital Innovation (ITSDI)*, 5(1), (2023).

- Muhammad Roil Bilad, “Enhancing Engineering Electromagnetics Education: A Comparative Analysis of Synchronous and Asynchronous Learning Environments”, *International Journal of Essential Competencies in Education*, 2(1), (2023).
- Mustafa Çağataylı & Erbuğ Çelebi, “Estimating Academic Success in Higher Education Using Big Five Personality Traits: A Machine Learning Approach”. *Arabian Journal for Science and Engineering*, 47(2), (2022).
- Panayiota Kendeou, Julie S. Lynch, Paul van den Broek, Chris A. Espin, Mary Jane White & Kathleen E. Kremer, “Developing Successful Readers: Building Early Comprehension Skills through Television Viewing and Listening”. *Early Childhood Education Journal*, 33(2), (2005).
- QiaoLing Yong, “Application of Artificial Intelligence to Higher Vocational English Teaching in the Information Environment”, *Journal of Physics: Conference Series*, 1533(3), (2020).
- Qurotul Aini, Untung Rahardja & Taqwa Hariguna, “The Antecedent of Perceived Value to Determine of Student Continuance Intention and Student Participate Adoption of i-Learning”. *Procedia Computer Science*, No. (161), (2019).
- Rusmiyanto Rusmiyanto, Nining Huriati, Nining Fitriani, Novita Kusumaning Tyas, Agus Rofi'i & Mike Nurmalia Sari, “The Role of Artificial Intelligence (AI) in Developing English Language Learner's Communication Skills”, *Journal on Education*, 6(1), (2023).
- Sabahattin Yeşilçınar & Nihan Erdemir, “Are Enjoyment and Anxiety Specific to Culture? An Investigation into the Sources of Turkish EFL Learners' Foreign Language Enjoyment and Anxiety”, *Innovation in Language Learning and Teaching*, 17(2), (2023).
- Sārah 'Āl Sa'ūd, “al-Taṭbīqāt al-Tarbawīyah lil-Thakā' al-Iṣṭinā'ī fil-Dirāsāt al-Ijtimā'īyah”, *Majallah Sulūk*, Kullīyah al-'Ulūm al-Ijtimā'īyah, University of Abdel-Hamid Ibn Badis, Mostaganem, Algeria, 3(3), (2017).
- Sharīf al-Atrubī, *al-Ta'lim bil-Takhayyul* (Cairo: Dār al-'Arabī, 2019).
- Stefan A. D. Popenici & Sharon Kerr, “Exploring the Impact of Artificial Intelligence on Teaching and Learning in Higher Education”. *Research and Practice in Technology Enhanced Learning*, 12(22), (2017).

- Taqwa Hariguna, Untung Rahardja & Athapol Ruangkanjanases, “The Impact of Citizen Perceived Value on their Intention to Use e-Government Services: An Empirical Study”. *Electronic Government: An International Journal*, 16(4), (2020).
- Tinghong Lai, Xianqin Zeng, Bin Xu, Chuyin Xie, Yanxiu Liu, Zheng Wang, Hong Lu & Shimin Fu, “The Application of Artificial Intelligence Technology in Education Influences Chinese Adolescent’s Emotional Perception”. *Current Psychology*, No. (43), (2023).
- Tony Bates, Cristóbal Cobo, Olga Mariño & Steve Wheeler, “Can Artificial Intelligence Transform Higher Education?”, *International Journal of Educational Technology in Higher Education*, 17(42), (2020).
- Wira Jaya Hartono, Nurfitri Nurfitri, Ridwan Ridwan, Emanuel B. S. Kase, Floribertha Lake & Rony Sandra Y. Zebua, “Artificial Intelligence (AI) Solutions in English Language Teaching: Teachers-Students Perceptions and Experiences”. *Journal on Education*, 6(1), (2023).
- Xin An, Ching Sing Chai, Yushun Li, Ying Zhou, Xi Shen, Chunping Zheng & Mengyuan Chen, “Modeling English Teachers’ Behavioral Intention to Use Artificial Intelligence in Middle Schools”, *Education and Information Technologies*, 28(5), (2023).
- Xinyi Huang, Di Zou, Gary Cheng, Xiuling Chen & Haoran Xie, “Trends, Research Issues and Applications of Artificial Intelligence in Language Education”, *Educational Technology & Society*, 26(1), (2023).
- Yanxia Hou, “Foreign Language Education in the Era of Artificial Intelligence”, *Big Data Analytics for Cyber-Physical System in Smart City: BDCPS 2019*, December 28-29, 2019, Shenyang, China (Singapore: Springer, 2020).
- Zhirong Hou, “Research on Adopting Artificial Intelligence Technology to Improve Effectiveness of Vocational College English Learning”, *Journal of Physics: Conference Series*, 1744(4), (2021).
- Zubair Akhtar, “[Applications of Artificial Intelligence in Education](#)”, *DatabaseTown*, published May 8, 2023, retrieved January 3, 2024.



التعرّف الضوئي على المخطوط العربي: واقعه وتحدياته

تقنية (OCR-RDI) أنموذجاً

حسين البسومي*، محسن رشوان**، ياسر السيد***

ملخص

يناقش هذا البحث إمكانية توظيف تقنية التعرف الضوئي على النصوص (OCR)، في التعرف على المخطوط العربي القديم، وسبب استعمالها في محاكاة مهمة المحقق البشري في نسخ المخطوط، وتحويله إلى الصيغة الرقمية القابلة للتحكم فيها، مع بيان التحديات التي تواجه توظيف تلك التقنية، وقد توسل البحث المنهج الوصفي في التعريف بتقنية التعرف الضوئي على النصوص، وبرنامج "سطور"، وخصائص تحقيق المخطوط العربي، وأبرز ما يواجهه خبير التحقيق من صعوبات، وأيضاً المنهج التجريبي في عقد تجربتين لقياس كفاءة برنامج "سطور"، ومقارنة نتائجه بنتائج برنامجين آخرين للتعرف الضوئي على المخطوط، وحلص البحث إلى أوجه تفاوت البرامج الثلاثة في مستوى الدقة، والكشف عن مستوى التطور الذي حققته تلك التقنية بعامة، مما يشجع على توظيفها في إنجاز مهمة قراءة المخطوط ونسخه إلكترونياً.

الكلمات الرئيسية: المخطوط العربي، تقنية OCR، سطور، زكي، غوغل لنز

* أستاذ مشارك متخصص في علم اللغة الحاسوبي، كلية الآداب، جامعة الوادي الجديد، جمهورية مصر العربية،
hosinmab_2010@yahoo.com

** أستاذ الاتصالات والإلكترونيات، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية،
mrashwan@rdi-eg.ai

*** خبير التحول الرقمي وإدارة المشروعات، جمهورية مصر العربية،
yasserfayez2@yahoo.com



Optical Character Recognition for Arabic Manuscripts Reality and Challenges, OCR-RDI Technology as a Model

Hussein Elbasoumy^{*}, Mohsen Rashwan^{**}, Yasser Elsayed^{***}

Abstract

This study discusses the potential of using Optical Character Recognition (OCR) technology to read ancient Arabic manuscripts, and its role in simulating the textual editor's task of transcribing manuscripts into digitally manageable formats. The Study also aims to identify the challenges in using this technology. The study employed a descriptive approach to introduce Optical Character Recognition (OCR) technology, provide an overview of the *Sotoor* program, highlight the features of Arabic manuscript verification, and address the key challenges faced by experts in this field. Additionally, an experimental approach was adopted through two trials to evaluate the efficiency of the *Sotoor* program and compare its results with those of two other programs. The Study concluded by outlining the disparities in accuracy levels among the three programs, showcasing the overall advancements in this technology, and encouraging its adoption for the electronic reading and transcription of manuscripts.

Keywords: *Arabic manuscript, OCR, Sotoor, Zinki, Google Lens*

* Associate Professor of Computational Linguistics, Faculty of Arts, New Valley University, Egypt, hosinmab_2010@yahoo.com.

** Professor of Communication and Electronics, Faculty of Engineering, Cairo University, Egypt, mrashwan@rdi-eg.ai.

*** Expert of Digital Transformation and Project Management, Egypt, yasserfayez2@yahoo.com.

مُقَدِّمَةٌ

يزخر التراث العربي بزايد وفير من المخطوطات التي تنتمي إلى شتى فروع العلم والمعرفة، وتحمل في طياتها نتاج قرائح علماء الحضارة الإسلامية وأدبائها ومؤرخيها وفلاسفتها بمختلف أعراقهم وأجناسهم، وقد ضاع كثيرٌ من تلك المخطوطات في النكبات التي مرّت بالأمة الإسلامية عبْرَ تاريخها، وبقي لنا منها زادٌ يسيرٌ، نَشَطَّتْ ثلَّةٌ من العلماء لتحقيقه وإخراجه على نُحُوِّ يسهُلٍ على طلبة العلم التعامل معه، والإفادة منه، وقد أحسنوا بلاءً فيما انتدبوا أنفسهم له، غيرَ أن هذه الجهود لم تأتِ إلا على أقلِّ ذلك الموروث، ولا يزال أكثره مخزوناً في أرفف المكتبات، يحول دونَ تحقيقه وإخراجه للناس كثيرٌ من الجهود المضنية والسنوات الطوال.

وفي جانب آخر شهدت التقنيات الحاسوبية طفرات كبيرة متسارعة في تطوير قدراتها، وزيادة سعة تخزينها، وترقية نماذجها وأدواتها، فصارت أقدر من ذي قبلٍ على محاكاة الإنسان في كثيرٍ من مهامه في أغلب مجالات الحياة، ومن المجالات التي استقطبت جهود الحاسوبيين لتوظيف التقنيات الحاسوبية المتطورة؛ مجالُ تحقيق موروثنا العربي والإسلامي من المخطوطات. ونظرًا إلى ما يكتنفه علمُ التحقيق من صعوبات جمّة، وإلى ما يحتاجه من معارف متنوعة وخبرات عملية متراكمة؛ للتعامل مع المخطوطات بتنوعاتها المتباينة؛ لا يزال إسهام التقنيات الحاسوبية - في إنجاز أغلب مهام التحقيق - إسهامًا جزئيًا ومحدودًا، ومن المهام التي لقيت كثيرَ اهتمام من المحققين والحاسوبيين لتوظيف التقنيات الحاسوبية في إنجازها؛ التعرّف الآلي على المحتوى النَّصِّي للمخطوط على اختلاف أحواله، فتعدّدت البرامج التي وظّفت تقنية التعرّف الضوئي على النص (OCR)، ووظّفت فيها بعضَ تقنيات الذكاء الاصطناعي لمحاكاة المحقّق البشري في معارفه ومهاراته في قراءة المخطوط.

ويعنى هذا البحث بالتعريف بأحد تلك البرامج، وهو برنامج "سطور" (Sotoor)¹، الذي طوّرتَه الشركة الهندسية لتطوير نظم الحاسبات (RDI)، ولمزيد من التوضيح وبيان مدى

¹ انظر: برنامج "سطور".

قدرته على أداء مهامه، لجأ البحث إلى مقارنة نتائجه بنتائج برنامج "زنكي" (Zinki)،¹ وبرنامج "غوغل لنز" (Google Lens).²

وتتمثل المشكلة البحثية في ضخامة الجهود المطلوبة من أجل تحقيق موروثنا من المخطوطات العربية والإسلامية، وصعوبة تعامل التقنيات الحديثة مع نصوص تلك المخطوطات؛ نظرًا إلى أنها مكتوبة بخط اليد، بخطوط متنوعة، وقد قام على نسخها من يُحسن مهنة النساخة ومن لا يُحسنها، إضافة إلى تعرُّضها لسوء التخزين والحفظ، فأصبحت التلف والطمس، وغيرها من المشكلات التي تصعب على التقنيات الحاسوبية التعرف على نصوصها، وتحويلها إلى نصوص رقمية قابلة للتحكم فيها، ونتيجة لذلك لا تزال تقنية التعرف الضوئي على نصوص المخطوطات تعاني مشكلات تحتاج إلى حلٍّ، وهو ما يحاول هذا البحث مناقشته من خلال التطبيق على برنامج "سطور".

وإن هذا البحث بينيٌّ، جمع بين جانبيين؛ أحدهما المخطوطات العربية بما يختصُّ به نسخها من تنوع ونسبية، والآخر تقنية التعرف الضوئي على الحروف العربية بما يحكمها من منهج رياضي، وقد تناولت كلاً من الجانبين في ضوء الآخر، والمطالع للنتائج البحثية اليوم لا يجد كثيراً من البحوث التي تعالجهما معاً، وإن كثرت تلك التي تعنى بكلٍّ منهما بعيداً من الآخر، ومن الدراسات التي تناولت الجانبين معاً ما يأتي دراسة بعنوان "استخدام تقنية (ICR) التعرف الذكي على الحروف المكتوبة بخط اليد في قراءة الوثائق والمخطوطات العربية، وانعكاس ذلك على مؤسسات حفظ التراث"،³ وفيها تفريق بين تقنية التعرف الذكي على الحروف المكتوبة بخط اليد (ICR)، وتقنية التعرف البصري على الحروف (OCR)، مع دراسة حالة لمشروعين من المشروعات التي طبقت تقنية (ICR)؛ أحدهما طُبِّق على نوعية معينة من

¹ انظر: برنامج "زنكي".

² انظر: برنامج "غوغل لنز".

³ انظر: نسمة علي عبد الحميد، "استخدام تقنية (ICR) التعرف الذكي على الحروف المكتوبة بخط اليد في قراءة الوثائق والمخطوطات العربية، وانعكاس ذلك على مؤسسات حفظ التراث"، الرزنامة، العدد (20)، (2022).

المخطوطات العربية، وهو المشروع التعاوني بين المكتبة البريطانية ومكتبة قطر الرقمية، والآخر مشروع مصحف مسقط الإلكتروني، الذي طُبِّقَ على مصحف عُمان المخطوط لهذا الغرض بخاصة، وقد خلصت الدراسة إلى أهم التحديات أمام الوصول إلى مستوى الجودة المطلوب في تطبيق هذه التقنية على المخطوطات والوثائق العربية المكتوبة بخط اليد.

وهذه الدراسة تتقاطع مع هذا البحث في الموضوع والمشكلة والأدوات، وتفتقر عنه في أمرين؛ أحدهما أن موضوعها اقتصر على التعرف على الكلمات الدالة فقط، لا كامل المخطوط، وذلك في المشروع التعاوني بين المكتبة البريطانية ومكتبة قطر الرقمية، واقتصر في مشروع مصحف مسقط على نصوص القرآن الكريم، وهي مادة لغوية خاصة لا عامة، أما هذا البحث فلم يتوقف عند الكلمات الدالة، بل تعدها ليشمل كامل نصّ المخطوط، ولم يتوقف عند مادة لغوية خاصة، بل توسع ليشمل نصوصًا لغوية عامة متنوعة، والأمر الآخر أن الدراسة السابقة أُنجِزت عام (2022)، والفارق الزمني بينها وبين هذا البحث كافٍ لإحداث تطوير ملحوظ في التقنيات، فقد أشارت الدراسة إلى أن السوق يخلو من تطبيقات تعنى بالتعرف البصري على الخط العربي المكتوب بخط اليد،¹ في حين أن في السوق اليوم أكثر من تطبيق، منها التطبيقات الثلاثة التي يقارن هذا البحث بين نتائجها، وكذا أشارت الدراسة إلى الضعف الملحوظ في نتائج التطبيق التي جرّبه حينذاك،² مع أنه كان يعمل على الكلمات الدالة فقط، في حين كَشَفَ هذا البحث عن نتائج متقدمة للتطبيقات الثلاثة في التعامل مع عينة التجربة.

دراسة أخرى كانت بعنوان "رقمنة الخط العربي ودوره في تحقيق المخطوطات: مشاريع تقنية وتحديات بشرية"،³ وعَرَضَتْ لأنواع الخطوط العربية وميزاتها، وما تمثّله من

¹ انظر: المرجع السابق، ص 381.

² انظر: المرجع السابق، ص 404.

³ انظر: جميلة روقاب، "رقمنة الخط العربي ودوره في تحقيق المخطوطات: مشاريع تقنية وتحديات بشرية"، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، 2(8)، (2019).

صعوبة في تحقيق المخطوط العربي، ثم عَرَضَتْ لمشروع الذخيرة اللغوية العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، من جهة فائدته في خدمة التراث المخطوط، ثم عَرَضَتْ لبعض برامج تقنية الخط العربي وأدوات الرقمنة، وبيّنت تباين الباحثين في رقمنة الخط العربي، وتختلف هذه الدراسة عن هذا البحث في أنها عَرَضَتْ لبعض خصائص الخط العربي وإمكانات رقمنته، من دُون العناية بغيره من الجوانب التي تؤثر في نسخ المخطوط، ولم تقدّم دراسة تجريبية لقياس كفاءة تقنية (OCR) في التعرّف الضوئي على نصوص المخطوطات العربية.

وهناك دراسة ثالثة بعنوان "نحو التحقيق الإلكتروني (الرقمي) للمخطوطات: استخدام تطبيقات تكنولوجيا المعلومات في تحقيق المخطوطات لدى الباحثين الجزائريين في مجال المخطوطات"،¹ هدفت إلى استطلاع رأي الباحثين الجزائريين في استعمال التطبيقات التقنية الحديثة في تحقيق المخطوطات، وذلك بتوزيع استبانة وتحليل نتائجها، وقد عَرَضَتْ لمبادئ علم تحقيق المخطوطات، والعلوم المساعدة إياه، وأقسامه، كتحقيق العنوان، واسم المؤلف، ونسبة الكتاب إليه، وتحقيق مؤن الكتاب، ثم عَرَضَتْ لعدة المحقق من العدسات المكبرة، والقارئة، وأشارت إلى صفات المحقق، وإجراءات عملية التحقيق وصعوباتها، وهذه الدراسة مع قرّب عنوانها من موضوع هذا البحث، جاءت معالجتها الموضوع مفارقة إياه في مشكلته البحثية، وأهدافه، ومنهجه.

تقنية التعرّف الضوئي على الحروف العربية (OCR)

أولاً: مفهومها وأهميتها

تقنية التعرّف الضوئي على الحروف (OCR) هي تقنية ذكية تُستعمل لتحويل النصوص في الصور إلى نصوص رقمية قابلة للقراءة والتحرير، وهي ذكية لأنها تحاكي طريقة عمَل النظام العصبي عند الإنسان؛ إذ تقطّع صُورَ الحرف المراد التعرّف عليها، وتطابقها مع مقاطع مخزّنة

¹ انظر: مولاي محمد، "نحو التحقيق الإلكتروني (الرقمي) للمخطوطات: استخدام تطبيقات تكنولوجيا المعلومات في تحقيق المخطوطات لدى الباحثين الجزائريين في مجال المخطوطات"، مجلة الحوار المتوسطي، 5(1)، (2014).

مَسْبَقًا، لَذَا يُمْكِنُهَا التَّعْرُفُ عَلَى الْوُثَائِقِ الْعَادِيَةِ، بَلِ الْوُثَائِقِ التَّالِفَةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا الْحُرُوفُ غَيْرَ وَاضِحَةٍ أَوْ مَطْمُوسًا بَعْضُ أَجْزَائِهَا.¹

وَتَنْقَسِمُ تِلْكَ التَّقْنِيَةُ بَعَامَةً إِلَى تَقْنِيَتَيْنِ فِرْعِيَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا تَقْنِيَةُ التَّعْرُفِ عَلَى الْأَحْرَفِ الْمَطْبُوعَةِ آليًّا (Optical Character Recognition - OCR)، وَالْأُخْرَى تَقْنِيَةُ التَّعْرُفِ عَلَى الْأَحْرَفِ الْمَكْتُوبَةِ بِحِطِّ الْيَدِ (Handwriting Recognition - HWR)،² وَلَكِنْ "النَّوْعُ الثَّانِي يَشْكَلُ تَحْدِيدًا أَكْبَرَ، وَذَلِكَ لِلاخْتِلَافَاتِ الْكَبِيرَةِ فِي طَرُقِ الْكِتَابَةِ، وَخُصُوصِيَّاتِ كُلِّ شَخْصٍ فِي كِتَابَةِ الْحُرُوفِ".³

وَتَمْتَثِلُ أَهْمِيَّةُ هَذِهِ التَّقْنِيَةِ فِي تَمْكِينِ الْحَاسُوبِ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ الْمَخْتَوَى النَّصْبِيِّ لِتِلْكَ الْوُثَائِقِ الَّتِي حَوَّلْتَهَا مِنْ صُورٍ إِلَى نَصُوفٍ رَقْمِيَّةٍ يُمْكِنُ لِلْحَاسُوبِ فَهْرَسْتَهَا، وَتَصْنِيفَهَا، وَمُسَاعَدَةِ الْبَاحِثِينَ فِي الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْ مُرَادِهِمْ فِيهَا؛ إِذْ إِنْ غَزَاةُ الْأَدْبِيَّاتِ التَّرَاثِيَّةِ وَتَبَوَّعَهَا، وَعَجَزَتْ وَسَائِلُ التَّوْثِيقِ التَّقْلِيدِيَّةِ عَنْ وَضْعِهَا وَضْعًا مَتَكَامَلًا وَافِيًّا فِي أَيْدِي الْبَاحِثِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ؛ قَدْ أَبْرَزَ تَحْدِيدًا كَبِيرًا أَمَامَ نَفْضِ الْعِبَارِ عَنْ ذَلِكَ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْفَرِيدِ فِي ضَخَامَتِهِ وَتَنْوُعِهِ وَثَرَاتِهِ،⁴ هَذَا مَعَ إِثْرَاءِ الْمَخْتَوَى الرَّقْمِيِّ الْعَرَبِيِّ، وَتَمْكِينِ تَقْنِيَّاتِ الذِّكَاءِ الْإِصْطِنَاعِيِّ مِنَ التَّعَلُّمِ مِنْهَا، وَمَنْ ثَمَّ أَدَاءِ عَمَلِيَّاتِ تَكْشِيفِ عَمَّا تَحْمِلُهُ تِلْكَ النَّصُوفِ مِنْ خُصَائِصٍ مُؤَلَّفِيهَا، وَسِمَاتِ عَصُورِهِمْ وَبِلْدَانِهِمْ، وَتَسْتَخْلَصُ مَضَامِينَهَا الْعِلْمِيَّةَ وَالْحَضَارِيَّةَ الَّتِي تَمْتَثِلُ تَارِيخَ الْأُمَّةِ وَتَقَاتِفَتَهَا، وَمَنْ شَأْنِ ذَلِكَ أَنْ يُوْدِي إِلَى "تَوْفِيرِ مَعْلُومَاتٍ تَرَاثِيَّةٍ وَإِحْصَائِيَّاتٍ مَتَّنُوعَةٍ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ فِي كِتَابَةِ التَّارِيخِ، أَوْ إِعَادَةِ كِتَابَتِهِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَقَدِّمُ إِمْكَانَاتٍ تَحْلِيلِيَّةً لِمَضَامِينِ الْمَخْطُوطَاتِ

¹ انظر: صديق بسو، "خوارزميات وبرامج التعرف الآلي على الخط العربي"، ملتقى التكنولوجيات الجديدة ودورها في صناعة اللغة العربية واستعمالها، المجلس الأعلى للغة العربية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، 17 مايو 2017، ص 197.

² انظر: شذى عبد الرحيم خليفة الرضي، "التعرف على النصوص باستخدام تعلم الآلة"، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، 3(11)، (2022)، ص 29.

³ بسو، خوارزميات وبرامج التعرف الآلي على الخط العربي، ص 194.

⁴ انظر: هاشم فرحات، دور تكنولوجيا المعلومات في ضبط المخطوطات العربية وإتاحتها: مراجعة علمية للإنتاج الفكري (الرياض: جامعة الملك سعود، 2001)، ص 28.

يمكن معها الحصول على دلالات تاريخية أوسع من تلك التي يمكن الحصول عليها بالوسائل التقليدية، إضافة إلى تميّزها بالدقة والاستعداد إلى الإحصاء كلما أمكن ذلك".¹ ونظرًا إلى تلك الأهمية، "حَطَّتْ كثيرٌ من اللغات أشواطاً كبيرة في ميدان التَّعْرُفِ الآلي على الخط، ومنها التَّعْرُف على الأحرف اللاتينية، الصينية، اليابانية... حيثُ عَرَفَتْ الكثير من اللغات التي تعتمد على الحرف اللاتيني نِسَبًا مرتفعة في التَّعْرُف تَصِلُ إلى (100%)، بينما تظلُّ نِسَبُ التَّعْرُف على الحرف العربي منخفضة، رَغْمَ أن البحوث التي نُشِرَتْ حَوْلَ التَّعْرُف على الحرف العربي كانت سنة (1975)".²

ثانيًا: برنامج "سطور" كيفية عمله ومكوّناته

يعنى هذا البحث بالتعريف ببرنامج "سطور" (Sotoor) الذي طوّرتَه شركة (RDI) اعتمادًا على تقنية (OCR)،³ ويعرض لمكوّناته الأساس التي تمكّنه من أداء مهامه؛ إذ يختصُّ كلُّ واحد منها بمرحلة من المراحل الثلاث التي تمرُّ بها القراءة الضوئية للصورة، وهذه المراحل هي:

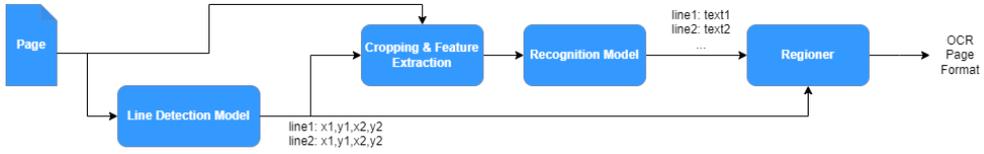
- مرحلة اكتشاف الخطوط (Line Detection): يُنجزها نموذجٌ دُرِّبَ لاكتشاف خطوط النصِّ داخل الصفحة (Line Detection Model).
- مرحلة التَّعْرُف على النص (Text Recognition): يُنجزها نموذجُ التَّعْرُف على النص (Text Recognition Model) للتَّعْرُف على الحروف داخل الخطوط المكتشفة.
- مرحلة التجميع (Clustering): تُنجزها خوارزمية (Regioner) لإعادة تجميع الخطوط المكتشفة وتنظيمها في فقرات وأقسام.

¹ السابق نفسه.

² بسو، خوارزميات وبرامج التعرف الآلي على الخط العربي، ص 192-193.

³ يمكن مراجعة الموقع الشابكي لبرنامج "سطور".

وتَصِحُّ تَتَابُعِيَّة المَرَاكِلِ السَّابِقَةِ وما يُنْجِزُهَا من نَمَاجٍ من خِلالِ المَخْطُوطِ الآتِي:



شكل (1): نظرة عامة على نظام عمل برنامج "سطور"

وفيما يأتي توضيح المكونات الثلاثة الرئيسة للنظام:

1. أنموذج اكتشاف الخطوط (Line Detection Model):

يعمل باستخراج مربعات الإحاطة (Bounding Boxes) لخطوط النصّ من صورة الصفحة، وهو أنموذج دُرِّب على الصفحات عن طريق الحركة التراجعية (Regression) لاكتشاف إحداثيات مربع الإحاطة،¹ ويستعمل النظام أحدث خوارزميات تعلّم الآلة (Machine Learning) لتدريب أنموذج الحركة التراجعية لتعلّم خرائط هندسة (RBOX) لمربعات الإحاطة للنصّ، وهذه الخرائط هي خمسُ خرائط تمثّل الدوران والمسافات الأربعة من الأعلى والأسفل واليسار واليمين بين حدود الصورة وبكسالات مربع الإحاطة، ويولّد الأنموذج مخرجين أساس؛ خريطة هندسة (RBOX)، وخريطة الاحتمالات لموقع النصوص.²

ولا يقتصر الأنموذج على التّعريف على الخطوط التي تتألّف منها النصوص العربية فقط، بل يمكنه أن يتعرّف على اللغات الأخرى كذلك، فقد دُرِّب على مجموعة بيانات من صوّر المستندات المطبوعة التي تحتوي على نصوص عربية وأجنبية (إنكليزية وإيطالية)؛ لذا يعمل الأنموذج كاشفاً للخطوط المطبوعة مهما كانت اللغة، وفيما يأتي بيان توزيع صوّر النصوص التي تدرّب عليها، واختبر بها، موضّح في الجدول (1).

¹ See: Raymond W. Smith, "An Overview of the Tesseract OCR Engine", *Ninth International Conference on Document Analysis and Recognition (ICDAR 2007)*, Curitiba, Brazil, (2007), pp. 629-633.

² See: Jianqi Ma, Weiyuan Shao, Hao Ye, Li Wang, Hong Wang, Yingbin Zheng & Xiangyang Xue, "Arbitrary-Oriented Scene Text Detection via Rotation Proposals", *IEEE Transactions on Multimedia*, 20(11), (2018), pp. 3111-3122.

الاختبار	التدريب	توزيع البيانات
1976	18299	عدد الصور

جدول (1): توزيع بيانات التدريب والاختبار لاكتشاف الخطوط

وقد رُوِيَ في تدريب الأُمُودَج ما يَأْتِي:

(أ) استعمال ثلاثة أنواع من دوال الخسارة (Loss Function)، ودالة الخسارة مقياس كمي يُستعمل في تعلُّم الآلة لقياس مدى اختلاف النتائج التي يتنبأ بها الأُمُودَج عن النتائج التي توصل إليها، فهي مقياس لمدى (سوء) أداء الأُمُودَج في مهمته، وهي أنواع:¹

- دالة خسارة التصنيف: خسارة (Dice) المطبَّقة على خريطة الاحتمالات (Score Map) المولدة من الأُمُودَج، وخريطة موقع النصوص حسب البيانات نفسها (GT Text Location Binary Mask).

- دالة خسارة الهندسة: خسارة (Log IOU) المطبَّقة باستعمال خرائط الهندسة.
- دالة خسارة الدوران: المطبَّقة على خريطة الدوران.

والخسارة الإجمالية للتدريب هي مزيج من الخسائر الثلاث.

(ب) تطبيق التحسينات (Augmentations) على الصور في أثناء التدريب، وتُستعمل التحسينات لتوسيع مجموعة البيانات التدريبية اصطناعياً، وذلك بتطبيق مجموعة من التعديلات العشوائية على الصور التي يتدرَّب عليها، مما يؤدي إلى إنشاء صُورٍ جديدة تختلف قليلاً عن الصور الأصلية، ومن هذه التحسينات:²

- الدوران (Rotation)؛ إذ تدوَّر الصورة بزاوية عشوائية حول مركزها.
- الاقتصاص العشوائي (Random Cropping with Aspect Ratio)، ويُراعى ضبطُ الخطوط وفق عملية الاقتصاص.

¹ See: Zhongheng Zhang, "Introduction to Machine Learning: K-Nearest Neighbors, Regression, and Beyond", *Annals of Translational Medicine*, 7(7), (2019), pp. 1-20.

² See: Connor Shorten & Taghi M. Khoshgoftaar, "A Survey on Image Data Augmentation for Deep Learning", *Journal of Big Data*, 6(1), (2019), p. 60.

- تحسينات الألوان (Color Augmentations)، بما يشمل تغيير التشبع، والتلوين، والتحويل إلى اللونين الأسود والأبيض (Binarization)، وغيرها من التحسينات.

(ج) تطبيق أُنموذج التدهور (BSRGAN) على الصورة، وهو أُنموذج عميق للتعلُّم الآلي مصمَّم لتدهور الصور واقعيًّا، أي إنه يحوِّل الصورة ذات الجودة العالية إلى صورة ذات جودة أقل، ليحاكي بذلك ما يمكن أن تتعرَّض له الصورة من تَلَفٍ أو تدهور في أثناء عملية التقاطها أو نقلها.¹

يُدرَّب الأُنموذج في خمسين جولة (Epoch)، بهدف تعديل أوزانه وتحسين قدرته على التنبؤ، وذلك بمعدَّل تعلُّم (Learning Rate) ابتدائي (3-e3)، وتقليل معدَّل التعلُّم أسياً (Exponential Decay) لكل جولة بمعامل تقليل (-0.1)، مع تقليل معدَّل التعلُّم على استقرار الخسارة بمعامل (0.1) (LR Reduction on Plateau).

وقد يُقاس أداء الأُنموذج بمقياس نجاح (PRIMA)، وهو مقياس عامٌّ يشتمل على مقاييس فرعية يتضمنها الجدول الآتي، وقد ضُمَّنت النتائج الجدول (2)، وكلُّ الأرقام المذكورة في الجدول هي معدلات نجاح، وكلما زادت أشار ذلك إلى جودة الأُنموذج.

الدمج	الانقسام	الفقد	الفقد الجزئي	الكشف الكاذب	الإجمالي
٪97.31	٪99.05	٪98.73	٪93.85	٪97.99	٪96.32

جدول (2): أداء الأُنموذج على عينة الاختبار

وفي أثناء التنبؤ يتطلَّب أُنموذج اكتشاف الخطوط تحديد موقع مربع الإحاطة لكلِّ خطِّ نصٍّ، ويُنتج الأُنموذج مسافات (AABB) (خريطة الهندسة)، وخريطة الزاوية، وخريطة الاحتمالات، وبعضٍ المعالجة اللاحقة وإزالة التشويش غير المحدودة (Non-Maximum Suppression)، يمكن الحصول على مواقع مربعات الإحاطة النهائية، ويمكن رؤية الشكل (2) لبعض العينات المرئية من مخرجات الأُنموذج.

¹ See: Xintao Wang, Ke Yu, Shixiang Wu, Jinjin Gu, Yihao Liu, Chao Dong, Chen Change Loy, Yu Qiao & Xiaoou Tang, "ESRGAN: Enhanced Super-Resolution Generative Adversarial Networks", *Proceedings of the European Conference on Computer Vision (ECCV)*, (2018), pp. 63-79.



عجبة النحل القذافي

هذا ويختص الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف أو من يلوب عنه بتقدير أجور ومصاريف الخبراء بعد مراعاة أهمية وصعوبة العمليات المباشرة والعمل المنجز، كما يمكن له أن يأذن للخبراء في أن يقضوا أثناء سير الإجراءات دفعات مقدّمة على الحساب علماً بأن الفصل 17 من قانون الرسوم القضائية في الميدان المدني وإن كان لا يتحدث صراحة عن الرئيس الأول مكلفاً بذلك رئيس المحكمة فإن ذلك يشملته خاصة وأن مصاريف الخبرة توضع أيضاً بمسندوق محكمة الاستئناف التي يرأسها.

وفي مجال المصاريف القضائية في الميدان الجزري الصادر بها القانون رقم 86/23 والممنشور بالجريدة الرسمية عدد 3877 بتاريخ 1987/2/18 فإن الرئيس الأول يخصص أيضاً بتبديل بيان مصاريف القضاء الجنائي بالصيغة التنفيذية بعد تأييد النيابة العامة وأخذ رأي القاضي الذي يقرر المبلغ المستحق وفقاً للتعرفة المعمول بها، علماً بأن المادة 37 من هذا القانون وإن كانت لا تتحدث أيضاً عن الرئيس الأول مكلفاً بصيغة رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل الرئيس الأول الذي يعتبر رئيساً لمحكمة خاصة وإن كثراً من الرسوم القضائية تصفى على مسند محكمة.

والواقع العملي يجري على أن السيد الوكيل العام يهين مطوعاً خاصاً لهذا الغرض بضمته ملتصقة إلى الرئيس الأول بتبديل البيان بالصيغة التنفيذية حيث يستوجب هذا الأخير لذلك متى لم يتجاوز المبلغ 2000,00 درهم اعتباراً إلى أنه متى تجاوز ذلك أصبح الاختصاص للسيد وزير العدل.

9 - رئاسة الجمعية العامة للمحكمة :

ينص الفصل 6 من المرسوم عدد 2.74.498 الصادر بتاريخ 16 يوليوز 1974 على أن الجمعية العامة لمحكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية

- 221 -

شكل (2): اكتشاف الخطوط المرئية من الأنموذج، إلى اليسار جريدة إيطالية، وإلى اليمين كتاب عربي
2. أنموذج التعرف على النصّ (Text Recognition Model):

هو جوهر نظام (OCR)؛ إذ يتعرّف على النصّ في الخطوط المكتشفة من الأنموذج السابق، ومهمته الأساس فكُّ ترميز الصورة التي تمثّل خطأً من النصّ، وتحويلها إلى نصّ قابل للقراءة، ومدخلات الأنموذج صورة تمثّل خطأً نصّ واحد، والمخرَج نصّ قابل للقراءة، ويُطابق النصّ في الصورة المدخلة.

ويستعمل النظام أنموذج (seq2seq)، وهو يعامل كلّ صورة بوصفها سلسلةً من الإطارات الخاصة (Feature Frames)، ثم يُنتج سلسلةً من رموز النصّ التي تتفق مع تلك السلسلة من المميزات (Features)، ويستعمل أيضاً هيكلية (Encoder-Decoder)، والمرمّز (Encoder) نوعٌ من التوافق (Conformer)، ويُركّز على تعلّم التمثيلات البصرية، ومفكُّ الترميز (Decoder) أنموذج تسلسلٍ يعتمد (conv-1d)، ويُركّز على تعلّم اللغة، وكلاهما - المرمّز ومفكُّ الترميز - يُدمج لصوغ أنموذج ناقل (Transducer) دُرّب بحسارة (RNN-T) المختصرة.

وقد اعتمدت مصادر مختلفة من البيانات المطبوعة لتزويد الأنموذج بخطوط متنوعة، وأحجام خطوط متباينة، ومجالات لغوية ومعرفية مختلفة، وفيما يأتي توضيح توزيع البيانات الرئيسية التي تدرّب عليها النظام:

اسم البيانات	المجال	عدد الخطوط	النسبة المئوية
Sotoor	الكتب	217216	12.76%
WIPO	براءات الاختراع	114634	6.74%
Book Titles	الكتب	174971	10.28%
Magz	المجلات والصحف	1194948	70.22%

جدول (3): توزيع بيانات تدريب نموذج الخطوط العربية المطبوعة

ويستخرج النظام الخصائص (Features) من صُورِ الخطوط الرمادية (Grayscale) عن طريق تغيير الحجم إلى ارتفاع ثابت، وقلبِ الصور حتى يتطابق ترتيب النصِّ مع ترتيب الأطر (Frames)، ليمثِّل كلُّ عمود في خريطة الخصائص إطارًا، وكلُّ مجموعة من الخصائص تمثِّل حرفًا، ويعتمد النظام أنموذج (seq2seq) في تدريب الأنموذج على تعلُّم العلاقة بين تسلسل الإطارات البصرية (المدخل)، وتسلسل الحروف (المخرج)، وكيفية تحويل الإطارات البصرية إلى نصِّ.

ويعتمد النظام أيضًا على التحسينات (Augmentations) لتحسين أداء الأنموذج، وهذه بعض التحسينات البارزة:

- الهندسية: القص (Shear) والدوران.
 - الألوان: تغيير تحسينات المقدمة والخلفية.
 - إدخال صورة في الخلفية.
 - الضوضاء (Noise)، من مثل (Salt and Pepper, Gaussain Noise).
 - ضغط (JPEG).
- وُتستعمل سياسة التحسين تلك في أثناء التدريب (Online)، وتطبق هذه التحسينات عشوائيًا على الصور المدخلة، وفيما يأتي عينة من هذه التحسينات في الشكل (3).



شكل (3): عينات صور الخط المحسنة

يستعمل النظام دالة خسارة (RNN-T) المختصرة على ناتج المررّز ومفكّ الترميز (Encoder-Decoder) المشترك، للعثور على أفضل مسار محتمل في أثناء التدريب، وقد دُرّب الأَنموذج في ثمان وعشرين جولة على جميع البيانات المذكورة أعلاه، بمعدل تعلّم ابتدائي (3-e1)، والتسخين الأولى (Warmup) للأَنموذج لأول ثلاثة آلاف خطوة، وتقليل معدل التعلّم، وقد كانت نتائج الأَنموذج على مجموعات الاختبار المستخرجة لكلّ مصدر تدريب كما هي موضّحة في الجدول (4).

اسم الاختبار	نسبة WER (المصححة)
Sotoor	٪8.59
WIPO	٪28.18
Books	٪6.53
Magz	٪9.45

جدول (4): نتائج أَنموذج الخطوط العربية المطبوعة

ويُلاحظ أن النتائج جيدة لجميع مجموعات الاختبار، باستثناء مجموعة (WIPO)، لأنها الأقل تمثيلاً، وتحتوي بعض التحويلات السياقية بسبب طبيعتها العلمية.

3. خوارزمية التجميع (Clustering Algorithm):

هي خطوة معالجة لاحقة لدمج الخطوط في فقرات (K)، ثم دمج تلك الفقرات في مناطق لإنشاء هيكل صفحة (OCR) المقروءة التي تمثّل المخرج النهائي، وذلك بإجراءات هي:¹

¹ See: Palaiahnakote Shivakumara, Partha Pratim Roy & Ummapada Pal, "Multi-Oriented Scene Text Detection in Video Based on Clustering and Distance Metric", *Pattern Recognition* 76, (2018), pp. 37-54.

- تحليل المسافات بين الخطوط: لتحديد ما إذا كانت هذه الخطوط تنتمي إلى الفقرة نفسها أو لا تنتمي.
- تحليل حجم الخط: لتحديد ما إذا كانت هناك تغييرات في حجم الخط تدل على بداية فقرة جديدة.
- تحليل محاذاة الخطوط: لتحديد ما إذا كانت الخطوط متساوية في المحاذاة، وتنتمي إلى الفقرة نفسها.
- تحليل المحتوى: في بعض الحالات المتقدمة، يمكن تحليل المحتوى اللغوي لتحديد العلاقات بين الجمل وال فقرات.
- وتنقذ خوارزمية التجميع بالإجراءات السابقة عمليتي دمج؛ إحداهما تدمج الخطوط معاً لتكوين فقرات، والأخرى تدمج فقرات لتكوين مناطق أو صفحة كاملة، ويمكن رؤية مخرجات التجميع في الشكل (4).

عامة نخل العنابي

هذا ويخص الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف أو من يوب عنه بتقدير أجور ومصاريف الخبراء بعد مراعاة أهمية وصعوبة العمليات المباشرة والعمل المنجز، كما يمكن له أن يأخذ للخبراء في أن يقبضوا أثناء سير الإجراءات دفعات مقدّمة على الحساب علماً بأن الفصل 17 من قانون الرسوم القضائية في الميدان المدني وإن كان لا يتحدث صراحة عن الرئيس الأول مكتفياً بذكر رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل خاصة وأن مصاريف الخبرة توضع أيضاً بصندوق محكمة الاستئناف التي يرأسها.

وفي مجال المصاريف القضائية في الميدان الجزري الصادر بها القانون رقم 86/23 والمشور بالجريدة الرسمية عدد 3877 بتاريخ 1987/2/18 فإن الرئيس الأول يخص أيضاً بتقدير بيان مصاريف القضاء الجنائي بالصيغة التنفيذية بعد تأشير النيابة العامة وأخذ رأي القاضي الذي يقر المبلغ المستحق وفقاً للتعرفة المعمول بها، علماً بأن المادة 37 من هذا القانون وإن كانت لا تتحدث أيضاً عن الرئيس الأول مكتفياً بصيغة رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل الرئيس الأول الذي يعتبر رئيساً لمحكمة خاصة وإن كثيراً من الرسوم القضائية تصفى على صعيد محكمة.

والواقع العملي يجري على أن السيد الوكيل العام يهين مطبوعاً خاصاً لهذا الغرض يضمه مئتمنه إلى الرئيس الأول بتقدير البيان بالصيغة التنفيذية حيث يستوجب هذا الأخير ذلك متى لم يتجاوز المبلغ 2000,00 درهم اعتباراً إلى أنه متى تجاوز ذلك أصبح الاختصاص للسيد وزير العدل.

9- رئاسة الجمعية العامة للمحكمة :

ينص الفصل 6 من الرسوم عدد 2.74.498 الصادر بتاريخ 16 يوليوز 1974 على أن الجمعية العامة لمحكمة الاستئناف والمحكمة الابتدائية

-221-

عامة نخل العنابي

هذا ويخص الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف أو من يوب عنه بتقدير أجور ومصاريف الخبراء بعد مراعاة أهمية وصعوبة العمليات المباشرة والعمل المنجز، كما يمكن له أن يأخذ للخبراء في أن يقبضوا أثناء سير الإجراءات دفعات مقدّمة على الحساب علماً بأن الفصل 17 من قانون الرسوم القضائية في الميدان المدني وإن كان لا يتحدث صراحة عن الرئيس الأول مكتفياً بذكر رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل خاصة وأن مصاريف الخبرة توضع أيضاً بصندوق محكمة الاستئناف التي يرأسها.

وفي مجال المصاريف القضائية في الميدان الجزري الصادر بها القانون رقم 86/23 والمشور بالجريدة الرسمية عدد 3877 بتاريخ 1987/2/18 فإن الرئيس الأول يخص أيضاً بتقدير بيان مصاريف القضاء الجنائي بالصيغة التنفيذية بعد تأشير النيابة العامة وأخذ رأي القاضي الذي يقر المبلغ المستحق وفقاً للتعرفة المعمول بها، علماً بأن المادة 37 من هذا القانون وإن كانت لا تتحدث أيضاً عن الرئيس الأول مكتفياً بصيغة رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل الرئيس الأول الذي يعتبر رئيساً لمحكمة خاصة وإن كثيراً من الرسوم القضائية تصفى على صعيد محكمة.

والواقع العملي يجري على أن السيد الوكيل العام يهين مطبوعاً خاصاً لهذا الغرض يضمه مئتمنه إلى الرئيس الأول بتقدير البيان بالصيغة التنفيذية حيث يستوجب هذا الأخير ذلك متى لم يتجاوز المبلغ 2000,00 درهم اعتباراً إلى أنه متى تجاوز ذلك أصبح الاختصاص للسيد وزير العدل.

9- رئاسة الجمعية العامة للمحكمة :

ينص الفصل 6 من الرسوم عدد 2.74.498 الصادر بتاريخ 16 يوليوز 1974 على أن الجمعية العامة لمحكمة الاستئناف والمحكمة الابتدائية

-221-

عامة نخل العنابي

هذا ويخص الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف أو من يوب عنه بتقدير أجور ومصاريف الخبراء بعد مراعاة أهمية وصعوبة العمليات المباشرة والعمل المنجز، كما يمكن له أن يأخذ للخبراء في أن يقبضوا أثناء سير الإجراءات دفعات مقدّمة على الحساب علماً بأن الفصل 17 من قانون الرسوم القضائية في الميدان المدني وإن كان لا يتحدث صراحة عن الرئيس الأول مكتفياً بذكر رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل خاصة وأن مصاريف الخبرة توضع أيضاً بصندوق محكمة الاستئناف التي يرأسها.

وفي مجال المصاريف القضائية في الميدان الجزري الصادر بها القانون رقم 86/23 والمشور بالجريدة الرسمية عدد 3877 بتاريخ 1987/2/18 فإن الرئيس الأول يخص أيضاً بتقدير بيان مصاريف القضاء الجنائي بالصيغة التنفيذية بعد تأشير النيابة العامة وأخذ رأي القاضي الذي يقر المبلغ المستحق وفقاً للتعرفة المعمول بها، علماً بأن المادة 37 من هذا القانون وإن كانت لا تتحدث أيضاً عن الرئيس الأول مكتفياً بصيغة رئيس المحكمة فإن ذلك يشمل الرئيس الأول الذي يعتبر رئيساً لمحكمة خاصة وإن كثيراً من الرسوم القضائية تصفى على صعيد محكمة.

والواقع العملي يجري على أن السيد الوكيل العام يهين مطبوعاً خاصاً لهذا الغرض يضمه مئتمنه إلى الرئيس الأول بتقدير البيان بالصيغة التنفيذية حيث يستوجب هذا الأخير ذلك متى لم يتجاوز المبلغ 2000,00 درهم اعتباراً إلى أنه متى تجاوز ذلك أصبح الاختصاص للسيد وزير العدل.

9- رئاسة الجمعية العامة للمحكمة :

ينص الفصل 6 من الرسوم عدد 2.74.498 الصادر بتاريخ 16 يوليوز 1974 على أن الجمعية العامة لمحكمة الاستئناف والمحكمة الابتدائية

-221-

شكل (4): من اليسار إلى اليمين؛ مخرجات اكتشاف الخطوط، دمج الفقرات من الخطوط (المرحلة

1)، دمج المناطق من الفقرات (المرحلة 2)

مكوّنات برنامج "سطور":

نوجز هنا أبرز مكوّنات برنامج "سطور"، وأهم الإجراءات التي تُتَّبَع في أثناء القراءة الضوئية للصورة:

1. واجهة المستخدم (User Interface - UI):

واجهة بسيطة سهلة الاستعمال، تتيح تحميل الصور، وتحديد إعدادات التحويل، ثم عرض النتائج.

2. وحدة استيراد الصور (Image Acquisition):

تتيح تحميل الصور من مصادر مختلفة، من مثل المساحات الضوئية، والكاميرات، أو الملفات المخزنة محليًا.

3. المعالجة الأولية للصورة (Image Preprocessing):

تحسين جودة الصور وإعدادها لعملية التعرف، ويشمل ذلك:

- إزالة الضوضاء.
- ضبط التباين والإضاءة.
- تصحيح الانحرافات والتشوهات.
- تحويل الصور إلى الأبيض والأسود (Binarization).

4. تقسيم الصورة (Segmentation):

تقسيم الصورة إلى أجزاء صغيرة تشمل الأحرف، والكلمات، والأسطر، لتسهيل عملية التعرف.

5. وحدة التعرف على الأحرف (Character Recognition Engine):

النواة الأساس لبرنامج (OCR)، حيث تُطبَّق الخوارزميات للتعرف على النصوص، ويشمل ذلك:

- التعرف على الأنماط (Pattern Recognition).
- خوارزميات التعلم الآلي (Machine Learning Algorithms).
- الشبكات العصبية العميقة (Deep Neural Networks).

6. وحدة ما بعد المعالجة (Post-Processing):

تحسين النص المستخرج وتصويب الأخطاء، ويشمل ذلك:

- المعاجم لتصويب الأخطاء الإملائية.
- نماذج لغوية لتحسين دقة النص.

7. التصدير والتخزين (Export and Storage):

حفظُ النصوص المستخرجة في تنسيقات مختلفة، من مثل (PDF, TXT, DOCX)، أو تخزينها في قواعد بيانات.

المخطوط العربي وتحديات التعرف عليه صوتياً

يعتمد التعرف الآلي على النصوص المكتوبة (OCR) على تقنيات الذكاء الاصطناعي التي تحاول محاكاة قدرات العقل البشري في قراءته النصوص التي تشتمل عليها الصور، ونسخها إلى صيغة نصية رقمية مقروءة، ويمر ذلك بخطوات وإجراءات تماثل ما يقوم به المحقق البشري في معالجة المخطوط، ونسخه، والتغلب على كل ما يواجهه من تحديات، وبذلك يضح أن أغلب الصعوبات التي تواجه المحقق البشري في أثناء نسخ المخطوط هي نفسها التي تواجه التقنية في أثناء عملها، مع وجود ما تختص به التقنية مقارنةً بجهد المحقق البشري.

ويعنى هذا المبحث ببعض تلك التحديات التي رصدها خبراء التحقيق في أثناء معالجتهم أنواع المخطوطات المختلفة، وذلك لأهميتها في تطوير التقنية، وقياس أدائها.

إن تحقيق النصوص علمٌ وصناعةٌ، وله جانبان؛ "جانبٌ نظري علمي ألفت فيه كُتُبٌ، وشرحت تجارب، مصحوبة ببعض النماذج، محتوية على بعض القواعد أو النصائح التي تعين الراغب في ممارسة هذه المهمة الصعبة الدقيقة، وجانبٌ آخر عملي فني، لا بدَّ فيه من الممارسة والتجارب الشخصية، حتى يتهيأ للمرء قدرٌ من الخبرة والمهارة والقدرة على حلِّ الصعوبات العملية التي تنتوِّع من حالةٍ إلى حالةٍ، ولا تغني فيها القواعد أو النصائح المدونة"¹، لذا تتطلب هذه المهنة في من يتصدى لها أن يكون مزوداً بعلمٍ وخبرةٍ يمكنانه من

¹ حسن الشافعي، "بعض صعوبات تحقيق المخطوطات العربية"، مجلة كلية دار العلوم، العدد (10)، (1980)، ص 231.

نَقْلُ مَا يَرِيدُهُ الْمُؤَلِّفُ نَقْلًا أَمِينًا دَقِيقًا، وَأَنْ يَضِيئَهُ بِتَعْلِيْقَاتِهِ وَتَوْجِيْهَاتِهِ، وَمَا اشْتَرَطَهُ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَحْقِقِ أَنْ يَكُونَ مَجِيْدًا لِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِفُرُوعِهَا وَمَسْتَوِيَّاتِهَا الْمَخْتَلِفَةِ وَعَصُورِهَا الْمُتَعَاقِبَةِ، وَأَنْ يَكُونَ مَلْمَمًا بِالْعِلْمِ أَوْ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ الْمَخْطُوطُ، وَأَنْ يَكُونَ مَلْمَمًا بِالتَّحْقِيقِ عِلْمًا وَفَنًّا،¹ وَقَدْ تَسَّعَ الْخَبْرَاتُ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْمَحْقِقُ مِنْ أَجْلِ فَحْصِ الْمَخْطُوطِ، لِتَشْمَلَ مَعْرِفَتَهُ وَخَبْرَتَهُ الْعَمَلِيَّةَ "أَنْوَاعَ الْوَرَقِ، وَأَنْوَاعَ الْخَطِّ، وَقَوَاعِدَ الْكِتَابَةِ، وَطُرُقَ التَّجْلِيدِ، وَنَحْوَهَا مِمَّا يَعْينُ عَلَى تَقْدِيرِ عُمْرِ النُّسخةِ إِنْ لَمْ يَحْدُدْ تَارِيخَ النُّسخِ".²

وَقَدْ تَنَوَّعَتِ التَّحْدِيَاتُ الَّتِي تَكْتَنِفُ تَحْقِيقَ الْمَخْطُوطِ، وَفَرَضَتْ عَلَى الْمَحْقِقِ التَّزَوُّدَ بِالْعِلْمِ وَالْخَبْرَةِ، وَبَدَلًا مِنْ الْجُهْدِ فِي دَرَاةِ الْمَخْطُوطِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، وَفِيْمَا يَأْتِي إِشَارَةً إِلَى أَهْمِ تِلْكَ التَّحْدِيَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَوَاجِهَ الْمَحْقِقُ:

1. التَّصْحِيفُ وَالتَّحْرِيفُ:

يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ كُلُّ اضْطِرَابٍ أَوْ خَلْطٍ فِي نَقْطِ الْحُرُوفِ أَوْ رَسْمِهَا، تَرْتَّبُ عَلَيْهِ تَبَاذُلُ الْحُرُوفِ فِيْمَا بَيْنَهَا، وَمِنْ ثَمَّ تَدَاخُلُ الْمَعَانِي وَالتَّبَاسُطِهَا، وَقَدْ رَجَّحَ مُحَمَّدُ الطَّنَاحِي تَعْرِيفَ التَّصْحِيفِ بِأَنَّهُ "تَغْيِيرُ فِي نَقْطِ الْحُرُوفِ أَوْ حَرَكَاتِهَا، مَعَ بَقَاءِ صُورَةِ الْخَطِّ، كَالَّذِي تَرَاهُ فِي كَلِمَاتٍ مِثْلِ (نَمَتْ) وَ(نَمْتُ)"،³ وَعَرَّفَ التَّحْرِيفَ بِأَنَّهُ "الْعُدُولُ بِالشَّيْءِ عَنِ جِهَتِهِ... فَقَدْ يَكُونُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْكَلَامِ، أَوْ النِّقْصِ مِنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ بِتَبْدِيلِ بَعْضِ كَلِمَاتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ بِجَمْلِهِ عَلَى غَيْرِ الْمَرَادِ مِنْهُ".⁴

وَتَعَدُّ "قَضِيَّةُ التَّصْحِيفِ وَالتَّحْرِيفِ مِنْ أَخْطَرِ قَضَايَا تَحْقِيقِ النُّصُوصِ، لِأَنَّهَا تَتَّصِلُ بِسَلَامَةِ النَّصِّ، وَتَأْدِيتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَرَكَّهُ عَلَيْهِ مُؤَلِّفُهُ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي لَيْسَ وِرَاءَهَا غَايَةٌ، مِنْ تَحْقِيقِ النُّصُوصِ وَإِدَاعَتِهَا، وَقَدْ يُتَسَامَحُ فِي بَعْضِ جَوَانِبِ التَّحْقِيقِ الْآخَرَى، مَعَ أَهْمِيَّتِهَا،

¹ انظر: السابق نفسه.

² المرجع السابق، ص 237.

³ محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1984)، ص 286.

⁴ المرجع السابق، ص 287.

كتوثيق الثُّقُول، وتخرِج الشواهد، وصنَّع الفهارس الفنية، ولكن أن يُترك اللفظ مصحِّفاً أو مُزَالاً عن جَهَّتِهِ، فهذا مما لا يُتسامح فيه، ولا يُعفى عنه".¹

وقد أرجع الأصفهاني التداخل بينَ حروف العربية إلى "أن الذي أبدع صُوَرَ حروفها لم يضعها على حكمة، ولا احتاط لمن يجيء بعده، وذلك أنه وَضَعَ لخمسة أحرف صورة واحدة، وهي الباء، والتاء، والثاء، والياء، والنون، وكان وَجْهُ الحكمة فيه أن يَضَعَ لكلِّ حرفٍ صورة مُباينة للأخرى، حتى يُؤمَّن عليه التبديل"،² وكثيراً ما أوقع هذا الالتباسُ النَّسَاحَ في الخطأ سواء بالتحريف أم التصحيف أم التكرار أم الإضافة أم السقوط،³ فيُخطئ "الناسخ في قراءة ما هو مكتوب في الأصل، ويكتب غيرَه، وهذا الجنس من التحريف لا تحصى أنواعه".⁴

ونظراً إلى خطورة هذه الظاهرة وشيوعها، نشطَ علماء التراث في رَصْدِ الكلمات المشكَّلة التي يزيد فيها احتمال وقوع الخطأ عند نسخها، فقد أَلَّفَ فيها العسكري (ت382هـ) كتابه "التصحيف والتحريف"، وشرح ما يَقَعُ فيه، ويقول في صدره: "شرحْتُ في كتابي هذا الألفاظ والأسماء المشكَّلة التي تتشابه في صورة الخط، فيَقَعُ فيها التصحيف، ويدخلها التحريف"،⁵ ومن المصنِّفات المهمَّة في هذا الباب كتاب "تصحیح التصحيف، وتحرير التحريف"، للصفدي (ت764هـ)، فقد شكَا في مستهلِّه من شيوع التصحيف والتحريف، فقال: "إن التصحيف والتحريف قلَّما سلِمَ منهما كبير، أو نجا منهما ذو إتقان"،⁶ وقد جَمَعَ الصفدي الكلمات التي يُحتمل أن يقع فيها التصحيف والتحريف، وصنَّفها وفق احتمالاتها، فقد تأتي على:⁷

¹ المرجع السابق، ص285.

² الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق: محمد أسعد طلس (بيروت: دار صادر، ط2، 1992)، ص27.

³ انظر: الشافعي، بعض صعوبات تحقيق المخطوطات العربية، ص241.

⁴ برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، إعداد وتقديم: محمد حمدي البكري (الرياض: دار المريخ، 1982)، ص81.

⁵ العسكري، التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه (القاهرة: مطبعة الظاهر، 1908)، ص3.

⁶ الصفدي، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق: السيد الشرقاوي (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1987)، ص4.

⁷ انظر: جلاط مریم، "التصحيف والتحريف في النصوص المحققة"، المدونة، (1)، (2020)، ص502.

- حرفين، كما في (جابر، حائر).
- ثلاثة أحرف، كما في (يَغِيْبُ، يَعْتَبُ، يَعْثُ).
- أربعة أحرف، كما في (قَلْبُ، قَلَبُ، قَلَّبُ، قُلِّبُ).
- خمسة أحرف، كما في (خَبْرٌ، جَبْرٌ، خَيْرٌ، حَبْرٌ، حَبْرٌ، جَبْرٌ).
- ستة أحرف، كما في (بَشِيرٌ، تُسْتَرُ... إلخ).
- سبعة أحرف.
- ثمانية أحرف.

ونظرًا إلى غلبة وقوع النَّسَاحِ في مثلِ هذا التصحيف، وخطورة ما قد يترتَّب عليه، فقد فَرَضَ ذلك على المحقِّق أن يتزوَّد بما يمكِّنه من أن يتفادى ذلك من العلم والخبرة، "فلاحتراس من التصحيف لا يُدرك إلا بعلمٍ غزيرٍ، وروايةٍ كثيرةٍ، وفهمٍ كبيرٍ"¹، و"علاج هذه الظاهرة الخطيرة لا يكون إلا بمعرفةٍ دقيقةٍ بأسرار اللغة، وخصائص مفرداتها وتراكيبها، وتصرف هذه المفردات والتراكيب في كلام العرب، ثم إلمام كاشفٍ بتاريخ هذه الأمة العربية، وأحوال رجالها وكُتُبها ومصطلحات علومها، وكلِّ ما يمتُّ إليها بسببٍ، وهذا لازمٌ لكلِّ من يشتغل بتراث الأُمَّة"².

ومع كلِّ ذلك لم يسلم كبار المحقِّقين من الوقوع في هذه الظاهرة، فتسلَّلت منهم هفوات إلى ما حقَّقه من أعمال، وقد أورد محمود الطناحي من تلك الهفوات في كتابه "مدخل إلى نشر التراث العربي"، منها قوله: "ومن أطرف ما رأيته من ذلك التصحيف الناشئ عن قُرْبِ الحروف وتُعْدِها، ما جاء في كتاب محقِّق، قال: (وَأَنْشَدَ شِعْرًا بَيَّنَّ سُكْرَهُ)، بهذا الضبط الذي تسمعون، وقد تأمَّلت ذلك الكلام فلم أجد شيئًا، وإذا صحَّته: (وَأَنْشَدَ شِعْرَ ابْنِ سُكْرَةَ)"³.

¹ العسكري، التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه، ص3.

² الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص304.

³ السابق نفسه.

2. فِرَادَةُ الْمُؤَلَّفِ أَوِ النَّاسِخِ الَّتِي تَمَيَّزُ الْمَخْطُوطَ مِنْ غَيْرِهِ، وَإِنْ نَاطَرَهُ غَيْرُهُ فِي الزَّمَانِ أَوْ الْمَكَانِ أَوْ الْمَوْضُوعِ:

قَدْ يَتَمَيَّزُ الْمُؤَلَّفُ بِاسْتِعْمَالِ مَعْجَمٍ لُغَوِيٍّ (كَلِمَاتٍ وَتَرَكَيبٍ) مُخْتَلِفٍ عَنِ مَعَاصِرِهِ مِنَ الْمُؤَلَّفِينَ، وَكَذَلِكَ النَّاسِخُ قَدْ يُخَالِفُ مَعَاصِرِهِ فِي الْخَطِّ الَّذِي يَنْسَخُ بِهِ، أَوْ فِي طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِهِ، كَأَنَّ تَكُونَ الْحُرُوفِ عِنْدَهُ مُتَقَارِبَةً أَوْ مُتَدَاخِلَةً أَوْ مُزَخْرَفَةً عَلَى نَحْوِ يَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النَّسَاحِ؛ إِذْ "يَخْتَلِفُ كُلُّ خَطِّ حَسَبَ كَاتِبِهِ، فَهَنَّاكَ مِنْ يُقَارِبُ بَيْنَ حَرْفِ الدَّالِ وَاللَّامِ، أَوْ الْعَيْنِ وَالْفَاءِ، رَعَمَ الْفَرْقَ الْمَوْجُودَ بَيْنَهُمَا"¹، وَتَنْجَلِي تِلْكَ الْفِرَادَةَ فِي الرَّمُوزِ الَّتِي يَسْتَعْمَلُهَا وَأَشْكَالُهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَفَاوُتِ النَّسَاحِ فِي مَسْتَوَى الدَّقَّةِ، فَبَعْضُهُمْ يَسْهُو، فَتَسْقُطُ مِنْهُ كَلِمَةٌ، أَوْ جُمْلَةٌ، أَوْ سَطْرٌ، فَقَدْ يَسْقُطُ "سَطْرٌ عِنْدَ نَسْخِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ النَّاسِخَ بَعْدَ إِتْمَامِ السَّطْرِ لَا يَبْدَأُ بِمَا بَعْدَهُ، بَلْ يَجَاوِزُ سَطْرًا كَامِلًا، وَيَبْتَدِئُ بِالثَّلَاثِ"².

وَمَا يَدْخُلُ فِي إِطَارِ فِرَادَةِ الْمُؤَلَّفِ أَوْ النَّاسِخِ مَا يَقَعُ مِنْ أَحَدِهِمَا أَوْ كِلَيْهِمَا مِنْ أَخْطَاءِ نَحْوِيَّةٍ، فَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّحْرِيفِ يَقَعُ مِنْ بَعْضِ النَّسَاحِ إِذَا "لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّسْخِ، فَكَثِيرًا مَا أَبَدَلُوا الصَّحِيحَ فِي الْأَصْلِ بِالذَّارِجِ فِي لَعْنَتِهِمْ، فَأَبَدَلُوا النَّصْبَ وَالْجِزْمَ بِالرَّفْعِ، وَأَبَدَلُوا الْمُؤَنَّثَ بِالْمَذَكَّرِ، وَالْفَاءَ بِالْوَاوِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ أَكْثَرُ خَطِّئِهِمْ فِي الْأَعْدَادِ، لِأَنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً عَلَى أَنْ يَنْطَقُوا بِالْأَعْدَادِ طَبَقَ اللُّغَةِ الدَّارِجَةِ، وَلِهَذَا السَّبَبُ فَإِنَّ النَّسْخَ الَّتِي لَا خَطَأَ فِيهَا فِي الْأَعْدَادِ نَادِرَةٌ"³.

وَيَتَرْتَبُ عَلَى تِلْكَ الْفِرَادَةِ أَنْ يَجْتَمِعَ أحيانًا لِلْمَخْطُوطِ الْوَاحِدِ أَكْثَرُ مِنْ نَسْخَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ فِي خِصَائِصِهَا وَدَقَّتِهَا، وَمُتَبَايِنَةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَهُوَ مَا يَقْتَضِي مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنْ يَقَابِلَ بَيْنَهُمَا، وَأَنْ يُوَازِنَ، ثُمَّ يَرْجِّحَ الْأَقْرَبَ إِلَى مَرَادِ الْمُؤَلَّفِ، وَهَذَا يَتَطَلَّبُ مِنْهُ:

¹ المرجع السابق، ص 62.

² برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص 24.

³ المرجع السابق، ص 84.

- أن يرجع إلى "ترجمة المؤلّف وسيرته وأخباره ومؤلّفاته، وأن يتمرّس في لَعْنِهِ وأَسَالِيهِهِ، فقد يضيء ذلك النصّ، ويساعد على مقابله بالقاموس اللغوي للمؤلّف، فلكلّ كاتبٍ أو مؤلّفٍ مفرداته ومصطلحاته وأَسَالِيهِهِ التي تتكرر لديه وتشيع في كتاباته".¹ - أن يتنبّت من الكلمات الغامضة بأن "يقوم المحقّق بالبحث عن صورتها في مواضع أخرى في صفحات المخطوط، فيختار أقرب صورة من صُور الكلمات الواضحة لهذه الكلمة الغامضة"،² وأن يتعرّف "الصورة التي يستخدمها النَّاسُخ لِكَلِّ حَرْفٍ من الحروف في حال اتصّالها أو انفصالها أو البدء بها أو الانتهاء بها، ومقارنة أحرف الكلمة الغامضة بصُور الأحراف عند النَّاسُخ".³

3. توالي نسخ المخطوط:

تتباين الثقة في كتابة المخطوط ونسخه بالنظر إلى من قام بذلك، فأعلاها أن ينهض المؤلّف نفسه بكتابه ونسخه، فهو أدري بمقصوده منها، وأحرص على إخراجها على الوجه الصحيح، والأقل منه أن ينقل عن المؤلّف أحد طلابه سماعاً أو استملاءً أو استنساخاً، مع أهمية أن يبذل المؤلّف جهده في المراجعة والتصحيح، ومن دون هاتين المرتبتين السابقتين مرتبة النَّسُخ، وهي أقلُّ منهما بكثير، فقد كان هؤلاء النَّسُخ يتكسبون معاشهم من نسخ الكتب، وكان كثير منهم يعني بسرعة الانتهاء من النَّسخ، وحُسن منظره أكثر من عنايته بدقة نقله على نحو ما أراد المؤلّف،⁴ حتى كثرت الشكاية من تساهل هؤلاء النَّسُخ في عمَلهم، وكثرة ما يقعون فيه من تصحيف، يقول العسكري: "قد كان الناس فيما مضى يغلطون في اليسير دون الكثير، ويصحّفون في الدقيق دون الجليل، لكثرة العلماء وعناية المتعلمين، فذهبت العلماء وقلّت العناية، فصار ما يصحّفون أكثر مما يصحّحون، وما يسقطون أكثر مما يضبطون".⁵

¹ المرجع السابق، ص252.

² السابق نفسه.

³ السابق نفسه.

⁴ انظر: المرجع السابق، ص17-18.

⁵ العسكري، التصحيف والتحرّيف وشرح ما يقع فيه، ص5.

ومع تعاقب الأزمنة وتباعدِ الأمصار، قد يُعاد نسخُ المخطوط المنسوخ من قبلُ على يدِ ناسِخٍ جديد، فتتراكمُ بذلك صُوَرٌ متنوعة من التصحيف والتحريف، وتزيد التعليقات والرموز، فتأتي تلك النسخة الأخيرة أكثر غموضًا، وأبعد عن مراد مؤلِّفها الأول، "ولما كان المؤلفون لا يطلعون على كلِّ ما يُنسخ من كُتُبِهِم، فقد كَثُرَ عَدَدُ الإبرازات [الطبعات، النسخ]، وزاد احتمال وقوع الفرق بينها"¹ "وهو ما يزيد من صعوبة فهم النص بشكلٍ دقيق، وتقديمه في صورته الأولى"²، ويزيد الأمر صعوبة أن تُصاب إحدى هذه النسخ المتأخرة بطمسٍ لمعلومات ناسِخِها، أو أن تُترك سهوًا أو قصدًا منه، ثم نُجدها تُراجِم النسخ الأولى بين يدي المحقِّقين، وهو ما يفرض عليهم تحديًا كبيرًا لتحديد النسخة الأساس التي تُقابل عليها سائر النسخ، مع أهمية الأخذ في الحسبان أن "قَدَمَ التاريخ للنسخة ليس وحده مبررًا لتفضيلها، ولهذا نحتاج إلى حُجَجٍ أقوم وأثبت من تاريخ النسخة"³، ويدخل في هذه الحجج معرفة كاتب النسخة، أهو مؤلِّفها، أم تلميذ المؤلف، أم ناسِخٌ يتكسَّب من نساخته؟ وإذا كان الكاتب ممن يتكسَّبون من نساختهم، فما مدى علمه بموضوع المخطوط؟ وماذا يُعرف به من كفاءة وأمانة في النقل؟ وغيرُ ذلك من مرجِّحاتٍ يمكن للمحقِّق أن يعتمدها.⁴

4. الخطُّ المكتوب به المخطوط:

تعود بعضُ التحديات التي يجدها المحقِّق إلى "اختلاف أنواع الخطوط، وطُرُق الإعجام والتشكيل، وطُرُق كتابة الأرقام، وبعضِ علامات التقييم القديمة، وهذا بابٌ واسعٌ لا بدَّ فيه من ثقافة نظرية عملية للتحقيق"⁵، وكذا يعود بعضُ تلك التحديات إلى تباين خصائص الخطِّ العربي ما بين مشرقيٍّ ومغربيٍّ، وقديمٍ وحديثٍ، فلتباين الخطوط أثرٌ بالغٌ في وقوع

¹ برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص27.

² حميد قريظلي، "صعوبات تحقيق المخطوط: قراءة الخطوط نموذجًا"، مجلة مالك بن نبي للبحوث والدراسات، 2(2)، (2020)، ص58.

³ برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص16.

⁴ انظر: المرجع السابق، ص16-17.

⁵ الشافعي، بعض صعوبات تحقيق المخطوطات العربية، ص241.

التصحيح والتحرير في نُسخ المخطوط، فإذا كان "الكتاب قد كُتِبَ أولاً بالكوفي، ثم نُسخَ بالخط النَّسخي، ثم بالمغربي، ثم أُعيدت كتابته بالنسخي، ثم كُتِبَ بالفارسي أو الرقعة التركي، فلا نهاية لاحتمال وقوع التحريف في مثل هذا الكتاب، وأكثر ذلك يحدث عند النقل من خطِّ لخطِّ، وعند النَّسخ من أصلٍ قديمٍ؛ لأن الناسخ في هذه الحالات لا يعرف خطَّ الأصل معرفةً كافيةً في كثير من الأحيان".¹

5. خوارج النص:

من التحديات التي تواجه المحقق في قراءة المخطوط، وتزيد من نسبة وقوع التصحيح والتحرير اختلاط الحواشي بمَن المخطوط؛ إذ "تزخر بعض المخطوطات العربية بكثيرٍ من الحواشي والتعليقات الجانبية، وقد تقتحم بعض هذه التعليقات متن المخطوط، فتدخل بين سطوره، أو بين جملة، فتختلط بالمتن، فلا يعرف القارئ إن كان الكلام كله للمؤلف، أو أن بعضه للناسخ، وذلك أن بعضاً ممن يمتلكون المخطوط يضيفون إليه بعض تعليقاتهم، للتوضيح أو الشرح أو التفسير، أو غير ذلك، وقد يفعل الناسخ مثل ذلك، فيتدارك جملةً أو كلمةً سقطت في أثناء النَّسخ، أو قد يرغب في إيضاح شيء من النص، وقد يكون بعض هذه الحواشي من المؤلف نفسه إذا كان المخطوط بخطه".²

6. حالة المخطوط:

سوء الحالة التي عليها المخطوط نتيجة سوء التخزين، أو تعرُّضه لما يُفسد أوراقه، أو يزيل أحباره؛ يمثل تحدياً كبيراً أمام المحقق، وينبغي له أن يجتهد في تقدير ما ترتب على ذلك من سقَطٍ أو طمسٍ، فإن "وجود طمسٍ في المخطوط، أو تَلَفٍ نتيجة الرطوبة أو الإصلاح الجائر، أو غير ذلك؛ مما يقطع التواصل بين الجمل، ويضُرُّ بالمعنى والسياق، وتَقَعُ مثل هذه الصعوبة كثيراً في المخطوطات كلما تقادم تاريخ نسخها، أو لم تحتفظ بصورة مناسبة".³

¹ برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص 81.

² المرجع السابق، ص 260.

³ المرجع السابق، ص 253.

7. الخلل في ترتيب صفحات المخطوط:

من التحديات التي تواجه المحقق في نُسخ مخطوطه "الخلل في ترتيب الصفحات، فكثير من الكتب القديمة جُمعت من ملازم أو أوراق مفردة يسهل وقوع الخلل في ترتيبها، وتتعدّد هذه المشكلة عندما يأتي ناسخٌ آخر، فينقل عن أصلٍ محتلّ الترتيب، مع اختلاف في أوائل الصفحات ونهاياتها، فيصعب اكتشاف الخلل، ويحتاج لمهارة شديدة"¹، وتلحق بهذه المشكلة مشكلة السقط، "أي النقص في ثنايا الكتاب، وأحياناً يكون كلمة أو عبارة أو سطرًا أو عدة سطور، أو أكثر، ويفطن إليه المحقق بالسياق أو بعلامات معينة"².

الجزء التطبيقي

يتمثّل الهدف من هذا الجزء التطبيقي في رصدِ التحديات التي لم يستطع برنامج "سطور" - محل البحث - أن يتغلب عليها حتى اليوم، والمقارنة بينه وبين برنامجين آخرين من أفضل البرامج التي تنافسُهُ في مجال القراءة الضوئية للمخطوطات العربية، هما "زنكي" و"غوغل لنز". وتأتي هذه المقارنة بهدف بيان تفاوتِ البرامج الثلاثة في قدرتها على التعامل مع التحديات التي تواجه تحويل النصّ من صيغة الصورة إلى صيغة النصّ القابل للتحكّم فيه، ويمكن الإفادة في رصد تلك التحديات وتفسير أوجه القصور التي وقّعت فيها البرامج الثلاثة، مما ورد من تحديات أشار إليها المبحث السابق من البحث. ولتحقيق ذلك الهدف عَقَدَ البحث تجربتين للتحقق من قدرة البرامج الثلاثة على التعامل مع تلك التحديات؛ أولى التجريبتين جزئية، والثانية عامة، وفيما يأتي عرضُ التجريبتين ونتائجهما.

¹ الشافعي، بعض صعوبات تحقيق المخطوطات العربية، ص240.

² السابق نفسه.

التجربة الأولى الجزئية:

قراءةً صوتيةً لصفحة من مخطوط "كتاب السنن للإمام الشافعي رضي الله عنه"؛¹ أربع قراءات؛ إحداها قراءة بشرية من خبير في التحقيق، والثلاث الأخرى قراءات آليّة من البرامج الثلاثة، ثم فُورنت كلُّ قراءة آليّة بقراءة الخبير مقارنة بشرية، وتمثّل معيار الصواب والدقة في هذه التجربة في مطابقة القراءات الأربع ما وَرَدَ في المخطوط، لأن الهدف من هذه الخطوة ليس التصحيح والتحقيق، بل قياس قدرة الأنظمة الثلاثة على نَسْخِ المخطوط على ما هو عليه بدقة، وفيما يأتي بيان إجراءات التجربة.

أولاً: صفحة المخطوط²

شكل (5): صورة صفحة المخطوط المختارة للتجربة الأولى

¹ المخطوط من مقتنيات مكتبة الجامع الأزهر، برقم (22374 - حديث)، وهو بعنوان "كتاب السنن للإمام الشافعي"، برواية أبي إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى المزني، عنه رحمه الله، ثم رواية أبي جعفر أحمد بن محمد سلامة الأزدي الطحاوي، عنه رحمه الله، ثم رواية الشريف أبي القاسم الميمون بن حمزة بن الحسين الحسيني، رحمه الله، وقد كُتِبَ هذا المخطوط بقلم طه بن يوسف بن طه بن يوسف بن عامر، وأتمّه في رجب (1311هـ).

² الصفحة المختارة برقم (62) من إجمالي عدد صفحات المخطوط البالغ (144) صفحة.

ثانيًا: الخصائص الفنية للصفحة

استعمل الناسخ خطَّ الرقعة، وتميز بما يأتي:

- تسهيل الهمزة في أول الكلمة، سواء أكانت أول عَلمٍ، كما في (اسيد)، أم أول الفعل، كما في (ادركت)، أو اسم، كما في (ابن)، أي (أبي)، أو حرف، كما في (ان)، أي (أنَّ)، وقد تُسبق الهمزة بالفاء أو الواو، كما في (فاذنت، واخبرني).
- إهمال وضع نقطتين تحت الياء المتطرفة (الياء الشامية)، كما في (واخبرني، ابني، المنزني).
- الوقوع في السقط، فقد أغفل كلمة (فصليت)، وأضافها محقق الكتاب اعتمادًا على نسخة أخرى للمخطوط.
- زيادة بعض الأحرف في الكلمة زيادةً أدت إلى تغيير صورة الكلمة، ومن ثمَّ معناها، كما وقع في كلمة (أنا) في قوله: "قال انا المنزني"، وصوابها: "قال إن المنزني".
- تدخُّل بعض الحروف عند النسخ لضيق المساحة المتاحة لتكملة الكلمة، كما في (محدورة) في السطر الخامس، أو لمحاولة تجويد النسخ، وتوفير المساحة، كما في أغلب الكلمات التي وَقَع فيها خطأً في النسخ.
- إهمال كتابة ياء كلمة (شيء)، وكتابة الهمزة على ياء غير منقوطة (شيء).
- ضبط بعض الأحرف التي يرى الناسخ احتمالية الخلط فيها، كما في ضبطه تاء الفاعل في الكلمات (صَلِيْتُ، قَمْتُ، فَعَلْتُ، صَلِيْتُ)، أو ضبط بعض الأعلام، كما في (مُحْيِيْز، رَوَّاد، جُبِّيْر، يَزِيْد، مُعَاوِيَة)، وقد يضبط الكلمة ضبطًا تامًّا بنية وإعرابًا، كما في (لِرِسُوْل، بِن، يَزِيْد، تَعُدُّ)، وقد يأتي الضبط غير ذي جدوى في منع التباس فهم للكلمة، كما في (لِرِسُوْل، وَسَلَم، بِالصَّلَوَة)، في حين تَرَكَ كلمات أخرى كانت تحتاج إلى ضبط، ولا سيما الأعلام، كما في (عتاب، اسيد، جريج).

ثالثًا: قراءات المخطوط

1. قراءة الخبير البشري:

"لِرِسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدِمْتُ عَلَى عَتَابِ بْنِ أَسِيْدٍ عَامِلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَادْنَتْ مَعَهُ بِالصَّلَوَةِ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ

جريح: واخبرني ذلك من ادركت من آل ابي محذورة فمن ادرك ابا محذورة على نحو مما اخبر ابن مُحَيَّرِيز اخبرنا احمد قال انا المزني قال اخبرنا الشافعي رحمه الله عن عبد المجيد عن عبد العزيز بن ابي رَوَاد قال: اخبرنا ابن جريح قال اخبرني عمر بن عطاء بن ابي الخَوَارِان نافع بن جُبَيْر ارسله الى السائب بن يَزِيد بن اخت نمر يسأله عن شيء رآه من مُعَاوِيَةَ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ نَعَمْ صَلَّيْتُ مَعَ مُعَاوِيَةَ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ فَلَمَّا سَلِمَ قَمْتُ فِي مَقَامِي فَصَلَّيْتُ فَلَمَّا دَخَلَ ارسل الى فقال لا تَعُدُّ لِمَا فَعَلْتَ اِذَا صَلَّيْتَ الْجُمُعَةَ فَلَا تَصَلِّهَا بِصَلَاةٍ حَتَّى تَخْرُجَ اَوْ تَخْرُجَ فَان نَبِيَّ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اَمَرَ بِذَلِكَ لَا تُوَصَّلُ صَلَاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى تَخْرُجَ اَوْ تَكَلَّمَ".

2. قراءة برنامج "سطور":

"الرسول الله صلى الله عليه وسلم تقدمت على عتاب بن اسيد عاملو بمكة فاذنت معه بالصلوة عن او رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن جريح واخبرني ذلك من ادركت من ال ابي محذوف فمن ادرك ابا محذورة على نحو مما اخبر ابن محير بيزر اخبرنا احمد قال انا المزني قال اخبرنا الشافعي رحمه الله عن عبد المجيد عبد العزيز بن ابي رواد قال اخبرنا ابن جريح قال اخبرني عمر بن عطاء بن ابي الخوار ان نافع بن جبير ارسله الي السائب بن يزيد بن اخت نمر يسأله عن شيء رآه من معاوية في الصلوة فقال نع صليت مع معاوية الجمعة في المقصورة فلما سلمى قمت في مقامي فلما دخل ارسل الى فقال لا تعد لما فعلت اذا صلت الجمعة فلا تصلها بصلوة حتى تكلم او تخرج فان نبي الله صلى الله عليه وسلم امر بذلك لا نوصل صلوة بصلوة حتى تخرج وتكلم".

3. قراءة برنامج "زنكي":

"الرسول الله صلى الله عليه وسلم تقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فاذنت معه بالصلوة عن امر رسول الاله صلى الله عليه وسلم قال ابن جزيج واخبرني ذلك من ادركت من ال ابي محذو فمن أرك ايا محذورة على نحو مما اخبر ابن محيرين اخبرنا أحمد قال انا المزني قال أخيرنا الشافعي رحمه الله عن عيد المجيد عن عبار الغريز بن ابي رواد قال اخبرنا ابن خريج قال اخبرني عم بن عطاء بن الي الخواران نافع بن جبير ارسله الى

الايث بن يزيد بن أخت من لبيا له عن شيء راه من معاوية في الصلاة فقال نعم صليت مع معاونن الجمعر في المقصورة فلما سلم ثمت في مقامي فلما رخل ارسل الى فقال لا تقدا لما فعلت إذا صلبت الجمعة فل نصبها بصلوة حتى تكلم أو تخرج فان بني الله صلى الله عليه وسلم امر بذلك لا تفصل صلوة بصلوة حتى تخرج او تكلم".

4. قراءة برنامج "غوغل لنز":

"الرسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمت على عناب بن اسيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاذنت معه بالصلوة عزام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن جريج واخبرني ذلك من ادركت من الرابي محدودة في ادرك ايا محدورة على نحو مما اخبر ابن مخيرين اخبرنا احمد قال انا المزى قال اخبرنا الشافعي رحمه الله عن عبد المجيد عن عبد العزيز بن ابي رواد قال اخبرنا ابن جريج قال اخبرني عمر بن عطاء بن ابي الخواران نافع بن جبير ارساء إلى السائب بن يزيد بن أخت غرينا له عن متى رآه من معاوية في الصلاة فقال نع صليت مع معاوية الجمعة في المقصورة فلما سلم قمت في مقامي فلما دخل ارسل الخفقال لا تعد لما فعلت إذا صليت الجمعة فلا تصلها بصلوة حتى تكلم او تخرج فان نبي الله صلى الله عليه وسلم امر بذلك لا توصل صلوة بصلوة حتى تخرج او تكلم".

رابعاً: تحليل القراءات الآلية

1. الخصائص العامة للقراءات الآلية:

- (أ) تفاوت الالتزام بنقل فريدة الناسخ في بعض الظواهر الكتابية، وقد كانت لذلك صُورٌ، منها:
- التفاوت في تسهيل الهمزة أو تحقيقها، فالمخطوط التزم التسهيل، والتزم بذلك برنامجا "زنكي" و"غوغل لنز"، وخالفه برنامج "زنكي" في إثبات الهمزة في قراءة الكلمات (أسيد، أرك [أدرك]، أخبرنا، أحمد، أخت)، وأثبت برنامج "غوغل لنز" الهمزة في (أخبرنا، إلى).
 - تصحيح بعض الأخطاء الإملائية، فقد أسقط المخطوط الياء من كلمة (شيء)، وهي فيه (شيء)، ولكن حافظ برنامج "سطور" على صورة الكلمة الخطأ، وصححها برنامج "زنكي".

- التزم المخطوط تزكُ نَقْطِ الْيَاءِ الْمُتَطْرَفَةِ (الياء الشامية)، وقد تفاوتت البرامج في الحفاظ على ذلك، فكلمة (واخبرني) وردت في المخطوط غير منقوطة، وجاءت في برنامجي "سطور" و"زنكي" منقوطة (واخبرني)، وحافظ عليها برنامج "غوغل لنز" غير منقوطة، وكلمة (الشافعي) وَرَدَتْ فِي الْمَخْطُوطِ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ، وكذلك في برنامجي "زنكي" و"غوغل لنز"، ونَقَطَهَا بِرِوَايَةِ "سطور"، وَوَرَدَتْ كَلِمَةُ (أبي) فِي الْمَخْطُوطِ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ، وكذلك في برنامج "غوغل لنز"، ونَقَطَهَا بِرِوَايَةِ "سطور" و"زنكي".
- تغيير بعض اللزمات الكتابية العائدة إلى نَوْعِ الْخَطِّ، من مثل كلمة (صلاة)، فقد أثبتتها المخطوط (صلوة) بكتابة الألف واوًا، إشارة إلى أصلها، كما هي في الخط المصحفي العثماني، أما البرامج الثلاثة فقد غيَّرتَها إلى الكتابة العادية، وكذلك كلمة (أبي)، فقد جاءت الياء في المخطوط مكتوبة بطريقة عكسية، في حين كَتَبَهَا بِرِوَايَةِ "سطور" و"زنكي" بالطريقة التقليدية، وحافظ على طريقتها برنامج "غوغل لنز".
- (ب) تفاوتت الأنظمة الثلاثة في دقة قراءة الصورة على نحوٍ يطابق المخطوط، فقد بلغ إجمالي كلمات النص (151) كلمة، أخطأ برنامج "سطور" في (13) كلمة، أي بنسبة دقة (91.56٪)، وأخطأ برنامج "زنكي" في (31) كلمة، أي بنسبة دقة (78.58٪)، وأخطأ برنامج "غوغل لنز" في (19) كلمة، أي بنسبة دقة (88.97٪).

2. تحليل أخطاء القراءات الآلية:

- (أ) أربعة أخطاء تفرَّد بها برنامج "سطور"، هي:
 - (عاملو)، بدمج كلمتين، وَقَلْبِ الرَّاءِ وَوَاوًا، والصواب (عامل رسول).
 - (سلمى)، بزيادة أَلْفٍ آخِرَ الْكَلِمَةِ، والصواب (سلم).
 - (اوتخرج)، بدمج كلمتين، والصواب (أو تخرج).
 - (وتكلم) بدمج كلمتين، وإسقاط حَرْفٍ مِنَ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، والصواب (أو تكلم).
- (ب) (18) خطأ تفرَّد بها برنامج "زنكي"، هي:
 - (علياه)، بزيادة الألف، والصواب (عليه).
 - (أررك)، بتصحيف الدال راءً، والصواب (أدرك).

- (محدورة)، بتصحيح الذال دالاً، والصواب (محدورة).
- (اخير)، بتصحيح الباء ياءً، والصواب (أخير).
- (عيد)، بتصحيح الباء ياءً، والصواب (عبد).
- (عبار)، بزيادة الألف، وتصحيح الدال راءً، والصواب (عبد).
- (الغزيز)، بتصحيح العين غيناً، والصواب (العزير).
- (عم)، بإسقاط حَرْفٍ من الكلمة، والصواب (عمر).
- (ين)، بتصحيح الباء ياءً، والصواب (بن).
- (الايث)، بإسقاط السين، وتصحيح الهمزة المنبورة ياءً، وتصحيح الباء ثاءً، والصواب (السائب).
- (يزيدين)، بدمج كلمتين (يزيد، بن)، ثم تصحيح الباء ياءً، والصواب (يزيد بن).
- (معاونن)، بتصحيح الياء نوناً، والتاء المربوطة نوناً، والصواب (معاوية).
- (الجمعر)، بتصحيح التاء المربوطة راءً، والصواب (الجمعة).
- (ثمت)، بتصحيح القاف ثاءً، والصواب (قمت).
- (رخل)، بتصحيح الدال راءً، والصواب (دخل).
- (نقد)، بتصحيح العين قافاً، والصواب (تعد).
- (فل)، بإسقاط الألف، والصواب (فلا).
- (بني)، بقلبِ حَرْفٍ مكانِ حَرْفٍ، والصواب (نبي).
- (ج) ثمانية أخطاء تفرّد بها برنامج "غوغل لنز"، هي:
- (عنا ب)، بتصحيح التاء نوناً، والصواب (عتاب).
- (عزام)، بدمج كلمتين (عن، أمر).
- (الراي)، بدمج كلمتين (آل، أي).
- (في)، بإسقاط الميم، وتصحيح النون ياءً.
- (اخبرتي)، بتصحيح النون ثاءً.

- (إرساء)، بتصحييف اللام ألقًا، والهاء همزةً مفردةً على السطر، والصواب (أرسله).
- (متى)، بتصحييف الشين ميمًا وتاءً، والهمزة المنبورة آخر الكلمة ألقًا لينة، والصواب كما جاء في المخطوط (شيء).
- (الخفقال)، بدمج كلمتين (إلي، فقال)، مع تصحييف الياء المتطرفة غير المنقوطة خاءً.
- (د) أربعة أخطاء اشترك فيها برنامجا "سطور" و"زنكي"، هي:
- (جريح)، في الموضوع الأول من النصّ، قرأها برنامج "سطور" (جريح)، بتصحييف الجيم الثانية خاءً، وقرأها برنامج "زنكي" (جريح)، بتصحييف الراء زايًا.
- (جريح)، في الموضوع الثاني من النصّ، قرأها برنامج "سطور" (جريح)، بتصحييف الجيم الثاني خاءً، وقرأها برنامج "زنكي" (خريج)، بتصحييف الجيم الأولى خاءً.
- (صليت)، قرأها برنامج "سطور" (صلت)، بإسقاط الياء، وقرأها برنامج "زنكي" (صلبت)، بتصحييف الياء باءً.
- (توصل)، قرأها برنامج "سطور" (توصل)، بتصحييف التاء نونًا، وقرأها برنامج "زنكي" (تفصل)، بتصحييف الواو فاءً.
- (ه) خطآن اشترك فيهما برنامجا "سطور" و"غوغل لنز"، هما:
- (امر)، قرأها برنامج "سطور" (او)، بإسقاط الميم، وتصحييف الراء واوًا، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (عزام)، بدمجها مع الكلمة التي قبلها (عن)، وإسقاط الراء.
- (نعم)، قرأها البرنامجان (نع)، بإسقاط الميم.
- (و) ستة أخطاء اشترك فيها برنامجا "زنكي" و"غوغل لنز"، هي:
- (بمكة)، قرأها برنامج "زنكي" (بملة)، بتصحييف الكاف لامًا، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (مكة)، بإسقاط الباء.
- (أبا)، قرأها البرنامجان (أيا)، بتصحييف الياء باءً.
- (أبي)، قرأها برنامج "زنكي" (إلي)، بتصحييف الباء لامًا، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (ام)، محافظًا على الكيفية التي جاءت بها في المخطوط.

- (الخواران)، بدمج البرنامجين كلمتين في كلمة واحدة، والصواب (الخوران إن).
- (يسأله)، بفصل برنامج "زنكي" بين جزأي الكلمة، وجعلهما كلمتين منفصلتين (لياء له) بتصحيف الياء لأمًا، وتصحيف السين بَاءً وياءً، وجعل سائر الكلمة كلمةً مستقلةً (له)، وقد أسقط برنامج "غوغل لنز" الجزء الأول من الكلمة (يسا).
- (بصلوة)، قرأها برنامج "زنكي" (بصالوة)، بزيادة ألفٍ في الكلمة، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (بصلوة)، بتصحيف الباء ياءً.
- (ز) ثلاثة أخطاء اشتركت فيها البرامج الثلاثة، هي:
 - (محدورة)، في الموضوع الأول من النصّ، قرأها برنامج "سطور" (محدوف)، بتصحيف الراء والتاء المربوطة فاءً، وقرأها برنامج "زنكي" (محدو)، بتصحيف الذال دالاً، وإسقاط الراء والتاء، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (محدودة)، بتصحيف الذال دالاً، وتصحيف الراء دالاً.
 - (مُخَيَّرِيز)، قسّمها برنامج "سطور" إلى قسمين (مخير، بيزز)، بزيادة باءٍ، وقرأها برنامج "زنكي" (مخيرين)، بتصحيف الزاي نوناً، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (مخيرين)، بتصحيف الحاء خاءً، وتصحيف الزاي نوناً.
 - (نمر)، قرأها برنامج "سطور" (نمر)، بتصحيف النون تاءً، وقرأها برنامج "زنكي" (من)، بإسقاط النون، وتصحيف الراء نوناً، وقرأها برنامج "غوغل لنز" (غرينا)، بتصحيف النون والميم غيناً (غر)، ثم دمجها في نصف الكلمة اللاحقة (يساله)، بتصحيف السين نوناً.

التجربة الثانية العامة:

قراءة (15) صورة من (15) مخطوطاً، وذلك وفق الصواب الآتية:

- الاختيار العشوائي للمخطوطات والصفحات منها.
- القراءة الضوئية لكل صورة بالبرامج الثلاثة، مع قراءة من خبير في التحقيق.
- مراعاة أن تكون القراءة البشرية لخبير التحقيق مطابقةً للمخطوط.

- مضاهاة قراءة كلِّ برنامج مع القراءة البشرية لخبير التحقيق، وعدِّ أيِّ مخالفة لقراءة الخبير خطأً يُحسب على البرنامج، ويقلَّل من نسبة دقَّته.
 - المقارنة بين مستوى دقَّة البرامج الثلاثة لكلِّ مخطوط على حدة.
- وكانت نتائج التجربة وفق ما يأتي:

م.	اسم المخطوط	نسبة الدقة		
		سطور	زنكي	غوغل لنز
1	آكام المرجان في أحكام الجان	٪79	٪76	٪64
2	رسالة أحكام الفرس	٪78	٪78	٪80
3	كتاب متن الألفية في عالم العربية	٪67	٪49	٪40
4	نخبة الفوائد من عقد القلائد في حل قيد الشرائد ونظم الفرائد	٪86	٪79	٪75
5	كتاب الرسالة في الفقه	٪49	٪37	٪18
6	الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب مالك	٪70	٪55	٪63
7	الفوائد الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة	٪71	٪62	٪60
8	المنقذ من الضلال	٪61	٪50	٪58
9	منهاج الطالبين ومسالك الراغبين	٪79	٪62	٪66
10	بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج والطلاق	٪36	٪28	٪39
11	تحفة الأطفال بشرح تحرير تنقيح اللباب	٪70	٪56	٪60
12	حاشية الجوهري على ابن قاسم	٪68	٪61	٪62
13	خزانة الفقه	٪84	٪80	٪48
14	شرح العمدة في الأحكام في الحديث عن خير الأنام	٪55	٪49	٪32
15	عطية الرحمن في إرصاد الجوامك والأطيان	٪79	٪54	٪74

جدول (5): عناوين المخطوطات المختارة للتجربة الثانية ونسب الدقة في قراءتها

النسب	سطور	زنكي	غوغل لنز
المعدل	٪69	٪56	٪55
نسبة الدقة العظمى	٪86	٪80	٪80
نسبة الدقة الدنيا	٪36	٪28	٪18
الانحراف المعياري	٪13	٪14	٪16

جدول (6): نسب الدقة لكل من البرامج الثلاثة

وفيما يأتي عرضُ لقراءة برنامج "سطور" صفحات بعض المخطوطات، متبينة في

نسب دقتها:

1. نتائج متقدمة (85% وأكثر):

من مخطوط "نخبة الفوائد من عقد القلائد في حل قيد الشرائد ونظم الفرائد".

الا من بعد استكمال فرع وفي القية قال افضل صنوف الرجال في صلاة الجنزة اخرها وفي
وعبرها اولها اظهار للتواضع لتكون شفاعته ادعى الي القول وفيها ويكره لمضيح الجنزة رفع الصوت
بالذكر وقرأة القرآن وقال ايضا ما صورته لو كان التوم سبعة بصفتون ثلاثة صنوفهم
يتقدم واحد وخلفه ثلاثة وخلفهم اثنان وخلفهم واحد فرع وفيها ولو اجتمعت جنراين فالافراد
بالصلاة اولين من الجمع لانه تختلف فيه وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم على احد شهد احد وحدا ان
علي هذا فصل من كتاب الزكاة

الزكاة لغة عبارة عبارة عن الظهارة مرة وعن النماء اخرى وفي الشرع عبارة عن تملك جزء معين
من النصاب الجولي تغير مسلم غيرها شهي بشرط قطع المنفعة عن المملك من كل وجه لله تعالى
وجه الظهارة تطهير المخرج من الذنوب والنماء نمو المال بغير له حين مؤجل هل يجوز له اجد
اخذ الزكاة لم لا ذكر في شرح المط والعاقبان انه يجوز وراذ في الوقفات المسافر اذا كان له ما في وطنه
حل له اخذ الزكاة الي ان تعود كل اخذ الصفقة مقدار ما يبلغ به الي وطنه لانه محتاج اليه وفي زكاة
الوقفات محل لصاحب الدين اخذ الصفقة مقدار ما يبلغ الكفاية الي حلول الاجل وفي الوقفات
وعبرها لا ينبغي لاحد ان يسأل الناس وعنده قوت يومية لا السؤال لا يجوز الا للضرورة ولا ضرورة
فرع لو كان الدين حالا والعميون مصصرة لرب الدين اخذ الزكاة على الصحيح فرع فان كان من عليه
الدين موسا لكنه منكر للدين فان كان لرب الدين بينة عاتلة لا يحل له اخذ الزكاة وان لم يكن له بينة
عاتلة لا يحل حتى يبرح الامر الي القاضي فيحنه القاضي لان الوصول اليه ما بول فاذا حلفه الان يحل
قال وعلى هذا الدين الجود اذا لم يكن لصاحبه بينة عاتلة فرع قال في خلاصه الفتاوى رجل له
الف درهم وعليه الف درهم دار وخاله لغير التجارة قيمته عشرة الاف درهم لاركان عليه
وجوز اخذ الصفقة ومثله في الميسوط فرع قال في الوقفات رجل لا يحل له الصفقة فالافضل ان لا يند
جائزة السلطان لانها تشبه الصفقة ولا يحل له قبول الصفقة فكذا ما يشبهه قال وهذا اذا
ادى من بيت المال اما اذا ادى من مال موقوف له جاروا ما اذا كان فقيرا فان كان السلطان
ياخذ ذلك غصبا من الناس يحل له الاخذ وان كان باخذ غصبا فان كان لا يخطئه براهم اخرى لا يحل له
الاخذ لانه قوت ملك الغير وان كان يخطئه براهمه لا بأس به لانه صار ملكا له في قول ابي حنيفة عمر الله
حتى وجب عليه الحج والزكاة ويعور عنه وهو اوفق بالناس اذا مالهم قل ما يخلو من غصب فرع ذكر في
القية ان المال الحرام لا تجب فيه الزكاة بل تجب فيه التصديق بجمعيه ولو اخرجها بينة الزكاة عن ماله الحلال
يجزيه عند قوم ولا يجزيه عند ائمة احرابه انه ملكه بالقبض ويضمنه للمقبوض منه وجه عدم
الاجرا به ان علم صاحبه بوجوب ردة له التصديق به وان لم يعلم بحب التصديق بجمعيه عن مالكة ولا يحل
له اخراج بعضه عن نفسه ولو كان الخيث لصاحب لا يلزمه الزكاة لان الكلي واجب التصديق
وفي القية ما صورته عليه زكاة ودين وماله بقي باخذها بقضه دين الغريم ثم يودي حق الكريم
وفي الوقفات ان من اخر زكاة ماله حتى مرض فان لم يكن عنده مال واراد ان يستقرض فان
كان اكبر رايه انه اذا استقرض وادى الزكاة واجتهد لفظ الدين بقدر كان الاقل من يستقرض



2. نتائج متوسطة (75-85%):

من مخطوط "آكام المرجان في أحكام الجان".



عن معاذ وسأله الحافظ ابو نعيم عن الليث بن سعد عن عبد العرس عن عمه عن معاذ كما رواه ابن ابي الدنيا حدثنا محمد بن الحسين حدثني ابو الوليد الكندي ثنا كثير بن عبد الله ابوهاشم التميمي قال دخلنا على ابي رجا الصطادى فساناه هل عندك على من نحن من تابع النبي صلى الله عليه وسلم قبسم اذ انزلنا على العما وضربنا اجبتنا وذهبت اقبل فاذا انا بحية دخلت الخنا وهي تضطرب فجهت الى اداوتني فنصحت عليها من العما فسكيت حتى اذن مرزبان الرجل فقلت لاصحابي انتظروني حتى اعلم حال هذه الحية الي ما تصير فلما صلينا العصر ماتت فهدمت الى عيني فاخرجت منها خرقة بيضا فلقيتها وحفرت لها ودفيتها وسرنا بقية يومنا وليلتنا حتى اذا اصبحنا ونزلنا على العما وضربنا اجبتنا وذهبت اقبل فاذا انا باصوات سلام عليكم مرتين لا واحد ولا عشرة الامانة واكثر فقلت من اتم قالوا نحن الجن بارك الله عليك فلما اصطفتنا البها ما لا تستطيع ان تجازيك قلت ما استطعت اليكم قالوا ان الحية التي ماتت عندك كان ذلك اخر من يبلغ لمن يصح بايع النبي صلى الله عليه وسلم من الجن قلت ورواه الحافظ ابو نعيم قال حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر انا احمد ابن الحسن بن عبد الجبار ثنا بشر بن الوليد الكندي وقال فيه كل واحد لا عشرة الامانة ولا الفا اكثر من ذلك ن قلت وقد تقدم من اسماهم ما ذكره ابن دريد شاصره وماصره ونمشي " وماشي " والا فخطب وساق الحافظ ابوه بسنده عن ابن اسحاق قال واسما وهم فيما نكر لي حسا وما وشاصر وماصر وناصر واننا الازري والتين والاختصاص

3. نتائج ضعيفة (65-75%):

من مخطوط "الفوائد الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة".



بها شعار الرضخ الصريح من الست وغيره وقويت شوكة الرفض في الدنيا شرقا وعزيران بنو اسويرها بالظوب اللين وكان موضعها برية وتدبير تعرف يسير العظام هي الان خلق الركن المخلق بجوار الجامع الاقصر وكانت تعرق فدى ابي العظمة واخطب قعر الملك في وسط المدينة ترتب الفاه اله المفر وبوضعه الان خرابين السلاح القديمة والمأرستان الصفيق والمدارس وما قرب من ذلك ثم مرتبه القاهرة سبع حارات لام الواصلين صحبه استاذة المغرب من المغرب ثم يمر الجامع الازهر في سنة احدى وستين وثلاثمائة وفرغ من بنائه لسبع خلون من رمضان واقبمت فيه الجمعة وكتب دابر القبة التي في الرواق الاول وهي على عنة المحراب والمغرب ما نصح بعد البسملة الشريفة مما امر شا به عبد الله ووليه ابو تصيم بعد الامانة المفر لدين الله تعالى امير المؤمنين قباوله الله عليه وعلى ابيه وابائه بالاكرمين على يد عبده جوهر المفري الصقلي في سنوتين وثلاثمائة ولما وكى العزيز بن الفر جدد فيه وعمر به عدة اماكن قال الشيخ شمن الدين الجزرى في كتابه الحصان يقال ان به طلسم لا يسكنه عصفور ولا يفرح به وكذا ساير الطير الحالم والبيام وغيره على صورة لانه كانت كل صورة على راس عمود صورتهن ذلك المكان بالراق الخامس من الجهة الغربية وصورة في احد العمودين من استقبل سكن المؤمن والصورة الاخرى في الصحن بالعمدة القليلة مما يلي الشرقية وعلوا منارة في ايام المضاعف والحضر ادعوا الخرزى وكان له تصور ان قصه وسمين وعرون قديلا وكانت له اوقاف كثيرة وفيه اشيا غريبة فانما احترقته مصر في سنة اربع وستين وخمسا انه تفرقت هذه المعالم وجهلت واستمرت الخطبة في الجامع الازهر حتى بنى الجامع

4. نتائج مرفوضة (0-50%):

من مخطوط "كتاب الرسالة في الفقه"، بنسبة (49%).



من مخطوط "مختصر خليل"، بنسبة (39%).



من مخطوط "بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج والطلاق"، بنسبة (36%).



خاتمة

إثر مناقشته جوانب مشكلته البحثية، والتجارب التي أُجريت على صفحات من عدة مخطوطات عربية، حُلِّصَ هذا البحث إلى ما يأتي:

1. شهدت تقنية التعرّف الضوئي على الحروف العربية المكتوبة بخط اليد تطورًا ملحوظًا، يشجع على اعتمادها في المشروعات القومية لرقمنة تراثنا الممتدّ من الوثائق والمخطوطات العربية، ويدعو إلى مواصلة الاستثمار فيه من حيث إثراء قاعدة بياناته من التجارب الواقعية، وتمكين تقنيات الذكاء الاصطناعي من الإسهام في حلّ مشكلاتها.
2. تفاقمت البرامج الثلاثة في مستوى دقّتها في التعرّف على المحتوى النصّي لعينة التجربة، وفي طبيعة العثرات التي وقّعت فيها.

3. يمكن الاستفادة من تطبيقات الذكاء الاصطناعي - من مثل (Chatgpt4o) - في ترميم النصوص المقروءة آليًا بما يحسّن من نتائج تقنية (OCR)، ويزيد من فُرص اعتمادها.

4. الاستفادة من المخطوطات المحقّقة في إثراء قاعدة بيانات الحروف المكتوبة بخط اليد، وتصنيفها وفق خصائصها المختلفة، من مثل نوع الخطّ، والعصر الذي تنتمي إليه، والموضوع الذي تعالجُه، والناسخ، وغيرها من المتغيرات التي يمكن أن تفيد في ذلك، بالربط بين النصّ المحقّق ونسخ مخطوطه، ليتعلّم البرنامج منها، ويربط بين جميع أشكال الحرف وصورته الرقمية.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق: محمد أسعد طلس (بيروت: دار صادر، ط2، 1992).
- برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، إعداد وتقديم: محمد حمدي البكري (الرياض: دار المريخ، 1982).
- جميلة روقاب، "رقمنة الخط العربي ودوره في تحقيق المخطوطات: مشاريع تقنية وتحديات بشرية"، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، 2(8)، (2019).
- حسن الشافعي، "بعض صعوبات تحقيق المخطوطات العربية"، مجلة كلية دار العلوم، العدد (10)، (1980).
- حميد قريظلي، "صعوبات تحقيق المخطوط: قراءة الخطوط نموذجًا"، مجلة مالك بن نبي للبحوث والدراسات، 2(2)، (2020).
- شذى عبد الرحيم خليفة الرضي، "التعرف على النصوص باستخدام تعلم الآلة"، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، 3(11)، (2022).
- صديق بسو، "خوارزميات وبرامج التعرف الآلي على الخط العربي"، ملتقى التكنولوجيات الجديدة ودورها في صناعة اللغة العربية واستعمالها، المجلس الأعلى للغة العربية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، 17 مايو 2017.
- الصفدي، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق: السيد الشرقاوي (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1987).
- العسكري، التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه (القاهرة: مطبعة الظاهر، 1908).
- محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1984).
- مريم جلاط، "التصحيف والتحريف في النصوص المحققة"، المدونة، 7(1)، (2020).
- مولاي محمد، "نحو التحقيق الإلكتروني (الرقمي) للمخطوطات: استخدام تطبيقات تكنولوجيا المعلومات في تحقيق المخطوطات لدى الباحثين الجزائريين في مجال المخطوطات"، مجلة الحوار المتوسطي، 5(1)، (2014).

نسمة علي عبد الحميد، "استخدام تقنية (ICR) التعرف الذكي على الحروف المكتوبة بخط اليد في قراءة الوثائق والمخطوطات العربية، وانعكاس ذلك على مؤسسات حفظ التراث"، *الرزنامة*، العدد (20)، (2022).

هاشم فرحات، *دور تكنولوجيا المعلومات في ضبط المخطوطات العربية وإتاحتها: مراجعة علمية للإنتاج الفكري* (الرياض: جامعة الملك سعود، 2001).

برنامج ["زنكي"](#).

برنامج ["سطور"](#).

برنامج ["غوغل لنز"](#).

Connor Shorten & Taghi M. Khoshgoftaar, "A Survey on Image Data Augmentation for Deep Learning", *Journal of Big Data*, 6(1), (2019).

Jianqi Ma, Weiyuan Shao, Hao Ye, Li Wang, Hong Wang, Yingbin Zheng & Xiangyang Xue, "Arbitrary-Oriented Scene Text Detection via Rotation Proposals", *IEEE Transactions on Multimedia*, 20(11), (2018).

Palaiahnakote Shivakumara, Partha Pratim Roy & Umapada Pal, "Multi-Oriented Scene Text Detection in Video Based on Clustering and Distance Metric", *Pattern Recognition* 76, (2018).

Raymond W. Smith, "An Overview of the Tesseract OCR Engine", *Ninth International Conference on Document Analysis and Recognition (ICDAR 2007)*, Curitiba, Brazil, 2007.

Xintao Wang, Ke Yu, Shixiang Wu, Jinjin Gu, Yihao Liu, Chao Dong, Chen Change Loy, Yu Qiao & Xiaoou Tang, "ESRGAN: Enhanced Super-Resolution Generative Adversarial Networks", *Proceedings of the European Conference on Computer Vision (ECCV)*, 2018.

Zhongheng Zhang, "Introduction to Machine Learning: K-Nearest Neighbors, Regression, and Beyond", *Annals of Translational Medicine*, 7(7), (2019).

References

- Al-Aṣfahānī, *al-Tanbīh ‘alā Hudūth al-Taṣhīf*, Muḥammad As‘ad Ṭals (Ed.) (Beirut: Dār Ṣādir, 2nd Ed., 1992).
- Al-‘Askarī, *al-Taṣhīf wal-Taḥrīf wa-Sharḥ mā Yaqa‘u fīh* (Cairo: Maṭba‘ah al-Zāhir, 1908).
- Al-Ṣafadī, *Taṣhīḥ al-Taṣhīf wa-Taḥrīr al-Taḥrīf*, al-Sayyid al-Sharqāwī (Ed.) (Cairo: Maktabah al-Khānjī, 1st Ed., 1987).
- Bergsträsser, *Uṣul Naqd al-Nuṣūṣ wa-Nashr al-Kutub*, Muḥammad Ḥamdī al-Bakrī (Ed.) (Riyadh: Dar al-Mirrikh, 1982).
- Connor Shorten & Taghi M. Khoshgoftaar, “A Survey on Image Data Augmentation for Deep Learning”, *Journal of Big Data*, 6(1), (2019).
- Ḥamīd Qrītī, “Ṣu‘ūbāt Taḥqīq al-Makhtūṭ: Qirā’ah al-Khuṭūṭ Namudhajan”, *Majallah Mālik bin Nabī lil-Buḥūth wal-Dirāsāt*, 2(2), (2020).
- Ḥasan al-Shāfi‘ī, “Ba‘d Ṣu‘ūbāt Taḥqīq al-Makhtūṭāt al-‘Arabiyyah”, *Majallah Kulliyah Dar al-‘Ulūm*, (10), (1980).
- Hāshim Farḥāt, *Dawr Tiknulūjyā al-Ma‘lūmāt fī Dabṭ al-Makhtūṭāt al-‘Arabiyyah wa-‘Itāḥatihā: Murāja‘ah ‘Ilmiyyah lil-‘Intāj al-Fikrī* (Riyadh: King Saud University, 2001).
- Jianqi Ma, Weiyuan Shao, Hao Ye, Li Wang, Hong Wang, Yingbin Zheng & Xiangyang Xue, “Arbitrary-Oriented Scene Text Detection via Rotation Proposals”, *IEEE Transactions on Multimedia*, 20(11), (2018).
- Maḥmūd Muḥammad al-Ṭanāhī, *Madkhal ‘ilā Tārīkh Nashr al-Turāth al-‘Arabī* (Cairo: Maktabah al-Khānjī, 1984).
- Maryam Jalāt, “al-Taṣhīf wal-Taḥrīf fī al-Nuṣūṣ al-Muḥaqqaqah”, *al-Mudawwanah*, 7(1), (2020).
- Nasmah Alī Abdulḥamīd, “Istikhdām Tiqnyyah (ICR) al-Ta‘arruf al-Thakī ‘alā al-Ḥurūf al-Maktubah bi-Khaṭ al-Yad fī Qirā’ah al-Wathā’iq wal-Makhtūṭāt al-‘Arabiyyah wa-IN‘ikās thālik ‘alā Mu’assasāt Ḥifz al-Turāth”, *al-Ruznāmah*, No. (20), (2022).

- Palaiahnakote Shivakumara, Partha Pratim Roy & Umapada Pal, “Multi-Oriented Scene Text Detection in Video Based on Clustering and Distance Metric”, *Pattern Recognition* 76, (2018).
- Raymond W. Smith, “An Overview of the Tesseract OCR Engine”, *Ninth International Conference on Document Analysis and Recognition (ICDAR 2007)*, Curitiba, Brazil, 2007.
- Şaddīq Bisū, “Khuwārizmiyyah wa-Barnāmaj al-Ta‘arruf al-’Ālī ‘alā al-Khatt al-’Arabī”, *Multaqā al-Tiknulujiyyāt al-Jadidah wa-Dawruha fī Sinā‘ah al-Lughah al-’Arabiyyah wa-Isti‘malihā*, al-Majlis al-’A‘lā li-Lughah al-’Arabiyyah, Freres Mentouri University, Constantine, May 17, 2017.
- Shatha Abdulraḥīm Khalīfah al-Raḍī, “al-Ta‘arruf ‘alā al-Nuṣūṣ bi-Istikhdam Ta‘allum Al-’Ālah”, *Majallah al-’Ulūm al-’Insāniyyah wal-Ṭabī‘iyyah*, 3(11), 2022.
- Xintao Wang, Ke Yu, Shixiang Wu, Jinjin Gu, Yihao Liu, Chao Dong, Chen Change Loy, Yu Qiao & Xiaoou Tang, “ESRGAN: Enhanced Super-Resolution Generative Adversarial Networks”, *Proceedings of the European Conference on Computer Vision (ECCV)*, 2018.
- Zhongheng Zhang, “Introduction to Machine Learning: K-Nearest Neighbors, Regression, and Beyond”, *Annals of Translational Medicine*, 7(7), (2019).

[Google Lens.](#)

[Sotoor.](#)

[Zinki.](#)